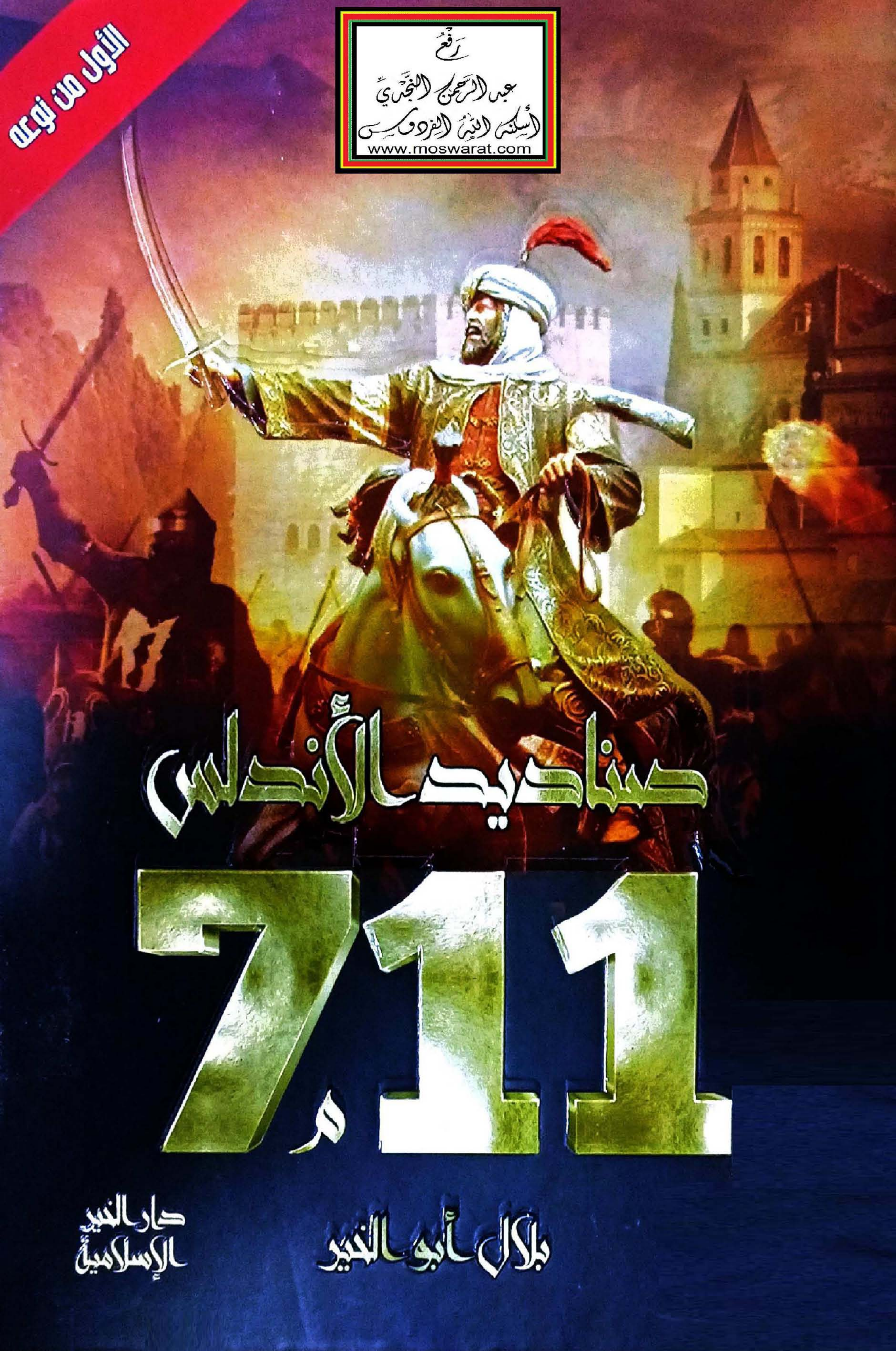
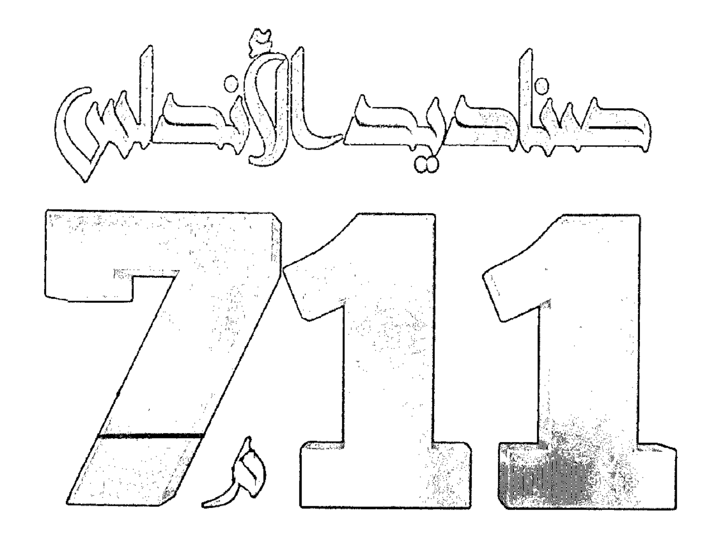
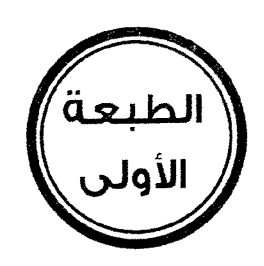


الأول من نوعه
رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com
صناديد الأندلس
711م
بلال أبو الخير
دار الخير الإسلامية



رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com


صناديد الأندلس
711 م



1440هـ - 2019 م

الترقيم الدولي

ISBN : 978-605-68014-1-9



تركيا
اسطنبول - الفاتح

هاتف : +902126353278 - جوال : +905319360750

Adres : Ali Kuşçu Mah. Yavuz Selim Cad. No : 48 Fatih / İstanbul 34083

Tel : +90 212 635 32 78 Gsm : +90 539 920 50 18 Gsm : +90 531 936 07 50

Email : info@darulhayr.com Facebook / Darulhayr

بسم الفتاح العليم بسم الله الرحمن الرحيم

تعالوا بنا أحبتي المتعطشين لقراءة التاريخ، تعالوا بنا نذهب برحلة قصيرة إلى بقعة من بقاع الأرض وبالتحديد إلى مغربها، ونسرد لكم قصص صناديد أفذاذ سطروا بدمائهم أمجاد التاريخ، وفتحوا أرضاً كان لها فيما بعد أثراً عظيماً على الأمة بأكملها، ومع الأسف كثيرون منا لايعرف عن هذه الدولة الإسلامية التي حملت راية الإسلام والمسلمين لأكثر من ثمانمئة عام هيّا بنا أيها الاحبة ...

أيّتها الأندلس ها قد بدأنا....

ثمانمئة عام هي مدة الوجود الإسلامي في شبه الجزيرة الإلبيرية، أو إسبانيا، أو الاسم الشهير لها الأندلس، ثمانمئة عام عاش المسلمون في الأندلس، وكان لهم من الرُّقِيِّ العلميِّ والعمرانيِّ ما لم يكن لأوروبا جميعها في تلك العصور، ثمانمئة عام كانت الأندلس منبعَ نورٍ، ومشعلاً حضارياً متميزاً تخرج منه الأبطال الصناديد، والعلماء الجهابذة، والفقهاء، والمُحدِّثون، والأدباء، والقرّاء، والنحويون، والشعراء، والأطباء، والمخترعون الأفذاذ.

والتراث الإسلامي حافلٌ بإنجازاتهم ومؤلفاتهم، فماتت أجسادهم، ولم تَمُتْ كتبهم التي تشهد على عباقرة أبطال، كما تشهد إسبانيا الآن على التراث العمراني الضخم الذي تركه المسلمون على أرضها من مساجد ومتاحف وقناطر وحصون، وتدلّ على عظمة وبراعة الباني والمصمم

والرسام والمهندس...

لقد كانت إسبانيا قبل فتح المسلمين لها تعيش تحت حكم القوط، وهم سكانها الأصليون، وكانت مثلها كباقي دول أوروبا تعيش في ظلمات الجهل، وظلم الأباطرة، وفساد الملوك.

كان فتح الأندلس سنة 93هـ 711م، في فترة كانت تعيش فيها الدولة الإسلامية أوج عظمتها وقوتها في ظل الخلافة الأموية، في عهد الوليد بن عبد الملك، وكانت جيوش الإسلام تغزو وتفتح البلاد شرقاً وغرباً.

وبهذا العمل أحببت أن أقدم نموذجاً جديداً للتاريخ الأندلسي الكبير، فقمت باحتواء جميع المراحل التي مرّت بها الأندلس عبر أهم وأعظم الشخصيات المؤثِّرة في هذا التاريخ، وعملت أيضاً على تزيينه بالصور والخرائط التوضيحية.

وأَكثَرُنا -وأنا كنت منهم قبل بدئي بهذا العمل- لا نعرف من هم هؤلاء الجهابذة الأفذاذ، وماذا قدموا للأندلس خلال ثمانمئة عام؟

ولقد قَسَّمتُ هذا الكتاب إلى خمسة عصور، وهي: عصر الولاة، وعصر الإمارة، وعصر الخلافة، وعصر ملوك الطوائف، وعصر المرابطين، وعصر الموحدين، وعصر ملوك غرناطة، وآخره عصر السقوط.

تعالوا بنا إخواني الأعزاء نلقي نظرة عامة وسريعة على جميع المراحل التي مرت بها الأندلس قبل بدئنا بقراءة الكتاب.

أولاً عصر الولاة، الذي يبدأ من الفتح الإسلامي سنة 93هـ، وهذا العصر شهد دخول القبائل العربية من قيسية ويمنية إضافة إلى البربر إلى الأندلس والعيش فيها، وقد تولّى الأندلس في هذه الفترة ولاةٌ تابعون للخلافة الأموية في دمشق، منهم من أراد متابعة الفتوحات نحو الشمال باتجاه فرنسا، فكانت أول محاولة للتقدُّم باتجاه هذه البلاد على يد السمح بن مالك الخولاني، ولعل المحاولة الأكبر كانت على يد عبد الرحمن الغافقي الذي أوغل في بلاد الفرنج حتى استشهد في معركة بلاط الشهداء (بواتييه) جنوب باريس سنة 114هـ.

وبدخول الأمير عبد الرحمن إلى الأندلس سنة 138هـ يبدأ عصر جديد في الأندلس، وهو عصر الإمارة الأموية، هذه الإمارة التي جعلت من مدينة قُرْطُبَة عاصمة لها، ولقد أسس عبد الرحمن الداخل دولة قوية امتدت حوالي ثلاثمئة عام، فعلى الرغم مما واجهه عبد الرحمن من محاولة العباسيين القضاء عليه، وعلى الرغم من خطر الإسبان في الشمال، وقلاقل المتمردين في جميع أنحاء البلاد، فقد استطاع مواجهة جميع هذه المخاطر، شهد له أعداؤه قبل أصدقائه بأنه من صناديد العالم، وبأنه صقر قريش بلا مُنازع، وقد خلف عبد الرحمن في الإمارة ابنه الأمير هشام سنة 172هـ الذي شُبِّهَ بعدله وورعه بأمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، ويعود الفضل للأمير هشام في انتشار المذهب المالكي في الأندلس والمغرب، إلا أن عهد الأمير عبد الرحمن بن الحكم كان بلا ريب هو العهد الذهبي لعصر الإمارة الأموية، فكانت القوة والعَظَمَة وأُبَّهَةُ المُلك قد ظهرت، وانتشرت الفخامة العمرانية في جميع

البـلاد، ولا سـيما قُرْطُبَـة، وظهـرت المواهـب العلميـة وإبداعاتُهـا، ولعـل أبرزهـا تجربـة المخـترع عبـاس بـن فرنـاس في الطـيران وغيرهـا الكثـير.

وبالدخـول إلى عـصر الخلافـة، وأول مـن لقـب بالخليفـة هـو الأمـير عبـد الرحمـن النـاصر، وقـد تـولى زمـام الأمـور بعـد وفـاة جـده سـنة 300هــ، والبـلاد يَسُـودُها الفـوضى والاضطـراب، فقـاد الجيـوش، وقاتـل جميـع مـن تمـرد عـلى دولتـه دون كلـل أو ملـل، إضافـة إلى غزواتـه في الممالـك الإسـبانية وتأديبهـا، ولمـا توطـدت أركان دولتـه سـنة 317هــ، لُقِّـب بأمـير المؤمنـين، وهـذا العـام هـو عـام الانتقال من عـصر الإمـارة الأمويـة إلى عـصر الخلافة، فعبـد الرحمـن النـاصر مـن أعظـم الشـخصيات في التاريـخ الأندلـسي، وقـد شـهدت الأندلـس خـلال فـترة حكمـه التـي امتـدت خمسـين عـام أكـبر حركـة علميـة وعمرانيـة، فأصبحـت قُرْطُبَـة تضاهـي بغـداد ودمشـق، وأصبحـت مركـزاً للعلـماء والمفكريـن، فـكان جامـع قُرْطُبَـة هـو الجامعـة الإسـلامية في الأندلـس الـذي تخـرج منهـا آلاف العلـماء، وكانـت مدينـة الزهـراء التـي بناهـا النـاصر هـي القاعـدة الملوكيـة الفخمـة التـي تناسـب هـذا الخليفـة العظيـم، والتـي تَوافَـد عليهـا رسـل ملـوك الغـرب مـن كل الأنحـاء يلتمسـون رضـاه، ويـودون صداقتـه، 366هــ.

ولا ننسـى أيضـاً عهـد الدولـة العامريـة بقيـادة الصنديـد الهـمام المنصـور بـن أبي عامـر، وقـد مثلـت فـترة المنصـور وابنـه التـي امتـدت حتـى سـنة 400هــ فـترة تَحَكُّـم الدولـة العامريـة بالخلافـة الأمويـة، فقـد كان المنصور هو الحاكـم الحقيقـي للدولـة، وهـذا الرجـل هـو مـن الشـخصيات العظيمـة

والكبيرة في التاريخ الإسلامي بشكل عام، والتاريخ الأندلسي بشكل خاص، فهو معروف بحنكته وسياسته، إلا أنه اشتهر بكونه قائداً عبقرياً غازياً، غزا الإسبان أكثر من خمسين غزوة لم يخسر فيها أبداً.

وندخل إلى العصر الذي يليه وقيام دول الطوائف، وعصرهم يُعرف بعصر ملوك الطوائف، حيث قامت في كل مدينة دويلة مستقلة، تتنازع الأراضي والنفوذ مع جارتها، فقامت في قُرْطُبَة دولة بني جهور، وقامت دولة بني عَبَّاد في إشبيليا، ودولة بني ذي النون في طُلَيْطِلَة، ودولة بني هود في سرقسطة، وبني زيري في غرناطة، وبني حمود في مالقة، وبني الأفطس في بطليوس، والعامريين ومواليهم في بلنسية ودانية، وبني صمادح في المرية.

ونأتي إلى عصر دولة المرابطين بقيادة الصنديد الصاعقة يوسف بن تاشَفِيْن، الذي استجاب لنداء إخوانه المسلمين في الأندلس عند تعرضهم للخطر الشديد من القشتاليين بقيادة الملك ألفونسو، فعَبَرَ بجيوشه إلى الأندلس، وانضمت معه ملوك الطوائف، وأبرزهم وكبيرهم المعتمد بن عَبَّاد، والتحم مع جيوش قشتالة في سهل الزلّاقة سنة 479هـ، فسميت المعركة بمعركة الزلّاقة، وهذه المعركة هي من أشهر المعارك الإسلامية في التاريخ، وكانت نصراً حاسماً للمسلمين، حيث أطال هذا النصر مقام المسلمين في الأندلس أربعمئة عام.

وبعد هذا العهد نأتي إلى عهد الموحدين، وتولي يعقوب المنصور الذي قام بحملة تأديبية كبيرة للممالك الإسبانية، بعد معركة الأرك الشهيرة

شمال قُرْطُبَة، وقد استطاع يعقوب المنصور هزيمة القشتاليين هزيمة ساحقة في هذه المعركة.

وبالدخول إلى عصر ملوك غرناطة ودولة بني الأحمر سنة 629هـ لم يبقَ للمسلمين في الأندلس سوى غرناطة ومالقة ووادي آش، إذ حاول الملك القشتالي إسقاط غراناطة لولا النجدة المرينية بقيادة السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني الذي عبر إلى الأندلس سنة 673هـ، وهزم القشتاليين وجيوشهم في عدة معارك، وأقام بنو مرين في غرناطة حاميةً من الجند المغاربة، وكان هذا آخر عصرٍ للمسلمين في الأندلس بعد سقوط غرناطة، سنة 897هـ حيث دخل ملك قشتالة إليها، وطرد منها آخر ملوكها من بني الأحمر، وهو أبو عبد الله الصغير الذي رحل إلى المغرب.

وبسقوط غرناطة ينتهي الحكم الإسلامي في الأندلس، وبقي المسلمون الإسبان الذين سُمُّوا فيما بعد بالموريسكيين، والذين قامت ضدَّهم أبشع الجرائم في تاريخ الإنسانية على يد محاكم التفتيش من أجل الارتداد عن دينهم، وبعد هذا الاضطهاد الكبير قام الموريسكيون بثورة في جبال البشرات قرب غرناطة بقيادة محمد بن أمية سنة 975هـ، وأوقعت هزائم كبيرة بالإسبان، إلا أن الإسبان تمكنوا من القضاء عليها، وأخذوا بعد ذلك يَعمَدون إلى سياسة التهجير والتغيير الديموغرافي ضد الموريسكيين المسلمين.

وبعد هذا التعريف السريع عن التاريخ الأندلسي أسال الله أن أكون

قد أضفت خدمة كبيرة بإنجاز هذا الكتاب لشباب أُمَّتي الذي يتوق لطعم الانتصار والتقدم.

وكما يقال: من يجهل التاريخ لا يفقه الواقع، ولا يحسن التخطيط للمستقبل.

اقرأوا التاريخ لعلكم ترتقون وتتقون....

حُرِّر في إسطنبول عاصمة الخلافة العثمانية

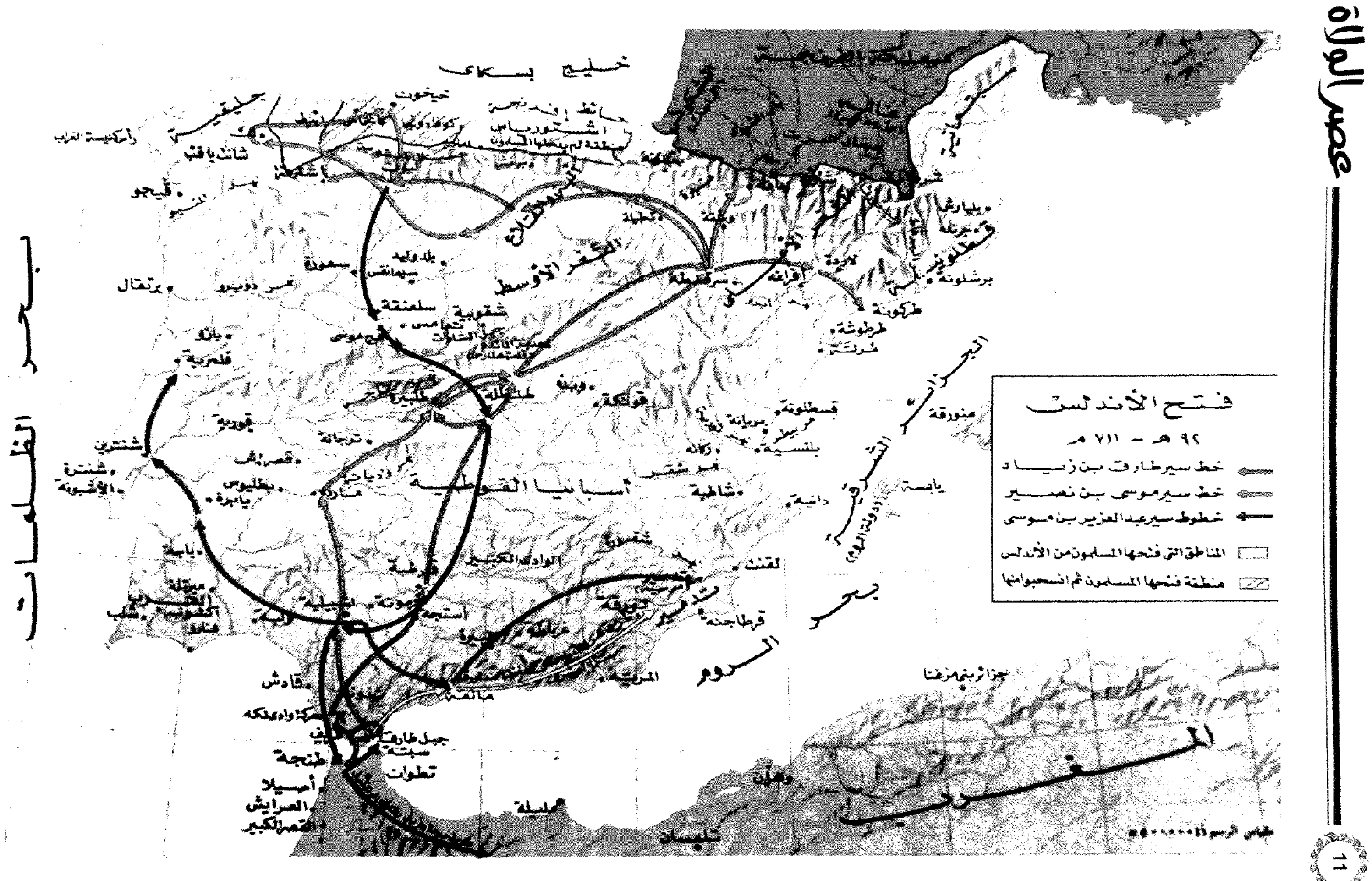
في 2019-2-10

بلال



عصر الولاة

* طارق بن زياد
* موسى بن نصير
* عبد العزيز بن موسى
* مغيث الرومي
* السمح بن مالك الخولاني
* عنبسة بن سحيم الكلبي
* عبد الرحمن الغافقي


فتح الأندلس
٩٢ هـ - ٧١١ م
خط سير طارق بن زياد
خط سير موسى بن نصير
خطوط سير عبد العزيز بن موسى
المناطق التي فتحها المسلمون من الأندلس
منطقة فتحها المسلمون ثم انسحبوا منها
خليج بسكاي
بحر الظلمات
بحر الروم
أسبانيا القوطية
الثغر الأوسط
المغرب
جبل طارق
سبتة
تطوان
طنجة
أصيلا
العرايش
القصر الكبير
قادش
مالقة
المرية
قرطاجنة
مليلة
وهران
تلمسان
جزائر بني مزغنا
طليطلة
سرقسطة
برشلونة
طركونة
طرطوشة
منورقة
يابسة
دانية
شاطبة
بلنسية
لقنت
شنترين
الأشبونة
بطليوس
يابرة
قورية
قلمرية
سلمنقة
سمورة
برتقال
شانت ياقب
سيمانقس
لاردة
افراغة
وبذة
ترجالة
ماردة
قصرش
قونكة



عصر الولاة

الصنديد الفاتح طارق بن زياد

670 - 720م

قد أحرق الرّبانُ كلَّ سفينةٍ مِنْ خلفهِ إلاّ شِراعُ رجاءِ
البحر خلفي والعدو إزائي ضاعَ الطّريقُ إلى السّفين ورائي

نعم لقد ضاع الطريق.. ضاع طريق الظلام والخمول.. ضاع طريق الكفر والفجور.. ووجدنا الطريق.. وجدنا طريق الفتح الطويل الذي غاص في عمق أوربا حاملاً لها رسالةَ سلامٍ ممزوجةً بهدي الإسلام... ومن هو الرسول؟! من ذلك الرسول الذي حمل الرسالة، وجعل لُجَّةَ البحر الزرقاء مركباً له.. تحمله الأمواج بأمانة تحفظها العناية الربانية... تلك العناية التي تَجَلَّت للفاتحين المبجلين...

رسالةً نخطها، وبأمانةٍ ننقلها، ونرسم بريشِ أقلامنا مجداً تليداً قد غاب في لُجج الليالي الطِّوال...

ابن زياد.. وما ابن زياد!! وما أدراك من ابن زياد... إنه طارق.. شهابُ الليل الثاقب.. طارق الفاتحُ البربري.. طارق بن زياد نسرد ما وصل إلينا من معلوماتٍ عنه في صفحاتٍ نسأل الله أن يكتب لنا بها القبول.

طارق بن زياد الليثي بالولاء، فاتح الأندلس، هو قائد عسكريّ أمويّ فتح الأندلس، وقاد أول الجيوش الإسلاميّة في شبه جزيرة أيبيريا، وانتصر في معركة وادي لكة، وهو من أشهر القادة العسكريين المسلمين في التاريخ، وسُمّي جبل طارق الواقع في جنوب إسبانيا نسبة إليه.

ولد طارق بن زياد عام 50 هـ في خنشلة في الجزائر، في قبيلة نفزة البربرية، وهو ليس من أصل عربي، بل هو من البربر الذي يسكنون بلاد المغرب العربيّ، وقد نشأ طارق بن زياد كباقي الأطفال المسلمين، فتعلم القراءة والكتابة، وحفظ بعض سور القرآن الكريم، والأحاديث النبويّة الشّريفة.

وذكرت بعض المصادر التاريخية بعضاً من صفات طارق بن زياد الشكلية، التي استخلص منها الدكتور محمد علي الصلابي الصفات الآتية التي تُظهر أنّها صفات بربرية، وهي أنّه كان طويلَ القامة، وضخمَ الجسم، وأشقر اللون. وأجمع أكثر المؤرِّخين على أنه بربري من نفزة، وأنه أُسر وأصبح مولىً لموسى بن نُصير، وأسلم بعد ذلك، وحَسُنَ إسلامه، وظهرت شجاعته ونجابته في الحروب التي خاضها موسى بن نُصير ضد من بقي من البربر في بلاد السوس أقصى المغرب.

وظهر طارق جندياً عظيماً انجلت شجاعته وبراعته في غزوات المغرب، فاختاره أميرها موسى بن نُصير حاكماً على طنجة بعد فتحها عام

89 هـ، وكانت في جوار طنجة مدينة سبتة الخاضعة لحكم القوطيين أصحاب الأندلس (إسبانيا حالياً) وكان حاكم سبتة ويدعى «يوليان» قد أضمر الشر لملك القوط «رذريق»، والسبب في ذلك أن رذريق وثب على المُلك في الأندلس، ولم يكن هو من بيت المُلك، وكانت ابنة يوليان عنده قد اشتكت منه إلى أبيها، فما كان من يوليان إلا أن اتصل بحاكم طنجة طارق بن زياد، وبأمير المغرب موسى بن نُصير، وقدم لهما الطاعة، وحَسَّنَ لهما بلاد الأندلس، وأغراهما بفتحها، ووعدهما بمدهم بالسفن اللازمة لعبور المضيق الذي سُمِّيَ فيما بعد بمضيق جبل طارق نسبة لهذا الفاتح العظيم.

وقصةُ اللقاء الأول بين طارق ويوليان أن طارقاً كان جالساً، فرأى مراكب قد رست أمامه، وخرج منها يوليان حاكم سبتة، فقال له طارق: ما الذي جاء بك؟ فقال له يوليان: إن أبي مات، فوثب على مملكتنا بطريق يقال له: رذريق، أهانني، وأذلني، وبَلَغَني أمركم فجئت إليكم أدعوكم إلى الأندلس، وأكون دليلاً لكم، فأجابه طارق إلى ذلك، وأرسل إلى موسى بن نُصير أمير المغرب بخبره بخبر يوليان.

وأرسل موسى بن نُصير إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك في دمشق يخبره بطاعة يوليان للمسلمين ويستأذنه بفتح بلاد الأندلس، فكتب الوليد إلى موسى: خضها بالسرايا، ولا تُغَرِّر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال.

فأرسل موسى أحد رجاله، ويدعى طريف بن مالك، ومعه أربعمئة

رجل، ومئة فارس، وساروا في أربعة سفن، فغزوا أحد جزر الأندلس التي سميت فيما بعد باسم صاحب الحملة «طريف»، ثم أغاروا على الجزيرة الخضراء، وعادوا سالمين بعد أن غنموا غنائم كثيرة، وبعد هذه السرية تشجَّع الناس، وأخذوا يتجهزون للغزو، وكان ذلك في أواخر سنة 91 هـ.

وبعد سرية طريف بن مالك التي تكلَّلت بالنجاح أَمَرَ موسى الأميرَ طارق بن زياد بالتجهز لفتح الأندلس، وكان مع طارق سبعة آلاف رجل أكثرهم من البربر والموالي، وأقلهم العرب، وكان يوليان يحمل جنود طارق في مراكب التجار التي تسير إلى الأندلس فوجاً بعد فوج لكي لا يشعر بهم أهل الأندلس، وكان آخر من ركب طارق وأصحابه، وظل يوليان بالجزيرة الخضراء، ونزل طارق جبلاً من جبال الأندلس، فسمي باسمه إلى يومنا هذا، وكان ذلك في شهر رجب سنة 92 هـ.

ويروى أنه لما ركب طارق البحر غلبه النوم، فرأى النبي صلى الله عليه وسلم ومعه المهاجرون والأنصار قد تقلدوا السيوف، وتنكّبوا القسي، أي حملوا سيوفهم ورماحهم وتروسهم، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: يا طارق تقدم لشأنك، وأمره بالرِّفق بالمسلمين، والوفاء بالعهد، فنظر طارق فرأى النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه قد دخلوا الأندلس أمامه، فاستيقظ من نومه مستبشراً، وبشر أصحابه، وقَوِيَت نفسه، ولم يشكّ في الظفر، ولما اكتمل جيشه بالجبل نزل إلى الصحراء، وافتتح الجزيرة الخضراء، وفارق الحصن الذي في الجبل،

ولما بلغ رذريق خبر طارق عظم عليه ذلك، وأخذ بجمع الجيوش لحرب المسلمين، فاجتمع له أكثر من مئة ألف مقاتل، وأرسل طارق إلى موسى يستمده، فأمده بخمسة آلاف فارس من البربر، فأصبح جيش طارق اثني عشر ألف مقاتل.

ولما بلغ طارق دُنُو جيش رذريق منه قام فخطب أصحابه، بعد أن حمد الله وأثنى عليه قال: أيها الناس أين المفر والبحر من ورائكم والعدو أمامكم؟ فليس لكم والله إلا الصدق والصبر، وأعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مآدب اللئام، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته وأقواته موفورة، وأنتم لا وزر لكم غير سيوفكم، ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيدي أعدائكم، وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم، ولم تنجزوا لكم أمراً، ذهبت ريحكم وتعوضت القلوب برعبها منكم الجرأة عليكم، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية، فقد ألقت به إليكم مدينته المحصنة، وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم بأنفسكم للموت، وإني لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة، إلى أن قال: واعلموا أني أول مجيب لما دعوتكم إليه، وأني عند ملتقى الجمعان حامل بنفسي على الطاغية رذريق فقاتله إن شاء الله، فاحملوا معي، فإن هلكت بعده فقد كفيتكم أمره، ولن يعوزكم بطل عاقل تسندون أمركم إليه، وإن هلكت قبل وصولي إليه فاخلفوني في عزيمتي هذه، واحملوا بأنفسكم عليه، واكتفوا المهم من فتح هذه الجزيرة بقتله، فإنهم بعده يخذلون.

ولما فرغ طارق من خطبة أصحابه وتحريضهم على الجهاد والقتال انبسطت نفوسهم، ولبَّوا دعوته ونداءه، والتقى الجمعان في رمضان عام 92 هـ، عند نهر لكة من أعمال شذونة، واستمرت الحرب ثمانية أيام، وكان على ميمنة وميسرة رذريق ولدا الملك الذي كان قبله وغيرهم من أبناء الملوك، فاتفقوا على الهزيمة بغضاً في رذريق وقالوا: إن المسلمين إذا امتلأت أيدهم بالغنائم عادوا إلى بلادهم، فانهزموا، وهُزم رذريق، ومات غرقاً في النهر، وسار طارق إلى مدينة أستجة متبعاً لهم، فلقيه أهلها ومن معهم من المنهزمين، فقاتلهم قتالاً شديداً حتى هزمهم، ولم يلقَ المسلمون بعدها حرباً أصعب منها، ونزل طارق على عين بينها وبين مدينة أستجة أربعة أميال، فسميت عين طارق إلى الآن، ثم بعث طارق الجيوش لفتح قُرْطُبَة وغرناطة ومالقة بعد أن أخلاها القوط الذين انسحبوا إلى ما بعد عاصمتهم طُلَيْطِلَة، وسار طارق ومعه معظم الجيش، ومعه يوليان حاكم سبتة باتجاه طُلَيْطِلَة، فدخلها بعد أن وجدها خالية إلا من سكانها اليهود، وقليل من النصارى، فأبقى على من أبقى من سكانها، وترك لأهلها عدة كنائس، وترك لأحبارها حرية إقامة الشعائر الدينية، وأباح للنصارى من القوط والرومان اتباع شرائعهم وتقاليدهم، ثم تابع زحفه شمالاً، فسار إلى وادي الحجارة، وقطع الجبل من فج فيه، فسمي هذا الفج بفج طارق إلى يومنا هذا، وانتهى إلى مدينة خلف الجبل تُسمى مدينة المائدة، وقيل: إنه اقتحم بعدها أرض جليقية بعد أن اخترق مملكتي قشتالة وليون في طرق صعبة، وأخذ يُطارد فُلول القوط حتى مدينة

استرقة، وعبر جبال استورياس، واستمر في سيره حتى أشرف على ثغر خيخون الواقع على خليج بسكونية، فكانت تلك المنطقة خاتمة زحفه، ونهاية فتوحاته، وَرَدَّتْه أمواج المحيط عن التقدُّم، فقفل راجعاً إلى طُلَيْطِلَة سنة 93هـ بعد أن أتاه أمر من موسى بن نُصير بوقف التوغل والعودة، ووافته الجيوش التي بعثها من أستجة بعد فراغهم من فتح المدن التي سَيَّرَهم إليها، وفي أثناء ذلك دخل موسى بن نُصير الأندلس بجيش كبير، وقدم يوليان إلى خدمته، ثم كان دليله في كثير من البلاد التي لم يفتحها طارق، وسار موسى إلى فتحها، وتوغل في مدائن الأندلس.

وورد كتاب لموسى وطارق من الوليد بن عبد الملك يأمرهما بوقف الفتح، ويستدعيهما إلى دمشق، ولعل أقوى البواعث التي حملت الوليد على هذا الاستدعاء ما نُمي إليه من خلاف بين موسى وطارق، وخوفه أن ينتهي هذا الخلاف بتفرق كلمة المسلمين ونكبتهم في تلك الأقطار، فركب موسى وطارق بعد أن وَطَّدا أمور الأندلس إلى دمشق عام 95هـ، ومعهما من الغنائم والنفائس ما لا يُحصى، ووصلا دمشق والخليفة الوليد بن عبد الملك في مرض موته، وتولى سليمان بن عبد الملك الخلافة بعد وفاة أخيه، فأحسن سليمان إلى طارق الذي بقي في دمشق.

وظهرت إنسانية طارق بن زياد من خلال رضاه بأن يكون دائماً في المرتبة الثانية بعد موسى بن نُصير، كما ظهرت إنسانيته في كثير من

المواقف خلال فتحه للأندلس، فقد كان وفياً، ولم يخن عهده مطلقاً، وكان له فضل كبير على اليهود في الأندلس، حيث إنّ ملك القوط أصدر قرارات تنص على تنصير كل من يصل سبع سنوات من أبناء اليهود، ومصادرة أملاكهم، فكان قيام طارق بفتح الأندلس سبيلاً لإنقاذهم، كما أنه كان صادقاً في العهود التي أعطاها لبعض المدن.

ولم تأتي المصادر الإسلامية بعد ذلك على أي ذكر لطارق، وعلى الأرجح أنه أمضى بقية حياته متفرغاً للعبادة بعيداً عن أمور السياسة، إلى أن تُوفِّي في دمشق، حيث عاش حوالي خمساً وأربعين سنة، ومات شاباً.

رحم الله القائد المسلم العظيم طارق بن زياد، وأسكنه فسيح جناته، فقد صنع لهذه الأمة أمجاداً استمرت لقرون كثيرةٍ بعد وفاته، وسيذكُر التاريخ إلى الأبد بطولات هذا القائد الفذ وتضحياته الكثيرة لنشر الإسلام عن طريق الفتوحات الإسلامية التي كان قائدها.

وقد خلَّد الشاعر المصري علي محمود طه، قصته في قصيدة مشهورة طويلة جاء فيها:

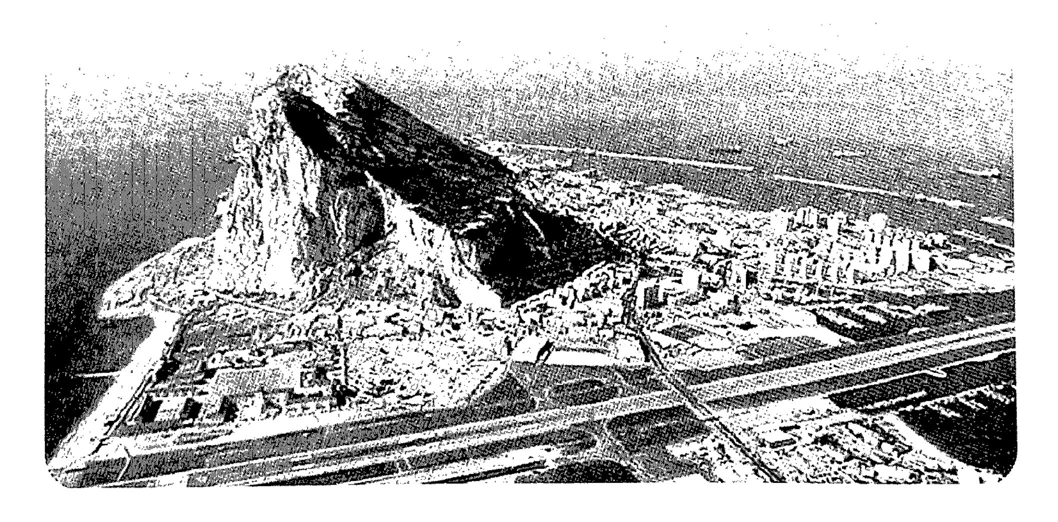
من علّم البدوي نشر شراعها وهَداهُ للإبحار والإرساء
أين القِفار من البحار وأين من جنّ الجبال عرائس الدّأماء؟
يا ابن القباب الحمر ويحك! من رمى بك فوق هذي اللّجة الزّرقاء
تغزو بعينيك الفضاء وخلفه أفق من الأحلام والأضواء

جـزر مـنـوّرة الـشّـغـور كأنّها قـطـرات ضـوء في حـفـاف إنـاء

والشّرق مـن بعد حـقـيـقـة عـالم والـغـرب مـن قـرب خـيـالـة رائي

ارتقـت روح الفاتـح طـارق بـن زيـاد الطاهـرة إلى ربهـا صافيـة.. ارتقـت تلـك الـروح إلى الخلـود الأبـدي في أكنـاف الرحمـة الإلهيـة.. ارتقـت روح طـارق، ودُفـنَ جسـده، وارتفـع اسـمه، فيذكـره المؤرخـون والكُتّـاب، ويدرسـه طـلاب الجغرافيـا إذا مـا مـروا عـلى مضيـق جبـل طـارق.. يقرؤون اسـم طـارق دون أن يعرفـوه!!

هذا هو طارق بن زياد..فهل عرفتموه ؟...



جبل طارق الواقع في جنوب إسبانيا

فتح الأندلس

٩٢ هـ - ٧١١ م

خط سير طارق بن زياد
خط سير موسى بن نصير
خطوط سير عبد العزيز بن موسى
المناطق التي فتحها المسلمون من الأندلس
منطقة فتحها المسلمون ثم انسحبوا منها

مملكة الفرنجة
خليج بسكاي
بحر الظلمات
البحر الشرقي
بحر الروم
المغرب
أسبانيا القوطية
الثغر الأوسط
برتغال
قلمرية
شنترين
الأشبونة
باجة
إشبيلية
قرطبة
مالقة
قادش
طنجة
سبتة
جبل طارق
تطوان
أصيلا
العرايش
القصر الكبير
مليلة
وهران
تلمسان
طليطلة
سرقسطة
برشلونة
طركونة
طرطوشة
بلنسية
شاطبة
دانية
قرطاجنة
لورقة
المرية
غرناطة
إلبيرة
أستجة
وادي آنة
ماردة
بطليوس
قصرش
سلمنقة
سمورة
بلد وليد
شقوبية
منورقة
يابسة
جزر بني مزغنا

عصر الولاة

الصنديد الوالي موسى بن نُصير

640 - 715م

لم يكن وحده حريصاً على تقدم الدولة الأموية التي تمثل دولة الإسلام في حقبتها، بل كان هذا طبعاً في نسله أباً عن جد، حيث خدم أبوه الدولة الأموية، وأخلص للخليفة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، ليتابع أبو عبد الرحمن الطريق ذاته، ويخدم دولة الإسلام المتمثلة بالأمويين في بلاد الأندلس، فمن ذاك العبد الذي أرسله الرحمن فاتحاً بجيوش المسلمين؟

إنه أبو عبد الرحمن موسى بن نُصير بن عبد الرحمن بن زيد اللخمي بالولاء، وهو أحد أبرز قادة الفتوحات الإسلامية، ومن رجال الدهاء والسياسة والحزم والعزم في عصر الدولة الأموية.

كان أبوه نُصير من موالي بني لخم، وقيل: إنه من بني لخم، وليس مولى، ويذكر أولاده أنه من بني بكر بن وائل، وغيرهم يقول: إنه مولى، وقد أُسِرَ في عين تمر في بداية الفتح الإسلامي للعراق سنة 12هـ بقيادة خالد بن الوليد في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنهم، وأسلم نُصير، وولد له موسى سنة 19هـ في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ودخل نُصير في خدمة معاوية بن أبي سفيان مع ولده موسى

عندما كان معاوية والياً على الشام، وأصبح على شرطته، وكانت منزلته عنده مَكِيْنَة، ويروى أنه لما حصل الخلاف بين معاوية وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما، وخرج معاوية لقتال علي، لم يخرج نُصير معه، فقال له معاوية: ما منعك من الخروج معي ولي عندك يد لم تكافئني عليها؟ (أي لي عندك نعمة) فقال نُصير: لم يُمَكِّنِّي أن أشكرك بكفر من هو أولى بشكري، فقال: ومن هو؟ قال: الله عز وجل، فأطرق معاوية ملياً، ثم قال: استغفر الله، ورضي عنه، وكانت ولادة موسى في قرية يقال لها: «كفر مترى» من قرى جبل الجليل في الشام، وقد نشأ في دار الخلافة بالشام، عند قادة الفتح ورجال الفكر، بكنف أبيه نُصير الذي يمتاز بالجرأة والصراحة والورع.

وقد حاز على ثقة معاوية بن أبي سفيان كوالده، فولّاه غزو قبرص في خلافته، فغزاها، وبنى بها عدة حصون، وكان نائباً عليها، وبعد موت يزيد بن معاوية سنة 64 هـ، شهد موسى وقعة «مرج راهط» بين الأمويين بقيادة مروان بن الحكم، وأنصار عبد الله بن الزبير بقيادة الضَّحَّاك بن قيس الفهري، وكان موسى من أنصار ابن الزبير، فلما هزم الضَّحَّاك وقتل، لجأ موسى إلى عبد العزيز بن مروان، فحماه عبد العزيز وأنقذ حياته، ثم كان معه عندما استولى مروان بن الحكم على مصر سنة 65 هـ، وجعل عليها ابنه عبد العزيز، فكان موسى وزيراً ومشيراً لعبد العزيز، وقد حاز على ثقته.

ولما استولى عبد الملك بن مروان على العراق، وولّى عليها أخاه بشر

بن مروان سنة 71 هـ، استدعى موسى ليكون مع بشر في تدبير شؤون العراق، فدفع بشر خاتمه إلى موسى، وجعل له شؤون الحكم كلها، وتُوفِّي بشر سنة 74 هـ، وتولى العراق الحجاج بن يوسف الثقفي، فعاد موسى إلى مصر ليكون مع صديقه عبد العزيز بن مروان.

وقد ذكر ابن الأثير في الكامل أن تاريخ تولية موسى بلاد المغرب كان سنة 88 هـ في خلافة الوليد بن عبد الملك، وكان الوالي على مصر عبد الله بن عبد الملك، وتولية موسى كان بأمر من عبد الله حيث جرت العادة في الدولة الأموية أن ولاية المغرب كانت تتبع ولاية مصر، وعندما قدم إلى القيروان -وهي مقر ولايته- واجتمع حوله الجند، قام خطيباً في الناس، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: إنما أنا رجل كأحدكم، فمن رأى مني حسنة فليحمد الله، وليحضّ على مثلها، ومن رأى مني سيئة فلينكرها، فإني أخطئ كما تخطئون، وأصيب كما تصيبون، وقد أَمَرَ الأمير -أكرمه الله- لكم بعطاياكم وتضعيفها ثلاثاً، فخذوها هنيئاً مريئاً، ومن كانت له حاجة فليرفعها إلينا، وله عندنا قضاؤها على ما عَزَّ وهَانَ، مع المواساة إن شاء الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وهكذا أنجز موسى تحضيراته الإدارية والعسكرية، قبل أن يبدأ بحملته لإخضاع ما تبقى من بلاد المغرب، وكان البربر قد طَمِعُوا في البلاد بعد مسير حسان بن النعمان إلى بلاد الشام، وقد جمع موسى الناس، وألقى بهم خطاباً، وضَّح فيه سياسته العامة في الفتح القائمة على قتال

العدو القريب أولاً، حتى إذا انتهى من أمره تغلغل بعيداً بالتدريج لقتال العدو البعيد، وكان أول ما بدأ به هو استعادة جبل زغوان وما حوله، وبينه وبين القيروان مسيرة يوم كامل، وكان قد اعتصم بهذه الجبال عدد من قبائل البربر، فبعث موسى بجيش تمكَّن فيه من إنهاء تمرُّدِهم، كما وجه ابنه عبد الله وابنه الآخر مروان، فأخضعا من خرج عن الطاعة من البربر في عدة نواحٍ من بلاد المغرب الأوسط والأقصى، وجعل من مدينة القيروان وما حولها قاعدة قوية ينطلق منها إلى مختلف البلاد وهو مطمئن على خطوط مواصلاته.

ثم إن إفريقيا قحطت واشتد الغلاء بها، فاستسقى بالناس، وخطبهم ولم يذكر الوليد بن عبد الملك (أمير المؤمنين)، فقيل له في ذلك، فقال: هذا مقام لا يُدعَى فيه لأحد، ولا يُذكَر إلا الله عز وجل، فسُقِي الناس، ورخصت الأسعار، ثم خرج غازياً إلى طنجة يريد من بقي بها من البربر، فهربوا خوفاً منه، فتبعهم، وقتلهم قتلاً ذريعاً، حتى بلغ السوس الأدنى، وبلاد سجلماسة، لا يدافعه أحد، فاستأمن إليه البربر، وأطاعوه، واستعمل على طنجة مولاه طارق بن زياد، وجعل معه جيشاً جُلُّهم من البربر الذين أسلموا، وجعل معهم من يُعلِّمُهم القرآن والفرائض، وبعد أن فرغ موسى من طنجة ووطد أمورها، تطلع لفتح سبتة، وكانت بيد يوليان عامل ملك القوط في الأندلس، وكانت قد حصنت تحصيناً منيعاً.

وعاد موسى بعد ذلك إلى القيروان، بعد أن أتم فتح بلاد المغرب عدا

سبتة، وغنم من الأموال ما لا يُحصى، وله بها وقائع مشهورة هائلة، وأسلم أهل المغرب على يديه، وبث فيهم الدِّينَ والقرآن، فكان يأمر العرب أن يُعلِّموا البربر القرآن، وأن يُفقِّهوهم بالدين، فلم يبق في إفريقيا من ينازعه.

كما أبدى اهتمامه في الغزوات البحرية، وصناعة السفن من أجل ذلك، وكان هدفه تأمين السواحل المغربية من غزو الروم وغيرهم، وأنشأ في تونس داراً عظيمة لصناعة السفن، وشق قناةً بطول اثني عشر ميلاً بين الميناء ودار الصناعة، فصارت مشتىً للمراكب إذا هبت الرياح والعواصف، وقد قام بعدة غزوات بحرية، حيث أمر الناس بالتَّجهُّز لركوب البحر، وأعلمهم أنه راكب بنفسه، وولى ابنه عبد الله بن موسى على أول غزوة، فغزا صِقِلِّيَة وافتتح مدينة فيها، ثم افتتح جزيرتي ميورقة ومنورقة بين صِقِلِّيَة والأندلس.

وقد ذكرنا أن موسى بعد أن افتتح طنجة سنة 89هـ ولَّى عليها طارق بن زياد أحد مواليه وقادته، وقد حاول فتح سبتة التي كانت بيد القوط فامتنعت عليه، وكان أمير سبتة «يوليان» في خلاف مع ملك القوط في الأندلس «رذريق»، فاتصل يوليان بأمير طنجة طارق بن زياد، وحَسَّنَ له الاستيلاء على بلاد الأندلس لكي ينتقم من رذريق، فأرسل طارق إلى الأمير موسى يخبره بخبر يوليان، ويقال: إن موسى قدم إلى سبتة، فالتقى شخصياً بيوليان الذي عرض عليه تسليمُ سبتة، وفَتحُ إسبانيا، وتسخيرُ مراكبه لجيش المسلمين.

وقد اهتم موسى اهتماماً بالغاً في عرض يوليان، ودرس واقع الأندلس وما تُعانيه في ذلك الوقت من ضعف وانحلال، ورأى ما يعرضه يوليان من تسليم سبتة، وتقديم سفنه لنقل المسلمين في البحر، ومعاونته بجنده وإرشاده، وأن الفوز ميسور ومحقق، فكتب إلى الوليد بن عبد الملك في الشام يُخبِره بأمر الفتح، فأجابه الوليد بأن يَختَبِرها بالسرايا (أي الحملات الصغيرة)، وألا يغامر بالمسلمين في أهوال البحر، علماً بأن المسلمين في عهد موسى قد غزو في البحر جزراً كثيرةً، وأن عبور المضيق إلى الأندلس كان شيئاً سهلاً بالنسبة لهم، والمقصود أن موسى استجاب لأمر الوليد بن عبد الملك، فأرسل أحد أمرائه ويدعى طريف بن مالك في أربعة سفن من سفن يوليان، فغزا الجزيرة الخضراء، وأصاب منها غنائم كثيرة، ورجع سالماً.

وفي شهر رجب من سنة 92 هـ جهَّز موسى سبعة آلاف مقاتل جُلُّهم من البربر مع طارق بن زياد للعبور إلى الأندلس وفَتحِها، فَعَبَرَ طارق بسفن يوليان، ثم أمده موسى بخمسة آلاف مقاتل لمواجهة رذريق ملك القوط، واستطاع طارق الانتصار على رذريق وقتله في معركة وادي لكة سنة 92 هـ، على الرغم من ضخامة جيش رذريق البالغ عدده نحو مئة ألف مقاتل، وبعد هذه المعركة تابع طارق سيره متوغلاً حتى وصل إلى طُلَيْطِلَة عاصمة القوط، فافتتحها، ثم تجاوزها حتى وصل أرض جليقية على ساحل المحيط، وانزعج موسى من تَوغُّلِ طارق السريع في تلك البلاد، وذلك لخوفه على أرواح المسلمين، فقد ينكب المسلمون إذا توغلوا في أراضٍ ومسالك مجهولة، فأرسل إلى

طارق يخبره أن يتوقف عن التَّوغُّل ريثما يعبر إليه بجيوشه لاستكمال الفتح، وفي سنة 93هـ 712م عبر موسى البحر في عشرة آلاف من العرب، وثمانية آلاف من البربر في سفن قد صنعها خصيصاً لذلك، وهو مُتَشَوِّقٌ للفتح على الرغم من شيخوخته، ونزل بالجزيرة الخضراء، حيث استقبله يوليان، وبدأ موسى زحفه بالاستيلاء على مدينة شذونة، ثم سار إلى قرمونة، وهي من أمنع معاقل الأندلس، فاستولى عليها بمعاونة يوليان وأصحابه، ثم قصد إشبيليا، وكانت من أعظم قواعد الأندلس، فافتتحها بعد أن حاصرها شهراً، ثم سار إلى ماردة، فحاصرها مدة، وقُتِلَ تحت أسوارها جماعة من المسلمين بعد أن نصب لهم النصارى كميناً، وانتهت بالتسليم في رمضان سنة 94 هـ، على أن تكون أموال الغائبين والكنائس غنيمة للمسلمين دية لمن قُتِلَ منهم، ثم قصد طُلَيْطِلَة، فالتقى بطارق على مقربة منها، وكان قد سار إلى استقباله.

ووضع الاثنان الخطة لافتتاح ما بَقِيَ من إسبانيا، ثم زحفا نحو الشمال الشرقي، واخترقا ولاية أراجون (الثغر الأعلى)، وافتتحا سرقسطة وبرشلونة وغيرها من المدن والمعاقل، ثم افترقا، فتوجه طارق نحو الغرب ليغزو جليقية، ويقضي على فلول القوط، بينما توجه موسى شمالاً فاخترق جبال البرنيه، واستولى على قرقشونة وأربونة، ثم نفذ إلى مملكة الفرنج، وغزا وادي الرون حتى وصل مدينة ليون الفرنسية، فاضطرب أمراء الفرنج، وأخذوا بالاستعداد لرد المسلمين، ويقال: إن أول المعارك التي وقعت بين المسلمين والفرنجة كانت في تلك

السهول قرب أربونة، وهنا فَكَّرَ موسى بكل جرأة أن يخترق بجيشه جميع أوروبا غازياً، وأن يصل إلى الشام عن طريق القسطنطينية، وأن يُحوِّلَ البحر المتوسط إلى بُحيرة عربية إسلامية، فكانت خطته أن يخترق مملكة الفرنج بجيش ضخم، وبأسطول من البحر فيفتتحها، ثم يقصد إيطاليا فيستولي عليها بعد أن يفتح معقل الروم القديم (روما)، ثم يتابع سيره حتى يصل إلى سهل الدانوب وبلاد البلغار فيفتتحها، ثم يحاصر القسطنطينية ويفتتحها، ويأتي دار الخلافة بالشام من طريق آسيا الصغرى (بلاد الأناضول) فيصل بذلك أملاك الخلافة الإسلامية فيما بين المشرق والمغرب عن طريق الشمال، كما اتصلت من طريق الجنوب.

ولم يك ثمة ما يَحُوْل دون تنفيذ هذا المشروع الضخم، فقد كان الإسلام في ذِروة القوة والبأس والفُتُوَّة، وكانت جيوشه تقتحم أرجاء العالم القديم أينما حلت، إلا أن سياسة الإحجام والتردد التي اتَّبعتْها الخلافة الأموية في الفتوحات الغربية، والتي كادت أن تَحُوْل دون فتح الأندلس، أودت بذلك المشروع العظيم، فكتب الوليد بن عبد الملك إلى موسى بن نُصير يُحذِّرُه من التَّوغُّل بالمسلمين في دروب مجهولة، ويأمره بالعودة، فارتدَّ موسى مرغماً آسفاً، ولكنه تمهل في العودة حتى يتم إخضاع معاقل جليقية التي اعتصم بها فلول القوط، ويُطهِّرَ إسبانيا بأسرها من كل مقاومة قُوطية، وبينما كان موسى يلاحق تلك الفلول، إذ أتاه كتاب آخر من الوليد بن عبد الملك يستدعيه إلى دمشق مع طارق بن زياد، وفي هذه الأثناء كان عبد العزيز بن موسى قد افتتح

منطقة الساحل بين مالقة وبلنسية.

وبعد الرسالة التي اتته من دار الخلافة استخلف موسى على الأندلس ابنَه عبد العزيز، وعلى المغرب ابنَه عبد الله، وغادر الأندلس ومعه طارق إلى الشام في سنة 95 هـ، ومعه من التُّحَف والنفائس والغنائم ما لا يُقَدَّرُ ولا يُوصَف.

وصل موسى إلى دمشق، ومعه طارق، وكان الوليد بن عبد الملك في مرض موته، فيقال: إنه التقاه، وسلم إليه الأخماس والغنائم، وقيل، إنه وصل إلى دمشق بعد وفاة الوليد، وتولّي سليمان بن عبد الملك الخلافة، ويقال: إنه في أثناء مرض الوليد كتب وليُّ عهدِه سليمانُ إلى موسى يأمره بالبطء بالمسير على الشام ريثما يموت الوليد، ويستلم سليمان الأخماس والغنائم، إلا أن موسى عَجَّلَ بالسير، ووصل إلى دمشق قبل وفاة الوليد، فحنق سليمان على موسى، ولما تولى الخلافة غَرَّم موسى بأموال اتَّهمه بها، وألقاه في السجن، فاستجار موسى بصديقه يزيد بن المهلب بن أبي صفرة، وكان يزيد ذو مكانة كبيرة عند سليمان، فلم يزل بسليمان حتى عفا سليمان عن موسى، وأقر ابنَه عبدَ الله بن موسى على إفريقيا، وعبد العزيز على الأندلس.

وجعل سليمان موسى بن نُصير من مستشاريه عندما أراد إرسال الجيوش لفتح القسطنطينية بقيادة أخاه مسلمة بن عبد الملك، وقد أشار موسى على مسلمة بفتح البلاد تِباعاً حتى يصل القسطنطينية، وكان رأي مسلمة أن يحاصرها براً وبحراً حتى يُسقطها، فإن سقطت

سقطت معها بلاد الروم قاطبة، ويروى أيضاً أن سليمان قال لموسى: ما الذي كنت تفزع إليه عند حروبك ومباشرة عدوِّك؟ فقال موسى: كنت أفزع إلى التضرع والدعاء، والصبر عند اللقاء. قال: فأي الخيل رأيتها في تلك البلاد أسبق؟ قال: الشقر. قال: فأي الأمم كانوا أشد قتالاً؟ قال: هم أكثر من أن أصفهم، قال: أخبرني عن الروم. قال موسى: هم أُسْدٌ في حصونهم، عقبان على خيولهم، نساء في مواكبهم، إن رأوا فرصةً انتهزوها، وإن رأوا غلبة فأوعالٌ تذهب في الجبال، لا يرون الهزيمة عاراً، قال: فأخبرني عن البربر، قال: هم أشبه العجم بالعرب لقاءً ونجدةً وصبراً وفروسية، غير أنهم أَغدَرُ الناس، لا وفاء لهم ولا عهد. قال: فأخبرني عن الأندلس، قال: ملوك مترفون، وفرسان لا يجبون. قال: فأخبرني عن الفرنج، قال: هناك العدد والعدة، والجَلَدُ والشدة، والبأس والنجدة، قال: فأخبرني كيف كانت الحرب بينك وبينهم، أكانت لك أم عليك؟ فقال موسى: أما هذه فوالله ما هُزِمَت لي راية قط، ولا بُدِّدَ جمعي، ولا نُكِبَ المسلمون معي، منذ اقتحمت الأربعين إلى أن بلغت الثمانين، فضحك سليمان، وعجب من قوله.

ولقد رافق موسى سليمان سنة 97 هـ في الذهاب إلى الحج، وكان موسى من أعلم الناس بالنجوم، فلما نزل بالمدينة، قال لبعض إخوانه: ليموتن بعد غدٍ رجل قد ملأ ذكره المشرق والمغرب، فظن الرجل أنه الخليفة، فمات موسى في اليوم الثاني، وصلَّى عليه مسلمة بن عبد الملك، وقد جاوز الثمانين رحمه الله .

كان موسى بن نُصير من أعظم رجال الحرب والإدارة في عصره، وقد ظهرت براعته الإدارية في جميع المناصب التي تَقَلَّدها، كما ظهرت براعته الحربية في جميع الحملات البرية والبحرية التي قادها، وخاصة في أثناء حُكْمِه للمغرب، حيث إن الدولة الإسلامية كانت تواجه شعباً شديد المراس، كثير الفتن، لذلك أبدى موسى في معالجة الفتن وقمعها كثيراً من الحزم والشدة، وكان رحمه الله فوق مواهبه الإدارية والعسكرية، غزير العلم والأدب، متمكِّناً في الفقه والحديث، عالماً بالفلك، مُجِيداً للنثر والنظم، ويُعدُّ من كبار التابعين، وإليه يرجع الفضل في عبور الإسلام إلى أوروبا من الغرب وقيام دولته بها.

عَبَرَ الإسلام إلى أوربا، وعَبَرَت أخلاقه ومآثره ومحاسنه، وعَبَرَ أبو عبد الرحمن إلى ربه تاركاً خلفه أمةً تَذكُر اسمَه ما بَقيَ فيها من هو على قيد الحياة.

رحمه الله تعالى، وأجزل عطاءه، ورضي عنه وأرضاه.

خيخون
المغارة (كابادولفا)
ليون
اشترقة
بمبلونة
الأبواب أو
وشفة
جبل البورتات
غاليش
بستمانية
اريونة
هيكل الزهرة
خبروما
لاردة
برشلونة
سرقسطة
طركونة
طلبيرة
طليطلة
بلنسية
ماردة
باجه
قرطبة
إشبيلية
البيرة
تدمير
ولبة
كنيسة الغراب
الجزيرة
مالقة
الخضراء
بحيرة حاورا
المرية
طريف
جبل طارق
طنجة
سبتة
المغرب
٢٥٠ كم
البحر الظلمات
البحر الشامي

مناطق لم تخضع للعرب
خط سير موسى
خط سير طارق
خط سير عبد العزيز

فتح الأندلس

عصر الولاة

الصنديد عبد العزيز بن موسى بن نُصير

97هـ - 716م

ينشا الصغيرُ على ما كانَ والدُه إنَّ العروقَ عليها ينبتُ الشَّجَرُ

ويقف المركب من جديد في عائلة نُصير، حيث الحفيد بعد الابن والجد عبد العزيز بن أبي عبد الرحمن موسى بن نُصير، مشى في الطريق الذي شَقَّهُ والده في بناء صرح الحضارة الإسلامية في الأندلس المجيد.

عبد العزيز بن موسى بن نُصير اللخمي بالولاء، قائدٌ فاتحٌ كوالده، ومن خيار الولاة وصلحائهم.

عبر المضيق مع والده لاستكمال فتح الأندلس الذي بدأه طارق بن زياد، وكان معهم ثمانية عشر ألف مقاتل، وقد اعتمد القائد موسى بن نُصير على ولده عبد العزيز في فتح بلدان كثيرة، ومنها إشبيليا التي جعلها مَقرّاً لولايته، ولبلة، ومنطقة الساحل بين مالقة وبلنسية، وغير ذلك من المعاقل والحصون، وقد أبدى عبد العزيز كثيراً من الرفقِ والتسامحِ مع أهل البلاد المفتوحة، والاعتدالِ في تطبيق الأحكام وفرض الضرائب، وخيرُ دليل على ذلك نص معاهدته مع تيودمير أحد أمراء القوط وهذا نصه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من

عبد العزيز بن موسى إلى تيودمير، أنه نزل على الصلح، وأنه له عهد الله وذمته، أن لا ينزع عنه ملكه، ولا أحد من النصارى عن أملاكه، وأنهم لا يقتلون ولا يسبون أولادهم ولا نساؤهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا تحترق كنائسهم، وأن الذي اشترط عليه أنه صالح على سبع مدائن، أوريوالة، وبلنتلة، ولقنت، ومولة، وبقسرة، وأنة، ولورقة، وأنه لا يأوي لنا عدواً، ولا يخون لنا أمناً، ولا يكتم خبراً عَلِمَه، وأنه عليه وعلى أصحابه دينار كل سنة، وأربع أمداد قمح، وأربع أمداد شعير، وأربع أقساط طلا، وأربعة أقساط خل، وقسطي عسل، وقسطي زيت، وعلى العبد نصف ذلك، كُتب في الرابع من شهر رجب سنة أربع وتسعين من الهجرة».

وكان عبد العزيز بن موسى رجلاً تقياً نقياً وحريصاً مع نشاطٍ وإقدام، كما كان إدارياً وعسكرياً ماهراً، وزيادة على حبِّه للإصلاح، وتلهُّفِه عليه بدأ ينظم أحوال البلاد، ويُتمُّ عمليات الفتح، وقضى على كثير من الجيوب المتبقية فأخضعها.

وبعد أن تمكن المسلمون من توطيد الدولة الإسلامية في هذه البلاد بدؤوا يعلِّمون الناس الإسلام، ولأن الإسلام دين الفطرة فقد أقبل عليه أصحاب الفِطَرِ السوية من الناس عندما عرفوه، فاختاروه بلا تردد، فلقد وجد الإسبان في الإسلام ديناً متكاملاً شاملاً يُنظِّمُ كلَّ أمور الحياة، ووجدوا فيه عقيدةً واضحة، وعباداتٍ منتظمة، ووجدوا فيه تشريعاتٍ في السياسة والحكم والتجارة والزراعة والمعاملات،

ووجدوا فيه تواضعَ القادة الفاتحين، ووجدوا فيه كيفيةَ التعامل والتعايش مع الأخ والأب والأم والزوجة والأبناء والجيران والأصدقاء، ووجدوا فيه كيفيةَ التعامل مع العدو والأسير، ومع كل الناس.

ويعدُّ عبد العزيز أول ولاة المسلمين في الأندلس بعد إتمام فتحها، وذلك عندما استخلفه أبوه عليها عندما استدعاه الخليفة الوليد بن عبد الملك مع طارق بن زياد إلى دمشق سنة 95 هـ، وقد ظَلَّ عبد العزيز في ولايته قرابة العامين، عمل فيهما على تحصين الثغور، وقمع الخروج والعصيان، وافتتح عدة أماكن وحصون، وأبدى اهتمامه بتنظيم الولاية الجديدة وإدارتها، كما أنشأ ديواناً لتطبيق الأحكام الشرعية وتنسيقها، لتوافق مشارب الرعايا الجدد، ولتجمع حولها كلمة المسلمين من مختلف القبائل، كما شَجَّعَ الزواج بين العرب والإسبان، فتزوج هو بالملكة «إيجلونا»، أرملة الملك رذريق ملك القوط المقتول في وادي لكة، وجعل من إشبيليا عاصمة لولايته، ووفد عليه المهاجرون من مصر والشام والعراق وفارس، فأحيوا بالأندلس سبل الصناعة والزراعة والتجارة، لكنه لم يستطع أن يوفِّق بين جميع القبائل، ولا أن يهدئَ من فورة الجند، ويقال: إن زوجته كان لها تأثير كبير في تدبير أمور الولاية، وأنها شَجَّعتْه على الاستقلال عن الخلافة الأموية في دمشق، وقد اتَّهمه خصومه بمحاولة الاستقلال عن الخلافة مُستغلِّين غضب الخليفة سليمان بن عبد الملك على أبيه موسى بن نُصير، وقد حَرَّضَ سليمان جندَ الأندلس على الخروج على عبد العزيز وقَتلِه، وكان وزيره حبيب بن أبي عبدة بن عقبة بن نافع الفهري قد تولَّى الإشراف على

قتل عبد العزيز، وعندما كان عبد العزيز في المحراب يُصلِّي، وكان قد قرأ فاتحة الكتاب، ثم سورة الحاقَّة، علاه من خلفه زياد بن عذرة البلوي بالسيف فقتله، وهو يقول: لقد حَقَّت عليك يا ابن الفاعلة، وحمل حبيب بن أبي عبدة رأس عبد العزيز إلى سليمان بن عبد الملك في الشام، فيقال: إن سليمان عرض رأس عبد العزيز على أبيه موسى وهو في محبسه، فتَجَلَّدَ لِحَرِّ المصيبة، وقال: هنيئاً له الشهادة، لقد قَتلتُم والله صوّاماً قوّاماً، وقَتلُ عبد العزيز يعدُّ من زَلّات سليمان بن عبد الملك، فلقد اتُّهم عبد العزيز بكثير من الاتهامات الباطلة، ومن ذلك أنه تأثّر بزوجته أرملة رذريق، حتى كاد يتنصر، وأنه أراد الاستقلال عن الخلافة والخروج عليها، لكن أعماله تدل على مدى إخلاصه لدولته وأُمَّتِه، وعلى عدله وصلاحه وإيمانه.

ومكث أهل الأندلس شهوراً لا يجمعهم والٍ، حتى اتفقوا على أيوب بن حبيب اللخمي ابن أخت موسى بن نُصير.

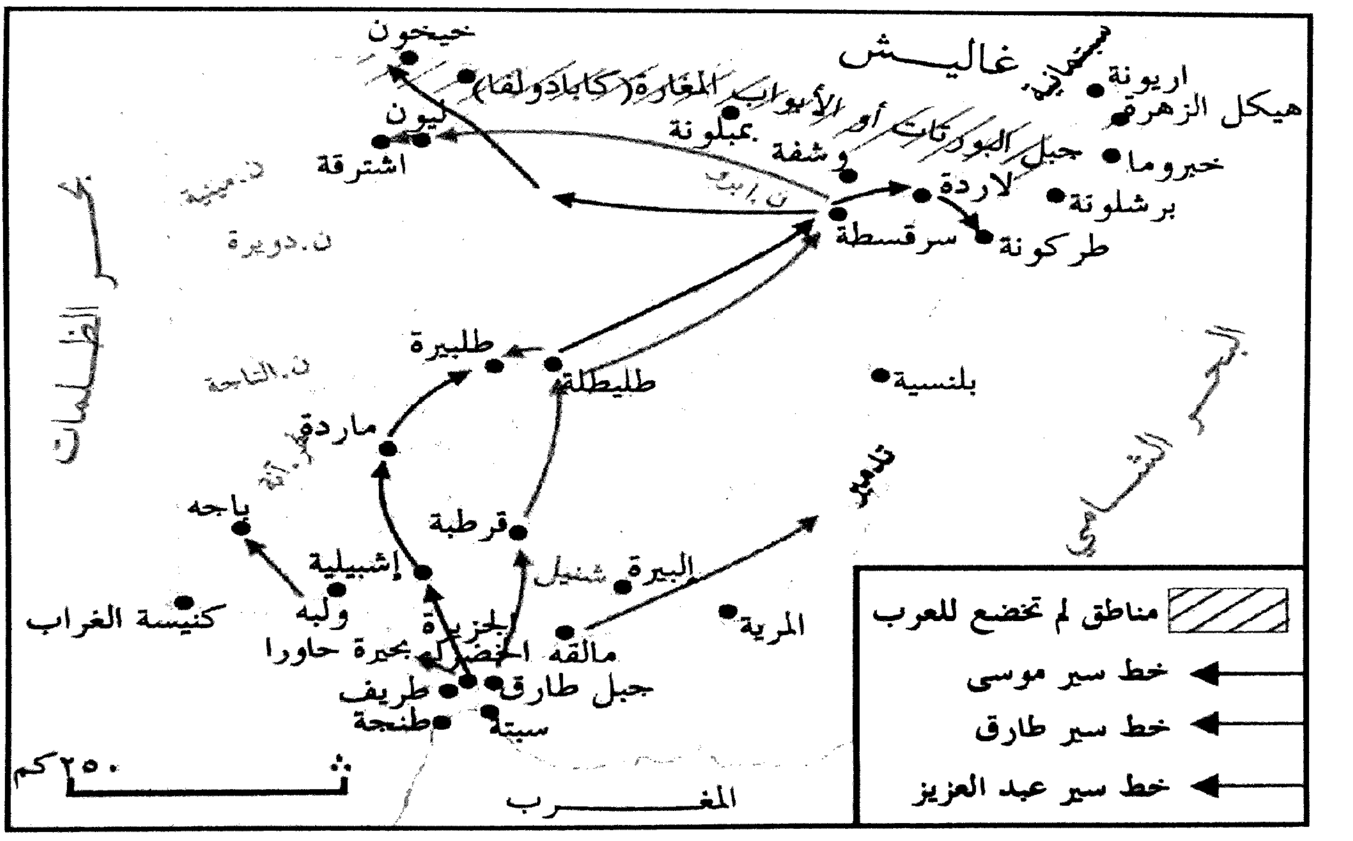
ويمثّل عصر الولاة في الأندلس التحول والانتقال إلى حياة جديدة وخيرة في التَّنَوُّر والامتداد في الغُروس الثابتة النيرة، وهو هدف أصيل، ومهمة تهدف الإنسان تنظيفاً وتنقيةً وإعلاءً وتكرمةً في كل ميدان، ليُحدث ازدهارُ الشجرة الطيبة التي تُؤتي أكلها يانعةً لوناً ساميَ السمت، غزيرَ الإنتاج، فريدَ المثال، وتكون هبة الله وهدايته نوراً مضياً في عَالَم الإنسان.

لقد قَتَلتم والله صوَّاماً قوَّاماً.. بهذه الكلمات عزَّى بن نصير نفسَه

برحيل ابنه عبد العزيز، أفنوا حياتهم في العمل في سبيل الله، وماتوا في ذلك، ولم ييأسوا رغم المصاعب والدسائس والمكائد، ووضعوا نُصب أعينهم قوله الله عز وجل: ((أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ)) [العنكبوت: الآية 2].



رسم تخيلي للفارس الأندلسي


خيخون
المغارة (كابادولقا)
ليون
اشترقة
غاليش
اريونة
هيكل الزهرة
خيروما
برشلونة
طركونة
لاردة
سرقسطة
وشقة
عملونة
الأبواب أو البورتات
جبل البورتات
ن.دويرة
ن.التاجة
بحر الظلمات
طلبيرة
طليطلة
بلنسية
ماردة
باجة
قرطبة
تدمير
البحر الشامي
إشبيلية
ولبة
كنيسة الغراب
البيرة
شنيل
المرية
الجزيرة الخضراء
بحيرة حاورا
مالقة
جبل طارق
طريف
طنجة
سبتة
المغرب
٢٥٠ كم
ث
مناطق لم تخضع للعرب
خط سير موسى
خط سير طارق
خط سير عبد العزيز

فتح الأندلس

عصر الولاة

الصنديد فاتح قرطبة مغيث الرومي

672 - 736م

صاحَ الدليلُ قد وصلنا قرطبة   قلتُ بلى كانت مناراً هاديا
سمعتهمْ يدعونها مُنذُ الصِبا   بحرٌ لعلمٍ أو لفنّ ساميا
الجامعُ الكبيرُ أضحى معْلماً   يروي لنا فنّ البناءِ الراقيا
أعمدةٌ سامقةٌ لا تنتهي   كأنها سيقانُ نخلٍ زاهيا
تزينها أقواسها في بهجةٍ   كأنها أمواج بحرٍ طاميا

هكذا وُصفت قُرْطُبَة بلسان شاعر مُتيَّم، يقول: إن الدليل صاح به «وصلنا قُرْطُبَة» فللّه درُّ من أوصلنا إلى قُرْطُبَة، وفتح لنا أبوابها لتصبح بعد ذلك منارةً لا تقل أهمية عن كبرى عواصم الخلافة الإسلامية، المغيث الذي أغاث الله به جموع المسلمين، وفتح قُرْطُبَة، مغيث الرومي، ولكل مسمىً من اسمه نصيب، هو مولى الوليد بن عبد الملك، أو مولى عبد الملك بن مروان، والصواب أنه مولى عبد الملك بن مروان، فهو الذي أدَّبه، فلما تُوفي عبد الملك وأصبح ابنه الوليد خلفاً له، أصبح مولى الوليد بن عبد الملك.

سُبِيَ من الروم بالمشرق وهو صغير، فأدَّبه عبد الملك بن مروان مع

ولده الوليد، ونشأ مغيث الرومي وترعرع وشبَّ في أحضان البيت الأموي، وتعلَّم جنباً إلى جنب مع الوليد بن عبد الملك، فأصبح كأحد أفراد الأسرة الأموية، وموضع ثقتهم الكاملة، وتعلّم مغيث في دمشق القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، والتاريخ والسِّير، وأيام العرب قبل الإسلام وبعده، وعلوم اللغة صَرْفاً ونَحواً وبلاغةً وبياناً وشعراً ونثراً، كما تعلّم فنون الأدب في مجالي الشعر والنثر، وحفظ نماذج من أقوال الخطباء والأدباء والشعراء، ولم يغفل عن الحساب والهندسة وتقويم البلدان، وتدرّب على ركوب الخيل، وأخذ نفسه بالإقدام في مضايق الحروب، حتى تخرَّج في ذلك تخرُّجاً أهَّله للتقدم على الجيش الذي فتح قُرْطُبَة.

كما تدرَّب على الفنون العسكرية العملية، وقد كان أسلوب التدريب على القتال شائعاً في أيام الأمويين بالنسبة لأولاد الخلفاء ومَن حولهم، وبالنسبة لأولاد المسلمين كافة، فكان من نصيب مغيث أن يتدرب في ميادين الجهاد المغربي والأندلسي.

وكان للخلفاء في مختلف أماكن الدولة، مَن يُطلعهم على حقيقة الأوضاع فيها، إلى جانب الولاة والقادة، فلا يستطيع الولاة والقادة أن يُخفوا على الخلفاء شيئاً يهمّ الخلافة، وكان مغيث أحد هؤلاء الذين يثق بهم الخليفة، ويجب أن يطّلع على أمور الولاة والقادة والرعيّة عن طريقهم، فأوفده الوليد ليرافق الحملة الأندلسية، وينقل إليه أخبار الفتوح كما يجب أن تُنقل.

ودخل مغيث الرومي الأندلس مع طارق بن زياد رحمه الله، وكان الوليد بن عبد الملك هو الذي وجَّهه إلى الأندلس غازياً، ولا نعلم بالضبط متى وجَّهه إلى هذا الواجب، وكان عبور طارق إلى الأندلس في يوم الاثنين الخامس من شهر رجب سنة 92هـ 711م، فلا بد من أن يكون مغيث قد بُعث إلى إفريقية والمغرب قبل هذا التاريخ، ومن المحتمل أن الوليد بعثه قُبَيل الشروع في عمليات فتح الأندلس إلى تلك المنطقة، للإشراف على سير تلك العمليات، ومن المرجَّح أنه أرسله بعد فتح طنجة التي كانت سنة 89هـ، وقبل عبور طريف بن مالك إلى الأندلس، أي في أوائل سنة 91هـ.

وكان مغيث على خيل طارق بن زياد، وبعد أن فتح مدينة أستجة (بينها وبين قُرْطُبَة عشرة فراسخ) فَرَّقَ جيوشه في هذه المدينة، فبعث مغيثاً إلى قُرْطُبَة، وكانت من أعظم مدائنهم، في سبعمائة فارس، لأن المسلمين ركبوا جميعاً خيل القوط، ولم يبق فيهم راجل.

وكَمن المسلمون بعُدْوَة نهر شَقُنْدَة، وأرسلوا الأدلّاء فأمسكوا راعي غنم، فسئل عن قُرْطُبَة، فقال: رحل عنها عظماء أهلها إلى طُلَيْطِلَة، وبقي فيها أميرها في أربعمائة فارس من حُماتهم مع ضعفاء أهلها، وسُئل عن سورها، فأخبر أنه حصين عالٍ فوق أرضها، غير أنه فيه ثُغرة، ووصفها لهم.

وتربَّص المسلمون على الضفة اليسرى من نهر الوادي الكبير بالقوط، وأخذوا يستطلعون أخبار القوط، ويجمعون المعلومات عنهم قبل أن

يعبروا النهر ويهاجموا البلد، ولم يصعب على المسلمين الاتصال بنفر من سكان قُرْطُبَة المحليين، وبمعونة هؤلاء استطاعوا العبور في ليلة غزيرة المطر، ويقول الرازي: «وأقبل المسلمون رويداً حتى عبروا نهر قُرْطُبَة ليلاً، وقد أغفل حرس المدينة احتراس السور، فلم يظهروا عليه، ضيقاً بالذي نالهم من المطر والبرد، فترجَّل القوم حتى عبروا النهر، وليس بين النهر والسّور إلا مقدار ثلاثين ذراعاً».

وكان عبور المسلمين نهر الوادي الكبير في مواجهة باب القنطرة، أو باب الصورة نسبة إلى تمثال أسد كان قائماً على مقربة من السور، وظل قائماً أيام المسلمين، وجعل مغيث ورجاله يدورون حول السور يلتمسون ثغرة فيه يدخلون منها إلى قُرْطُبَة، وحاول المسلمون التعلق بالسور، فلم يجدوا مُتَعلَّقاً، ورجعوا إلى الراعي في دلالتهم على الثغرة التي ذكرها، فأراهم إياها، فإذا بها غير متسهّلة التسلق، إلا أنه كانت في أسفلها شجرة تين مكّنت أفنانها من التعلّق بها، فصعد رجل من أشِدّاء المسلمين في أعلاها، ونزع مغيث عمامته فناوله طرفَها، وأعان بعض الناس بعضاً، حتى كثروا على السّور، وركب مغيث ووقف من خارج، وأمر أصحابه المُرْتَقِين للسور بالهجوم على الحرس، ففعلوا وقتلوا نفراً منهم، وكسروا أقفال الباب، وفتحوه.

ودخل مغيث ومَنْ معه، وفتحوا المدينة عَنْوَة، وهاجم مغيث ومَن معه من المسلمين قصر المَلِك، وقد بلغ المَلكَ دخولُ المسلمين المدينة، فبادر بالفرار عن البلاط في أصحابه، وهم في زهاء أربعمائة فارس،

وكانوا مقيمين مع الحاكم في الجزء الغربي من قُرْطُبَة، الذي سُيعرف في أيام المسلمين بالمدينة أو القصبة ويسمى اليوم لافيليا ، وكان المَلِك مقيماً وحده في قصر منيف من الضاحية التي ستعرف أيام المسلمين برَبَض الورّاقين، وأسرع المَلِك إلى حاميته القوطية، فطارده المسلمون، ففرَّ بجنده إلى كنيسة قريبة تسمى كنيسة سان أثيسكلو، وتحصَّن فيها، فحاصرها المسلمون، واستمر الحصار نحو ثلاثة أشهر، حتى استطاع المسلمون قطع الماء عن المحصورين، وكان يجري إلى الكنيسة في مجرى تحت الأرض.

ورغب مَلك قُرْطُبَة أن يتخلَّص من الموقف الحرج الخطر الذي لحق برجاله، عند إيقانه أنه هالك إذا بقي معهم، ففرَّ عن رجاله وحده بعد أن استغفلهم، وأراد اللّحاق بطُلَيْطِلة، وعلم مغيث بهرب الملك، فبادر الركض خلفه وحده، فلحقه بقرب قرية تُطِيلَة هارباً وحده، وهي قرية قريبة من قُرْطُبَة، وكان تحت هذا الملك فرس أصفر ذريع الخَطْوِ أي سريع جداً، والتفت الملك ودُهِش لما رأى مغيثاً يطارده مطاردة عنيفة بلا هوادة، فزاد في حثّ فرسه، فقصر به، فسقط عن الفرس، واندقَّت عنقه، فقعد على ترسه مستأسراً، فقبض عليه مغيث، وسلبه سلاحه، وحبسه عنده ليقدم به على أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك، ولم يؤسر من ملوك **الأندلس** غيره، لأن بعضهم استأمن، وبعضهم هرب إلى جِلِّيقِيَّة.

وهكذا انتهت ملحمة فتح قُرْطُبَة، التي استبسل فيها المسلمون وقاتلوا

قتال الأبطال، كما أحسن القوط في دفاعهم، وصبروا وصابروا، ولكن بقدر ما بلغ مغيث قائداً تحمَّل القسط الأكبر من الفتح، تخنَّث حاكم القوط وقائدهم وتحمَّل القسط الأكبر من كارثة الهزيمة ،اذ القائد هو عماد المعركة.

فكان مغيث نعمَ القائد، وكان قائد القوط بئس القائد، وكان فتح مغيث الرومي لقُرْطُبَة في شوال من سنة اثنتين وتسعين الهجرية، ثم فتح مغيث الكنيسة التي تحصَّن بها حاكم قُرْطُبَة بعد حصار ثلاثة أشهر في محرم من سنة 93هـ 712م.

وكان مغيث قويّاً أميناً، لا يتقبّل الرشوة، ولا يرتضي لنفسه مخالفة الخليفة الصريحة الواضحة في حال من الأحوال، والذي يبدو أن الخليفة أمر مغيثاً أن يُشخص موسى إلى دمشق، دون أن يأمره بإشخاصه فوراً، وترك الحرية لمغيث أن ينفِّذ أمره دون تقييده بوقت معين محدود، فكان لمغيث أن يتصرف في أمر موسى بحرية مطلقة.

ورأى مغيث أن الموقف العسكري يَتطلَّب بقاء موسى وقتاً من الزمن في الأندلس لاستكمال فتوحاته.

وكان المغيث مشهوراً بالرأي والكَيْد، وأنه كان على جانب كبير من الذكاء والفطنة وحضور البديهة، وأنه كان منتبهاً أشدّ الانتباه إلى ما حوله ومَنْ حوله، وليس من السهولة أن يُؤخذ على حين غُرّة، أو يتغلب عليه أحد، لذلك كان أحد مسؤولي مخابرات الدولة الكبار المرموقين، الذين يفرض كفايته على الخلفاء، فاستعان به الوليد بن

عبد الملك، ثم استعان به سليمان بن عبد الملك، دون أن يستطيع الاستغناء عنه، أو يُسدل عليه ستاراً من ستائر النسيان.

بقي مغيث الرومي مخلصاً لبني أمية إخلاصاً لا شائبة فيه، حتى كانت خلافة هشام بن الملك 105هـ - 723م، الذي أخرج أحد قادته إلى إفريقية، وعهد إليه أن يطيع مغيثاً مولى الوليد، لمعرفته بالبلد، ولكن مغيثاً قُتِل في إفريقية، في منطقة طنجة، وكان مع جيش الدولة في قتال الخارجين من البربر، وكان استشهاده سنة 118هـ - 736م عن أربع وستين سنة.

ومن نسله بنو مغيث الذين نجبوا في قُرطُبة، وسادوا وعظم بيتهم، وتفرعت دَوْحَتهم، وكان منهم عبد الرحمن بن مغيث حاجب عبد الرحمن الداخل، والقائد في عهد عبد الرحمن بن الحكم الأموي عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث.

وكان لمغيث الرومي نصيبه من غدر البغاة والخوارج، ليرتقي شهيداً بعد أن قاتلهم دفاعاً عن ثغر من ثغور المسلمين، فارتقى بالطريقة التي ارتقى بها الخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه وأرضاه، وغفر للفاتح مغيث، ولنا من بعده.



رسم تخيلي للقائد مغيث الرومي

عصر الولاة

الصنديد القائد السمح بن مالك الخولاني

719 - 721م

لم يكن الخليفة الراشدي الخامس عمر بن عبد العزيز العادل الزاهد، ليختار واليا ليس بأهل للولاية، فبحث عن والٍ يَتَّسم بالعدل والحزم والسماحة، ليجد تلك الصفات أخيراً في السمح بن مالك الخولاني ليعطيه إمارة الأندلس، فأصبح صنديدنا هذا رابع أمراء الأندلس للمسلمين بعد فتحها في العصر الأموي.

استلم الولاية سنة 100هـ 719م، عندما كانت الأندلس تابعة لوالي إفريقيا، وعليه تعيين ولاتها، فقرّر الخليفة عمر بن عبد العزيز أن تكون الأندلس ولاية مستقلة تتبع مباشرة للخلافة في دمشق، وكانت الأندلس يسودها الاضطراب، فأرسل الخليفة عمر السمحَ بن مالك إليها، ونصحه بأن يتبع الرفق والعدل بأهلها، وأن يقيم كلمة الحق والدين، وكان السمح عاقلاً سائساً حازماً، وافر الخبرة والحكمة، فقبض على زمام الأمور بحزم وهمة، وبادر بقمع المنازعات والفتن، وإصلاح الإدارة والجيش، وخمّس جميع أراضي الأندلس التي فتحت عَنْوَة، أي مسحها وقرر عليها الخراج بنسبة الخمس، كما قام بجعل أراضي الولايات الشمالية للأندلس للبربر، والولايات الجنوبية للقبائل العربية، وكان عمر بن عبد العزيز قد أمر السمح بأن يقدم

له بياناً عن البلدان المفتوحة، وما فيها من النفوس والجبايات لِيُبرِمَ في الأندلس أمراً، فقد كان عمر بن عبد العزيز شديد الخوف على الإسلام وأهله، وكان قد هاله بقاء ذلك العدد الكبير من المسيحين في تلك البلاد، واستشعر من ورائهم خطراً على بقاء المسلمين، ففكر في إجلاء مسيحي أسبانيا وجنوب فرنسا إلى إفريقيا، حيث لا يكون في وجودهم تَهلُكة على الدولة، إلّا أن السمح طمأن مخاوف الخليفة، قائلاً له: إن الإسلام ينمو وينتشر، وتمتد شماريخه بسرعة في إسبانيا، وأنه لا يبعد اليوم الذي تصير فيه تلك البلاد بأجمعها تابعة لدين محمد صلى الله عليه وسلم، وقد انتقد بعض المؤرخين السمح بن مالك بأنه لم يرَ رأي الخليفة في هذا الموضوع.

ومن أعمال السمح بن مالك إنشاؤه لقنطرة قُرْطُبَة على نهر الوادي الكبير بأمر من الخليفة عمر بن عبد العزيز، فقد كتب السمح إلى الخليفة عمر يستشيره ويُعلمه أن مدينة قُرْطُبَة تهدمت من ناحية غربها، وكان لها جسر يعبر على نهرها، ووصفه بحمله وامتناعه من الخوض في الشتاء عامة (أي وصف الجسر بأنه متين وقوي ويستطيع تحمل كوارث الشتاء كافة)، (فإن أمرني أمير المؤمنين ببنيان سور المدينة فَعَلتُ، فإن قِبَلي قوة على ذلك من خراجها بعد عطاية الجند ونفقات الجهاد، وإن أحبَّ صرفت صخر ذلك السور، فبنيت جسرهم). فيقال -والله أعلم-: إن عمر رحمه الله أمر ببنيان القنطرة بصخر السور، وأن يبنى السور باللَّبِن، إذ لا يوجد له صخر، فوَضَع سدّاً، فبنى القنطرة في سنة 101هـ.

ويقول الإدريسي: (ولقُرْطُبَة القنطرة التي علت القناطر فخراً في بنائها وإتقانها، وعدد قسيها سبعة عشرة قوساً، بين القوس والقوس خمسون شبراً، وسعة القوس مثل ذلك خمسون شبراً)، وأبدى السمح في جميع أعماله حزماً ورفقاً وعدلاً، فالتف الزعماء حوله، وخمدت الفتن، وهدأت الخواطر، واستقر النظام والأمن.

وكان السمح فوق كفاءته الإدارية قائداً جريئاً شجاعاً، فعندما انتهى من مهمة التنظيم والإصلاح، تأهَّب لاستئناف الفتوحات الإسلامية، وتوطيد سلطة الدولة في الولايات الجبلية الشمالية للأندلس، فزحف بجيش ضخم، ومعه جماعة كبيرة من الزعماء والقادة، واخترق جبال البرنيه من الشرق من ناحية روسيون، واستعاد أربونة وقرقشونة ومعظم قواعد سبتمانيا وحصونها، وجاب تلك النواحي، واجتاح غاليس القوطية كلها، وشتت كلَّ قوة قاومته، ثم اتجه نحو الشرق ليغزو مملكة الفرنج الجنوبية أو أكوتين، وزحف باتجاه عاصمتها تولوز، فقاومه البشكنس والغسقونيون سكان تلك المنطقة أشد مقاومة، إلا أنه مزَّق جموعهم، وقصد تولوشة، وكان الدوق أودو قد جمع في تلك الأثناء جيشاً كبيراً لصد غزو المسلمين، وعلم السمح بحشود الدوق أودو، فارتد عن مهاجمة تولوشة، وسار نحو جيش الدوق على الرغم من قلة عدد المسلمين بالنسبة لجيش الفرنج الذي وصفه المؤرخون بأنه يَسدُّ الفضاء من كثرته، والتقى الفريقان بظاهر تولوشة (تولوز)، ونشبت بينهما معركة هائلة، سالت فيها الدماء الغزيرة، وكثر القتل في الجيشين، وأبدى المسلمون على الرغم من قِلَّتهم شجاعة خارقة،

وتراوح النصر حيناً بين الفريقين، وتلا السمح الآية الكريمة {إن ينصركم الله فلا غالب لكم} (آل عمران – 160)

وكان السمح يظهر في كل مكان وسيفه ينطف دماً، وهو يشد عساكره بأقواله وأفعاله، وكان كالأسد الزائر يحمل على عدوه، فلا يقف في وجهِهِ أحد، لكن السمح سقط شهيداً من طعنة أصابته من فوق جواده، فاختل جيش المسلمين، ووقع الاضطراب فيهم، فارتدوا إلى سبتمانيا بعد أن فقدوا خيرة فرسانهم، وكانت هذه المعركة في ذي الحجة سنة 102هـ 721م، وبعد استشهاد السمح تولى قيادة الجيش عبدالرحمن بن عبد الله الغافقي الذي قام بالانسحاب جنوباً نحو الأندلس.

لقد فقد المسلمون باستشهاد السمح قائداً من خيرة القادة في زمانه، والياً مصلحاً عادلاً انتهج في عدله وإحسانه نهج الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز الذي اختاره لإصلاح ولاية فَتِيَّة في الدولة الأموية هي ولاية الأندلس.

رحمه الله، وأكرم مثواه مع الأنبياء والصديقين والشهداء.. والفاتحين.



قنطرة قرطبة الشهيرة التي شيدها السمح بن مالك الخولاني

عصر الولاة

الصنديد القائد عنبسة بن سحيم الكلبي

107هـ - 725م

اضطربت أمور ولاية الأندلس من عدة نواحي بعد استشهاد واليها السمح بن مالك الخولاني، فكان لا بد من والٍ قوي فاتح يقود زمام الأمور إلى بر الأمان، فكان عنبسة بن سحيم الكلبي هو ذاك الأمير، ومن خيرة القادة الفاتحين في ذلك العصر.

تولى عنبسة بن سحيم الأندلس سنة 103هـ في خلافة يزيد بن عبد الملك، وكانت أمورها قد اضطربت بعد استشهاد السمح بن مالك الخولاني في وقعة «تولوز» بين المسلمين والفرنجة سنة 102هـ، ولما قدم عنبسة إلى الأندلس قضى مدة من الزمن في تنظيم الإدارة وضبط النواحي، وإصلاح الجيش، وإعداده لفتوحات جديدة.

وفي سنة 105هـ سار عنبسة نحو الشمال غازياً، فعبر جبال البرنيه، وغزا سبتمانيا (التي غزاها السمح من قبل) التي فقد المسلمون كثير من معاقلها منذ استشهاد السمح، واستولى على قرقشونة ونيمة وما بينهما من القواعد، وصالح أهلها على نصف أعمالها، وعلى جميع من في المدينة من أسرى المسلمين وأسلابهم، وأن يعطوا الجزية، ويلتزموا بأحكام الذِّمة، في مسالمة من سالمه المسلمون، ومحاربة من حاربوه،

وارتد القوط عن محالفة الفرنج إلى محالفته، وتابع زحفه شمالاً في وادي الرون، ووصل إلى برجونية حتى مدينة أوتون فغزاها، ثم غزا مدينة صانص، وخشي الدوق أودو أن يهاجمه المسلمون مرة أخرى، فسعى إلى مفاوضتهم ومهادنتهم، وبسط المسلمون سلطانهم بشكل قوي في جنوب شرق فرنسا، وفي ذلك يقول إيرزيدور الباجي: (كان نجاح عنبسة راجعاً إلى الجرأة والبراعة أكثر منه إلى القوة والكثرة، وكان لِينُه ورفقه وحسن معاملته للسكان عاملاً في تقوية سلطان الإسلام في جنوبي فرنسا)، ويقول المستشرق رينو: (لذلك تضاعفت في أيامه خراج بلاد الغال).

ولكن قضى نكد الطالع أن يُصاب المسلمون مرة أخرى، فإن عنبسة حين عودته إلى الجنوب، داهمته قبل أن يجتمع إليه جميع جيشه جيوش كثيرة من الفرنج، فأصيب في أثناء الوقعة بجراح ثخينة، توفي على آثرها في شعبان سنة 107هـ 725م، في خلافة هشام بن عبد الملك، وارتد جيش المسلمين إلى الداخل، وعاد الاضطراب مرة أخرى.

رحم الله عنبسة بن سحيم، وجعله في سجل المصلحين في دار الخالدين.


بحر المانش
80 كيلومتر بين سانس
وباريس
باريس
سانس
لانجر
شالون
ليون
فرنسا
المحيط الأطلسي
وصل عنبسة بن سحيم في جهاده لمدينة سانس
أقصى شمال فرنسا
خليج بسكاي
بوردو
قرقشونة
مرسيليا
بنبلونة
جيرونة
الأندلس

عصر الولاة

الصنديد الشهيد عبد الرحمن الغافقي

114هـ - 732م

لم يشغله العلم عن الفتح، ولم يشغله الفتح عن إغاثة الملهوف، ولم تشغله إغاثة الملهوف عن تنظيم أمور الدولة وتسيير نظامها، ليحوز المجدَ من جميع أطرافه، عالماً مُحدِّثاً فاتحاً قائداً مقاتلاً مصلحاً، وهنا الحديث عن عبد الرحمن بن عبد الله بن بشر بن الصارم الغافقي العكي الأزدي.

وهو من أعظم ولاة الأندلس في العصر الأموي، ومن الرجال القادة المعروفين بالشجاعة والإقدام والعدل والسياسة، وهو في عداد التابعين، فقد روى الحديث عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، وروى عنه أكثر من واحد، قدم على سليمان بن عبد الملك، ثم رحل إلى إفريقيا، ثم الأندلس، فانضم إلى أجناد المسلمين هناك، وكان من قادة السمح بن مالك الخولاني، وقد استطاع إنقاذ جيش المسلمين بعد استشهاد السمح في معركة تولوز سنة 102هـ، وعاد بالجيش إلى قُرْطُبَة في الأندلس، حيث اتفق الأمراء على توليته أمر الأندلس ريثما تُعيِّنُ الخلافة الأموية والياً جديداً، وقد استطاع عبد الرحمن في هذه الفترة الوجيزة من ولايته أن يخمد بوادر الخروج التي ظهرت في الولايات الجبلية الشمالية للأندلس، وأن يستبقي الجزية على أربونة وغيرها من

قواعد سبتمانيا، واستمر في إخماد الفتن وإصلاح الأمور حتى قدم عنبسة بن سحيم الكلبي الذي اختاره بشر بن صفوان الكلبي والي إفريقيا لولاية الأندلس، وكان الخليفة عمر بن عبد العزيز كما ذكرنا سابقاً قد جعل ولاية الأندلس تتبع مباشرةً للخلافة في دمشق، إلا أن خَلَفَه يزيد بن عبد الملك أعادها تابعة في إدارتها لولاية إفريقيا (تونس والمغرب)، وبعد استشهاد عنبسة بن سحيم سنة 107هـ، تتابع على الأندلس عدة ولاة لم يستطيعوا حل الخلافات بين الزعماء والقبائل، وكان تخلُّف المسلمون في هذه الفترة عن الغزو والجهاد قد شجع الفرنجة على مهاجمة القواعد الشمالية للأندلس، وقام الفرنجة أيضاً بتقوية فلول القوط الذين اعتصموا في جليقية بعد الفتح الإسلامي للأندلس.

كان الأمير عبد الرحمن في هذا الوقت مهتماً بأخذ ثأر المسلمين عن الغزوات التي أصيبوا بها، ومنها استشهاد السمح بن مالك الخولاني، وعنبسة بن سحيم الكلبي، وكان يفكر في حملة شديدة على فرنسا يسيطر بها على هذه المملكة، ثم يجتاز منها إلى إيطاليا، ثم ألمانيا، ثم القسطنطينية، وكان هذا حلم الأمير موسى بن نُصير منذ فتح الأندلس كما ذكرنا سابقاً، فقد كان عبد الرحمن جندياً عظيماً ظهرت براعته وشجاعته ونجابته في غزوات المسلمين إلى بلاد الغال وغيرها.

وفي سنة 112هـ، وقيل: 113هـ، عيَّنَ عبيدةُ بن عبد الرحمن السلمي أمير إفريقيا الأميرَ عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي على الأندلس، فرحَّب

أهل الأندلس قاطبة بولايته، وأحبَّه الجند لعدله ورفقه ولينه، وجمعت هيبته كلمة القبائل، وعاد الوئام في الإدارة والجيش، وقد بدأ عمله بزيارة الأقاليم المختلفة، فنظَّم شؤونها، وعهد بإدارتها إلى ذوي الكفاية والعدل، وقمع الفتن والمظالم ما استطاع، وعدَّل نظام الضرائب، وفرضها على الجميع بالعدل والمساواة، فأصلح الإدارة، وعالج ما سرى إليها من الاضطراب والخلل في عهد أسلافه، كما عُنيَ بإصلاح الجيش وتنظيمه، فحشد الصفوف من مختلف الولايات، وأنشأ فرقة قوية من فرسان البربر بإشراف نخبة من الضباط العرب، وحصَّن القواعد والثغور الشمالية، وكان الفرنج والقوط قد بدؤوا بالتحرك لمهاجمة المواقع الإسلامية، وكان الأمير عبد الرحمن كما ذكرنا يتوق إلى الانتقام لمقتل السمح وهزيمة المسلمين عند أسوار تولوز، ويُعدُّ العدة لاجتياح مملكة الفرنج بأسرها، فلما رأى الخطر محدقاً بالولايات الشمالية لم ير مانعاً من السير نحو الشمال قبل أن يستكمل استعداده، على أنه استطاع أن يجمع أعظم جيش سَيَّره المسلمون إلى غاليس (فرنسا) منذ الفتح، وقد وصف الجيش الذي قاده الأمير عبد الرحمن بأنه جيش جرَّار يرجُّ الأرض، ويهتزُّ شوقاً للقتال، وفي أوائل سنة 114هـ 732م، سار القائد عبد الرحمن بجيشه مخترقاً ولاية أراجون (الثغر الأعلى) ونافار (بلاد البشكنس) وعبر جبال البرنيه عن طريق بنبلونة، ودخل فرنسا، وزحف إلى مدينة آرام على نهر الرون لتخلفها عن أداء الجزية، فاستولى عليها بعد معركة عنيفة جرت بينه وبين الدوق أودو عند ضفاف نهر الرون، ثم زحف غرباً، وعبر نهر الجارون، وانقضَّ المسلمون كالسيل

الجارف على ولاية أكوتين يثخنون في مدنها وأراضيها، وحاول الدوق أودو (حاكم ولاية أكوتين) أن يوقف زحف المسلمين، والتقى الفريقان عند ضفاف نهر الدوردون، فهُزِمت قوات الدوق شر هزيمة، حتى إن إيزدور الباجي أحد مؤرخي الفرنج يقول: (**الله وحدَه يعلم كم قُتِل في هذه الوقعة من النصارى**).

وطارد القائد عبد الرحمن جيش الدوق حتى وصل إلى عاصمته بوردو (بردال)، واستولى عليها بعد حصار قصير، وفرَّ الدوق مع نفرٍ من أصحابه إلى الشمال، وسقطت أكوتين كلُّها بيد المسلمين، ثم ارتدَّ عبد الرحمن نحو الرون مرة أخرى، واخترق جيشه برجونية، واستولى على ليون وبيزانصون، ووصلت سراياه حتى صانص، التي تبعد عن باريس نحو مئة ميل فقط، ثم سار القائد عبد الرحمن غرباً إلى ضفاف نهر اللوار ليستكمل فتح هذه المنطقة، ثم يقصد عاصمة الفرنجة، ويكون بذلك قد فتح نصف فرنسا الجنوبي كله من الشرق إلى الغرب في بضعة أشهر فقط.

يقول المؤرخ الفرنجي إدوارد جيبون: (**وامتد خط الظفر مدى ألف ميل من صخرة طارق إلى ضفاف اللوار، وقد كان اقتحام مثل هذه المسافة يحمل العرب إلى حدود بولونيا، وربما اسكتلندا، فليس الرين بأمنع من النيل أو الفرات، ولعل أسطولاً عربياً كان يصل إلى مصبِّ التيمز دون معركة بحرية، بل ربما كانت أحكام القرآن تُدرَّس الآن في معاهد أكسفورد، وربما كانت منابرها تؤيد لمحمد صدق الوحي**

والرسالة).

ويقول رينو أيضاً: (**بلغت حماسة العرب في تلك الغزوة أن بعض مؤرخيهم شبهوهم بريح صرصر، تقتلع كل ما جاء أمامها، أو بسيف ماضٍ يقطع كل ما يصادمه، وكان العرب قد وَضَعُوا نُصبَ أعينهم مدينة تور التي كان فيها دير سان مارتين**).

وبعد الهزائم التي لحقت بالدوق أودو، وعندما رأى أنه لا طاقة له على مواجهة المسلمين وجيوشهم، استصرخ بشارل مارتل (عدوه القديم)، وكان شارل هذا قد تقلّد منصب محافظ القصر لملك الفرنجة، وكان ملوك الفرنجة في هذا العصر عبارة عن صورة بلا معنى، والسلطة بيد محافظ القصر.

حشد شارل جيشاً ضخماً من الفرنج، ومختلف العشائر الجرمانية المتوحشة، وعصابات المرتزقة في ما وراء الرين، يمتزج فيه المقاتلين من أمم الشمال كلها، وأكثرهم جند غير نظاميين، نصف عراة يَتَّشِحُون بجلود الذئاب، وتنسدل شعورهم الجعدة فوق أكتافهم العارية.

سار شارل بجيشه الجرّار نحو الجنوب لملاقاة المسلمين، وكان المسلمون بقيادة الأمير عبد الرحمن قد استولوا على مدينة بواتييه، ثم هجموا على مدينة تور الواقعة على ضفاف اللوار الأيسر، واستولوا عليها، وفي أثناء ذلك كان جيش مارتل قد وصل إلى اللوار، دون أن يشعر المسلمون بقدومه بادئ الأمر، وقد أخطأ المسلمون بتقدير عددهم، ثم رأى عبد الرحمن ضخامة جيش مارتل، فانسحب بجيشه

إلى السهل الواقع بين بواتييه وتور، وعبر شارل ضفاف اللوار نحو تور، وعسكر بجيشه إلى يسار الجيش الإسلامي بأميال قليلة.

كان الجيش الإسلامي في حال تدعو إلى القلق بسبب الخلافات بين قبائل البربر التي يتألف منها معظم الجيش، والتي كانت تتوق إلى الانسحاب مكتفية بما معها من الغنائم الكثيرة، حتى إن هذه الغنائم كانت تحدث الخلل في صفوف الجيش، وتثير الخلاف والنزاع بين أفراده، وقد قدر الأمير عبد الرحمن خطر هذه الغنائم على جيشه ونظامه، وخشي مما تثيره في نفوس الجند من الحرص والانشغال، وحاول أن يحملهم على ترك شيء منها، لكنه لم يشدد على ذلك خوفاً من التمرد والعصيان ، وكان المسلمون قد أنهكتهم غزوات أشهر متواصلة، منذ دخولهم إلى فرنسا، ونقص عددهم بسبب وضع حاميات عديدة منهم في كثير من المدن والقلاع المفتوحة، ولكن عبد الرحمن تأهب لقتال العدو وخوض معركة حاسمة.

بدأ القتال في أواخر شعبان سنة 114هـ، ونشبت بين الجيشين معارك محلية مدة سبعة أيام أو ثمانية، احتفظ كل منهما بمراكزه، وفي اليوم التاسع نشبت بينهما معركة حامية الوطيس، فاقتتلا بشدة، وتعادل حتى دخول الليل، واستأنفا القتال في اليوم التالي، وأبدى كلٌّ منهما منتهى الشجاعة والجَلَد، حتى بدا التعب والإعياء على الفرنج، ولاح النصر للمسلمين، ولكن حدث عندئذٍ أن افتتح الفرنج ثغرة إلى معسكر الغنائم الإسلامي، وخُشي عليه من السقوط في أيديهم،

أو حدث -كما قيل- أن صيحة مجهولة من قلب الجيش الإسلامي صاحت بأن معسكر الغنائم سيقع بيد الفرنج، فارتدت قوة كبيرة من الفرسان من قلب المعركة إلى معسكر الغنائم، وتواثب كثيرٌ من الجند للدفاع عن غنائمهم، فدب الخلل في جيش المسلمين، وحاول الأمير عبد الرحمن أن يعيد النظام والتوازن إلى الجيش، وبينما هو يتنقل بين الصفوف يقودها ويجمع شتاتها، إذ أصابه من جانب الأعداء سهم أودى بحياته، فسقط شهيداً من فوق جواده، وعم الذعر والاضطراب في الجيش الإسلامي، واشتدت وطأة الفرنج على المسلمين، وكثر القتل في صفوفهم، ولكنهم صمدوا حتى جن الليل، وافترق الجيشان دون فصل، وكان ذلك في أوائل رمضان سنة 114هـ 732م، وكثر النزاع والخلاف بين قادة الجيش الإسلامي بعد استشهاد القائد عبد الرحمن، ورأوا أن كل أملٍ في النصر قد ضاع، فقرروا الانسحاب فوراً في جوف الليل وتحت جنح الظلام، متَّجِهين نحو قواعدهم في سبتمانيا، وتاركين أثقالهم ومعظم مقتنايتهم غنيمة للعدو.

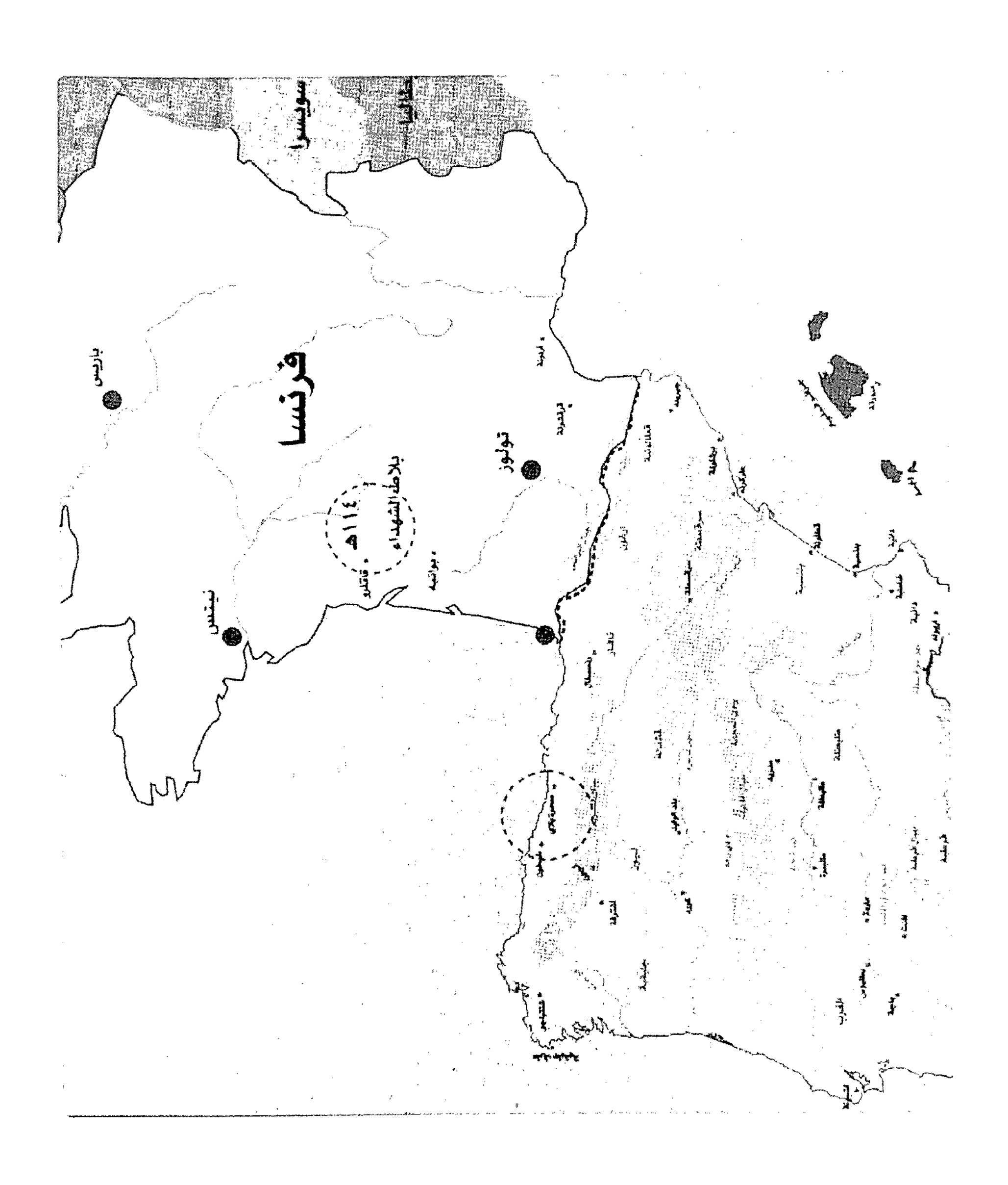
وفي صباح يوم غد، لاحظ مارتل سكوناً في المعسكر الإسلامي، فتقدم نحوه بحذر وإحجام، فوجدها خالية إلا من بعض الجرحى الذين لم يستطيعوا مرافقة الجيش المنسحب، فقام بذبحهم على الفور، وخشي مارتل الخدعة والكمين، فاكتفى بانسحاب المسلمين، ولم يجرؤ على مطاردتهم، واتجه بجيشه شمالاً، وسميت هذه المعركة ببلاط الشهداء لكثرة من استشهد فيها من المسلمين، وبعد هذه المعركة الفاصلة انتهى أمل المسلمين في الأندلس بفتح بلاد الفرنج نهائياً.



لقد كان وقع خبر استشهاد القائد عبد الرحمن الغافقي عظيماً على المسلمين في جميع أنحاء البلاد الإسلامية، وقد استعظم الخليفة هشام بن عبد الملك خبر استشهاد عبد الرحمن وما حلَّ بالمسلمين في بواتييه، وأمر والي الأندلس الجديد بأخذ الثأر من الفرنج، وأمدَّه بالمال والرجال من أجل ذلك.

لقد كان الأمير عبد الرحمن -كما وصفه المؤرخون- من أفذاذ الرجال، جمع مع الشجاعة والإقدام العدلَ في الأحكام، وبُعْد النظر في السياسة والسهر على مصالح الرعية، ، فهو بحق من أبطال الإسلام المعدودين، وكان من أحسن الناس خلقاً، وإن إنسانيته هذه تنبع من تربيته الإسلامية الصحيحة على يد الصحابة الكرام رضي الله عنهم أجمعين، فلا عجب إذا رأينا منه حُسنَ السيرة في أخلاقه مع رعيته، ولا عجب إذا رأينا العدل والورع والصبر على الرعية، وإسداء المعروف للناس دون انتظار أي مقابل، فهو ليس بحاجة إلى أحد من الناس، فهو أمير وقائد، ويمتلك مقومات كثيرة، ولكنه كان ينتظر الأجر من الله عز وجل.

توفِّي عبد الرحمن بعد أن نقل حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ليجعل منه نوراً يُنير مسيرته، ودستوراً وقانوناً يُسيِّر عليه دولته، رحمه الله، وأسكنه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفردوس الأعلى.



موقع معركة بلاط الشهداء





رسم تخيلي لمعركة بلاط الشهداء

عصر الإمارة

* عبد الرحمن الداخل
* هشام بن عبد الرحمن
* يحيى بن يحيى الليثي
* عبد الملك بن حبيب السلمي
* عبد الرحمن بن الحكم الأموي
* يحيى الغزال الحكيم
* عباس بن فرناس
* محمد بن عبد الرحمن الأموي
* بقي بن مخلد
* ابن عبد ربه
* قاسم بن أصبغ

عصر الإمارة

صقر قريش عبد الرحمن الداخل

731- 788م

أيها الـراكـبُ الميُمِّمُ أرضـي　　أقري من بعضي السلام لبعضي
إنّ جسمي كما علمت بأرضٍ　　وفـؤادي ومـالـكيـه بـأرضِ
قُـدِّر الـبَـينُ بيننا فـافـترقـنا　　وطوى البينُ عن جفونيَ غَمضي
قـد قـضى الله بـالفراقِ علينا　　فعسى باجتماعنا سـوف يـقضي

كلـماتُ شـوق وحنـين، عـلى لسـان أمـير فاتـحٍ صنديـد، عانـى الشـقاء بـكل أنواعـه، وتـرك المـال والعيـال والولـد، ليمـضي شـاقّاً طريـق المجـد مـن بـين الصحـاري والبحـار والوديـان والجبـال، حتـى وصـل إلى قمتهـا، مـن مـشرق الأرض خـرج ليفتـح مغربهـا، فكانـت دمشـق المولـد والمنشـأ، وكانـت الأندلـس الحكـم والإمـارة.

وخـير الفضـل مـا شـهد بـه الأعـداء، ليطلقـوا عليـه لقبـاً ظـل يَتَّسِـمُ بـه طـوال التاريـخ، الحديـث عـن الفاتـح الداخـل الملقـب (صقـر قريـش)، فمـن هـو هـذا الأمـير؟ وكيـف مشـى مـن مـشرق الأرض إلى مغربهـا؟ وكيـف وَحَّـدَ الصفـوف، ونهـى الخلافـات، وجاهـد الكفـار، وأقـام دولـة قويـة ظـل صيتهـا يتحـدث بـه القـاصي والـداني عـدة قـرون؟

عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموي، أبو المُطرِّف، الملقب صقر قريش الداخل إلى الأندلس، مؤسس الدولة الأموية فيها بعد سقوطها في الشام على يد العباسيين، مولده بأرض تدمر سنة 113هـ 713م، في خلافة جده هشام بن عبد الملك، وأمه بربرية من سبايا المغرب تدعى راحا أو رداحا، مات والده الأمير معاوية سنة 118هـ، وكان عمره خمس سنوات، فنشأ يتيماً في كنف جده هشام، وأحسن جده تربيته، وعندما انتصر العباسيون على الأمويين في معركة الزاب سنة 132هـ، وبدؤوا بتتبع الأمويين وقتلهم وأنصارهم في كل مكان، كان عبد الرحمن بذات الزيتون، فهرب منها إلى فلسطين، وأقام هو ومولاه بدر يتجسس الأخبار، فحُكي عنه أنه قال: لما أعطينا الأمان، ثم نكث بنا بنهر أبي فطرس، وأبيحت دماؤنا، أتانا الخبر، وكنت منتبذاً عن الناس، فرجعت إلى منزلي آيساً، ونظرت فيما يصلحني وأهلي، وخرجت خائفاً حتى صرت إلى قرية على الفرات ذات شجرٍ وغياض، فبينما أنا ذات يوم بها، وولدي سليمان يلعب بين يدي، وهو يومئذٍ ابن أربع سنين، فخرج عني، ثم دخل الصبي من باب البيت باكياً فزعاً فتعلق بي، وجعلت أدفعه وهو يتعلق بي، فخرجت لأنظر، وإذ بالخوف قد نزل بالقرية، وإذ بالرَّايات السود (رايات بني العباس) مُنحطَّة عليها، وأخ لي حديث السن يقول لي: النجاء النجاء! فهذه رايات المسودة. فأخذت دنانير معي، ونجوت بنفسي وأخي، وأعلمت أخواتي بوجهتي، فأمرتهن أن يُلحقنني مولاي بدراً،

وأحاطـت الخيـل بالقريـة، فلـم يجـدوا لي أثـراً، فأتيـت رجـلاً مـن معـارفي، وأمرتـه فاشـترى لي دوابّـاً ومـا يصلحنـي، فـدلَّ عـليَّ عبـدٌ لـه العامـلَ، فأقبـل في خيلـه يطلبنـي، فخرجنـا عـلى أرجلنـا هرابـاً والخيـل تبصرنـا، فدخلنـا في بسـاتين عـلى الفـرات، فسـبقنا الخيـل إلى الفـرات فسـبحنا، فأمـا أنـا فنجـوت، والخيالـة ينادوننـا بالأمـان ولا أرجـع، وأمـا أخـي فإنـه عجـز عـن السـباحة في نصـف الفـرات، فرجـع إليهـم بالأمـان، وأخـذوه فقتلـوه وأنـا أنظـر إليـه، وهـو ابـن ثـلاث عـشرة سـنة، فاحتملـت فيـه ثـكلاً، ومضيـت لوجهـي أي لطريقـي، فتواريـت في غيضـة أشـبة، حتـى انقطـع الطلـب عنـي، (أي تـوارى عـن الأنظـار ولم يعـد أحـد يلاحقـه) وخرجـت فقصـدت المغـرب فبلغـت إفريقيـا.

وأرسـلت لـه أختـه أم الأصبغ مـولاه بـدراً، ومعـه نفقـةً وجواهـر، ولمـا وصـل عبـد الرحمـن إلى إفريقيـا، ألـحَّ واليهـا عبـد الرحمـن بـن حبيـب الفهـري في طلبـهِ، فهـرب منـه وأتـى مكناسـة في المغـرب، وكان أهلهـا مـن البربـر، فلقـي عندهـم شـدّة أيضـاً، فهـرب مـن عندهـم، وأتـى نفـزاوة، وهـم أخوالـه مـن البربـر أيضـاً، ومعـه مـولاه بـدر، فأكرمـوه، ووعـدوه بالنـصرة، وأخـذ في مكاتبـة الأمويـين وأنصارهـم في الأندلـس يُعلِمُهـم بقدومـه ويدعوهـم لمساندته، وأرسـل خادمـه بـدراً إليهـم، وكان والي الأندلـس حينئـذٍ يوسـف بـن عبـد الرحمـن بـن حبيـب الفهـري، فسـار بدرٌ إليهـم، وأعلمهـم حـال عبـد الرحمـن، ودعاهـم إليـه، فأجابـوه ووجهـوا له مركبـاً فيـه جماعـة مـن أنصـار الأمويـين، ووصلـوا إليـه، وأبلغـوه طاعتهـم لـه، فأخـذوه وحملـوه معهـم في المركـب الـذي رسـا في منطقـة يقـال لهـا:

المنكّب، وكان ذلك في شهر ربيع الأول سنة 138هـ، وأتاه جماعة من رؤساء إشبيلية فبايعوه، ثم بايعه عامل شذونة وإشبيليا وغيرهما، حتى اقترب من قُرْطُبَة، فبلغ خبره والي الأندلس يوسف الفهري، وكان يوسف غائباً في طُلَيْطِلَة، فأتاه الخبر وهو راجع الى قرطبة، بأن عبد الرحمن يقترب من قرطبة ، فتراسل الإثنان في مسألة الصلح ولم يتم ذلك، وزحف عبد الرحمن مع رجاله الى قرطبة ليلاً، ونشب القتال بين الفريقين إلى أن ارتفع النهار، وركب عبد الرحمن على بغلٍ لكي لا يظن الناس أنه يهرب، وحلت الهزيمة بأصحاب يوسف، وهرب إلى ماردة، ودخل عبد الرحمن إلى قُرْطُبَة، فصلى الجمعة في جامعها، ثم نزل في قصرها، وأخرج منه خدم يوسف وحشمه، وبويع بإمارة الأندلس في ذي الحجة سنة 138هـ 756م، ثم إن يوسف استأمن إلى عبد الرحمن، فأمنه، وأسكنه معه في قُرْطُبَة، واستمر حتى غدر يوسف بالأمير عبد الرحمن، وهرب من قُرْطُبَة، وجمع جموعاً من البربر، واعتصم بماردة، فزحف إليه الأمير عبد الرحمن، ووقعت معركة طاحنة في موقع يقال له: المدوَّر، فكانت الهزيمة على يوسف الذي هرب إلى طُلَيْطِلَة، ثم قتله أحد أصحابه، وبعث برأسه إلى الأمير عبد الرحمن، وكان ذلك سنة 142هـ، وبعد مقتل يوسف الفهري صَفَتِ الأندلس للأمير عبد الرحمن.

أعاد عبد الرحمن إحياء الدولة الأموية في الأندلس بعد سقوطها في الشام، إلا أنه لم يَتسمّى بالخلافة لوجود خليفة عباسي، إنما اتَّخذ لقب الأمير فقط، وحاول الخليفة أبو جعفر المنصور العباسي انتزاع

الأندلس من يد عبد الرحمن، فبعث بالعلاء بن مغيث والياً عليها سنة 146هـ، وأمره بنشر الدعوة العباسية هناك، فنزل العلاء بمدينة باجة، واتبعه كثير من الجند والناس، فنهض إليه عبد الرحمن من قُرْطُبَة، واعتصم مع ثقات رجاله في قرمونة، وجرت بينهم وبين جند العلاء حروب شديدة، وصبر عبد الرحمن مع أصحابه حتى تمت الهزيمة للعلاء وأصحابه، فظفر به عبد الرحمن، وقتله، وأرسل رأسه إلى مكة في موسم الحج، حيث كان الخليفة أبو جعفر هناك، فلما رأى أبو جعفر رأس العلاء موضوعاً في سفط، نظر إليه، وقال: إنا لله! عرَّضنا بهذا المسكين للقتل، الحمد لله الذي جعل البحر بيننا وبين هذا الشيطان (يعني الأمير عبد الرحمن).

لقد حاول كثير من الأمراء إشعال الفتن، ومنازعة عبد الرحمن في ملك **الأندلس**، إلا أن جميع محاولتهم فشلت، وتمكَّن هو من تقوية إمارته وتوطيد ملكه.

لقد كان عبد الرحمن يعمل على إحياء دولة الإسلام في **الأندلس** موحدة متماسكة، كما كانت قبل أن تُمزِّقها الحرب الأهلية، فكانت معركته في الواقع معركة السلطة المركزية والرئاسة الشاملة، وكان هذا الرجل قد شحذت همته المحن والمصاعب التي مر بها، ولقد قضى فترة إمارته البالغة اثنتين وثلاثين سنة في كفاح مستمر، لا ينتهي من معركة إلا ويخوض أخرى، ولا يقمع تمرداً إلا يليه تمرد أخر، ولا يسحق خارجاً إلا ويعقبه خارج آخر، ولم تبقَ **بالأندلس** مدينة أو

ناحيـة إلا وخرجـت عليـه، ولا قبيلـة إلا نازعتـه في الإمـارة، ولم تبـقَ قـوة خفيـة أو ظاهـرة إلا عملـت عـلى سـحقه، فكانـت الأندلـس طـوال عهـده بركانـاً متأجـج بنـار الحـروب والمؤامـرات، لكنـه صمـد لتلـك المصاعـب كلهـا، واسـتطاع بكثـير مـن الـذكاء والإقـدام والعـزم والجَلَـد أن يتغلـب عـلى تلـك المصاعـب والأخطـار، وأن يقبـض عـلى مصـير الأندلـس بيـده القويـة، وأن يُحيـي سـلطان أسرتـه المندثـر في ذلـك القطـر النائـي وليسـتقر ويزدهـر بعدهـا أكثـر مـن قرنـين مـن الزمـن، وكان تفـرق خصومـه أهـم عامـل في ظفـره ونـصره، فاسـتطاع أن يحطـم قِواهـم بالتعاقـب، وهـو في كل مـرة يـزداد قـوة ومنعـة، ويـزداد خصومـه ضعفـاً وتفرقـاً، حتـى قـضى عليهـم جميعـاً.

وعـلى الرغـم مـن عِظـم المشـاكل الداخليـة التـي واجهتـه، إلا أنـه لم يغفـل عـن العـدو الخارجـي الـذي كان يتربّـص بـه فقاتلهـم جميعـاً ومنهـم الإسـبان الذيـن اعتصمـوا في جليقيـة منـذ سـقوط الأندلـس بيـد المسـلمين، وشـكّلوا مملكـة هنـاك، والفرنـج الذيـن عقـدوا حلفـاً وصداقـة مـع العباسـيين أعـداء عبـد الرحمـن، ويبـدو ذلـك واضحـاً مـن اسـتعانة سـليمان بـن اليقظـان (أحـد الخارجـين عـلى عبـد الرحمـن) بشـارلمان ملـك الفرنـج عـلى مهاجمـة سرقسـطة، والتـي صمـدت صمـوداً أسـطورياً أمـام هجمـة شـارلمان الـذي عـاد أدراجـه إلى بـلاده، وفي أثنـاء عبـوره جبـال البرنيـه، هاجـم عبـد الرحمـن مؤخـرة جيشـه، وقَضَـوا عـلى خـيرة فرسـانه.

ورغـم جميـع هـذه الأحـداث التـي واجهـت عبـد الرحمـن إلا أنـه اهتـم

بالبناء والعمران، فاعتنى بقُرْطُبَة، وزينها بالمنشآت الفخمة والرياض اليانعة، وكان أول ما أنشأ بها في عهده منية الرصافة وقصرها المنيف، وكان قصر الإمارة قديماً منذ عهد القوط، فرأى عبد الرحمن أن ينشئ ضاحية ملوكية جديدة، تليق بحضارة ملكه، وتعيد أمجاد بني أمية في المشرق، وقد جلب إلى قصره مختلف أنواع البذور والأغراس من الشام وإفريقيا، وسمى تلك الضاحية الجديدة بالرصافة، تخليداً لذكرى الرصافة التي أنشأها جده هشام بن عبد الملك في الشام.

وفي سنة 150هـ بدأ عبد الرحمن بإنشاء سور قُرْطُبَة الكبير، واستمر العمل به عدة أعوام، كما أنشأ في قُرْطُبَة وباقي مدن الأندلس العديد من المساجد المحلية، ولعل أبرز إنجازاته، بل إنه مفخرة حضارية على مر العصور، هو بناؤه لمسجد قُرْطُبَة.

يقول ابن حَيَّان: حين افتتح المسلمون قُرْطُبَة شاطروا أهلها كنيستهم العظمى، كما فعل خالد وأبو عبيدة رضي الله عنهما مع أعاجم دمشق، فابتنوا فيها مسجداً، وبقي شطر بأيدي الروم، إلى أن كثرت عمارة قُرْطُبَة، وتداولتها بعوث العرب، فضاق المسجد، وعلق منه سقائف، وصار الناس ينالون مشقة لقصر السقائف، إلى أن أذخر الله فيه الأجر لصحيفة الداخل، وابتاع الشطر الثاني من النصارى بمئة ألف دينار، وقبضوها على ملأ من الناس، ورضوا بعد تمنع، وعمل هذا الجامع الذي هو فخر الأرض، وشرفها من مال الأخماس، وكمل على مراده، وكان تأسيسه في سنة سبعين ومئة، فتمت أسواره

في عام، وبلغ الإنفاق فيه إلى ثمانين ألف دينار.

لقد كان الإسلام قوياً وعزيزاً في الأندلس في عهد الداخل، ولعل كتاب الأمان الذي كتبه لمملكة قشتالة بعد أن غزاهم، وفرَّق جموعهم خير دليل، فقد ورد في هذه الكتاب......

بسم الله الرحمن الرحيم: كتاب أمان ورحمة، وحقن دماء وعصمة، عَقَدَه الأمير الأكرم، الملك المعظم، عبد الرحمن بن معاوية، ذو الشرف الصميم، والخير العميم، للبطارقة والرهبان، ومن تبعهم من سائر البلدان، أهل قشتالة وأعمالها، ما داموا على الطاعة في أداء ما تحملوه، فأشهد على نفسه أن عهده لا يُنسَخ ما أقاموا على تأدية عشرة آلاف أوقية من الذهب، وعشرة آلاف رطل من الفضة، وعشرة آلاف رأس من خيار الخيل، ومثلها من البغال، مع ذلك ألف درع، ومن الرماح مثلها في كل عام، ومتى ثبت عليهم النكس بأسير يأسرونه، أو مسلم يغدرونه، انتكث ما عُوهِدوا عليه وكتب لهم هذا الأمان بأيديهم إلى خمس سنين.

لقد مدحه وأعجب به حتى أعداؤه، فيروى أن الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور قال يوماً لجلسائه: أخبروني من صقر قريش من الملوك؟ قالوا: ذاك أمير المؤمنين الذي راض الملوك، وسكن الزلازل، وأباد الأعداء، وحسم الأدواء، قال: ما قلتم شيئاً، قالوا: فمعاوية؟ قال: لا. قالوا: فعبد الملك بن مروان؟ قال: ما قلتم شيئاً، قالوا: يا أمير المؤمنين فمن هو؟ قال: صقر قريش عبد الرحمن بن معاوية،

الـذي عـبر البحـر، وقطـع القفـر، ودخـل بلـداً أعجميـاً، منفـرداً بنفسـه، فمَـصَّرَ الأمصـار، وجَنَّـدَ الأجنـاد، ودوَّن الدواويـن، وأقـام ملـكاً عظيـماً بعـد انقطاعـه، بحسـن تدبيره، وشـدة شـكيمته، إن معاوية نهض بمراكب حملهـا عليـه عمـر وعثـمان، وذلـلا لـه صعبـه، وعبـد الملـك ببيعـة أبـرم عقدهـا، وأمـير المؤمنـين بطلـب عترتـه واجتـماع شـيعته، وعبـد الرحمـن منفـرد بنفسـه، مُؤيَّـد برأيـه، مستصحب لعزمـه، وطـد الخلافـة بالأندلس ، وافتتـح الثغـور، وقتـل المارقـين، وأذل الجبابـرة الثائريـن، فقـال الجميـع: صدقـت والله يـا أمـير المؤمنـين.

كان عبـد الرحمـن جـواداً، بسـيطاً متواضعـاً، يؤثـر لبـس البيـاض، ويعتـمُّ بـه (أي يلبـس العمامـة البيضـاء)، يصـلي بالنـاس أيـام الجمـع والأعيـاد، ويحـضر الجنائـز ويصـلي عليهـا، ويعـود المـرضى، ويـزور النـاس ويخاطبهـم، ولم ينحـرف عـن هـذه العـادات إلا أواخـر حياتـه، وكان نقش خاتمـه «عبـد الرحمـن بقضـاء الله راضٍ» « وبـالله يثـق عبـد الرحمـن وبـه يعتصـم» ممـا يـدل عـلى شـدة تواضعـه.

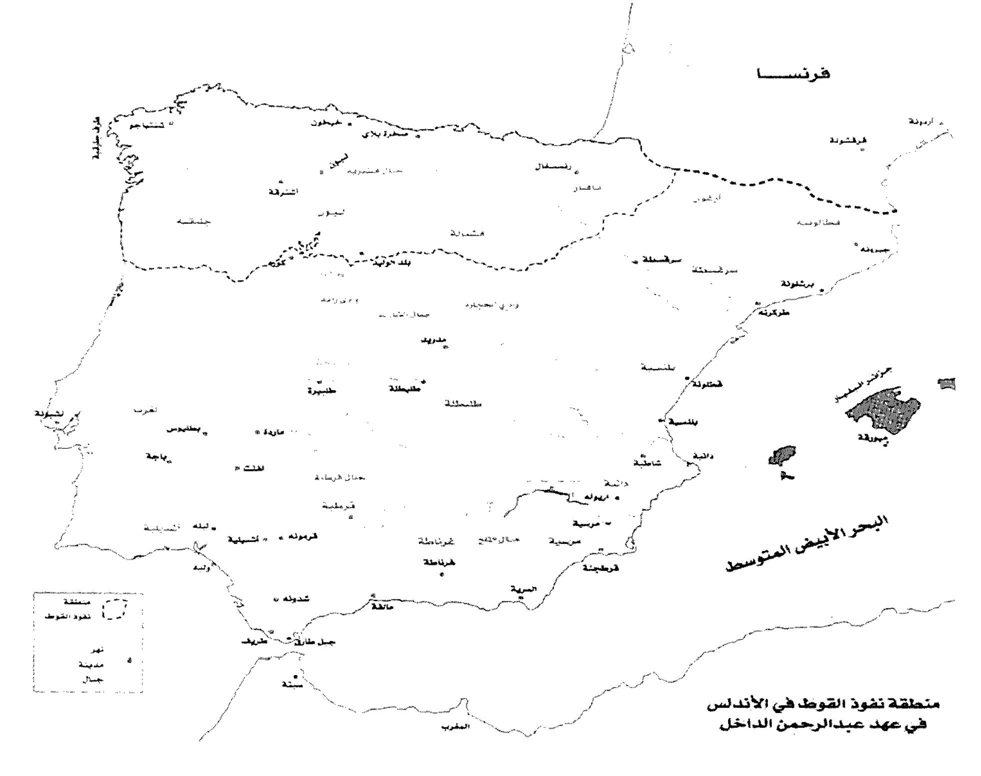
إضافـة إلى ذلـك كلـه فقـد كان أديبـاً، شـاعراً جيـد النظـم، فصيحـاً قـوي الترسـل، يعتـبر مـن أعظـم بنـي مـروان مكانـة في البلاغـة والأدب، ومـن الشـعر الـذي يـدل عـلى حنينـه لوطنـه الشـام قولـه:

يانَخلُ أنـتِ غـريبةٌ مثـلي ... في الغربِ نائيةٌ عن الأهلِ
فابكي، وهل تبكي ملمسةٌ ... عـجـماءُ لم تُطبَع على خـبلِ
لو أنـها تبـكي إذن لبكت ... ماء الـفرات ومنبت الـنخلِ

ويقول ابن الأثير في الكامل: كان سريع النهضة في طلب الخارجين عليه، لا يخلد إلى راحة، ولا يسكن إلى دعة (أي إلى الراحة والسكينة والكسل)، ولا يَكِلُ الأمور إلى غيره، ولا ينفرد في الأمور برأيه، شجاعاً مقداماً بعيد الغور.

توفي رحمه الله سنة 172هـ 788م، وعمره تسعة وخمسون عاماً، وخَلَفَه في إمارة الأندلس ابنه هشام بن عبد الرحمن.

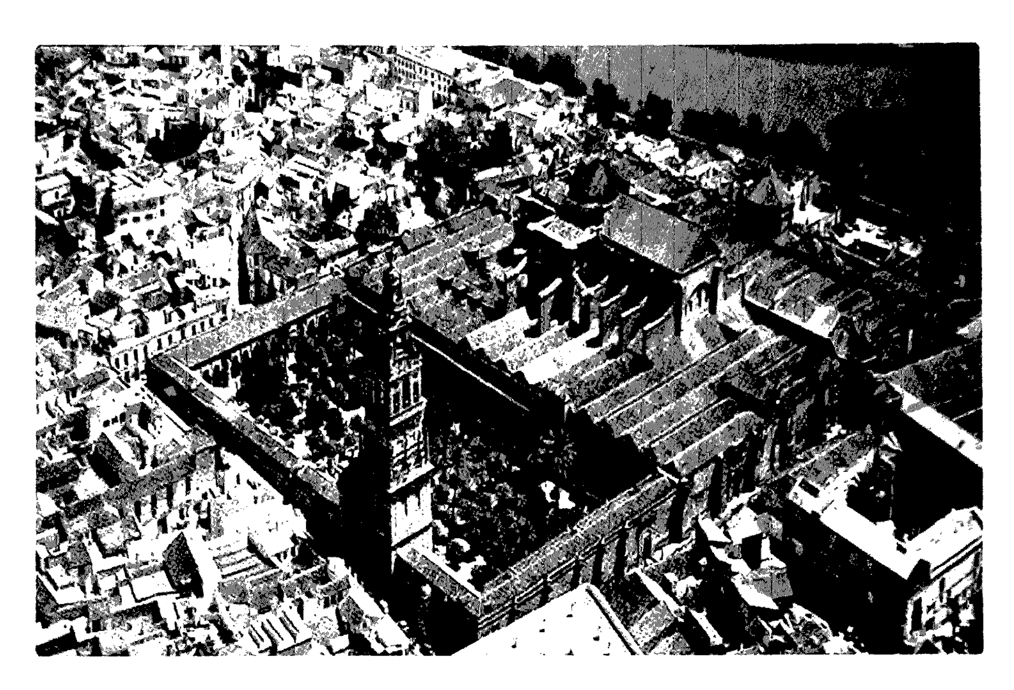
خرج الداخل من الدنيا ودخل الآخرة، ليلقى ربه، ويقف بين يديه بعد مسيرة استمرت نحو ستة عقود من الإنجازات والمعاناة والجهاد، رحمه الله، وأجزل عطاءه، ورضي عنه وأرضاه.....



منطقة نفوذ القوط في الأندلس
في عهد عبدالرحمن الداخل



نصب تذكاري أقامته إسبانيا بمدينة المنكب تخليداً لذكرى عبد الرحمن الداخل



صورة لمسجد قُرْطُبَة الذي بناه عبد الرحمن الداخل والذي يتميز بأعمدته الكثيرة

عصر الإمارة

التقي الورع هشام بن عبد الرحمن الأموي

756- 796م

رُوْض البَنِينَ على العُلا.. شتّانَ ما بين عِزّ المُلوكِ وذلَّة المملوكِ

وينشأُ ناشئُ الفِتيان مِنّا... على ما كان عَوَّده أبـوهُ

وهكذا كان دين الأمراء الأمويين في الأندلس، فقد ربّى الأمير الداخل أبناءه على التضحية والفداء والجهاد لإعلاء الراية التي أُوكِلوا بحملها، فلمّا اقترب رحيل عبد الرحمن الداخل أوصى بالإمارة لابنه هشام، حيث النجابة والشجاعة والفطنة والذكاء، حتى لُقِبَ بـ(الرضا)، صنديدنا في هذه الصفحات أبو الوليد هشام بن عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان الأموي، وهو ثاني أمراء بني أمية في الأندلس.

مولده في قُرْطُبَة سنة 139هـ 756م، أي في العام الذي دخل فيه والده إلى قُرْطُبَة، وأسس الدولة الأموية فيها، أمه أم ولد -يعني كانت جارية- تدعى حوراء، وكانت أحب نساء عبد الرحمن إليه، ولم يكن هشام بأكبر إخوته من أبيه، إلا أن والده قد تَوَسَّمَ فيه الشهامة والنجابة وحسن التدبير، فاختاره من بين إخوته الإحدى عشر ليكون للإمارة، وعهد إليه بها.

وعندما تُوفي الأمير عبد الرحمن سنة 172هـ كان هشام في ماردة وقد ولاه أبوه عليها، فأخذ البيعة له أخوه عبد الله المعروف بابن البلنسي، وقدم هشام إلى قُرْطُبَة، وبايعه خاصة أهلها وعامتهم، إلا أن أخاه سليمان الأكبر منه سناً لم يرض ببيعة الأمير هشام، وكان سليمان في طُلَيْطِلَة، فأخذ البيعة لنفسه، وجرت بين هشام وسليمان مناوشات كثيرة، حتى خضع سليمان لحكم الأمير هشام، وطلب الأمان لنفسه وأهله، فأمَّنه هشام، وخرج سليمان إلى المغرب فأقام بها، وبعد ذلك نازعه أيضاً أخوه الأخر عبد الله ابن البلنسي، فعظم ذلك على هشام، لأنه كان يؤثره ويقدمه، واعتصم عبد الله في طُلَيْطِلَة، ثم طلب الأمان من أخيه، فأمّنه، وعفا عنه، وأكرمه.

وعلى الرغم من هذه الفتن التي عصفت بالدولة في أول إمارة هشام إلا أن ذلك لم يُنسِه المخاطر الخارجية، وكان هشام كأبيه يقدّر خطورة الدسائس الإفرنجية والإسبانية، وكانت عنده نزعة قوية للجهاد والغزو، فلم يكد ينتهي من التمردات الداخلية حتى وجّه جيشاً كبيراً، فاخترق مملكة قشتالة، واجتاح جليقية، وأنزل هزيمة كبيرة بالجلالقة وملكهم «برمودو» وحلفائهم من البشكنس، ووجه جيشاً أخر مع وزيره عبد الكريم بن مغيث إلى جيرونة في أقصى شمال شرق إسبانيا، فاكتسحها، ووصل إلى سبتمانيا وأربونة التي لم يصلها المسلمون منذ أيام عبد الرحمن الغافقي، ووقعت معركة كبيرة على ضفاف نهر أوربينا بين اربونة وقرقشونة في مكان يسمى «فيل دنى»، بين الفرنج بقيادة لويس بن شارلمان، وبين المسلمين، وارتدَّ على أثرها المسلمون

نحو الجنوب مثقلين بالغنائم والسبي، وأرغم أسرى الفرنج على حمل وجر أحمال من الأحجار من سور بنبلونة حتى قُرْطُبَة، وأمر هشام أن يبنى منها جناح جديد للمسجد تخليداً لتلك الغزوة الشهيرة.

واستأنفت بعد ذلك الغزوات والحملات على الممالك الإسبانية الشمالية، وكانت آخر حملة أرسلها هشام قبل وفاته بقليل سنة 180هـ، وكان هدف هذه الحملات جميعها هي تأمين حدود الولايات الشمالية للدولة الإسلامية في الأندلس، وإظهار قوة ومناعة وهيبة هذه الدولة أمام الإسبان ومملكة الفرنج في الشمال.

كان الأمير هشام بن عبد الرحمن عاقلاً حازماً، وافر الشجاعة والعزم، كثير العدل والتقوى، جم التواضع والرفق، ويقول ابن عبد ربه في كتاب العقد الفريد: كان أحسن الناس وجهاً، وأشرفهم نفساً، كامل المروءة، الحاكم بالكتاب والسنة، الذي أخذ الزكاة على حلها، ووضعها في حقها، لم يعرف عنه هفوة في حداثته، ولا زلة في أيام صباه، وقيل: إنه بلغ من تواضعه أنه كان يطوف شوارع قُرْطُبَة، ويختلط بالرعية، فيسمع المظالم بنفسه، ويعود المرضى، ويشهد الجنائز، وربما كان يخرج بنفسه في الليالي المطرة، فيلقي بصرر الأموال لمن يجده في المساجد بغية تعميرها بالمصلين، ويسعى إلى إغاثة المساكين بمختلف الوسائل.

وقد أجمع المؤرخون على تشبيهه في سيرته وعدله بالخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز، وكان هو يتحرى سيرته بالعدل ويقتدي بها، فكان يرسل

أناساً من خاصته وثقاته إلى المدن، للتحري عن مسلك الولاة، وسيرهم بالرعية، فإذا انتهى إليه انحراف من أحدهم عزله واشتد في عقابه.

ويروى أنه اعترض له يوماً مُتَظَلِّم من أحد عماله (أي من أحد ولاته)، فبعث هشام إلى الشاكي وقال له: احلف على كل ما ظلمك فيه ، فإن كان ضربك فاضربه، أو هتك لك ستراً فاهتك ستره، أو أخذ لك مالاً فخذ من ماله مثله، إلا أن يكون أصاب منك حداً من حدود الله، فجعل الرجل لا يحلف على شيء إلا ونفذ منه، فكان زجره هكذا لعماله، أبلغ من النكال والأدب.

ولم يتردد عن سجن ابنه الأكبر عبد الملك عندما ثبت لديه من تجاوزات أقرها باسم والده، وبقي عبد الملك في سجنه مدة طويلة وتوفي بعد وفاة والده.

والأمير هشام غيور على المسلمين في كل مكان، فقد أنفق أموالاً طائلة في افتداء أسرى المسلمين، حتى لم يبقَ منهم واحد في عهده في قبضة العدو.

ويقول ابن الأثير: وبلغ عز الإسلام في أيامه وذل الكفر أن رجلاً مات في أيامه، فأوصى أن يفك أسيراً من المسلمين من تركته، فطلب ذلك، فلم يوجد في دار الكفار أسيراً يُشتَرى ويفك لضعف العدو وقوة المسلمين، كما أنه رتّب في ديوانه أرزاقاً لأُسر الجند المتوفين في الجهاد، وفي عهده جعلت اللغة العربية لغة التدريس الرسمية في معاهد النصارى واليهود، وكان لهذا الإجراء أثر كبير في التقريب بين المسلمين والنصارى، وبث روح

التفاهم بينهما، كما أنه ساعد على اعتناق كثير من النصارى للإسلام.

وكان يؤثر مجالس العلم والأدب، ولا سيما الحديث والفقه على غيرها، وفي عصره انتشر مذهب الإمام مالك في الأندلس، وكان الإمام مالك معجباً بالأمير هشام وسيرته، يشيد بعدله وتقواه، وكان هشام كثير الإجلال لمالك ومذهبه، وكان قد رحل إلى المشرق عدد من فقهاء الأندلس منذ أيام الأمير عبد الرحمن الداخل، ودرسوا الحديث والفقه على الإمام مالك في المدينة، وعادوا إلى الأندلس، فذاع مذهب الإمام مالك على يدهم تشجيعاً من الأمير هشام، وغدا مذهب أهل الأندلس الغالب، وكانوا قبل ذلك يعملون بمذهب الأوزاعي إمام أهل الشام.

كما تابع سيرة والده في الاهتمام بالبناء والعمران، فعني بإتمام مسجد قُرْطُبَة الجامع الذي بدأ والده ببنائه، وأنشأ عدة مساجد أخرى، وزين قُرْطُبَة بكثير من الأبنية والحدائق الفخمة، كما جدد قنطرة قُرْطُبَة الشهيرة التي بناها السمح بن مالك الخولاني على النهر الكبير، وأنفق على تجديدها أموالاً كثيرة، وكان يشرف بنفسه على تجديدها، وبلغه عن بعض الناس أنهم قالوا: إنما بناها لتصيده ونزهته، فحلف ألا يجوز عليها إلا لغزو أو مصلحة.

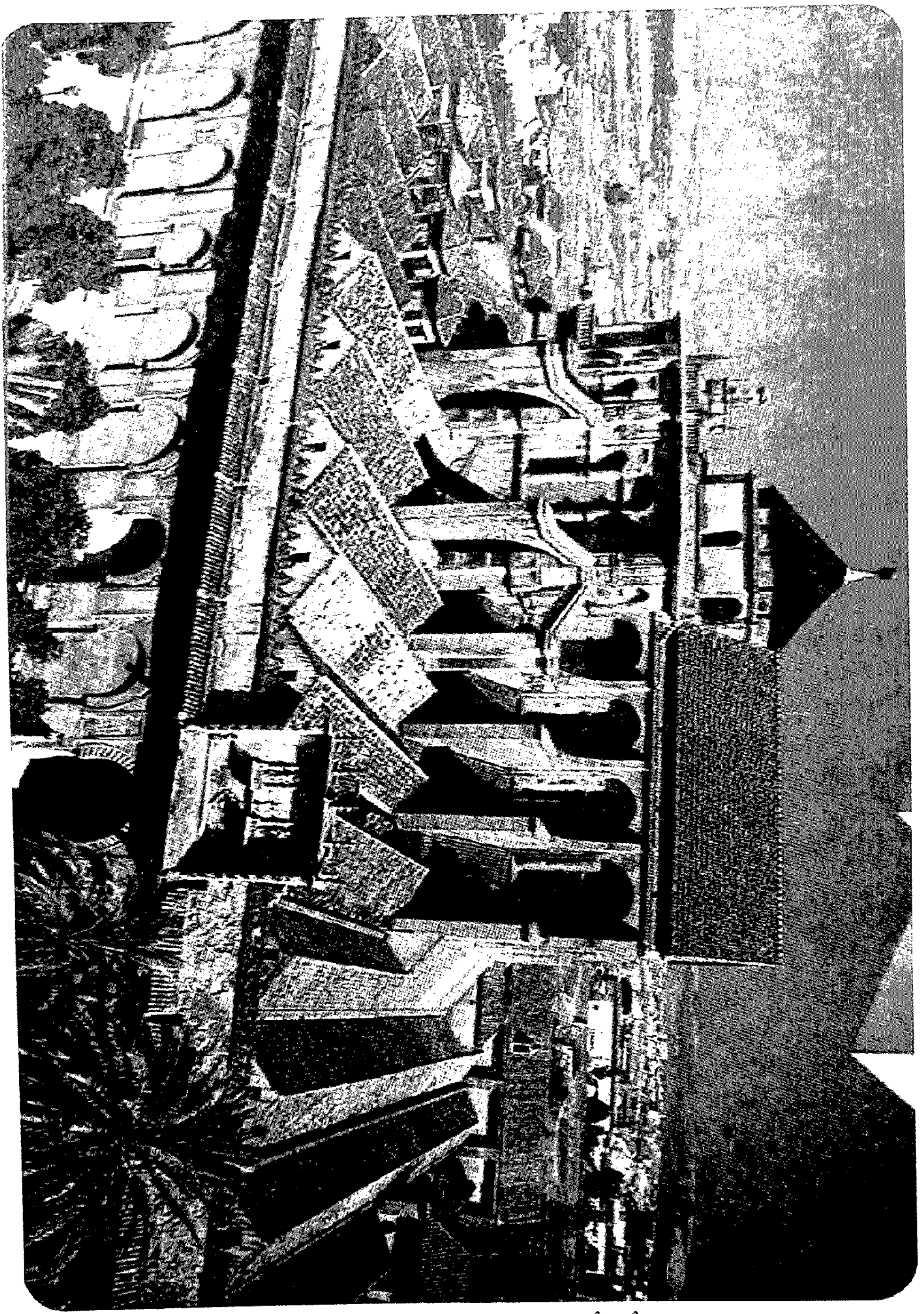
وبالمجمل فقد كان عهده زاهراً، وافر الأمن والرخاء، وهو أعدل أمراء الأندلس قاطبة منذ الفتح حتى السقوط.

وكانت وصيته إلى ابنه الحكم: يا بُنيّ، يجب ألا تنسى أن المُلك لله،

يعطيه لمن يشاء، ويأخذه ممن يشاء، وقد منحنا الله السلطة، ووضع في أيدينا صولجان الملك برحمته الواسعة، فعلينا أن نقدم له الحمد والشكر على نعمائه، وأن ننفِّذ إرادته بالمعاملة الطيبة لكل الناس، خاصة أولئك الذين يلجؤون إلينا طالبين حمايتنا، كن عادلاً سوياً مع الفقراء والأغنياء، ولا تترك للظلم سبيلاً إلى دولتك، وكن في ذات الوقت رحيماً عطوفاً على من يعتمد عليك، فكلهم خلق الله.

وأوصاه أيضاً ألا يدع عقاب الوزراء والحكّام الذين يميلون مع الهوى، ولا يعدلون في شعبهم، ويوصيه بأن يكون معهم حازماً وقوياً، ويوصيه بكسب حب الشعب، لأن في تعاطفهم أمان الدولة، وفي خوفهم يكمن الخطر، وفي كرههم يكمن الانهيار المحقق، ويوصيه بالفلاحين لأنهم الذين يعملون ليُوفِّروا قوت الشعب، ويختم نصائحه بقوله: فاحكم بطرية تجعل ألسنة شعبك تلهج بشكرك، وهم يعيشون سعداء في ظل حمايتك وعطفك، يجنون مباهج الحياة في ثقة وهدوء، ففي كل هذا يكون الحكم الصالح، فإذا استطعت تحقيق ذلك كنت سعيداً، وجنيت الشهرة كأعظم أمير في العالم.

تُوفي رحمه الله سنة 180هـ 796م، ولم يتجاوز الأربعين من العمر، رحمه الله تعالى، وأسكنه في أعلى عليين، إنه هو السميع المتين.



صورة لمسجد قُرْطُبَة الذي أكمل بناءه هشام بن عبد الرحمن

عصر الإمارة

الإمام يحيى بن يحيى الليثي

769- 849م

قال تعالى:{يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ}[المجادلة : 11]

وكما روى الإمام مسلم في صحيحه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهَّل الله له به طريقاً إلى الجنة».

وكما قال الشاعر:

العلمُ يرفعُ بيوتاً لا عِمادَ لها　　　ويَهدمُ الجَهلُ بَيتَ العزِّ والكَرَمِ

وحديثنا في هذه الصفحات عن إمام نحرير، وصنديد من صناديد العلم والمعرفة، اختار العلم ليكون له طريقاً وسبيلاً لإصلاح أمر الأُمَّة، فنهل عن إمام دار الهجرة الإمام مالك بن أنس،وسمع منه الموطأ، وعاد إلى الأندلس ليروي الموطأ ويصبح بعد ذلك مرجعاً لطلبة العلم إلى يومنا هذا، فلا تجد طالب علم له غنى عن رواية الليثي لموطأ الإمام مالك.

اسمه: يحيى بن يحيى بن كثير بن وسلاس، أبو محمد الليثي البربري المصمودي الأندلسي القرطبي، الإمام الكبير، فقيه الأندلس، وإمام

المذهب المالكي فيها، مولده سنة 152هـ 769م، وجدُّه كثير من أوائل الداخلين إلى الأندلس، أخذ العلم عن زياد بن عبد الرحمن المعروف بشطبون، ثم رحل إلى المشرق، في أواخر أيام الإمام مالك، فسمع منه الموطأ سوى باب الاعتكاف، ثم حج، ورجع إلى المدينة ليزداد من مالك، فوجده في مرض الموت، فأقام إلى أن توفاه الله، وشهد جنازته.

وروي أنه لما ارتحل إلى مالك لازمه، فبينما هو عنده في مجلسه مع جماعة من أصحابه، إذ قال قائل: حضر الفيل، فخرج أصحاب مالك كلهم، ولم يخرج يحيى، فقال له مالك: ما لك لم تخرج، وليس الفيل في بلادك؟ فقال: إنما جئت من الأندلس لأنظر إليك، وأتعلم من هديك وعلمك، ولم أكن لأنظر إلى الفيل، فأعجب به مالك، وقال: هذا عاقل الأندلس، ثم رجع إلى قُرْطُبَة بعلمٍ جم، وتصدر للاشتغال، وازدحموا عليه، وبعُد صيته، وانتفعوا بعلمه وهديه وسمته.

قال عنه الذهبي: كان كبير الشأن، وافر الجلالة، عظيم الهيبة، نال من الرئاسة والحرمة ما لم يبلغه أحد.

وروايته للموطأ مشهورة، حتى إن أهل المشرق الآن يُسنِدون الموطأ من روايته كثيراً مع تعدد رواة الموطأ، وكان يحيى بن يحيى قد روى الموطأ بقُرْطُبَة عن زياد شطبون، وسمع بمصر من الليث بن سعد، وبمكة من سفيان بن عيينة، وتَفَقَّه بالمدنيين والمصريين كعبد الله بن وهب، وعبد الرحمن بن القاسم، وهما من كبار أصحاب مالك، وانتهت إليه الرياسة بالأندلس ، وبه اشتهر مذهب مالك في تلك الديار، وتَفَقَّه به

جماعة لا يُحصَون عدداً، وروى عنه خلق كثير.

وكان مع أمانته ودينه معظماً عند الأمراء، عفيفاً عن الولايات متنزهاً، وكان أعلى من القضاء رتبة عند أمراء بني أمية في الأندلس، لزهده في القضاء وامتناعه.

قال ابن حزم: يحيى بن يحيى كان مَكيناً عند السلطان، مقبول القول في القضاة، وكان لا يلي قاضٍ في أقطار بلاد الأندلس إلا بمشورته واختياره، ولا يشير إلا بأصحابه ومن كان على مذهبه، والناس سراع على الدنيا، فأقبلوا على ما يرجون بلوغ أغراضهم به، على أن يحيى لم يلِ قضاء قط (أي لم يولى)، ولا أجاب إليه، وكان ذلك زائداً في جلالته عندهم، وداعياً على قبول رأيه لديهم.

يقول ابن عبد البر القرطبي: قدم يحيى بن يحيى الأندلس بعلمٍ كثير، فعادت فتيا الأندلس بعد عيسى بن دينار الفقيه عليه، وانتهى السلطان والعامة إلى رأيه، وكان فقيهاً حسن الرأي.

ويقول ابن بشكوال: كان يحيى بن يحيى مُجاب الدعوة، قد أخذ نفسه في هيئته ومقعده هيئة مالك الإمام بالأندلس ، فإنه عُرض عليه قضاء الجماعة فامتنع، فكان أمير الأندلس لا يولِّي أحداً القضاء بمدائن إقليم الأندلس إلا من يشير به يحيى بن يحيى، فكثر لذلك تلامذة يحيى بن يحيى، وأقبلوا على فقه مالك، ونبذوا ما سواه.

وكان يحيى قد اتُّهم بالمشاركة بتمرد أهل الربض على الأمير الحكم بن

هشام الأموي، فخرج إلى طُلَيْطِلَة، ثم استأمن، فكتب إليه الحكم بن هشام أماناً، فعاد إلى قُرْطُبَة.

وكان له من الأبناء خمسة أبناء من كبار العلماء، ونذكر منهم:

الابن الأول محمد بن يحيى بن يحيى بن كثير الليثي (توفي في حياة أبيه)، خرج في حياة أبيه حاجاً، ولقي سحنون بن سعيد بإفريقية، ولقي بمصر رجالاً من أصحاب مالك، فسمع منهم، وعرف بالفقه والزهد، وجاور بمكة، وتوفي هنالك في حياة أبيه، ولما أتاه نَعيُه حزن عليه حزن شديد.

الابن الثاني: إسحاق بن يحيى بن يحيى الليثي (ت261هـ)

وهو إسحاق بن يحيى بن يحيى، أبو يعقوب الليثي القرطبي الأندلسي، سمع من أبيه وغيره، وعنه ابنه يحيى، كان إسحاق بن يحيى فقيهاً إماماً معتمداً، جمع بين الفقه والحديث، قال عنه مخلوف: (الفقيه الإمام العالم العمدة)، توفي بالأندلس في شهر ربيع الآخر سنة (ت261هـ)

الابن الثالث: عبيد الله بن يحيى بن يحيى أبو مروان الليثي (ت298هـ)

وهو عبيد الله بن يحيى بن يحيى بن كثير، أبو مروان الليثي مولاهم الأندلسي القرطبي، حمل عن أبيه العلم، وسمع منه الموطأ، وهو آخر من حدَّث عنه، ورحل للحج والتجارة بعد موت والده، وسمع بمصر من محمد بن عبد الرحيم بن البرقي شيئاً يسيراً، وببغداد من أبي هشام الرفاعي، وكان عبيد الله بن يحيى ممن (طال عمره، وتنافس

أهـل الأندلـس في الأخـذ عنـه).

ووصفـه الذهبـي ب(الفقيـه)، وقـال عنـه أيضـاً: (كان جليـلاً نبيـلاً كبـير الشـأن)، كـما حـلاه بالقـول: (فقيـه قُرْطُبَـة، ومسـند الأندلـس، أبـو مـروان عبيـد الله...)، وقـال عنـه ابـن فرحـون: (كان ذا حرمـة عظيمـة وجلالـة). وتـوفي في شـهر رمضـان سـنة 298هـ، وصـلى عليـه ولـده يحيـى.

الابـن الرابـع: إسـماعيل بـن يحيـى بـن يحيـى بـن كثـير (تـوفي في حيـاة أبيـه)
هـو أبـو القاسـم إسـماعيل بـن يحيـى بـن يحيـى بـن كثـير الليثـي، مـن أهـل قُرْطُبَـة، روى عـن أبيـه، وتـوفي في حياتـه، وكان طويـلاً فائـق الطـول، أديبـاً شـاعراً.

وكانـت وفـاة يحيـى بـن يحيـى الليثـي رحمـه الله في قُرْطُبَـة سـنة 234هـ 848م في عهـد الأمـير عبـد الرحمـن بـن الحكـم الأمـوي، وقيـل: لم يعـطَ أحـد مـن أهـل العلـم بالأندلـس مـن الحظـوة، وعظـم القـدر، وجلالـة الذكـر، مـا أُعطِيَـه يحيـى بـن يحيـى الليثـي قبـل أن ينتقـل للـدار الآخـرة، رحمـه الله تعـالى، ونفعنـا بعلمـه وكتبـه، ونفـع بهـا المسـلمين.

عصر الإمارة

الإمام عبد الملك بن حبيب السلمي

790 - 853م

كان أجدادنا ينهلون من العلم ما يستطيعون نهله، فكان كلٌّ منهم بارعاً في عدة علوم وفنون، وصنديدنا هذا استطاع أن يجمع بين علم الشرعية وعلم اللغة والنحو، وعلم الطب، فجعل من علم النحو آلة لتعلم الشريعة والفقه، وجعل من علوم الشريعة سبيلاً لتعلم علم الطب وفنونه، وهنا الحديث عن الصنديد الامام عبد الملك بن حبيب السلمي.....

اسمه: عبد الملك بن حبيب بن سليمان بن هارون جلهمة ابن الصحابي عباس بن مرداس السلمي العباسي الأندلسي القرطبي المالكي فقيه الأندلس، ومن كبار علماء المذهب المالكي، مولده سنة 174هـ 790م، في إلبيرة قرب قُرْطُبَة، وكان جده سليمان مقيماً في طُلَيْطِلَة، ثم رحل إلى قُرْطُبَة وأقام بها، وقد نشأ عبد الملك في قُرْطُبَة، وفي سنة 208هـ رحل إلى المشرق لطلب العلم، فأخذ عن كبار العلماء كابن المجاشون، وعدد من أصحاب الإمام مالك، والليث بن سعد...

درس الفقه والحديث واللغة والنحو في الحجاز ومصر، ثم عاد سنة 210هـ وقد جمع علماً عظيماً، وفقهاً كثيراً، ثم نزل في بلدة إلبيرة، وعلا

شأنه في العلم، فنقله الأمير عبد الرحمن بن الحكم الأموي إلى قُرْطُبَة، وعَيَّنَه في طبقة المفتين بها، فأقام مع يحيى بن يحيى الليثي زعيماً في المشاورة والمناظرة، ثم انفرد بعد وفاة يحيى بن يحيى في رئاسة هذا الشأن.

وكان موصوفاً بالحذق في الفقه، كبير الشأن، بعيد الصيت، كثير التصانيف، إلا أنه في رواية الحديث غير متقن.

يقول الفتح في مطمح الأنفس: (الفقيه العالم أبو مروان عبد الملك بن حبيب السلمي، أي شرف لأهل الأندلس ومفخر، وأي بحر بالعلوم يزخر، خَلَّدت منه الأندلس فقيهاً عالماً، أعاد مجاهل جهلها معالماً، وأقام فيها للعلوم سوقاً نافقة، ونشر منها ألوية خافقة، وجلا عن الألباب صدأ الكسل، وشحذها شحذ الصوارم والأسل، وتصرف في فنون العلوم، وعرف كل معلوم، وسمع بالأندلس وتفقه، حتى صار أعلم من بها وأفقه، ولقي أنجاب مالك (الأنجاب جمع نجيب، أي ذكي فقيه)، وسلك من مناظرتهم أوعر المسالك، حتى أجمع عليه الاتفاق، ووقع على تفضيله الإصفاق).

قال ابن الفرضي: (وكان عبد الملك بن حبيب رحمه الله نحوياً، عرضياً شاعراً، حافظاً للأخبار والأنساب والأشعار، طويل اللسان، متصرفاً في فنون العلوم).

وقال الذهبي: (وكان موصوفاً بالحذق في مذهب مالك).

وقال الذهبي أيضاً: (وقال بعضهم: هاجت رياح وأنا في البحر، فرأيت عبد الملك بن حبيب رافعاً يديه، متعلقاً بحبال السفينة يقول: «اللهم إن كنت تعلم أني إنما أردت ابتغاء وجهك وما عندك فخلصنا» فسلَّم الله).

وبجانب أن عبد الملك بن حبيب كان فقيهاً ومؤرخاً ونحوياً، فهو من أوائل من اشتهروا بمزاولة الطب، في عهد الإمارة الأموية في الأندلس،

وقد ورد في فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية (الطب والصيدلة) أنه عُثر على مخطوط في الطب، محفوظ في الخزانة العامة والوثائق برباط الفتح، مدون بالخط المغربي، وهو من تصنيف عبد الملك بن حبيب، جمع فيه أقوالاً وأمثالاً ونصائح تتعلق بحفظ الصحة، والوقاية من الأمراض، وفيه كثيرٌ من الأحاديث المأثورة عن الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه، والأقوال المنقولة عن لسان الحارث بن كِلِّدَة، وغيره من المتطببين الذين ظهروا في العصر الجاهلي وصدر الإسلام، ويحوي هذا المختصر أيضاً النهي عن الإيمان بالسحر والتمائم، والنهي عن الجراحة، خوفاً من قطع العروق ونزف الدم، كما يضم شرحاً لمنافع الحجامة ومساوئها، وبيان الأسباب التي دعت المسلمين إلى كراهة الحجامة والكي، والوصية باستعمال الماء البارد في معالجة الحُمّى، وشرحاً لطرق معالجة المصابين بالصداع والجذام.

أما الأدوية والعقاقير الوارد ذكرها في هذا الكتاب فهي: الترياق، دهن البنفسج، الملح، الحرمل، السمن، اللبن، الحبة السوداء، الحناء،

الحلبة، العسل، السكر.

وقال أحد معاصريه: رأيته يخرج من الجامع وخلفه نحو من ثلاثمئة بين طالب حديث، وفرائض، وفقه، وإعراب.

ويروى أنه جاء إلى مصر في رحلته وكان جميل المنظر والهيئة فأصبح أهلها يتحدثون عنه: فقال أحدهم هذا فقيه، وقال آخرون: بل شاعر، وقال آخرون: طبيب، وقال آخرون: خطيب، فلما كثر اختلافهم، تقدموا نحوه، وأخبروه باختلافهم فيه، وسألوه عما هو، فقال لهم: كلكم قد أصاب، وجميع ما قررتم أُحْسِنُه، والخبرة تكشف الخبرة، والامتحان يجلي عن الإنسان، فلما حط رحله ولقي الناس، شاع خبره، فَوَرَدَ إليه كل ذي علم يسأله عن فنه، وهو يجيبهم جواب متحقق، فعجبوا من ثبوت علمه.

ومؤلفاته كثيرة، قيل: تزيد على الألف مؤلف ومنها «الواضحة» في عدة مجلدات، وهو كتابه الشهير في الفقه المالكي، وكتاب «الجامع»، وكتاب «فضائل الصحابة»، وكتاب «غريب الحديث»، وكتاب « تفسير الموطأ»، وكتاب في «حروب الإسلام»، وكتاب «فضل المسجدين»، وكتاب «سيرة الإمام فيمن ألحد»، وكتاب «طبقات الفقهاء»، وكتاب «مصابيح الهدى»، «ومكارم الأخلاق»، «واستفتاح الأندلس».

وعندما توفي ابن حبيب، قيل لسحنون: مات ابن حبيب، فقال: مات عالم الأندلس، بل والله عالم الدنيا.

وقال العتبي وقد ذكر كتاب الواضحة: رحم الله عبد الملك، لا أعلم أحداً ألف على مذهب أهل المدينة تأليفه، ولا لطالبٍ أنفع من كتبه، ولا أحسن من اختياره.

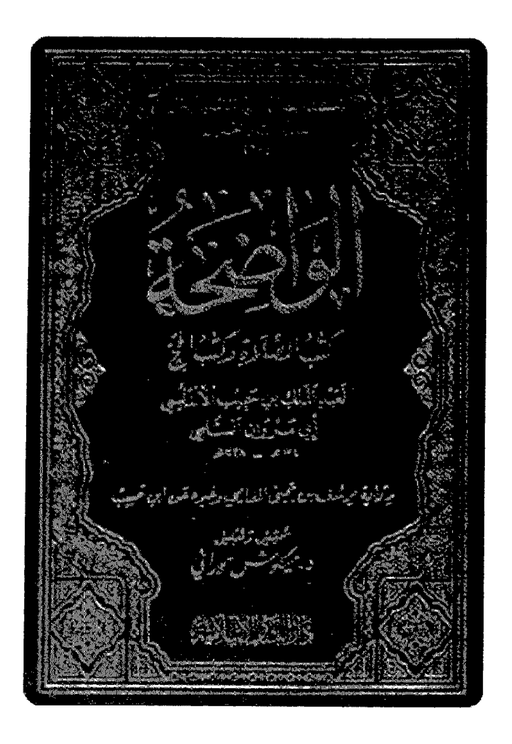
وكان ابن لبابة يقول: عبد الملك بن حبيب عالم الأندلس، ويحيى بن يحيى عاقلها، وعيسى بن دينار فقيهها.

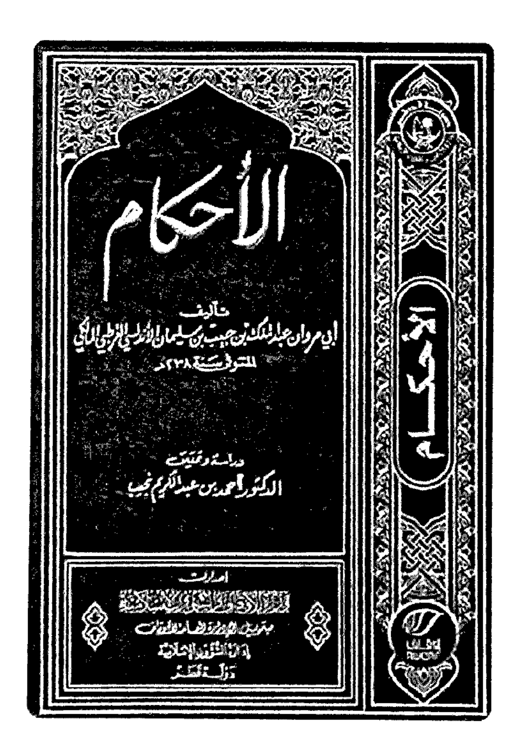
وأخباره كثيرة استقصاها القاضي عياض في كتابه «ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك».

وتوفي عبد الملك بن حبيب رحمه الله في أول ولاية الأمير محمد بن عبد الرحمن رحمه الله في سنة 238هـ 853م.

ويقال: كانت علته التي مات منها الحصى، وتوفي وعمره أربع وستون سنة .

رحم الله علمائنا الربانيين، وأسكنهم في علّيّين، إنه هو السميع العليم.


الواضحة


الأحكام
تأليف
أبي مروان عبد الملك بن حبيب بن سليمان الأندلسي القرطبي المالكي
المتوفى سنة ٢٣٨هـ
دراسة وتحقيق
الدكتور أحمد بن عبد الكريم نجيب
الأحكام

عصر الإمارة

الأمير عبد الرحمن بن الحكم الأموي

792 - 852م

واصل ليله بنهاره لتنام أمته مطمئنة آمنة، جاهد في البَر، وقاتل في البحر، أمّن الراحة والطمأنينة للرعية وأكرمهم، رفع قدر المسلمين في إمارته، وأرهب الصليبيين بقوته، أميرٌ من أمراء بني أمية، أمير من أمراء الأندلس، أمير من أمراء المسلمين، ساهم في نهضة الأندلس وعلوّ شأنها، إنه الأمير عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل الأموي، أبو المطرف، وهو رابع أمراء بني أمية في الأندلس.

مولده في طُلَيْطِلَة سنة 176هـ 792م، عندما كان أبوه والياً عليها في عهد جده هشام بن عبد الرحمن، وبويع له بإمرة الأندلس بعد وفاة والده الحكم بن هشام سنة 206هـ، ولما ولي بعث في إخوته ووزرائه وأهله فبايعوه، وبايعه عامة الناس، ثم صلَّى على أبيه الحكم، فلما قضى صلاته، وواراه الثرى ، وجلس من كان معه، ثم افتتح القول فقال: الحمد لله الذي جعل الموت حتماً من قضائه، وعزماً من أمره، وأجرى الأمور على مشيئته، فأستأثر بالملكوت والبقاء، وأذلَّ خلقه بالفناء، تبارك اسمه وتعالى جده، وصلى الله على محمد نبيه ورسوله، وسلم تسليماً، وكان مصابنا بالإمام رحمه الله (يقصد والده الحكم) مما جلَّت به المصيبة، وعظمت به الرزية، فعند الله نحتسبه، وإياه نسأل

إلهام الصبر، وإليه نرغب في كمال الأجر والذخر، وعهد إلينا فيكم بما فيه صلاح أحوالكم، ولسنا مما يخالف عهده، بل لكم لدينا المزيد إن شاء الله، ثم قام عنهم، وخرجت إليهم الأموال والكساء على قدر أقدارهم.

كان الأمير عبد الرحمن كأبيه الحكم بن هشام أميراً وافر البأس والعزم، رفيع الصفات.

ووصفه ابن حَيَّان القرطبي بأنه كان أشمّ، أقنى، أعين، أسود العينين، طوال فخم، مسبل، عظيم اللحية، يخضب بالحناء.

وفي عهده وصل البلاط الأموي إلى درجة لم تسبق من البهاء والروعة، وسطعت الفروسية الأندلسية، وتجلت هذه الروعة فيما بعد وأصبحت مثلاً يحتذى به في مجتمعات العصور الوسطى، وعنها اقتبست فروسية النصرانية فيما تلاها من العصور، ورتَّب أمور الدولة أبدع ترتيب، ورفع من شأن الوظائف العامة، فأحيطت بسياج من الهيبة والمسؤولية، وجعل «أحكام السوق» منصباً مستقلاً عن ولاية المدينة، واتبع رسوم الخلفاء في الزينة والشكل وترتيب الخدمة، ووضع الوزارة المنظمة، فكان حسن الاختيار لرجال دولته من وزراء وقادة، -كما يقول الرازي- «وانتقى الرجال للأعمال، واستوزر الأكفاء من أهل الاكتفاء (استوزر أي اتخذه وزيرا)، وقدوة الأبطال ذوي الغَنَاء (الغناء أي الاستغناء عن الناس)، فظهر في أيامه جلة الوزراء وكبار الفقهاء».

ويروى أن عاملاً من عماله كتب إليه يسأله عملاً رفيعاً ليس من

شاكلته، فوقَّع له الأمير عبد الرحمن في أسفل كتابه: (من لم يُصِب وجه مطلبه، كان الحرمان أولى به).

وكان عددٌ من وزرائه من أعظم وألمع رجالات العصر، مثل الحاجب عبد الكريم بن مغيث، والقائد عيسى بن شهيد، والوزير هاشم بن عبد العزيز، وكان الوزراء يبحثون ويداولون في شؤون الدولة وأمورها في جناح خاص بالقصر سمي «بيت الوزراء».

كما اجتمع في عهده جمهرة من جلّة الفقهاء والقضاة، رحل معظمهم إلى المشرق في طلب العلم، منهم عبد الأعلى بن وهب، وبَقِيّ بن مَخْلَد، وعبد الملك بن حبيب، ويحيى بن يحيى، وجميعهم من أجلاء الفقهاء وكبار المحدثين.

واعتنى الأمير عبد الرحمن بالمنشآت العامة أعظم عناية، فزاد في مساحات جامع قُرْطُبَة من جانب القبلة، كما بنى مسجد إشبيليا، وبنى سورها الكبير بعد غزو النورمانيين لها، ووضع نظاماً جديداً للسكة (أي النقود)، وجعلها أندلسية خالصة، بقيم وأوزان جديدة، وكان أهل الأندلس يتعاملون بما يحمل إليهم من نقود من المشرق، أو بنقود تُسكُّ في دار السكة التي أنشأها عبد الرحمن الداخل، وأنشأ أجنحة ومشارف جديدة للقصر، وجلب إليه الماء العذب من ينابيع الجبال، وأنشأ على النهر الكبير مما يلي سور المدينة والقصر سداً عظيماً، كما أنشأ بقُرْطُبَة عدد من الحدائق الغَنَّاء، وحذت جواريه حذوه، فأنشأن في قُرْطُبَة عدة مساجد سميت بأسمائهن.

ويقول سان أولوخيو: إن عبد الرحمن أصبغ على عاصمة مملكته لوناً خارقاً من العظمة، ورفع من ذكرها، وأفاض عليها حلل المجد، وأغدق عليها الثروات، وملأها بجميع مظاهر المتعة الدنيوية إلى حدود لا تصدق.

وكانت أيام الأمير عبد الرحمن أيام سكينة وأمن ورخاء، ازدهرت فيها الزراعة والصناعة والتجارة، وزُخرت الأسواق بالبضائع بعد أن وردت إلى الأندلس كثير من الأمتعة والسلع الفاخرة، وزاد الدخل زيادة عظيمة، وبلغت الجباية وحدها قرابة ألف ألف دينار، فاستطاع الأمير أن ينفق بسخاء على تسيير الحملات الغازية، وإقامة المنشآت المختلفة.

وكان عبد الرحمن ذا همة عالية، فكانت له غزوات كثيرة كما يقول ابن عذارى: وفتوحات في دار العدو شهيرة، يخرج إليها في العدد الجم، والعسكر الضخم، يخرب ديارهم، ويعفي آثارهم (أي يمحوها)، ويقفل ظاهر الاعتلاء (أي يرجع ونصره ظاهر)، قاهر الأعداء، لم يلقَ المسلمون معه بؤساً، ولم يروا في مدته يوماً عبوساً.

وكانت أغلب غزواته تأديبية تهدف إلى إيقاع الرعب في الممالك النصرانية المجاورة إذا اقتربت أو اعتدت على حدود المسلمين، واهتم ببناء أسطول قوي لدولته، خاصة بعد غزو النورمانيين لإشبيليا، فبعد أن فرغ من بناء سورها، أنشأ فيها داراً عظيمة لصناعة السفن، واهتم بصنع السفن الحربية الكبيرة، هذه السفن التي غزت فيما بعد جزيرتي

ميوروقة ومنورقة بعد أن اعتدوا على الأسطول الإسلامي، حيث أرسل الأمير عبد الرحمن أسطولاً أخضعهما، حتى أرسل أهلها إلى الأمير عبد الرحمن يطلبون الأمان ودفع الجزية، فأجابهم إلى ما طلبوا، كما غزا البحارة المسلمون في عهده شواطئ فرنسا الجنوبية (مرسيليا)، وأثخنوا فيها، ولم يجرؤ ملك الفرنج لويس بن شارلمان على ردّهم، ثم توالت الغزوات بعد ذلك، وأُقيمت مجمعات عربية في جنوب فرنسا وشمال إيطاليا.

وكان عبد الرحمن أديباً مثقفاً، وكاتباً بليغاً مشرق البيان، عالماً بالشريعة والحكمة والفلسفة كمعاصره في ذلك العصر الخليفة العباسي المأمون، وكان أيضاً محباً للعلوم والآداب، احتشد حوله جمهرة من أكابر العلماء والأدباء والشعراء، مثل العلامة الرياضي والفلكي عباس بن فرناس، وشاعره الخاص عبد الله بن الشمر بن نمير الذي كان صديقه منذ أن كان وليّاً للعهد، وكان يعشق الفلك، ويقرب أهل ذلك العلم، واهتم بالفن، فوفد عليه من المشرق نابغة الفن والموشحات علي بن نافع الشهير بزرياب، الذي كان تلميذ إسحاق الموصلي نديم الخليفة العباسي هارون الرشيد، وقد أكرم عبد الرحمن زرياب وأحسن وفادته، وكان لزرياب وفنه أعظم الأثر في تكوين الفن الأندلسي في ظل الدولة الأموية، ثم في ظل دول الطوائف.

وشُغف عبد الرحمن بجمع الكتب كالمأمون العباسي، فأوفد شاعره عباس بن ناصح إلى المشرق للبحث عن الكتب القيمة واستنساخها،

فجمع لـه منها طائفـةً كبـيرة، وكان أولَ مـن عُنـي بجمعهـا مـن أمـراء الأندلـس، وكانـت جهـوده في هـذا السـبيل نـواةً لإنشـاء مكتبـة قُرْطُبَـة العظيمـة.

وفي عهـده عـلا وكـبرَ شـأنُ الدولـة الإسـلامية في الأندلـس، وأخـذت تتبـوَّأ مكانـةً رفيعـةً مـن الهيبـة والنفـوذ بـين مختلـف الـدول الأوروبيـة، فغـدت مركـز التوجيـه للدبلوماسـية الإسـلامية في الغـرب، وقـد حاولـت الإمبراطوريـة البيزنطيـة عقـد حلـف وروابـط مـودة مـع الدولـة الأمويـة في الأندلـس، فأرسـل الإمبراطـور البيزنطـي سـفارة كبـيرة إلى قُرْطُبَـة، واجتمعـت مـع الأمـير عبـد الرحمـن الـذي ردّ السـفارة بسـفارة إسـلامية إلى القسـطنطينية، وكان الـذي يجمـع بـين الأمويـين في الأندلـس والإمبراطوريـة البيزنطيـة عداؤهمـا للدولـة العباسـية في المشرق، إلا أن عبـد الرحمـن وعلى الرغـم مـن تبـادل السـفارات مـع البيزنطيـين لم يشـأ الغـدر بإخوانـه في الديـن مـن العباسـيين.

وبالمجمـل فـإن عهـد الأمـير عبـد الرحمـن بـن الحكـم في الأندلـس مـن أجمل العهـود وأنضرهـا، فكانـت قُرْطُبَـة تعيـش ربيعـاً جميـلاً طـوال فـترة حكمـة البالغـة اثنتـان وثلاثـون سـنة، وهـو يشـبه الوليـد بـن عبـد الملـك بإقامـة فخامـة الملـك، والمأمـون العباسـي في حبـه للفلسـفة والأدب وجمـع الكتـب.

تـوفي رحمـه الله سـنة 238هـ 852م، وعمـره 62 عامـاً، وخلفـه في الإمـارة ابنـه محمـد بـن عبـد الرحمـن الـذي اقتفـى سـيرة والـده بالعـدل والإحسـان والغـزو والجهـاد، رحمهـم الله جميعـاً....



الحدائق الأندلسية الباهرة في عهد عبد الرحمن بن الحكم

عصر الإمارة

سفير الأندلس يحيى الغزال الحكيم

773 - 864 م

أصبحتُ واللهِ مَحسُوداً على أَمَدٍ　　مِنَ الحياةِ قصيرٍ غيرِ مُمتَدِّ

حتى بقيتُ بحمدِ اللهِ في خَلَفٍ　　كأنَّني بَينَهم مِنْ خَشيةٍ وَحدِي

كلمات يقولها لأنه تعرض للحسد على طول عمره، ولعل ذلك يذكرنا بقول النبي صلى الله عليه وسلم: «خيركم من طال عمره، وحسن عمله»، نحو قرن من الزمان عاشه سفيراً من سفراء الإسلام، خطَّ خلالها صفحات مجد وعز وهيبة رُسمت في تاريخ المسلمين في الأندلس، وأظهر عزَّة المسلم ووقار الإسلام في مجلس منظارة كان قد حضره وأذهل جميع الحاضرين، فمن هو هذا الرجل؟؟؟

نعم إنه الصنديد السفير، والشاعر يحيى الغزال الأندلسي....

يحيى بن الحكم البكري، أبو زكريا، أحد أعلام الأندلس في الأدب والحكمة والسياسة، والرحالة، سفير الدولة الأموية إلى البلاد الأوروبية، أصله من جيَّان، ومولده بها سنة 156هـ773م.

لُقِّب بالغزال لجماله وظرافته وأناقته، ومنذ حداثة سنة أخذ في نظم الشعر، وكان شِعْرُه يميل إلى الدعابة والتهكم اللادع، وبدأ يلمع نجمه

أيام الحكم بن هشام الأموي، وكان الحكم يميل إلى الشعراء والأدباء والفلاسفة بعكس والده هشام الذي كان يؤثر الفقهاء والمحدثين على غيرهم ، وصفة الشاعر والفيلسوف المفكر لم تكن أخص ما تميزت به شخصية يحيى الغزال، فقد عرف الغزال بصفة أجل وأخطر، هي صفة الحكيم الناصح، والسياسي المحنَّك، واشتهر بأصالة الرأي وحسن التدبير، واللباقة والدهاء، ومع أنه لم يكن من رجال الدولة الرسميين، فقد كانت هذه الصفات تفسح له في البلاط الأموي مكانة خاصة، وتجعله موضع الثقة والتقدير، ولما تُوفِّي الأمير الحكم بن هشام سنة 206هـ، وخلفه ابنه الأمير عبد الرحمن بن الحكم، ظل الغزال على مكانته في الدولة، ونُظم في سلك كُتَّاب البلاط، وكان منصب الكتابة من المناصب التي تسند عادة إلى المقرَّبين من خاصة الأمير الأموي وجلسائه من الأدباء والشعراء، فتغدو لهم مورد رزق.

وتوثَّق بين يحيى والأمير عبد الرحمن صداقة متينة جداً، وكان عبد الرحمن يستشيره في كثير من شؤون الدولة ومهامها، بل كلفه بمهام كبيرة، منها إرساله في سفارة كبيرة إلى الإمبراطورية البيزنطية، وذلك أن الإمبراطور البيزنطي «تيوفلوس» أرسل في سنة 225هـ إلى الأمير عبد الرحمن بن الحكم وفداً كبيراً معه هدايا فخمة، ورسالة تحوي تذكير الأمير عبد الرحمن بالمودة والصداقة بين بني أمية الأوائل وقياصرة القسطنطينية، كما يشكو للأمير ما فعله المأمون ثم المعتصم العباسي بعد الهجوم على مدينة عمورية، وقد لقت هذه السفارة اهتماماً كبيراً في بلاط قُرْطُبَة، وعزم الأمير عبد الرحمن على ردِّها بما يليق من الاهتمام،

فاتجهت أنظاره إلى صديقه وكاتبه ومستشاره يحيى الغزال، وكانت شخصيته الممتازة، وكياسته ولباقته تُرشِّحُه إلى مثل هذه المهمة الكبيرة، وكان الغزال قد قارب السبعين يومئذٍ، إلا أنه كان يبدو فَتِياً، ويحتفظ بكثير من ظُرفه وأناقته، وقَبِل الغزال تلك المهمة، ونُدِبَ ليقدم كتاب الأمير وهديته إلى قيصر القسطنطينية، وغادر قُرْطُبَة مع صديقه يحيى بن حبيب برفقة السفير البيزنطي إلى القسطنطينية، حيث وصلوا إليها بعد رحلة بحرية شاقة، عاينوا فيها الأهوال من اضطراب البحر.

وعندما مَثُل الغزال أمام الإمبراطور البيزنطي سحره ببديع حديثه، ورائق كلامه، وعمل على إحكام الصلة بين مليكه والإمبراطور في جو يفيض عطفاً وثقة، وعاد الغزال إلى قُرْطُبَة بعد رحلة دامت أشهراً، وقد ترك في بلاط القيصر وبطانته أجمل الأثر بما أبداه من فطنته وكياسته، ورقيق شمائله.

أما سفارته الثانية فكانت إلى بلاد النورمان، وقد أتت هذه السفارة بعد غزو النورمانيين (المجوس) لولايات الأندلس الجنوبية الغربية، واقتحامهم لمدينة إشبيليا، ثم رَدِّهم عنها سنة 229هـ، حيث بعث ملكهم رسله إلى الأمير عبد الرحمن بن الحكم يطلب الصلح والهدنة، فأجابه الأمير عبد الرحمن إلى طلبه، وبعث بالغزال مع الرسل إلى ملكهم ليرد السفارة، ويعلمه بقبول الصلح.

وقد وصف لنا ابن دحية الأندلسي رحلة الغزال في كتابه «المطرب من أشعار أهل المغرب» فيقول: بعد أن أوفد عبد الرحمن الغزال

وابن حبيب مع الرسل النورمانيين: أنهما خرجا معاً إلى البحر المحيط (المحيط الأطلسي) عن طريق «شلب» في مركب أُعِدَّ لهما، وسارت مع مركب الرسل النورمانيين، فلما وصلت السفينة إلى مياه الركن الشمالي الغربي من جليقية، عصفت بهم ريح شديدة، وتعالت الأمواج حتى صارت كالجبال، وأشرف السفيران المسلمان على الهلاك.

وقد وصف الغزال تلك الرحلة والأهوال التي عانوها خلالها من شدة الموج واضطراب البحر فأنشد قائلاً:

قال لي يحيى وصرنا ... بين موجٍ كالجبال

وتولّتنا رياحٌ ... من دبور وشمال

شقّت القلعين وانبتّت ... عرى تلك الحبال

وتمطّى ملك المو ... ت إلينا عن حيال

فرأينا الموت رأي الـ ... ـعين حالًا بعد حال

وأخيراً وصل الغزال ورفيقه إلى بلاد النورمان وكانت هي بلاد المجوس (حالياً تشمل الدانمارك وأجزاء من ألمانيا)، ثم يصف بلاد المجوس بأنها جزيرة عظيمة في البحر المحيط، وعلى مقربة منها جزر كثيرة منها صغار ومنها كبار، أهلها كلهم من المجوس، وهم اليوم على دين النصرانية.

ويقال: إنه قبل دخول الغزال على ملك النورمان -والله أعلم بذلك- اشترط الغزال عليه ألا يسجد له، ولا يخرجهما عن شيء من سنتهما، فأجابهما إلى ذلك وأراد الملك أن يُحرِج الغزال، فأمر بالمُدخل فضيق الباب حتى لا يدخل عليه أحد إلا راكعاً، فلما وصل إليه الغزال جلس إلى الأرض، وقدم رجليه، وزحف على أليته زحفة، فلما جاز الباب استوى واقفاً، والملك قد أعدَّ له وأحفل في السلاح والزينة الكاملة، فما هاله ذلك ولا ذعره، بل قام ماثلاً بين يديه، فقال: السلام عليك أيها الملك وعلى من ضمه مشهدك، والتحية الكريمة لك، ولا زلت تُمتَّع بالعز والبقاء والكرامة الماضية بك إلى شرف الدنيا والآخرة، المتصلة بالدوام في جوار الحي القيوم، الذي كل شيء هالك إلا وجهه، له الحكم وإليه المرجع، ففسر له الترجمان ما قاله، فأعظم الكلام، وقال: هذا حكيم من حكماء القوم، وداهية من دهاتهم، وعجب من جلوسه على الأرض، وتقديمه رجليه في الدخول، وقال: أردنا أن نذله، فقابل وجوهنا بنعليه، سبحان الله ماهذا العز!!!!!!.

ولقي السفير المسلم من ملك النورمان كل ترحيب وعطف، وخصص لإقامته وزملائه منزلاً حسناً، وقدم إليه الغزال كتاب الأمير عبد الرحمن وهديته من الثياب والآنية، فوقعت لديه أحسن موقع، ولقي الغزال في البلاط النورماني كثيراً من الإعجاب والعطف، ثم عاد إلى قُرْطُبَة بعد رحلة دامت عشرين شهراً، وكانت عودته عن طريق «شنت ياقب»، ويقول ابن دحية: إنه كان يحمل من ملك النورمان كتاب توصية وجواز إلى صاحب جليقية، لكي يستطيع السفير المسلم

وزملاؤه اختراق المملكة النصرانية الشمالية في طريقهم إلى الأندلس، وقد اخترق الغزال بالفعل مملكة ليون، وسار إلى طُلَيْطِلَة، ومنها إلى قُرْطُبَة، والمرجَّح أن وصوله إلى قُرْطُبَة كان سنة 232هـ.

كان نجاح سفارة يحيى الغزال إلى النورمان عاملاً كبيراً في استقرار الأندلس، فقد أمنت من هجمات القراصنة النورمانيين فترة من الزمن، وتمكَّن الأمير عبد الرحمن من تحصين ثغور الأندلس، والاهتمام بالأسطول البحري الأندلسي، فبنى سوراً ضخماً حول إشبيلية، واتخذ قواعد بحرية، ودوراً لصناعة السفن في إشبونة وإشبيلية وألمرية وبلنسية ومالقة، واعتنى بصناعة السفن الكبيرة، وأعدّ لها المقاتلة، وأصبح للأندلس أسطولان: أحدهما في المحيط الأطلسي، ومركزه إشبونة، والآخر في البحر المتوسط، وقاعدته مالقة.

تعتبر سفارة يحيى الغزال هي الأولى من نوعها التي تصل إلى الدول الإسكندنافية، بل وسبقت رحلة أحمد بن فضلان الذي مر بتلك البلاد في أثناء سفارته إلى بلاد الصقالبة، لكن ابن فضلان أسهب كثيراً في وصف تلك البلاد، ووصف جغرافيتها وديموغرافيتها، وتحدَّث عن عادات سكانها وتقاليدها، لكن اهتمام الغزال كان بالجانب السياسي، وتأدية سفارته، فلم يشغل نفسه بأي جانب آخر.

ولبث الغزال على مكانته ونفوذه في بلاط قُرْطُبَة حتى تُوفِّي الأمير عبد الرحمن بن الحكم سنة 238هـ، وعاش الغزال بعد وفاة صديقه

دهراً آخر، وحضر شطراً من عهد ولده محمد بن عبد الرحمن، وهو يتمتع بنفس مكانته التي تبوَّأها في البلاط الأموي منذ عهد الحكم بن هشام، وكانت وفاته سنة 250هـ 864م، وعمره أربعة وتسعون عاماً، وقد أدرك خمسةً من أمراء بني أمية أولهم الأمير عبد الرحمن الداخل، وآخرهم محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل.

لقد لبث الغزال نحو نصف قرن يتبوَّأ مكانته الرفيعة في الشعر والأدب، ولكن يبدو أن الشاعرية لم تكن أخص مواهبه، وإنما اشتهر على وجه الخصوص بالحكمة والكياسة والبراعة والسياسة، فهو فيلسوف في شعره وفي تفكيره، وهو سياسي من الطراز الأول، وربما كانت هذه أبرزَ صفاته وأجلَّها، وقد وصفه ابن دحية بحدة الخاطر، وبديهة الرأي، وحسن الجواب، والنجدة، والإقدام، والدخول والخروج من كل باب».

ووصفه ابن حَيَّان بحكيم الأندلس وشاعرها، وقد وصلت أشعاره في حياته إلى أهل المشرق، فأنشدوها وتداولوها.

رحم الله السفير يحيى وأسكنه فسيح جنانه إنه على كل شيئ قدير وبالإجابة جدير....

عصر الإمارة

المخترع العبقري عباس بن فرناس

810 - 887 م

علَّمونا في مدارسنا أنه في قديم الزمان أقدم رجل على محاولة للطيران، وكانت هذه بمثابة الجنون، وقالوا لنا: إنه وقع ومات.

ولم يخبرونا أن هذا الرجل هو واحد من صناديد عصره وصانع التجارب الأولى لكيفية الطيران، بل طار لمسافة طويلة، وهذه التجربة اعتمد عليها العلماء فيما بعد، ليدخل بذلك عصر الطيران والطائرات.

وفي عاصمة الخلافة العباسية بغداد.. لعلك إذا ما دخلت على بوابة مطارها تجد تمثالاً شامخاً لرجل سبق عصر الحداثة والتكنولوجيا بقرون، وأبدع في الفن، وبرع في الكيمياء، وأتقن الفلسفة، وكان أول طائر مسلم عربي تلده أرض الأندلس، وليس هذا فحسب، بل له اختراعات كثيرة خلَّدها له التاريخ، ونستخدمها إلى يومنا هذا...

لنعش في صفحات، ونقلب لمحات من حياة المخترع الذي سبق الغرب وعلمائهم.

أبو القاسم عباس بن فرناس بن ورداس، أحد أبرز العبقريات العلمية الإسلامية في الأندلس، الفيلسوف والعالم الرياضي الفلكي، الموسيقي البارع والشاعر الأديب.

مولده سنة 194 هـ 810م في مدينة رندة في جنوب شرق الأندلس، من أسرة بربرية اعتنقت الإسلام في أثناء الفتح الإسلامي للمغرب، ودخول البربر مع العرب لفتح الأندلس.

وقد نشأ عباس في قُرْطُبَة، وأخذ في تحصيل العلوم فيها، وكان قد برع منذ شبابه في الفلسفة والكيمياء والطبيعة والفلك، وبرع في نفس الوقت بالأدب والشعر والموسيقى، وبدأت شهرته تلمع في أيام الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الأموي، وعظمت مكانته، وذاع صيته في أيام عبد الرحمن بن الحكم، إلى عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن، وقد حظي عند هؤلاء الأمراء الثلاثة، وأتحفهم بمدائحه، وأدهشهم بمخترعاته.

وكان في بداية أمره قد انضم إلى العلماء والشعراء في بلاط الأمير الحكم بن هشام، غير أنه ما لبث أن ظهر في ميدان آخر، وهو ميدان العلوم البحتة، وهو الميدان الحقيقي الذي تفتحت فيه مواهبه المدهشة، فانكبَّ على معالجة البحوث الطبيعية والكيميائية والفلكية، ولم يقتصر في معالجتها مثل كثير من أسلافه على النواحي النظرية والتجريبية، بل أخذ في تطبيقها عملياً.

ومن أبرز اختراعاته في هذا المجال: استخدام نوعاً خاصاً من الرمال أو الحجارة التي كانت موجودة في تلال قريبة من مدينة قُرْطُبَة من أجل اختراع الزجاج.

وكان لابن فرناس سوقاً مزدهرة لبيع الفضة والذهب كأدوات للزينة،

حيث كان يصهر المواد ويستخدمها داخل قوالب من أجل سبكِها وزخرفتها، واخترع طريقة فريدة من أجل تقطيع حجارة الكريستال، وقد تمّ تطويرها لاحقاً من قِبل الغرب ليصبحوا الروّاد في هذا المجال إلى الآن!!!!.

اهتم عباس بن فرناس بفن العمارة، حيث قام بنحت صور وتماثيل لمدينة قُرْطُبَة، وجعلها بذلك من أجمل المدن الأندلسية، كما قام ببناء نوافير داخل القصور والحدائق، وكان لإنجازه لهذا الاكتشاف دوي عظيم، وكان له فيما بعد نتائج عملية باهرة، وطارت شهرته في سائر أنحاء بلاد الأندلس، ثم عكف في نفس الوقت على الدراسات والبحوث الرياضية والفلكية، وانتهى فيها إلى اختراع عدد من الآلات الفلكية الدقيقة، نذكر منها آلتين:

الأولى تُسمى (ذات الحلق) التي عَرَضَها على الأمير عبد الرحمن بن الحكم الأموي الذي اتخذه مُعلِّماً له في علم الفلك، وقد تكوَّنت هذه الآلة من سلسلة من الحلقات تمثل محاكاة لحركة الكواكب والنجوم.

والآلة الثانية هي آلة المقياس المُزمِن، التي سماها ابن فرناس (الميقاتة) وقد عرضها على الأمير محمد بن عبد الرحمن الأموي، وهي ساعة مائية تفيد في معرفة المواقيت، وقد صنع في بيته هيئة السماء، فخُيِّل للناظر فيها النجوم والغيوم والبروق والرعود.

كما تجلت معارفه الرياضية والهندسية في كثير من الاختراعات والتحسينات الفنية بالقصر الأموي وحدائقه، حيث يقول أحدهم:

لا زال عباس بن فرناس الحكيم الشاعر، يخترع الزينة الملوكية ونوادر الاختراعات العجيبة ذات الصور الجميلة والحركات البديعة حتى ذاع صيته وكبر مقامه.

وفي مجال الكتابة قام المخترع عباس بن فرناس بصنع أول قلم حبر في التاريخ، حيث صنع أسطوانة مُتَّصِلة بحاوية صغيرة يتدفق عبرها الحبر إلى نهاية الأسطوانة المتصلة بحافة مدببة للكتابة.

وبرز عباس بن فرناس أيضا ببعض الاختراعات الحربية في عصرِه، ومن أهمها ما قام به بخلط بعض المواد الكيميائية مع بعضها، مخترعاً قنبلة تشبه القنبلة المسيلة للدموع في عصرنا الحالي.

وقام بِصُنع آلة قتالية من أجل دَك الحصون، وقد استخدمها الأمير الأموي في وقتها في إحدى الحروب، وانتصر على أعدائه من خلال تحطيم حصونِهم بتلك الآلة.

وبرع ابن فرناس في الموسيقى وصياغة الألحان، حيث كان بارعاً في استخدام العود، ووالإنشاد، وكان الأمير محمد بن عبد الرحمن يستدعيه إلى مجالس أُنسِه، فكان يقدم إليه أناشيد من رقيق نظمه وينشدها بحضرته، وقد احتل بين شعراء عصره مكانة ممتازة، وكان إلى جانب معاصِرَيه الشاعريين الكبيرين مؤمن بن سعيد وابن عبد ربه (صاحب كتاب العقد الفريد) من خواص شعراء الأمير محمد بن عبد الرحمن الأموي، وله في مدح الأمير وفي الإشادة بحوادث عصره قصائد رنانة، ومنها قصيدته الشهيرة في موقعة وادي السليط

التي انتصر فيها الأمير محمد على خوارج طُلَيْطِلَة وحلفائهم من الإسبان سنة 240هـ، ولكن أشهر ما اقترن باسم عباس بن فرناس هي محاولته اختراع آلة يستطيع الإنسان أن يطير بها في الجو، وقد انتهى بالفعل إلى القيام بتجربته الخطيرة على مشهد من أهل قُرْطُبَة، حيث قام بكَسْوِ نفسه بالريش، ومدَّ لنفسه جناحين على وزن وتقدير قَدَّرَه، ثم صعد على ربوة عالية بناحية الرصافة، واندفع منها في الهواء طائراً، حيث طار في الجو مسافة بعيدة، لكنه لم يحسن الاحتيال في وقوعه، فتأذى في مؤخرته، وقد ملأ أهل قُرْطُبَة دهشةً وإعجاباً فيه، وأصبحت تجربته هذه حديث الخاص والعام.

لقد أثارت تجارب ابن فرناس واختراعاته العلمية الفريدة حسد الفقهاء وشكوكهم فيه، كما أثارت بحوثه الكيميائية والفلكية بدار الربض الغربي من قُرْطُبَة، ثم محاولته الطيران، ظنون الكافة ودهشتهم، واعتقادهم أن الرجل مارق، يتمتع بقوى شيطانية خارقة، وقد أثمرت سعاية خصومه من الفقهاء وغيرهم باتهامه بالكفر والزندقة، وإتيان الخوارق الشيطانية، فاعتُقل، وقُدِّم للمحاكمة أمام قاضي قُرْطُبَة سليمان بن أسود الغافقي، وعُقِدت المحاكمة في المسجد الجامع، حيث هرع الناس لشهودها، وكان القاضي سليمان -على الرغم من صرامته- نيّر الفكر حكيماً، فلم تُقنِعُه حجج وترَّاهات خصوم عباس بن فرناس، ولم يجد فيها طائلاً، فشاور عدداً من الفقهاء فيما قُيِّدَ منها، ولم يجد سبيلاً لإدانة ابن فرناس، فقضى ببراءته وإطلاق سراحه، وهكذا نجا ابن فرناس من محنةٍ كادت تهدد حياته.

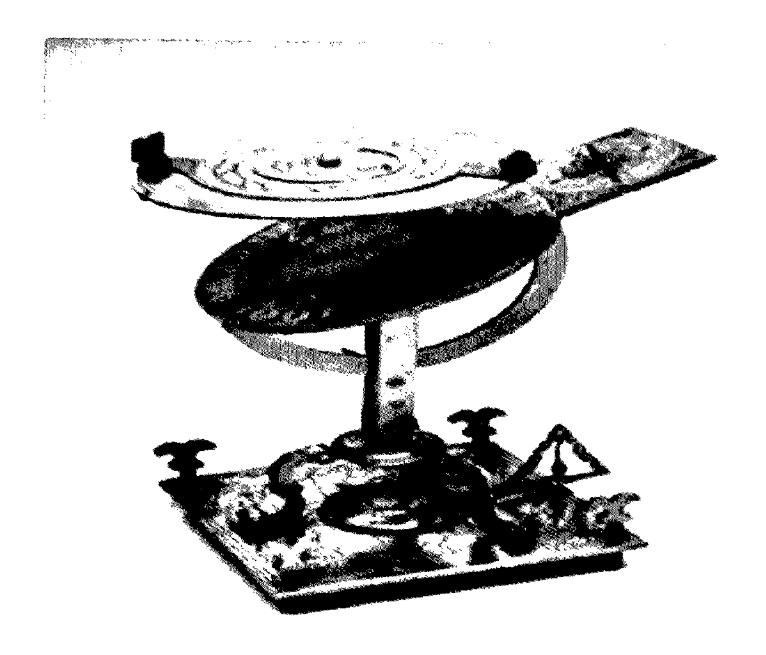
وفي سنة 2011م افتُتِح جسر عباس بن فرناس في قُرْطُبَة على نهر الوادي الكبير، وفي منتصفه تمثالٌ لابن فرناس مثبَّتٌ فيه جناحين يمتدان إلى نهاية الجسر، وهو من تصميم المهندس الإسباني (خوسية لويس مانثاناريس خابون)، وفي مدينة رندة مسقط رأس عباس، افتُتِح مركزاً فلكياً يحمل اسمه، كما وُضِع تمثال له أمام مطار بغداد الدولي، كتب عليه (أول طيار عربي ولد في الأندلس)، وسمي مطار آخر شمال بغداد باسمه.

توفي عباس بن فرناس في قُرْطُبَة عام 274هـ 887م، وقد شاع بين الناس بأنّ سقوط ابن فرناس خلال محاولة الطيران قد أدى لوفاته، إلا أنّ ذلك هو خلط بين ما حدث لعباس بن فرناس وما حدث للجوهري الذي تُوفِّي خلال محاولته للطيران في مدينة نيسابور عام 1003م، حيث قام بربط جناحين مصنوعين من قطعتين من الخشب، وقام بتثبيتهما بحبل، ومن ثم صعد أمام حشد من أبناء البلدة وحاول الطيران، وقد نجحت المحاولة في البداية، إلا أن الحظ لم يسعفه، وسقط بسبب شعوره بالتعب.

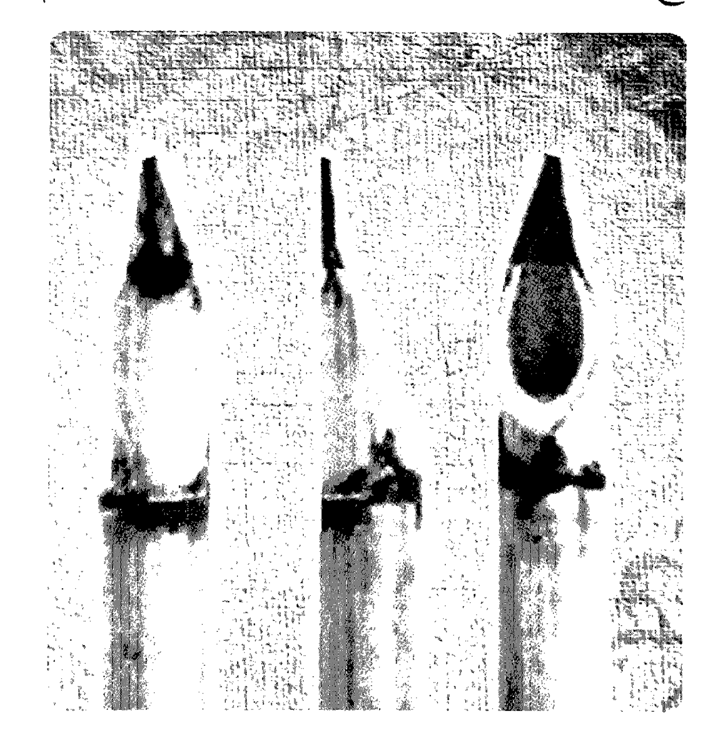
رحم الله مخترعنا عباس، واسكنه في الجنان، إنه على كل شيء قدير، وبالإجابة جدير.



نصب تذكاري للمخترع عباس بن فرناس في مطار بغداد



نماذج من اختراعات عباس بن فرناس (الميقاتة - القلم)



عصر الإمارة

الأمير المجاهد محمد بن عبد الرحمن الأموي

822-886م

لم نَـخـشَ طـاغُـوتاً يـحاربنا ولو نَـصَـبَ المـنـايـا حولنا أسوارا
نَدعو جَهاراً لا إلـهَ سِوى الَّـذي صَنعَ الوُجـودَ وقَـدَّرَ الأَقـدارا
ورُؤُسـُنا يـا ربُّ فَـوقَ أَكـفِّـنـا نـرجُو ثَـوابَكَ مَـغْنـماً وجـوارا
كُنَّا نُرى الأَصنامَ مِنْ ذَهَبٍ فنَهَـ ـدِمُها ونَهدِمُ فَـوقَـهـا الكُـفَّـارا

لا ينحـصر الجهـاد بقتـال الغـزاة فحسـب، بـل كل مـا مـن شـأنه أن يُعـلي رايـة الإسـلام فهـو ينضـوي تحـت اسـم الجهـاد، ولم يقـضِ صنديدنـا في هـذه السـطور حياتـه مجاهـداً للصليبـين فحسـب، بـل قضاهـا أيضـاً في القضـاء عـلى الفتـن التـي تُهـدِّد أمـن المسـلمين واسـتقرارهم، فحـارَبَ البُغـاة وهزمهـم، ووحَّـدَ رايـة المسـلمين في البـلاد، وحافـظ عـلى الرعيـة وأكرمهـا، والحديـث هنـا عـن المجاهـد ابـن المجاهـد الأميرمحمـد بـن عبـد الرحمـن الأمـوي.

محمـد بـن عبـد الرحمـن بـن الحكـم بـن هشـام بـن عبـد الرحمـن الداخـل الأمـوي، أبـو عبـد الله، مولـده في قُرْطُبَـة سـنة 207هـ 822م، في إمـارة والـده عبـد الرحمـن بـن الحكـم، نشـأ بهـا في دار الإمـارة، وعندمـا بلـغ العشرين من

العمر جعله والده نائباً له على قُرْطُبَة عندما خرج في إحدى غزواته سنة 226هـ، ثم ولّاه على سرقسطة فضبطها، وأحسن إدارتها، وصحبه والده إلى بنبلونة في غزوته المظفرة سنة 228هـ، وقاد ميمنة الجيش، وأثنى عليه والده في كتاب الفتح، فاشتهر اسمه بين الناس، ثم نَدَبَه أبوه لمقابلة رسُل ملك الفرنج (كارل)، وأخيراً كَلَّفه بمسؤلية البلاط بصفة منتظمة، ليرفع إليه الكتب الواردة بعد تلخيصها بمعرفته، وقد تم هذا الإجراء بتوصية من الحاجب عيسى بن شهيد ونصحه، لتمكين أمر محمد ومكانته.

وكان الأمير عبد الرحمن بن الحكم قد درس طبائع أولاده ولداً ولداً، فوجد محمداً راجحاً عليهم بصفاته، فاختاره ليخلفه من بعده، وأَوعَزَ إلى الوزراء ورجال الدولة والقادة والقضاة بأن محمداً ولي عهده، والمفوض إليه الأمر من بعده.

تولى الأمير محمد بن عبد الرحمن الإمارة بعد وفاة والده سنة 238هـ، بعد أن أُخِذت له البيعة في المسجد الجامع، وبايعه سائر أخوته وأقاربه. وكان أميراً ذكياً، فطناً بالأمور، تولى الملك والدولة في أوج عصر قوتها، وكان ملوك إسبانيا النصرانية يحسبون له ألف حساب، ويشعرون بأنه خَلَفٌ كفءٌ لأبيه، وملوك المغرب القريبين من الأندلس يخطبون وده، وملوك الفرنج يطلبون مسالمته.

وعندما تولى زمام الأمور وضع نظاماً جديداً للوزارة، حيث امتاز فيه الوزراء بنوع من التعظيم والتجلي، وقدم الوزراء من أهل الشام على

غيرهم من الأندلسيين والبربر، وكان بنفسه يشرف على أعمال الوزارة والكتَّاب، ويدقق في أعمالهم وتصرفاتهم، إلا أنه لم يكن مُوفَّقاً في اختيار آخر وزرائه، وهو هاشم بن عبد العزيز، الذي كان سبباً من أسباب الفتن والاضطرابات التي اشتعلت في الأندلس في أواخر عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن.

وفي أول عهد الأمير محمد حدث تمردٌ كبير في طُلَيْطِلَة، كان عماده وأدواته النصارى والمُوَلَّدين الإسبان (أبناء إسبانيا الذين مَكَثوا في الأراضي الإسلامية واعتنقوا الإسلام ظاهراً)، وقد استطاع المتمردون هزيمة أكثر من جيش من جيوش الأمير محمد، وأخذوا في تهديد المدن المجاورة وما حولها، فنهض الأمير محمد بجيش كبير لقتالهم، وكان هذا أول خروج له بعد توليه الإمارة، وذلك سنة 240هـ، ولما سمع المتمردون بسير محمد إليهم، استنجدوا بجيرانهم النصارى من ملوك نافار وليون، فأرسل إليهم (أردونيو) ملك ليون قوة كبيرة برئاسة الكونت (غاتون)، وكان لتدخُّل النصارى على هذا النحو أثر كبير في ازدياد حماسة المسلمين، حيث هُرِعَت جموعٌ كبيرة إلى جيش الأمير محمد، منهم كثير من الفرسان الأشراف وذوي الحسب، فسار محمد باتجاه طُلَيْطِلَة في بعض قواته، وترك بقية جيشه الكثيف خلف التلال التي تطل على وادي السليط، فلما رأى أهل طُلَيْطِلَة قلة الجيش المحاصر، خرجوا لقتاله ومعهم حلفائهم النصارى، وهم على ثقة بالنصر، فارتد محمد بجنوده نحو وادي السليط متظاهراً بالهزيمة، وعندئذٍ برزت القوات الإسلامية من مكامنها، وأطبقت على المتمردين

وحلفائهم النصارى، وكانت موقعة هائلة مزقت فيها جموع المتمردين والإسبان في ساعات قلائل من الصباح إلى الضحى، وقتل منهم مقتلة عظيمة تقدرها الرواية الإسلامية بأحد عشر ألفاً، وقيل: بعشرين ألفاً، وأسر منهم كذلك عدداً كبيراً، وكان نصراً عظيماً، وقد توالت حملات الأمير محمد على طُلَيْطِلَة، حتى تمَّ إخضاعها نهائياً سنة 245هـ، وعلى الرغم من انشغال الأمير محمد بتمرد طُلَيْطِلَة، فإنه لم يتوانَ عن إرسال السرايا والبعوث لغزو الممالك الإسبانية في الشمال وتأمين حدوده، وقد خرج بنفسه عدة مرات لغزوهم.

ولم يكد الأمير محمد ينتهي من مشكلة طُلَيْطِلَة، حتى داهمه خطر النورمانيين المجوس الذين غزوا السواحل الغربية للأندلس سنة 245هـ، وكانوا قد اعتدوا عليها أيام الأمير عبد الرحمن بن الحكم والد محمد، وقد استطاع الأسطول الإسلامي المتيَقِّظ أن يلاحقهم، وقد نزلوا بشاطئ الأندلس الجنوبي، وجرت معارك برية وبحرية عنيفة، حطمت فيها كثير من سفنهم، وارتدوا شمالاً، بعد أن استشهد كثير من المسلمين أيضاً.

تابع الأمير محمد سياسته في الغزو، فبعد أن تحالف مَلِكَي ليون ونافار وأغارا على الأراضي الإسلامية، زحف محمد بجيوشه نحو نافار، فاقتحم عاصمتها بنبلونة، وأخذ فرتون ابن ملكها غرسية أسيراً، وتتابعت بعد ذلك غزوات المسلمين إلى الممالك الشمالية الإسبانية بقيادة الأمير محمد أو ابنه المنذر أو غيرهم من القادة.

لقد انشغل الأمير محمد في أغلب فترة حكمه بمُتَمَرِّدِي الثغور الشمالية المتاخمة للممالك الإسبانية، الذين تلقَّوا الدعم من تلك الممالك، وكانت أعنف تلك التمردات تمرد أبناء موسى بن موسى بن قسي، وكان معقلهم في سرقسطة، وعلى الرغم من تَغلُّب الأمير محمد بن عبد الرحمن على مطرف بن موسى، وأسره وأسر أولاده وقتلهم في قُرْطُبَة سنة 259هـ، فقد استمر تمردهم أعواماً طويلة، وقد تولى الأمير المنذر بن الأمير محمد الذي كان أميراً شجاعاً قوي البأس كوالده، قتالَ أبناء موسى، حتى تمكن من إخضاع سرقسطة سنة 268هـ، وبادر ملوك إسبانيا الشمالية بعقد الصلح بعد أن رأوا هزيمة حلفائهم المتمردين.

وفي نهاية عهد الأمير محمد قام أخطر تَمَرُّد عرفته الأندلس، وهو الذي يُعرف بتمرد عمر بن حفصون، وهو من المولدين الإسبان (الإسبان الذين ولدوا في ظل الحكم الإسلامي وأسلموا ظاهراً)، وكان ابن حفصون من قُوَّاد جيش المنذر بن محمد، وقد حارب معه أبناء موسى بن قسي المتمردين وكان بداية هذا التمرد سنة 271هـ، واستمر مدة طويلة، حتى قضى عليها عبد الرحمن الناصر سنة 313هـ.

اتخذ ابن حفصون من الجبال الجنوبية والشرقية للأندلس معقلاً له، وخرج له الأمير المنذر بن محمد لقتاله شمال شرق مالقة، ووقعت معركة عنيفة هزم فيها ابن حفصون وجرح، وفي أثناء ذلك جاءت الأنباء من قُرْطُبَة بوفاة الأمير محمد بن عبد الرحمن سنة 273هـ، فعاد المنذر مسرعاً إلى قُرْطُبَة، فانتهز ابن حفصون الفرصة للإغارة على

معظم الحصون الواقعة في تلك المنطقة.

وكما ذكرنا فإن هذا التمرد امتد إلى أيام عبد الرحمن الناصر، وقضى عليه، وسنذكره في سيرته.

كان الأمير محمد بن عبد الرحمن فصيحاً، بليغاً، عظيم الوقار، متنزِّهاً عن القبيح، يُؤثِر الحق وأهله، عاقلاً كريماً، وصاحب أخلاق جميلة ومكارم حميدة، ذو بديهة ورويّة، وكان أعلم الناس بالحساب، وطرق الخدمة، وكان متى أعضل منها شيء رُجِعَ إليه فيه.

يقول هاشم بن عبد العزيز: كان الأمير محمد رحمه الله أصح الناس عقلاً، وأحسنهم تمييزاً، وأبصرهم بوجه الرأي، وكان يستشيرنا، فنجتهد ونقول ونحصل، فإن أصبنا أمضى ذلك، وإن كان في الرأي خلل، قام فيه بالحجة، وأبانه بما تعجز الأوهام عنه تنقيحاً وتهذيباً.

ومما يُحفظ عنه أنه قال لهاشم في شيء أنكره عليه من عدم التثبت: يا هاشم، من آثر السرعة أفضت به إلى الهفوة، ولو أنّا أصغينا إلى نحو زلّاتك، وأصغنا إلى هفواتك، لكنا شركاءك في الزلة، وقسماءك في العجلة، فمهلاً عليك! ورويداً بك! فإنك إن تعجل يعجل لك.

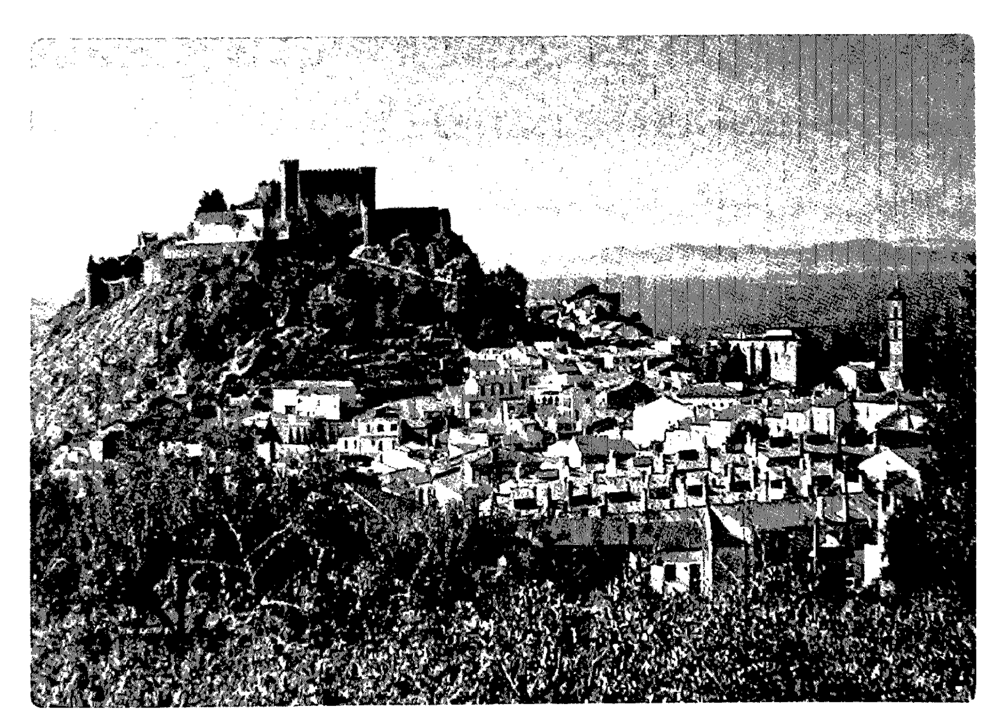
وكان محبوباً في جميع البلدان، وكان محمد بن أفلح صاحب إمارة تاهرت في المغرب لا يقدِّم ولا يؤخِّر في أموره ومعضلاته إلا عن أمره ورأيه، أي رأي الأمير محمد، وكذلك بنو مدرار بسجلماسة، وكان ملك الفرنج فردناند يسترجح عقله، فيهاديه، ويرسل إليه أفخر أنواع التحف.

ويقول الحافظ بَقِيّ بن مَخْلَد: ما كلّمت أحداً من ملوك الدنيا أكمل عقلاً، ولا أبلغ فضلاً من الأمير محمد، دخلت عليه يوماً في مجلس خلافته، فافتتح الكلام بحمد الله والثناء عليه، والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، ثم ذكر الخلفاء خليفةً خليفةً، فحلّى كل واحد منهم بتحليته، ووصفه بصفته، وذكر مآثره ومناقبه بأفصح لسان، وأبلغ بيان، حتى انتهى إلى نفسه وسكت.

وإضافة إلى هذه الصفات الحميدة التي اتصف بها هذا الأمير، فقد كان يعشق الجهاد والكفاح، وكان يقود الجيوش بنفسه، وربما أوغل في بلاد العدو لستة أشهر وأكثر، وكان ولده المنذر ساعِدُه الأيمن في هذه المهمات، وقد اهتمَّ الأمير محمد بالجيش والأسطول اهتماماً كبيراً، وكان اهتمامه بتقوية الجيش ضرورة أملتها الظروف العصيبة التي عصفت بالدولة في عهده، فاضطر أن ينفق حكمه الطويل في غزوات متعاقبة وكفاح مستمر، وكان عليه أن يصون عرش بني أمية، وأن يحمي سلطان الدولة الإسلامية في الأندلس من الانهيار، وكانت مهمة شاقة، ولكنه أبدى بها جَلَداً وبراعة، فكانت الصوائف -أي الغزو صيفاً- لغزو أرض النصارى، والحملات التأديبية لقمع المتمردين تتوالى دون كلل، كما اعتنى بتحصين أطراف الثغور، فأقام عدداً من المحلات والقلاع الدفاعية المنيعة، فبنى حصن (شنت اشتبين) لحماية مدينة سالم، وبنى حصن (طلمنكة) وحصن (مجريط) بمنطقة وادي الحجارة للدفاع عن طُلَيْطِلَة، وكان شديد الاستخبار عن الثغور والبحث في مصالحها، وعلى الرغم مما كان يقتضيه الجهاد المتواصل من النفقات الباهضة، فقد كان

الأمير محمد يبذل وسعه لتخفيف الضرائب عن كاهل شعبه، فرفع عن أهل قُرْطُبَة ضريبة الحشود، واكتفى بدعوتهم إلى التطوع للجهاد في سبيل الله، فأقبلوا على دعمه وتأييده.

وتوفي غرة شهر ربيع الأول 273 هـ 886م في قُرْطُبَة، ودفن بالقصر، وصلّى عليه ولده المنذر، وكان له ثلاثة وثلاثون ابناً، منهم المنذر، وعبد الله، والعاصي، والقاسم، وعبيد الله، وإبراهيم، وأحمد، وهشام، والمطرّف، وعثمان، وعبد الرحمن، ومسلمة، والأصبغ، وإحدى وعشرون بنتاً، رحمهم الله جميعاً، وجزاهم الله كل الخير عن هذه الأمة....



مدينة طلمنكة التي اختطها وبناها الأمير محمد بن عبد الرحمن الأموي

عصر الإمارة

العالم الجليل بَقِيّ بن مَخْلَد

817 - 889م

يا طالبي علمَ النبيِّ محمدٍ ما أنتم وسواكم بسوائِي

فمدادُ ما تجري به أقدامكم أزكى من دمِ الشهداءِ

لعل صحراء إفريقيا شاهدة على رحلته التي سار بها قاصداً طلب حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى التقى إمام أهل السنة والجماعة أحمد بن حنبل فأخذ عنه الحديث ونقله، حديثنا عن الصنديد الذي بقي اسمه وخُلد ذكره إنه العالم بقي بن مخلد.

بَقِيّ بن مَخْلَد بن يزيد القرطبي الأندلسي، أبو عبد الرحمن، أحد أبرز علماء الحديث والتفسير في الأندلس، مولده في قُرْطُبَة سنة 201هـ 817م، ونشأ بها، وأخذ عن كبار علمائها، كيحيى بن يحيى الليثي، ومحمد بن عيسى الأعشى، ثم ارتحل إلى المشرق، فأخذ عن كبار العلماء، كأحمد بن حنبل، وأبو بكر بن أبي شيبة، وسحنون بن سعيد المالكي، وكانت رحلته إلى إفريقيا ومصر وبلاد الشام والحرمين والعراق، وعني بالحديث عناية كبيرة، حتى بلغ عدد من روى عنهم مئتين وأربعة وثمانين رجلاً.

وكان إماماً زاهداً صواماً قواماً، كثير التهجد، مُجابَ الدعوة، قليل

المثـل، مجتهـداً، لا يُقَلِّـد بـل يُفتـي بالأثـر، أي يجتهـد اجتهـاداً مطلقـاً.

ويقـول عنـه الذهبـي: إنـه أدخـل إلى جزيـرة الأندلـس علـماً جمـاً، وبـه وبمحمـد بـن وضـاح صـارت تلـك الناحيـة دار حديـث.

ويُـروَى أنـه لما دخـل بَقِـيّ بـن مَخْلَـد الأندلـس ومعـه مصنـف بن أبي شـيبة، أنكـر جماعـة مـن أهـل الـرأي مـا فيـه مـن خـلاف، واستبشـعوه، ونشَّـطوا العامـة عليـه، ومنعـوه مـن قراءتـه، فاسـتدعاه أمـير الأندلـس الأمير محمـد بـن عبـد الرحمـن الأمـوي وأياهـم، وكان الأمـير محمـد محبّـاً للعلـوم عارفـاً، فتصفـح الكتـاب جـزءاً جـزءاً، حتـى آتـى عـلى آخـره، ثـم قـال لخـازن الكتـب: هـذا كتـاب لا تَسـتغني خِزانَتُنـا عنـه، فانظـر في نسـخه لنـا، ثـم قال لبَقِـيّ بـن مَخْلَـد: انـشر علمـك، وارو مـا عنـدك، ونهاهـم أن يتعرضـوا لـه.

فهـذا الإمـام هـو أول مـن كثَّـر الحديـث بالأندلـس ونـشره، حتـى إنـه كان يقـول: لقـد غَرسـتُ لهـم بالأندلـس غرسـاً لا يقلـع إلا بخـروج الدجـال.

ويقـول متحدِّثـاً عـن صـبره وتحملـه في سـبيل طلـب العلـم: إني لأعـرف رجـلاً كانـت تمـضي عليـه الأيـام في وقـت طلبـه للعلـم، ليـس لـه عيـش إلا ورق الكرنـب الـذي يرمـى، وسـمعت مـن كل مـن سـمعتم منـه في البلـدان ماشـياً إليهـم عـلى قدمـي.

وكان رحمـه الله قويـاً جلـداً عـلى المـشي، لم يُـر راكبـاً دابـة قـط، وإضافـة إلى علمـه وزهـده وعبادتـه فقـد كان مـن كبـار المجاهديـن، حريصـاً عـلى المشـاركة في الغـزو والجهـاد، ويقـال: إنـه شـهد سـبعين غـزوة.

وأقوال العلماء في مدحه والثناء عليه كثيرة، فابن خيثمة يقول: ما كنا نسميه إلا المكنسة، وهل احتاج بلد فيه بقي إلى أن يرحل إلى هاهنا منه أحد؟!

ويقول أحمد بن عبد البر القرطبي في كتابه أخبار علماء قُرْطُبَة عندما ذكر بَقِيّ بن مَخْلَد: كان فاضلاً تقياً، صوّاماً قوّاماً متبتّلاً، منقطع القرين في عصره، منفرداً عن النظير في مصره، وكان مُجابَ الدعوة، فقد روى أكثر من عالم أن امرأة جاءت إلى الحافظ بَقِيّ بن مَخْلَد فقالت له: إن ابني في الأسر، ولا حِيلة لي، فلو أشرت إلى من يفديه، فإني والهة، أي مشتاقة له، فقال لها: نعم، انصرفي حتى أنظر في أمره، ثم اطرق وحرك شفتيه، وبعد مدة جاءت المرأة بابنها إلى بَقِيّ بن مَخْلَد فقالت: اسمع خبره يرحمك الله تعالى، فقال بقي: كيف كان أمرك؟ فقال الولد: إني كنت فيمن يخدم الملك، ونحن في القيود، فبينما أنا ذات يوم أمشي إذ سقط القيد من رجلي، فأقبل عليَّ الموكَّل بي فشتمني، وقال: فككت القيد من رجلك؟ فقلت: لا والله، ولكن سقط ولم أشعر، فجاؤوا بالحداد فأعاده، ثم قمت فسقط أيضاً، فسألوا رهبانهم، فقالوا: ألك والدة؟ فقلت: نعم، فقالوا: إنها قد استجيب دعاؤها له، فأطلقوه، فأطلقوني، وكانو معي إلى أن وصلت إلى بلاد الإسلام!!!!، فسأله بقي عن الساعة التي سقط القيد فيها عن رجليه، فإذا هي الساعة التي دعا له فيها !!.

وللإمام بَقِيّ بن مَخْلَد قصة مع الإمام أحمد بن حنبل في أثناء رحلته

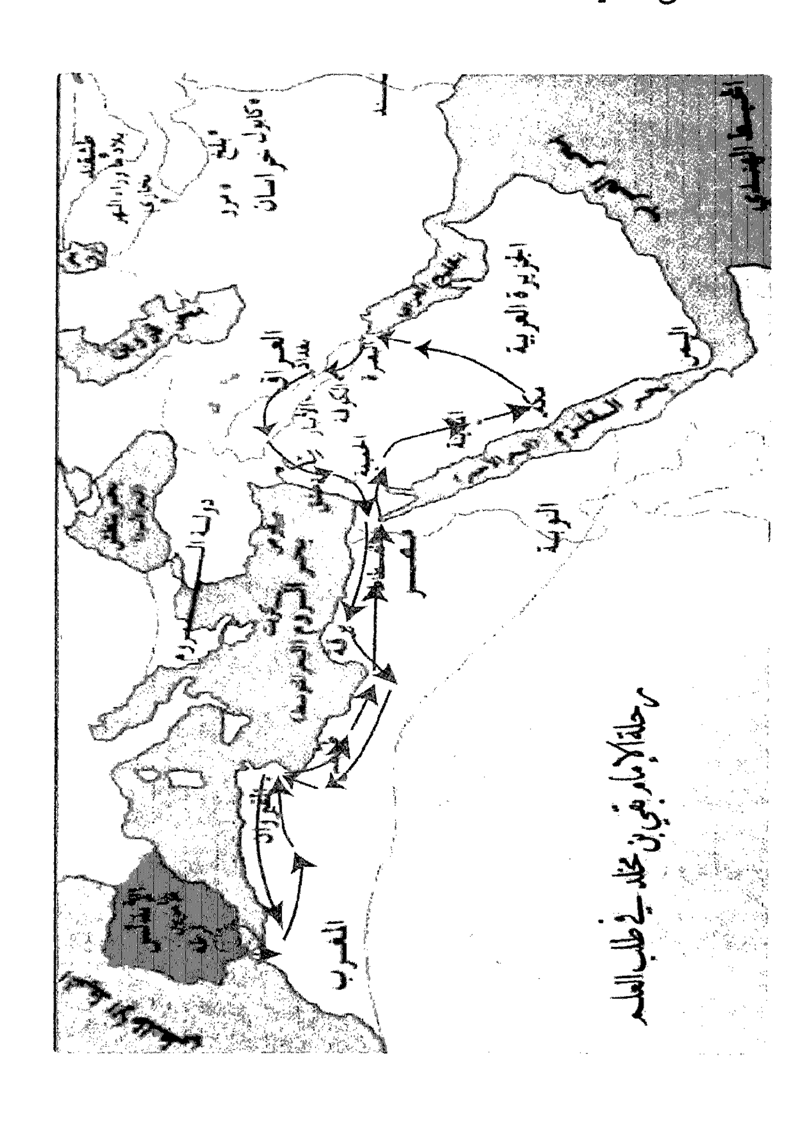
إلى المشرق يرويها حفيده عبد الرحمن بن أحمد بن بقي فيقول: سمعت أبي يقول: رحل أبي من مكة إلى بغداد، وكان رجلاً بغيته ملاقاة الإمام أحمد بن حنبل، فقال: فلما قربت (أي وصلت إلى بغداد) بلغتني المحنة، وأنه ممنوع (أي محنة القول بخلق القرآن التي امتُحن بها الإمام أحمد بن حنبل وعدد من الأئمة)، فاغتممت غمّاً شديداً، فاحتللت بغداد، واكتريت (أي استأجرت) بيتاً في فندق، ثم أتيت الجامع وأنا أريد أن أجلس إلى الناس، فدُفعت إلى حلقة نبيلة، فإذا برجل يتكلم في الرجال، فقيل لي: هذا يحيى بن معين، ففرجت لي فرجة، فقمت إليه، ثم حدَّثه، وجعل يسأله، حتى قال له يحيى: يكفيك رحمك الله، غيرك له سؤال، ثم يقول بقي: فخرجت أَسْتَدِلُّ على منزل الإمام أحمد بن حنبل، فُدللت عليه، فقرعت بابه، فخرج إلي، فقلت: يا أبا عبد الله، رجل غريب نائي الدار، هذا أول دخولي هذا البلد، وأنا طالب حديث، ومقيد سنة، ولم تكن رحلتي إلا إليك، فقال الإمام أحمد: ادخل الإصطوان، (أي باحة المنزل)، ولا يقع عليك عين، فدخلت، فقال لي: أين موضعك؟ قلت: المغرب الأقصى، فقال: إفريقيا؟ قلت: أبعد من إفريقيا، أجوز من بلدي البحر إلى إفريقيا، بلدي الأندلس، قال: إن موضعك لبعيد، وما كان شيء أحب إليَّ من أن أحسن عون مثلك، غير أني مُمْتَحَنٌ بما لعله قد بلغك، فقلت: بلى قد بلغني، وهذا أول دخولي، وأنا مجهول العين عندكم، فإن أذنت لي أن آتي كل يوم في زي السؤال، فأقول عند الباب ما يقوله السؤال، فتخرج إلى هذا الموضع، فلو لم تحدثني كل يوم إلا بحديث واحد لكان لي فيه كفاية،

فقال لي: نعم، على شرط ألا تظهر في الخلق، ولا عند المحدثين، فقلت: لك شرطك فكنت آخذ عصا بيدي، وألف رأسي بخرقة مدنسة، (أي مهترئة)، وآتي بابه فأصيح: الأجر رحمك الله، والسؤال هناك كذلك، فيخرج إلي، ويحدِّثني بالحديثين والثلاثة والأكثر، فالتزمت ذلك حتى مات المُمتَحن له، (يقصد الخليفة العباسي الواثق)، وولي بعده من كان على مذهب السنة، (يقصد الخليفة المتوكل)، فظهر أحمد، وعلت إمامته، وكانت تضرب إليه آباط الإبل، فكان يعرف لي حق صبري، فكنت إذا أتيت حلقته فسح لي، ويقص على أصحاب الحديث قصتي معه، فكان يناولني الحديث مناولة، ويقرؤه علي وأقرؤه عليه.

ألَّف بَقِيّ بن مَخْلَد مسنداً جامعاً في الحديث، وتفسيراً حافلاً للقرآن، ويقول الإمام ابن حزم الأندلسي: مسند بقي روى فيه عن ألف وثلاثمئة صاحب ونيف، ورتب حديث كل صاحب على أبواب الفقه، فهو مُسنَد ومُصنَّف، وما أعلمُ هذه الرتبة لأحد قبله، مع ثقته وضبطه وإتقانه واحتفاله بالحديث، وله مصنف في فتاوى الصحابة والتابعين ممن ذكرهم أربى فيه على مصنف أبي بكر بن أبي شيبة، وعلى مصنف عبد الرزاق، وعلى مصنف سعيد بن منصور، ثم ذكر ابن حزم تفسير بَقيٍّ فقال: أقطع أنه لم يؤلف في الإسلام مثل تفسيره، لا تفسير محمد بن جرير ولا غيره، ثم قال: فصارت تصانيف هذا الإمام الفاضل قواعد الإسلام لا نظير لها، وكان مُتَخَيِّراً لا يُقلِّد أحداً، وكان ذا خاصة من الإمام أحمد بن حنبل (أي من المقربين منه)، جارياً في مضمار البخاري ومسلم والنسائي.

ويقـول طاهـر بـن عبـد العزيـز الأندلـسي: حملـت معـي جـزءاً مـن مسـند بَقِـيّ بـن مَخْلَـد إلى المـشرق، فأريتـه محمـد بـن إسـماعيل الصائـغ، فقـال: مـا اغـترف هـذا إلا مـن بحـر، وعجـب مـن كثـرة علمـه.

تـوفي الإمـام الحافـظ بَقِـيّ بـن مَخْلَـد في قُرْطُبَـة سـنة 276هـ-889م، بعـد أن تـرك مؤلفـات كثـيرة تداولهـا القـراء والدارسـون في أيـام حياتـه رحمـه الله وجـزاه الله عنـا كل خـير.



رحلة الإمام بقي بن مخلد في طلب العلم

عصر الإمارة

أديب الأندلس ابن عبد ربه القرطبي

860 - 940م

«إنه أحدُ محاسنِ الأندلسِ علماً وفضلاً وأدباً ومثلاً، وشعره في نهاية الجزالة والحلاوة، وعليه رونق البلاغة والطلاوة».

تلك كلمات قالها الثعالبي مثنياً فيها على مؤلف «العقد الفريد»، ذلك الكتاب الفريد من نوعه، الوحيد في عصره، الكتاب الذي لا يَستغني عنه طالب علم وطالب أدب، أو عاشق للعرب وأخبارهم ولغتهم، فما هو كتاب العقد الفريد؟ ومن هو مؤلفه؟ هي أسئلة نجيب عليها في صفحات خَطَطْناها عن حياة صنديدٍ أندلسي إنه الأديب ابن عبد ربه القرطبي....

أحمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب بن حدير بن سالم القرطبي أبو عمر، كان جده سالم مولاً للأميرهشام بن عبد الرحمن الداخل الأموي، مولده في قُرْطُبَة سنة 246هـ 860م، نشأ فقيراً، واشتغل بالأدب والشعر وجمع الأخبار، حتى ذاع صيته في عصره، وكانت له شهرة واسعة، وهو أحد الذين أُثروا بأدبهم بعد فقرهم، وكان من العلماء المكثرين من المحفوظات والاطلاع على أخبار الناس، صنف كتاب «العقد الفريد»، وهو من الكتب الممتعة، حوى من كل شيء، وله

قصائد مدح بها أمراء بني أمية في الأندلس.

قال في وصفه صاحب كتاب المطمح: (عالم ساد بالعلم ورَأس، واقتبس به من الحظوة ما اقتبس، وشُهِرَ بالأندلس حتى صار إلى المشرق ذكره، واستطار شرر الذكاء فكره، وكان له عناية بالعلم وثقة، ورواية له متسقة، وأما الأدب فهو كان حجته، وبه غمرت الأفهام لُجَّتَه، مع صيانة وورع، وديانة ورد ماءها فكرع، وله التأليف المشهور الذي سماه بـ العقد، وحماه عن عثرات النقد.

وقال عنه الحميدي في كتابه «جذوة المقتبس»: (كان من أهل العلم والأدب، وله شعر كثير).

وقال عنه عبد الفتح بن خاقان في كتابه «قلائد العقيان»: (حجة الأدب، وإنّ له شعراً انتهى منتهاه، وتجاوز سماك الإحسان وسهاه).

وقال عنه ابن خلكان في كتابه «وفيات الأعيان»: (كان من العلماء المكثرين من المحفوظات والاطلاع على أخبار الناس).

وقال عنه ابن سعيد الأندلسي في كتابه «القدح المعلى»: (إمام أهل أدب المئة الرابعة، وفرسان شعرائها في المغرب كله).

وسنُعرِّف الآن بكتابه العقد الفريد، فلقد بدأ ابنُ عبد ربّه كتابَهُ بمقدمةٍ وضَّح فيها الدافع الذي دفعه إلى تصنيفه، وبيّن فيها مضمون الكتاب، والمنهج الذي سلكه.

أما عن الدافع لتصنيفه فقال: (وبعدُ، فإنّ أهلَ كلِّ طبقةٍ، وجهابذةَ كلِّ أمّةٍ قد تكلّموا في الأدب، وتَفلسَفُوا في العلوم على كلّ لسان ومع كلّ زمان، وأنّ كلّ متكلّمٍ منهم قد استفرغ غايتَهُ، وبذَلَ جهده في اختصارِ بديعِ معاني المتقدّمين، واختيار جواهر ألفاظ السالفين، وأكثروا في ذلك، حتى احتاجَ المختصَر منها إلى اختصار، والمتخيَّر إلى اختيار).

وأما عن المحتوى فيقول: (وقد ألّفتُ هذا الكتاب، وتخيَّرتُ جواهره من متخير جواهر الآداب، ومحصول جوامع البيان، فكان جوهر الجوهر، ولباب الألباب، وإنما لي فيه تأليف الأخبار، وفضل الاختيار، وحسن الاختصار، وما سواه (يقصد المعلومات) فمأخوذ من أفواه العلماء، ومأثورٌ عن الحكماء والأدباء، واختيار الكلام أصعب من تأليفه».

وفي موضعٍ آخر في بيان المحتوى الذي يميّزُ كتابه عن الكتب السابقة يقول: (وقد نظرت في بعض الكتب الموضوعة، فوجدتها غير متصرفة في فنون الأخبار، ولا جامعة لجمل الآثار، فجعلت هذا الكتاب كافياً شافياً، جامعاً لأكثر المعاني الّتي تجري على أفواه العامة والخاصة، وتدور على ألسنة الملوك والسُّوْقَة (أي العامة)، وحَلَّيتُ كل كتاب منها بشواهد من الشعر، تجانس الأخبار في معانيها، وتوافقها في مذاهبها؛ ليعلم الناظر في كتابنا هذا أن لِمَغْرِبنا على قاصيته (أي بعده)، وبلدنا على انقطاعه حظاً من المنظوم والمنثور».

فالكتابُ كما هو واضح من تلك العبارات الّتي أوردها المصنِّف،

والّتي تدل على تواضعه أيضاً يُعَدّ من الموسوعات الأدبية التاريخية الاجتماعية، جَمَعَ فيه مجموعة من النصوص الأدبية في الشعر والنثر، ما بين حكمة مأثورة، أو قول مشهور، أو مثل سائر، بالإضافة إلى طائفة من الأخبار التاريخية والاجتماعية وغيرها، وطبائع النفس والنوادر والمِلَح، وغير ذلك، وبهذا اندرجَ ضمن الموسوعات العلمية المشهورة.

وفي مقدمة الكتاب أشار ابن عبد ربه الأندلسي إلى عنوانه، والسبب في اختياره فقال: (وسميته كتاب العِقد الفريد؛ لما فيه من مختلَف جواهر الكلام، مع دقة السلك، وحُسْن النظام، وجزّأته على خمسة وعشرين كتاباً، كل كتاب منها جزآن، فتلك خمسون جزءاً، في خمسة وعشرين كتاباً، وقد انفرد كل كتاب منها باسم جوهرة من جواهر العقد».

هذه الفكرة عن التسمية الّتي ذكرها ابن عبد ربه في المقدمة تقطع كل ما دار من جدل حول العنوان، وتؤكّد أن اسمه (العقد الفريد)، ومَن ادّعى أنّها من إضافات النُسّاخ فعليه أن يبرهن لذلك.

إن هذا العنوان قائم على التخييل والتشبيه، كما يؤكّد ذلك أيضاً تقسيم الكتاب، وتسمية كل قسم منها، فقد تخيَّل ابن عبد ربه كتابه عِقداً منظوماً، وسمّى كل باب باسْمٍ من أسماء ذلك العقد، والعقد في حقيقته يتكوّن من خمس وعشرين حبة ثمينة، لكل حبة منها اسم معروف، وأنفس حبات العقد هي الحبة الوسطى الّتي تسمّى (واسطة العِقد)، عن يمينها اثنتا عشرة حبة، وعن يسارها اثنتا عشرة حبة أخرى، وهي على هذا النحو مبدوءة من الواسطة عن اليمين،

ويقابلها مثلها عن اليسار: (المُجَنَّبَة، ثم العسجدة، ثم اليتيمة، ثم الدرة، ثم الزمردة، ثم الجوهرة، ثم الياقوتة، ثم المرجانة، ثم الجمانة، ثم الزبرجدة، ثم الفريدة، ثم اللؤلؤة)، إلّا أنّ أسماء الحبّات من جهة اليسار أضافَ إليها كلمة الثانية فيقول: المُجَنَّبَة الثانية، ثم العسجدة الثانية، وهكذا...

ولا أحد ينكِر على المصنِّف تفرّده بهذا النظام الذي يدلّ على ابتكارٍ من وحي شاعريَّته، كما لا ينكِر أحدٌ أنه استقى أسماء موضوعاته من بعض الكتب السابقة، وعلى رأسها كتاب «عيون الأخبار» لابن قتيبة الدَّيْنَوَري.

وأما عن المنهج الذي سلكه ابن عبد ربه في كتابه فيقول هو عنه: (تطلّبتُ نظائر الكلام، وأشكال المعاني، وجواهر الحكم، ودروب الأدب، ونوادر الأمثال، ثم قرنت كل جنس منها إلى جنسه، فجعلته باباً على حِدَتِه؛ ليستدل الطالب للخبر على موضعه من الكتاب، ونظيره في كل باب».

ويشير هذا إلى جزء من المنهج الذي اتبعه ابن عبد ربه، وهو منهج علمي سديد، يعتمد على الترتيب المنطقي المنظم للأفكار والموضوعات، وجعلها في باب واحد، والحقيقة أن هذا المنهج الذي اتبعه قد جَنَّبه الوقوع في عيب التكرار، الذي رأيناه في بعض المؤلفات، وكان ابن عبد ربه دقيقاً عندما وضع في اعتباره حال المتلقي ساعة تأليف الكتاب، إذ كان من دوافع اختيار ذلك المنهج كما أشار إلى ذلك

تجنيب القارئ مغبة الجهد في البحث عما يريد، فجاءت أبواب الكتاب بمثابة الفهارس، وهذا الجزء من المنهجية يتعلّق بالجانب الأول وهو النظام.

ثم نمضي خطوة أخرى في طريق المنهج أيضاً تتعلّق بجانب آخر، وهو اختيار النماذج، نلمحها في قوله: (وقصدتُ من جملة الأخبار، وفنون الآثار أشرفها جوهراً، وأظهرها رونقاً، وألطفها معنى، وأجزلها لفظاً، وأحسنها ديباجةً، وأكثرها طلاوة وحلاوة)، فهو يعتمد على التأثُّر الذاتي، والتذوُّق الفردي، ويفصح عن تمتّعه بذوقٍ فنّيٍ رفيعٍ يَعتدّ به.

وجانبٌ ثالث من جوانب المنهج العلمي الذي استخدمه يشير إليه أيضاً بقوله: (وحَذفتُ الأسانيد من أكثر الأخبار طلباً للاستخفاف والإيجاز، وهرباً من التثقيل والتطويل؛ لأنها أخبار ممتعة، وحكم ونوادر، لا ينفعها الإسناد باتصاله، ولا يضرها ما حذف منها»، فهو لا يكثر من ذكر الأسانيد عند إيراد الأخبار؛ حتى لا يمل القارئ، أو يطول الكتاب.

وهذه الطريقة الّتي أشار إليها على الرغم من أنها تُيسِّر على القارئ الوصول إلى المعلومة، إلا أنها لا تفي بالغرض، فأحياناً يقرأ الإنسان خبراً من الأخبار، فيرى أنه في حاجة ملحّة إلى معرفة أصل ذلك الخبر، وتتبُّع رجاله، وفي هذه الحالة لا بدّ من الرجوع إلى الأصل الذي نقلَ عنه، فلا ينفعه الاعتماد على هذا المصدر؛ لأنه حذَف الأسانيد،

فقد تصبح هذه النقطة مأخذًا عليه.

وهكذا نشعر أنّ وراء هذا المنهج فكراً ناضجاً، وشخصيةً تتصف بالذكاء والخبرة والتحضّر، وتجمع بين عدّة ثقافات متنوعة، فقد ذكَر المنهج كاملاً في كتابه حتى لا يَترك القارئ في حيرة للبحث عن منهجه، وهو كما رأينا منهجٌ علميّ سديد، يتصل بالترتيب، ويتصل باختيار النماذج وكيفية توظيفها توظيفاً حسَناً، حتى تتّسم وتتّسق مع الأفكار، أو الموضوعات الّتي يعرضها، ثم لم يحرِم المتلقّي مِن مراعاة ظروفه من حيث التخفيف، وتقديم المعلومة في وقتٍ وَجِيزٍ؛ حتى لا يملّ أو يُجهِد نفسه.

وأما بالنسبة لقيمة كتاب «العقد الفريد» في ميدان الأدب والثقافة، فإنّ الكتاب يمثّل موسوعةً ضخمة في الثقافة العربية، ودائرةَ معارفٍ تكاد تكون مكتملة الحلقات من الأخبار والنصوص الأدبية، ويُعَدّ أوّل كتاب في الأندلس من حيث الإفاضة والشمول والتنوّع، وكثرة التمثّل عن أدب المشارقة، كما يُعَدّ أيضًا مصدراً مهمّاً لمن يريد معرفة حياة قدماء العرب من النواحي الأدبية والاجتماعية والسياسية وغيرها.

وعلى الرغم من أنّ المؤلِّف لم يترك جانباً إلا وأشار إليه في كتابه، إلا أنّ السمة الأدبية سيطرت عليه من أوله حتى آخره في عَرض المادة العلمية بأسلوبٍ أدبي جيّد، والاستشهاد في كل موقف بما يُستَجاد من الأدب، فصاحبه أديب بارع.

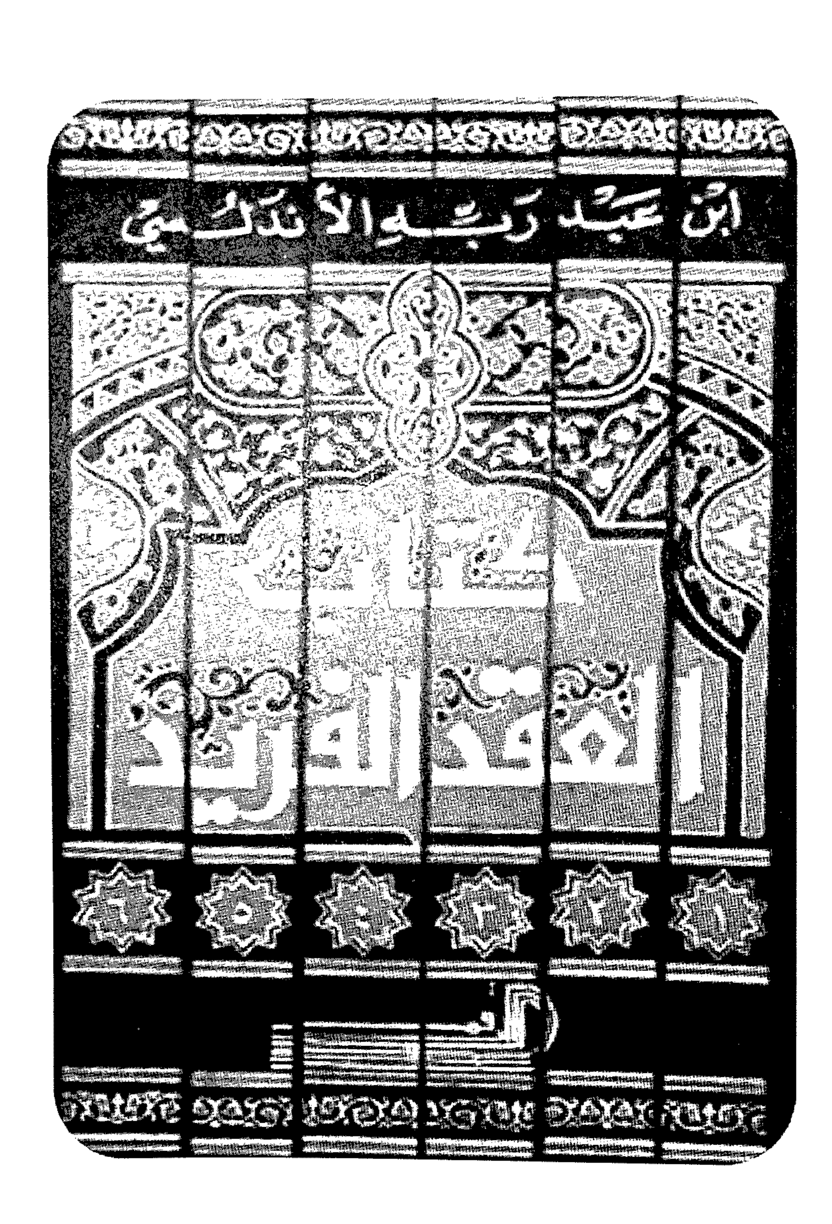
ومما يؤكِّد أهمية الكتاب أيضاً إشادة العلماء به، ونقلهم عنه حين

تأليفهم، كالأبشيهي في «المستطرف»، والبغدادي في «خزانة الأدب»، وابن خلدون في «المقدِّمة»، والقلقشندي في «صبح الأعشى» وغيرهم.

ومما يُذكَر حول قيمة الكتاب أيضًا: قيام ابن النشا باختصاره، وكذلك ابن منظور صاحب «لسان العرب»، وهناك مِن المحْدَثين مَن صنَعَ منه مختارات حسنة يقرّبها إلى القراء.

ويُذكَر أن محمد شفيع، أستاذ اللغة العربية بجامعة البنجاب الهندية، قام بإصدار كتاب في جزأين عن «العقد الفريد»، أحدهما فهرس تحليلي للنسخ المطبوعة في مصر، والثاني تصحيحات وتعليقات ومقارنات بينهما، كما أشار إلى ذلك كار بروكلمان في كتابه «تاريخ الأدب العربي».

توفِّي ابن عبد ربه الأندلسي في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر الأموي سنة 328هـ 940م، وقد جاوز الثمانين، وكان قد أصيب بالفالج قبل وفاته بأعوام، رحمه الله تعالى وغفر لنا وله وجعل كتبه في ميزان حسناته إنه على كل شيء قدير...


ابن عبد ربه الأندلسي
العقد الفريد

عصر الامارة

المحدث قاسم بن أصبغ البياني القرطبي

859- 952م

إذا ما هاجر الإنسان في طلب الرزق الحلال فذاك بحد ذاته أجر عظيم، فكيف بمن يهاجر في طلب حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو القائل «من كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله» ذاك أحد صناديد الإسلام في الأندلس ترك قرطبة وقصد بغداد والسبب في ذلك هو طلب العلم فغدى من كبار المحدثين في زمنه، انه العلامة قاسم بن أصبغ.

الإمام قاسم بن أصبغ البياني القرطبي ولد سنة 244هـ 859 م والبياني نسبةً إلى بيانة وهي ضاحية من ضواحي مدينة قرطبة التي كانت حينها عاصمة ثقافية واقتصادية وإحدى الحواضر الإسلامية الكبرى

قاسم بن أصبغ بن محمد بن يوسف بن ناصح وقيل واضح مولى الخليفة الوليد بن عبد الملك الأموي ، أبو محمد ، الإمام العالم محدث الأندلس في زمانه وحافظها ،مولده في بيانة من أعمال قرطبة لأسرة من موالي بني أمية ، ونشأ في قرطبة وأخذ عن كبار علمائها كبقي بن مخلد ومحمد بن وضاح ،كما رحل إلى المشرق فسمع بمكة من محمد بن إسماعيل الصائغ وغيره ، وبالعراق من ابي بكر بن أبي الدنيا

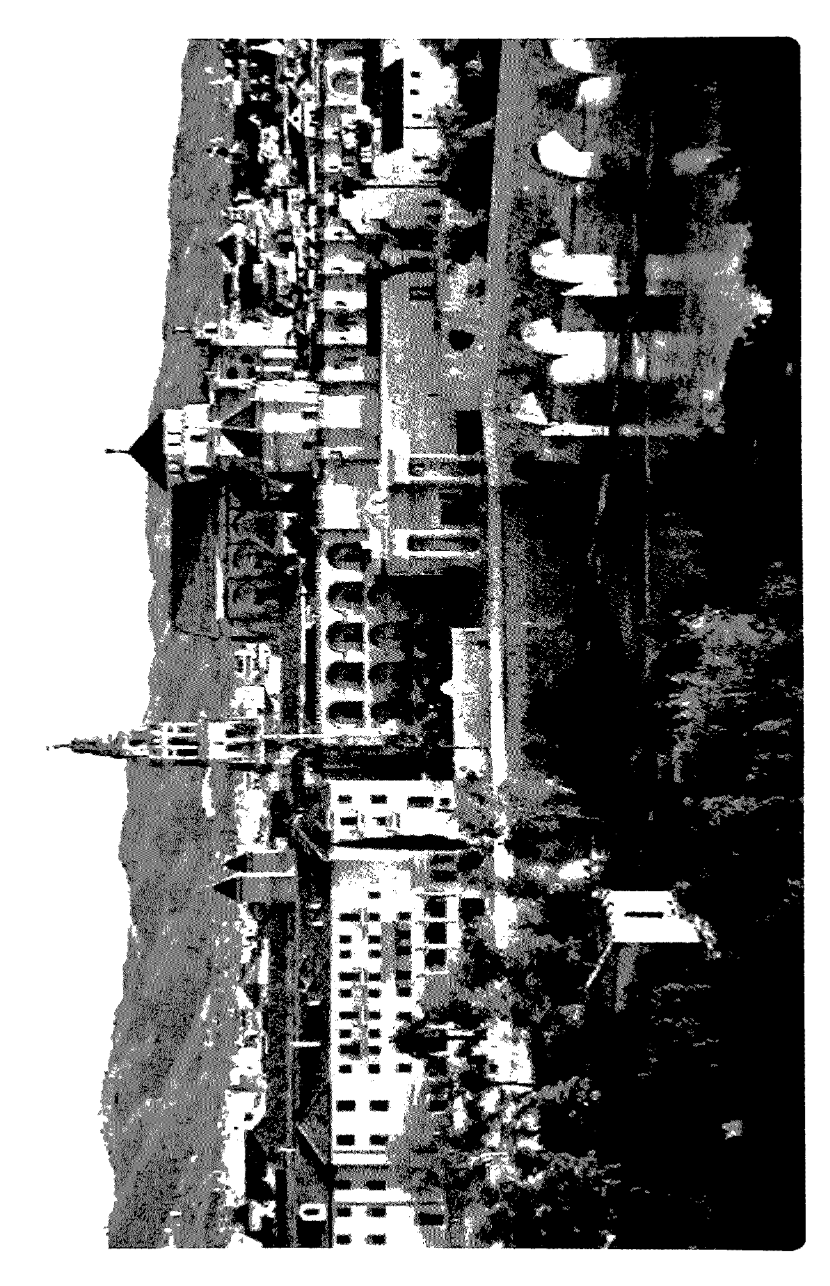
والحارث بن أبي أسامة و الترمذي وابن أبي خيثمة الذي حمل عنه تاريخه ، وغيرهم من أئمة المسلمين ومشاهير الرواة ، ورجع الى قرطبة بعلم جم ، فتصدر التحديث بها ، وانتهى إليه علو الإسناد في الأندلس مع الحفظ والإتقان وبراعة العربية ، والتقدم في الفتوى والحرمة التامة والجلالة ، وأخذ عنه كثير من العلماء ، وسمع منه الخليفة عبد الرحمن الناصر الأموي قبل أن يلي الخلافة ، ثم سمع منه ولي عهده الحكم المستنصر بالله وأخوته ، وطال عمره فسمع منه الشيوخ والكهل والأحداث والصغار الكبار ، وكانت الرحلة في الأندلس إليه ، وأثنى عليه الكثيرون ، ومؤلفات ابن حزم وابن عبد البر القرطبي وأبو الوليد الباجي مليئة بروايات قاسم بن اصبغ .

يقول ابن الفرضي : كان قاسم بن أصبغ بصيراً بالحديث والرجال ، نبيلاً في النحو والغريب والشعر ، وكان يشاور في الأحكام ، ثم تغير حال ذهنه بعد سنة 337هـ فغلب عليه النسيان بعد تقدمه في العمر.

ترك العالم قاسم بن أصبغ العديد من المؤلفات منها : **مسند مالك، بر الوالدين، الصحيح على هيئة صحيح مسلم، الأنساب غاية في الحسن والإيعاب ، و أحكام القرآن، الناسخ والمنسوخ، بديع الحسن، فضائل قريش، المجتبى على نحو كتاب المنتقى لابن الجارود**

ويقول ابن حزم عنه : وهو خير منه انتقاء وأنقى حديثاً وأعلى سنداً وأكثر فائدة .

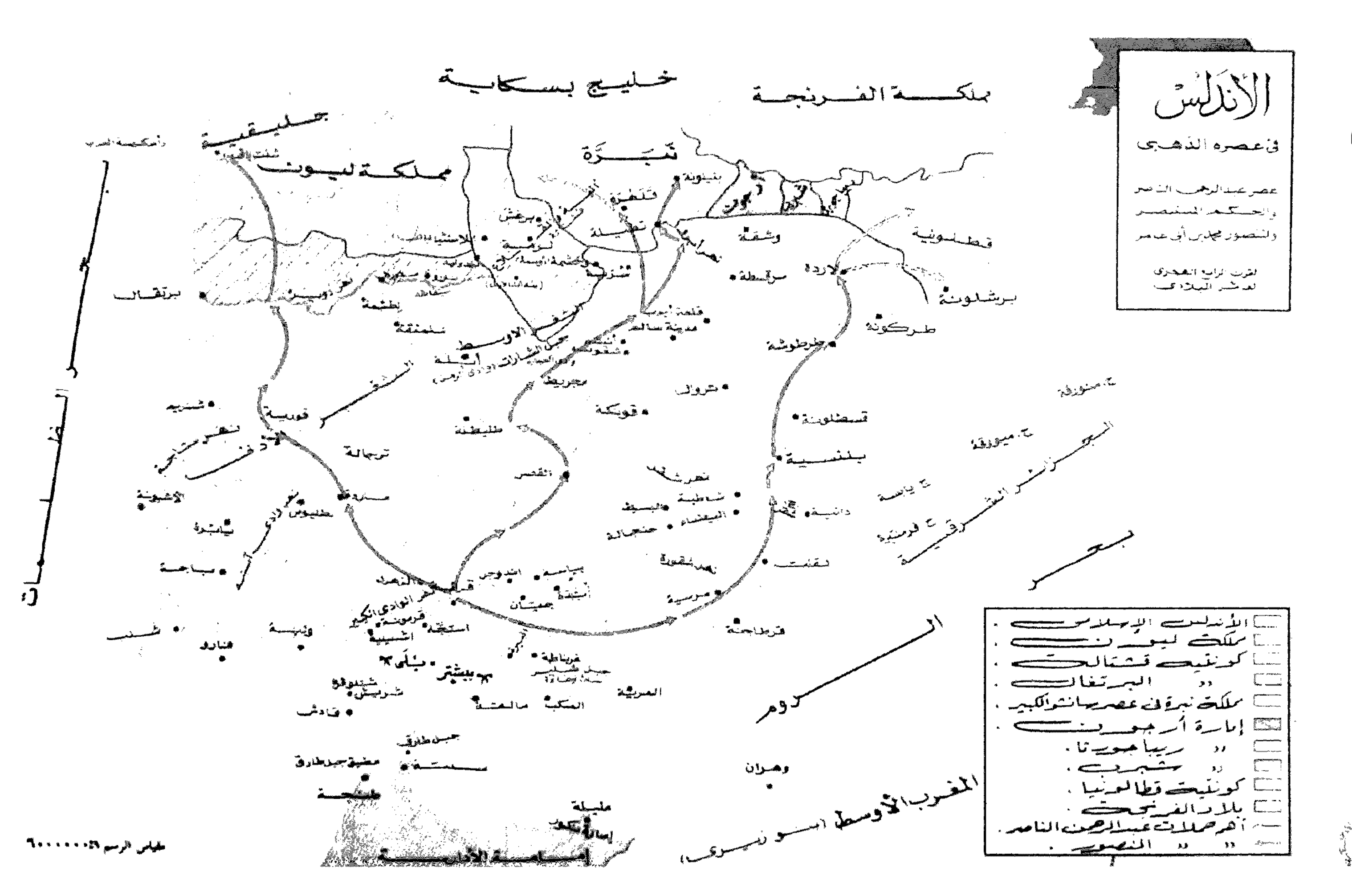
توفي في قرطبة رحمه الله تعالى سنة 340هـ 952م وقد جاوز التسعين، وذلك في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر الأموي، رحمه الله تعالى ....



صورة لمدينة قرطبة عاصمة الإمارة الأموية

عصر الخلافة

* عبد الرحمن الناصر
* منذر بن سعيد البلوطي
* أبو علي القالي
* الحكم المستنصر بالله الأموي
* أبو بكر بن القوطية
* المنصور محمد بن أبي عامر
* المظفر بن أبي عامر
* أبو الوليد بن الفرضي
* الطبيب أبو القاسم الزهراوي
* أبو عمر الطلمنكي


الأندلس
في عصره الذهبي
عصر عبد الرحمن الناصر
والحكم المستنصر
والمنصور محمد بن أبي عامر
القرن الرابع الهجري
العاشر الميلادي
مملكة الفرنجة
خليج بسكاية
مملكة ليون
نبرة
جليقية
برتقال
قطلونية
برشلونة
طركونة
لاردة
سرقسطة
وشقة
طرطوشة
بلنسية
قسطلونة
دانية
لقنت
مرسية
قرطاجنة
المرية
غرناطة
مالقة
قرطبة
إشبيلية
استجة
قرمونة
قادس
طليطلة
مجريط
قونكة
شنترين
قلمرية
ترجالة
ماردة
بطليوس
باجة
أشبونة
شلب
لبلة
سلمنقة
سمورة
ليون
برغش
تطيلة
بنبلونة
سبتة
طنجة
جبل طارق
وهران
مليلة
ميورقة
منورقة
يابسة
البحر الشرقي
بحر الروم
المغرب الأوسط
مقياس الرسم ١: ٦٠٠٠٠٠٠
الأندلس الإسلامي
مملكة ليون
كونتية قشتالة
البرتغال
مملكة نبرة في عصر سانشو الكبير
إمارة أرجون
ريباجورثا
شبرب
كونتية قطالونيا
بلاد الفرنجة
أهم حملات عبد الرحمن الناصر
المنصور

عصر الخلافة

الصنديد الخليفة عبد الرحمن الناصر

890 - 961م

لعلنا ذكرنا من قبل الحكمة التي قالها العرب: **لكل اسم من مسماه نصيب**، لنجدها اليوم عملياً في اسم صنديد أندلسي حكم الأندلس خمسين عاماً، جعل منها منارة للعلم والعلماء، وأُطلق على الأندلس في عصره، العصر الذهبي، ونادته الرعية بأمير المؤمنين، وخليفة المسلمين، حتى عُدَّ من أقوى أمراء الأندلس.

قاتل وجاهد، وعمل ليل نهار، لتعيش أمته وشعبه في رخاء وسعادة مبتغياً بذلك عزة الإسلام والمسلمين، فمن هو هذا الهُمام الذي كان عصره عصراً مفصلياً في تاريخ الأندلس؟؟؟

نعم إنه الأمير وخليفة المسلمين في الأندلس عبد الرحمن الناصر...

عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان الأموي، أبو المطرف، أول من تَلقَّب بلقب الخلافة من أمراء بني أمية في الأندلس، كان جده عبد الله بن محمد قد اختار ابنه محمداً (والد عبد الرحمن) وهو أكبر أولاده لولاية العهد، فحقد عليه أخوه المطرف وقتله، فقتله أبوه به، وولد عبد الرحمن في رمضان سنة

277هـ 890م، قبيل مقتل والده بأسابيع قليلة، من جارية إسبانية تدعى ماريا أو مزنة، وقد نشأ عبد الرحمن يتيماً في كنف جده الذي أولاه الكثير من الرعاية والعطف والحنان، وأسكنه معه بالقصر دون ولده، وما كاد يبلغ أشده حتى ظهرت نجابته، وأبدى على الرغم من حداثة سِنِّهِ تفوُّقاً في العلوم والمعارف إلى درجة تسمو على سِنِّه، ودرس القرآن والسنة وهو طفل لم يبلغ العاشرة، وبرع في النحو والشعر والتاريخ، ومهر بالأخص في فنون الحرب والفروسية، فازدادت محبة جده له وثقته وعنايته، فرَشَّحه لمختلف المهام، ونَدَبَهُ للجلوس مكانه في بعض الأيام والأعياد والمناسبات لتسليم الجند عليه، فتعلقت آمال أهل الدولة به، وأضحى ترشيحه لولاية العهد أمراً حتمياً ومقضياً، بل إن جده قد رَشَّحَهُ فعلياً لولاية العهد، بأن رمى بخاتم الإمارة إليه في أثناء مرض موته، إشارة منه لاستخلافه، وما كاد الأمير عبد الله يلفظ أنفاسه الأخيرة حتى بويع بالملك حفيده عبد الرحمن بن محمد سنة 300هـ، وجلس عبد الرحمن للبيعة في قاعة القصر بقُرْطُبَة، فكان أول من بايعه أعمامه، وأعمام أبيه، وقد مَثَلُوا أمامه وعليهم الأردية والظهائر البيض عنوان الحزن على الأمير الراحل، وتكلم بلسانه عمه أحمد بن عبد الله فقال: **والله لقد اختارك الله على علم للخاص منا والعام، ولقد كنت انتظر هذا من نعمة الله علينا، فأسأل الله إيزاع الشكر، وتمام النعمة، وإلهام الحمد**، وتتابع للبيعة بعد ذلك وجوه الدولة والموالي، ثم أهل قُرْطُبَة من الفقهاء والأعيان، ثم نهض الأمير عبد الرحمن، فصلى على جثمان جده، ثم واراه في مدفنه بالروضة،

ومعه الوزراء ورجال الدولة، ثم أرسلت الكتب إلى سائر الأعمال والولايات لأخذ البيعة للأمير الجديد.

كانت الأندلس عند استلام عبد الرحمن لإمارتها تتجاذبها الأعاصير والتمردات من كل صوب، فقد كثر الخوارج في كل ناحية ومكان بها، ولعل أخطر تلك الحركات الانفصالية هي حركة المتمرد عمر بن حفصون المدعومة من النصارى، وكان الأمير عبد الرحمن يرى أن سياسة التردد والرفق التي اتبعها أجداده نحو زعماء الخوارج كانت سياسة خطرة، ولم تكن ناجحة، وأنه لا بد من استتباب الأمن واستقرار السكينة من سحق التمرد وزعمائها بأي وسيلة، فلم تمض أسابيع قليلة على استلامه زمام الأمور حتى بدأ بإرسال الجيوش إلى الأماكن المتمردة، فبدأ بقلعة رباح، حيث انتزعها من يد المتمرد الفتح بن موسى بن ذي النون البربري، ثم أرسل جيشاً إلى أستجة فاستردها من يد أتباع ابن حفصون، وهدم أسوارها لكي تكون عاجزة عن التمرد والخروج مرة أخرى، ثم خرج بنفسه في شعبان سنة 300هـ، وتولى القيادة بنفسه، وتقدَّم جندَه الذين شاهدوا شجاعته وإقدامه، وسار متَّجهاً إلى الجنوب الشرقي حيث استولى ابن حفصون على إلبيرة ومعاقلها، ثم اتَّجه إلى جيَّان في وسط الأندلس، حيث كان التمرد على أشده، وكان ابن حفصون قد بسط نفوذه على عدد من الحصون القوية فيها، فبدأ الأمير عبد الرحمن بحربهم، واستولى على حصن مرتش في طريق جيّان، ثم بعث جيشاً فاسترد مالقة، وتابع حربه حتى استرد جميع الحصون التي كانت بيد ابن حفصون في

ناحية جيَّان، وطهَّرَها من الخروج والعصيان، وقدَّم إليه سائر زعماء الخوارج طاعتهم، فتقبلها وعفا عنهم.

وسار عبد الرحمن بعد ذلك نحو الجنوب إلى كورة ريه، فاستردَّ سائر الحصون فيها التي كانت بيد ابن حفصون، وفرَّ أمامه جعفر بن حفصون ولحق بوالده، وحاول ابن حفصون أن يزحف إلى غرناطة، فخرج إليه أهل إلبيرة ومعهم مدد من جيش الأمير عبد الرحمن، فردوه على عقبه، وما زال عبد الرحمن يجول في تلك النواحي، يُخضِع مُدُنَها، وينسف حصونها، حتى قضى على جميع عناصر التمرد فيها، وبلغ ما استولى عليه في هذه الغزوة من الحصون أكثر سبعين حصناً من أمنع الحصون المتمردة، وعاد إلى قُرْطُبَة في عيد الأضحى من نفس السنة، بعد أن قضى في غزوته حوالي ثلاثة أشهر، إلا أن هذه الجولة لم تكن إلا جولة تتبعها جولات من الصراع الكبير، وذلك أن ابن حفصون أعاد تنظيم قواته وخططه، وكانت إشبيليا من بين المدن التي رفعت لواء التمرد في وجه الأمويين، وكات بيد بنو حجاج الذين أقاموا بها إمارة مستقلة، وكان عبد الرحمن يتوق إلى تحطيم سلطانهم، إذ إنهم لا يدينون بالولاء للحكم الإسلامي في قُرْطُبَة، فأرسل عبد الرحمن جيشاً قوياً تمكن من دخول إشبيليا وسحق الخوارج بها سنة 301هـ، ثم خرج بنفسه في نفس السنة قاصداً كورة رية التي أعاد ابن حفصون الاستيلاء عليها، فجال في معاقلها، وتمكن من هزيمة ابن حفصون وحلفائه من النصارى في معركة شديدة، حيث ارتد ابن حفصون نحو الغرب.

ومع أن عبد الرحمن كان يتوق إلى سحق التمرد بكل الوسائل، فإنه لم يلجأ إلى قسوة لا مسوِّغ لها، بل آثر منذ البداية أن يتبع سياسة الرفق والتسامح نحو الزعماء الذين قدَّموا خضوعهم وطاعتهم، فسمح للكثير منهم للانتقال إلى قُرْطُبَة مع الأهل والولد، وأجرى عليهم الأرزاق والأعطية، وأبدى بالأخص نحو النصارى الذين أذعنوا إلى الطاعة منتهى الكرم والتسامح.

وألم بالأندلس في العام التالي قحط شديد، فارتفعت الأسعار، وفُقِدَت الأقوات، وبلغت الشدة بالناس مبلغاً عظيماً، وانتشر الوباء مع القحط، وهلك كثير من الناس، فكانت محنة قاسية وشديدة، لم يدخر فيها الأمير عبد الرحمن جهداً ببذل المعونة والغوث لشعبه، وذلك بتوزيع المؤون والصدقات الوفيرة، وحذا حذوه كثير من الكبراء والأمراء، فكان لجهودهم أثر كبير في التخفيف من المحنة، وكان لهذا الظرف أثر كبير في تهدئة التمردات، وألفت من عضد الخارجين، ولكن عبد الرحمن كان يقظاً يرقب تحركاتهم بحذر وأهبة، وعندما انتهت هذه المحنة العصيبة، عاد عبد الرحمن لاستئناف جهوده في توطيد واستقرار دولته، فسَيَّرَ قواته إلى كورة تودمير، ومدينة لبلة، وكان لهلاك عمر بن حفصون سنة 305هـ أثر كبير في تفكك عرى التمرد.

وكان ابن حفصون في الواقع أخطر متمرد عرفته الأندلس منذ الفتح، فقد كانت حركته تضم أخطر العناصر التي لا تدين بالولاء للدولة الأموية، وعلى رأسها طائفة المولدين الذي ينتمي إليهم، والمولدين

هـم سلالة القوط والنصارى الإسبان الذين أسلموا منذ الفتح، وغدوا جزءاً من الأمة الأندلسية، وكان أولئك المولدون وعلى الرغم مما تسبغه حكومة قُرْطُبَة عليهم من الرعاية والتسامح يضمرون لها الخصومة والكيد، وينتهزون كل فرصة للخروج عليها، وكانوا يتلقّون العون من زملائهم النصارى في الممالك الشمالية في الأندلس (أصحاب جليقية وقشتالة ونافار) وقد دبَّر ابن حفصون حركته ونظمها في المناطق الشرقية الجنوبية للأندلس بين رندة ومالقة، وكانت تضم هذه المناطق كثير من المولدين والنصارى فضلاً عن طبيعتها ووعورتها، ولقد كانت وفاة هذا المتمرد ضربة قوية لأتباعه، حيث انتعشت الدولة الأموية لهلاك ابن حفصون، بعد أن شغلها ثلاثون عاماً.

وترك ابن حفصون أربعة من الأبناء تولوا مكانه في رياسة القواعد الشرقية الجنوبية، ولبث عبد الرحمن بضعة أعوام يغزوهم تباعاً، حتى تمكَّن من سحقهم والاستيلاء على جميع قواعدهم، وذلك سنة 315هـ. ولم يغفل عبد الرحمن في الوقت الذي كان فيه تمرد ابن حفصون يأخذ معظم عنايته عن مطاردة المتمردين في أماكن أخرى، فغزا المتمردين في طُلَيْطِلَة وبطليوس سنة 311هـ، ثم سار بعد ذلك إلى تودمير وبلنسية، فقضى عليهم وعلى زعمائها في سائر البلاد، وسادت السكينة بعد ذلك أرجاء الأندلس، ولم يبق عليه إلا أن ينازل عدو الأندلس الخارجي وهي الممالك الإسبانية الشمالية، فالأمير عبد الرحمن وعلى الرغم من انشغاله على مدى خمسة عشر عاماً في قتال ابن حفصون وغيره، إلا أنه قد خاض معارك كثيرة مع الإسبان لاعتدائهم على بلاده عدة مرات،

مستغلين انشغال جيوش قُرْطُبَة في قمع الحركات الخارجية، وكان أول اعتداء من ملك ليون سنة 302هـ، حيث غزا بجيوشه ماردة وأحرقها، وعلى الرغم من أن مدينة ماردة كانت من المدن المتمردة إلا أن عبد الرحمن لم يغض النظر عن عدوان وقع في بلاده الإسلامية، فقام بعد عامين بإرسال وزيره أحمد بن أبي عبده على رأس جيش غزا فيه.

وفي أثناء حصار المسلمين لأحد القلاع، هرع «أردونيو» ملك ليون لنجدتها في جموع كبيرة، وجرت معركة كبيرة انتهت بهزيمة المسلمين، واستشهاد قائدهم أحمد بن أبي عبدة سنة 305هـ، وكانت لهذه الوقعة أثر كبير في نفس الأميرعبد الرحمن وفي الأندلس أجمع، فأخذ في حشد الجند من كل مكان، وكان يتوق إلى الانتقام من هزيمته الفادحة ومقتل قائده، فخرج من قُرْطُبَة بجيش ضخم سنة 306هـ، وهرع إليه أهل الثغور من كل ناحية وانضموا إليه، وكذلك أخذ النصارى في جمع جموعهم استعداداً لرد عدوهم، وانطلق المسلمون كالسيل فاخترقوا مملكة ليون، وهاجموا النصارى على الرغم من اعتصامهم بشعب الجبال، ونشبت بين الفريقين معركة شديدة في مكان يسمى مطونية، هزم فيها الإسبان هزيمة ساحقة، وأمعن المسلمون فيهم قتلاً وأسراً، ولم تنجُ منهم سوى فلول يسيرة، إلا أن هذه الهزيمة لم تُفتت من عضدهم، فأعادوا الاحتشاد والإغارة على البلاد الإسلامية، فزحف إليهم عبد الرحمن مرة أخرى سنة 308هـ في جموع كثيرة، وعبر نهر دويرة، وزحف على مدينة أوسمة فأحرقها، واجتاح المناطق المجاورة، واستولى على معظم القلاع والحصون، وأراد «سانشو» ملك نافار مفاجأة المسلمين

في أثناء عبورهم بقيادة عبد الرحمن نهر إيبرو، لكنه لم يفلح بمفاجأته، وردَّه المسلمون إلى شُعبِ الجبال، وانضم إليه حليفه «أردونيو»، وجمع المَلِكان قواتِهما لقتال الأمير عبد الرحمن، ولما نفذ عبد الرحمن بقواته إلى جبال البرنيه، أخذ النصارى في إرهاقه، وأصيب المسلمون ببعض الخسائر، وشعر عبد الرحمن بخطر المأزق، فبادر بالخروج إلى السهل المنبسط، وهنا طمع النصارى بالمسلمين، وبادروا إلى السهل بعد أن كانوا في حمى الجبال، والتقى الفريقان في مكان يسمى «جونكيرا» فدفع النصارى ثمن جرأتهم هزيمة فادحة، وأمعن المسلمون فيهم قتلاً وأسراً، ولم ينقذهم من الفناء الشامل سوى دخول الليل، وهدم عبد الرحمن حصون العدو وقلاعه، وعاد إلى قُرْطُبَة منصوراً مظفراً، بعد أن أمضى في غزوته تلك نحو ثلاثة أشهر أيضاً.

توالت بعد ذلك الحروب بين الطرفين، وكان أعظمها سنة 312هـ، إذ استطاع الأمير عبد الرحمن اكتساح مملكة نافار، ودخول عاصمتها «بنبلونة»، ولم يستطع ملكها سانشو مقاوتة ودفعه.

ولما رأى عبد الرحمن ضعف الدولة العباسية في بغداد أيام المقتدر بالله العباسي، وظهور الخلافة الفاطمية في المغرب، وما رأى من قوته هو، وتوطيد سلطانه في الأندلس، أمر بأن ينادى بأمير المؤمنين، وتلقَّب بالناصر لدين الله، فحوَّل الدولة الأموية في الأندلس من إمارة إلى خلافة، يريد بذلك استرداد تراث أسرته الروحي.

وهذه نسخة رسالته إلى الأقطار: (بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد،

فإنه أحق من استوفى حقه، وأجدر من استكمل حظه، ولبس من كرامة الله ما ألبسه، الذي فضلنا الله به، وأظهر أثرتنا فيه، ورفع سلطاننا إليه، ويسَّر على أيدينا إدراكه، وسهل بدولتنا مرامه، وللذي أشاد في الآفاق من ذكرنا، وعلو أمرنا، وأعلن من رجاء العالمين بنا، وأعاد من انحرافهم إلينا، واستبشارهم بدولتنا والحمد لله ولي النعمة والإنعام بما أنعم به، وأهل الفضل بما تفضل علينا فيه، وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمير المؤمنين، وخروج الكتب عنا وورودها علينا بذلك، إذ كل مدعو بهذا الاسم غيرنا مُنتَحِل له، ودخيل فيه، ومُتَّسم بما لا يستحقه، وعلمنا أن التمادي على ترك الواجب لنا من ذلك حقٌّ أضعناه، واسمٌ ثابتٌ أسقطناه، فأمُرِ الخطيب بموضعك أن يقول به، وأجر مخاطباتك لنا عليه، إن شاء الله، والله المستعان).

وأطاعه الأمير موسى بن أبي العافية صاحب المغرب، وخطب له في بلاده، وأرسل الناصر قوة عسكرية تحصنت في مدينة سبتة سنة 319هـ، وكان موسى من أعداء الدولة الفاطمية في إفريقيا، وقد استطاع موسى في سنة 321هـ أن يهزم جيشاً أرسله عبيد الله المهدي الفاطمي لغزو المغرب والقضاء على دعوة الناصر، إلا أن الأدارسة حلفاء الفاطميين تمكَّنوا من التضييق على موسى، والاستيلاء على مملكته، فأرسل عبد الرحمن الناصر جيوشه إلى المغرب لمحاربة الفاطميين وحلفائهم الأدارسة، واضطر الأدارسة إلى الاعتراف بطاعته سنة 332هـ، والدعوة له على المنابر، إلا أن سلطانه في المغرب لم يكن ثابت الدعائم، بل إنه مرهون بالأمراء المحالفين له.

تابع عبد الرحمن الناصر سياسته بعد أن تسمى بالخلافة في إخضاع الممالك الإسبانية الشمالية، فقد تمكن كما ذكرنا من إلحاق هزيمة كبيرة بمملكة نافار، ودخل عاصمتها واستباحها.

وحاول «راميرو» ملك ليون الثأر لحليفته مملكة نافار، وكانت طُلَيْطِلَة قد عادت إلى التمرد على عبد الرحمن الناصر، فسار الناصر إلى حصارها، وحاول راميرو إنجادها تلبية لدعوة أهلها، ولكن القوات الإسلامية ردته قبل الوصول إليها، وأرغمت طُلَيْطِلَة على التسليم والخضوع بعد أن أضنتها متاعب الحصار، ودخلها عبد الرحمن ظافراً سنة 320هـ، وفي العام التالي عاد راميرو لمحاربة المسلمين، فاحتل مدينة «أوسمة»، فسار الناصر إلى قتاله، ونفذ إلى أراضي قشتالة (ليون)، واقتحم مدينة «برغش» عاصمتها وخرَّبها، وقتل على مقربة منها عدداً كبيراً من أحبار الأديرة المجاورة.

لم يكد عبد الرحمن الناصر ينتهي من تمرد داخلي حتى يأتي أخر، حيث قام محمد بن هشام التجيبي أمير سرقسطة بخلع طاعة الناصر، وعقد حلفاً مع مملكتي نافار وليون، فسار عبد الرحمن لقمع تمرد سرقسطة، وحاصرها أشهراً حتى دخلها، وأسر صاحبها محمد بن هشام الذي التمس العفو من الناصر، فعفا عنه الناصر وردَّه إلى منصبِه جرياً على أسلوبه مع الزعماء ذوي البأس والعصبية، ولم ينسَ الناصر معاقبة مملكة نافار على حلفها مع التجيبي، فأرسل جيشاً في أثناء حصاره لسرقسطة، حيث دخل هذا الجيش إلى بنبلونة عاصمة

المملكة وخرَّبها، فهرعت إليه ملكتها «طوطة» زوجة شانسو، تقدم إليه الطاعة والخضوع، فقبل الناصر خضوعها، وأقر ولدها «غرسية» ملكاً على نافار في طاعته، وتحت حمايته.

وهكذا استطاع الناصر أن يمزق شمل هذا التحالف الخطر، وأن يُخضع الشمال الشرقي من شبه الجزيرة إلى سلطانه وسطوته، ولم يبق أمامه سوى خصمه العنيد «راميرو» ملك ليون، ففي سنة 327هـ سار الناصر بجيش كبير يضم أكثر من مئة ألف مقاتل نحو ليون، فتأهب راميرو لقتال المسلمين بكل ما وسع، وزوده حليفه الخائن أمية بن إسحاق بمعلومات ثمينة، وانضمت إليه طوطة ملكة نافار ناكثةً لعهدها مع الناصر، ووصل الناصر بجيوشه إلى قشتالة، فوجد أن النصارى قد أَخْلَوا معظم هذه البلاد، وكان محمد بن هشام التجيبي والي سرقسطة قد تقدم بقواته، فعبر نهر «شنت مانكش»، فارتد العدو بقواته إلى ما وراء النهر، ونشبت بين الفريقين معركة هُزِمَ فيها النصارى أولاً، ولكنهم عادوا فاجتمعوا وتكاثروا على المسلمين، فهُزِم المسلمون هزيمة كبيرة، وقُتِل منهم جموعاً كثيرة، وأسر محمد بن هشام، وارتد المسلمون في تراجعهم إلى خندق عميق، وإليه تنسب هذه الوقعة، فتردى فيه منهم خَلْقٌ كثير، فتقدم الناصر مضطراً بقواته، وترك موقعه، وعبر الناصر النهر بقواته، وقد عجز النصارى عن اتباعه، فلبث هناك يوماً وقد ساد الخلل في الجيش، وأيقن الناصر بالهزيمة، فارتد مع من بقي من جنده إلى وادي الحجارة، ثم سار منها إلى قُرْطُبَة، وقد وصف المؤرخون هذه الوقعة العظيمة، وما نال منها

الخليفة الناصر والمسلمون من المحنة الكبيرة.

وقد رأى الناصر أن يعتذر لشعبه عما لحقه من الهزيمة، فأصدر باسمه كتاباً عن الموقعة ذكره ابن حَيَّان، وقد شرح فيه ما جرى في المعركة، وسبب هزيمة المسلمين، ومما قال فيه: فدارت الحرب، ودافع أمير المؤمنين برجاله وخاصته عن المسلمين، حتى تقدَّم أكثرهم، إلا من ضعفت دابَّته، أو ضعفت تعبئته، فلما رأى النصارى ذلك، نزلوا من متن الجبال، فأصابوا من الأمتعة والدواب المثقلة، وحامى الخليفة عن كل من أجاز الخندق، وخلص من مضايقه حتى أسهلوا، وانتظمت جموع أمير المؤمنين، وسلَّم الله رجاله، فلم يُصَبْ منهم أحد، وقد أرخ هذا الكتاب في الثامن من ذي القعدة سنة 327هـ.

وكانت معركة الخندق خاتمة أعمال عبد الرحمن الحربية، فلم يغزُ بعدها بنفسه، وسعى عبد الرحمن إلى افتداء محمد بن هشام، فأفرج عنه راميرو بعد أن لبث في سجن ليون أكثر ثلاثة أعوام.

ولم تنقطع غزوات المسلمين للممالك الإسبانية في الأعوام التالية، فقد قاموا بعدة غزوات متتالية في مملكة ليون، وبعد هلاك راميرو عقد الصلح بين الطرفين، واستقر بينهما السلم حيناً من الزمن.

كان عصر عبد الرحمن الناصر على الرغم مما شغله من فتن وحروب مستمرة عصر عظمة ورخاء ومجد، بل كان في الواقع أعظم عصور الإسلام في الأندلس، وفيه بلغت الدولة الأموية في الأندلس ذروة القوة والبهاء، وكان حد الفصل بين مراحل تقدمها وازدهارها،

ومراحل انحلالها وسقوطها، وقد بلغت قُرْطُبَة في عهده أوج العظمة والازدهار، وأصبحت تتفوق على بغداد عاصمة الخلافة العباسية في الفخامة والبهاء، واعتنى بها الناصر، فأنشأ بها متنزهات عظيمة ساق إليها الماء من قمم الجبال، وبنى قصراً سماه دار الروضة، جلب لبنائه نوابغ المهندسين، ومع ذلك فقد كانت قُرْطُبَة بمعاهدها ودورها وطرقها الزاخرة وسكانها الخمسمائة ألف تضيق بما يتطلبه ملك عظيم كالخليفة الناصر من استكمال الفخامة الملوكية، والقصور والميادين والرياض الشاسعة، ولقد رأى الناصر أن يقيم بجوار قُرْطُبَة ضاحية ملوكية عظيمة، فأنشأ مدينة الزهراء، وقد اختطها في شمال غرب قُرْطُبَة على بعد أربعة أميال منها في سفح جبل يقال له العروس، وكان البدء في بنائها سنة 325هـ، وعهد الناصر إلى ولده وولي عهده الحكم بالإشراف على بنائها، وحشد لها أمهر المهندسين والصناع والفنانين من سائر البلاد، ولا سيما من بغداد والقسطنطينية، وجلب إليها أصناف الرخام الأبيض والأحمر والوردي من المرية وقرطاجنة وتونس والشام، وكان يشتغل في بنائها كل يوم عشرة آلاف عامل، ومن الدواب ألف وخمسمئة، ويُعدُّ لها في اليوم من الصخر المنحوت ستة آلاف صخرة، وقدرت النفقة على بنائها بثلاثمئة ألف دينار كل عام طوال عهد الناصر، عدا ما أنفقه ابنه الحكم على بنائها في عهده، وقد بنى الناصر بها قصراً للخلافة، أجمعت الروايات على أنه لم يُبْنَ في أمم الإسلام مثله في الروعة والأناقة والبهاء، كما بنى بها مسجداً عظيماً، تم بناؤه في ثمانية وأربعين يوماً، حيث كان يعمل به كل يوم ألف من

العمال والصناع والفنانين.

والخلاصة أراد الخليفة عبد الرحمن الناصر من بنائه للزهراء أن يجعلها قاعدة ملوكية حقة، تجمع بين فخامة الملك، وصولة السلطان، وعناصر الإدارة القوية المدنية والعسكرية.

كما عني الناصر بالجيش، فعكف على إصلاحه بعد أن أضناه الكفاح ضد التمردات، وحشد له الجند من سائر أنحاء إسبانيا والمغرب، واستكثر من الأسلحة والذخائر، وكان توليه القيادة بنفسه في كثير من الحروب عاملاً كبيراً على بعث روح الحماسة الحربية لجيشه.

وظهر فكره العسكري بتقنية المباغتة، وقد ظهرت المباغتة في الأعمال القتالية للخليفة الناصر بشكل مُعَقَّد جداً، مما يشير إلى درجة التعقيد التي وصلتها الأعمال القتالية في أيامه، فهو يعتمد أحياناً على المباغتة الزمنية، حيث يعمل على حشد القوات في ظاهر قُرْطُبَة خلال مرحلة مبكرة عما هو معهود في توجيه الصوائف (أي ايام الصيف) للغزو، وأحياناً أخرى يلجأ إلى المباغتة المكانية، حيث يضلِّل أعداءه لِيَظهر في مكان غير متوقع، ولكي لا يعرف أعداء الشمال نوايا الناصر وإلى أين سيوجِّه قوات الهجوم، وفي أحيان أيضاً تأخذ المباغتة عند الناصر شكل مباغتة على مستوى العمليات، وأحياناً على المستوى الاستراتيجي إذ لم يكن التوجه إلى عواصم دول الشمال (ليون ونافار) إلا نوعاً من المباغتة الاستراتيجية، كما أن طريق زجِّ القوات وحجمها نوعاً من المباغتة على مستوى العمليات، وكانت مباغتة العمليات، والمباغتة الاستراتيجية

مميزة بشدة تعقيدها لما تبرزه متابعة مسيرة الأعمال القتالية حيث تمتزج فيها المباغتة الزمنية بالمكانية لتأخذ شكلاً متقدماً ومتطوراً لمفهوم الباغتة.

كما عني بالأسطول، فأمر بإصلاحه، وأنشأ قوات بحرية جديدة، وأصبح للأندلس في عهده أسطول قوي يسيطر على مياه إسبانيا الجنوبية والشرقية، وينازع الفاطميين السيادة على البحر الأبيض المتوسط.

ويمكننا القول بختصار أن الأندلس بلغت في عهد الناصر ذروة الرخاء والأمن والنعماء والعزة، حيث ازدهرت الصناعة والتجارة والزراعة والعلوم والآداب والفنون، وشمل الأمن سائر أطراف المملكة، ورخصت كلفة العيش، ونمت قُرْطُبَة نمواً عظيماً، حيث بلغ عدد سكانها خمسمائة ألف، وعدد مساجدها ثلاثة آلاف، ومنازلها أكثر من مئة ألف، وحمَّاماتها العامة ثلاثمئة، وضواحيها ثمانية وعشرين، وازدانت بعدد كبير من القصور والمنتزهات الفخمة، ودوت شهرتها في الآفاق.

وكانت البلاد في عهده تعيش في رخاء منقطع النظير، فكثرت الأموال حتى بلغت ميزانية الدولة ستة ملايين دينار ذهبي كان يقسمها ثلاثة أقسام كجده عبد الرحمن الداخل ثلث للجيش، وثلث للبناء والعمار والمرتبات، والثلث الأخير للادخار لنوائب الزمن.

وكان سلك الشرطة من أهم المناصب الإدارية المتعلقة بضبط النظام والأمن، وكانت قبل عهد الناصر تنقسم إلى مرتبتين: الشرطة العليا،

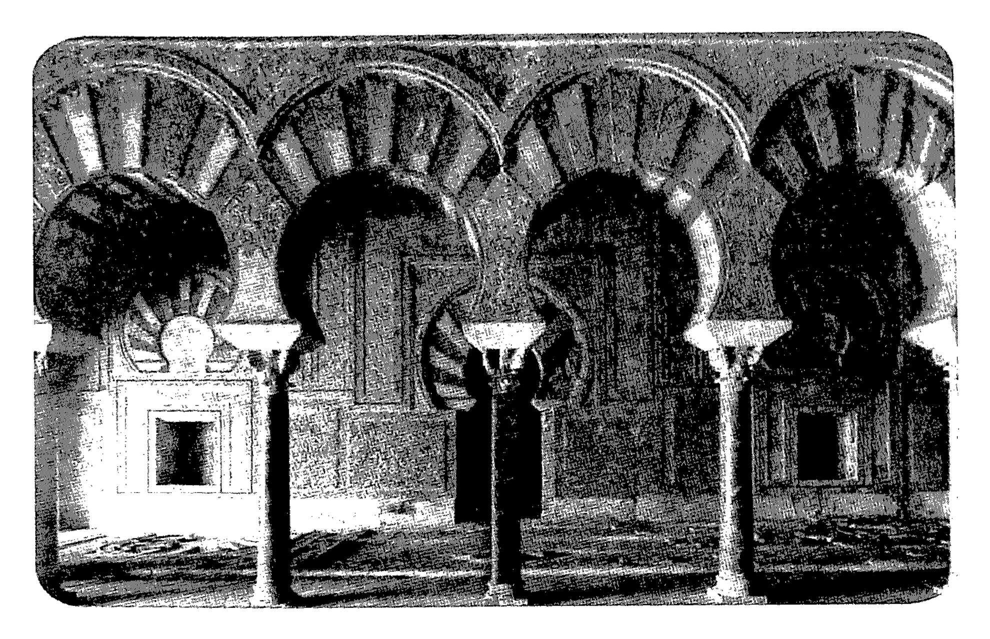
والشرطة الصغرى، ولكنها منذ سنة 317هـ في عهد الناصر لدين الله قُسمت بحسب أهميتها إلى ثلاث مراتب: الشرطة العليا، والشرطة الوسطى، والشرطة الصغرى، كما قسم سلك المحاكم والقضاء إلى سلكين عام 325هـ، وكانت قبل عهد الناصر سلكاً منفرداً يتضمن العرض والمظالم، وجعل العرض سلكاً مستقلاً بذاته، وكذلك المظالم أضحى سلكاً مستقلاً، ولقد هابه جميع ملوك عصره، فجاءت وفود الدول المجاورة لقُرْطُبَة تلتمس الصداقة، وتبادل السفراء فيما بينها، ومن مختلف المناطق حتى من نصارى شمال الأندلس.

كما أرسلت الإمبراطورية البيزنطية سفارة كبيرة إلى قُرْطُبَة لتطوير العلاقات بين الدولتين، فأرسل الناصر وفداً إلى القسطنطينية، ومعه هدايا ثمينة إلى ملك الروم، ودامت السفارات بينهما.

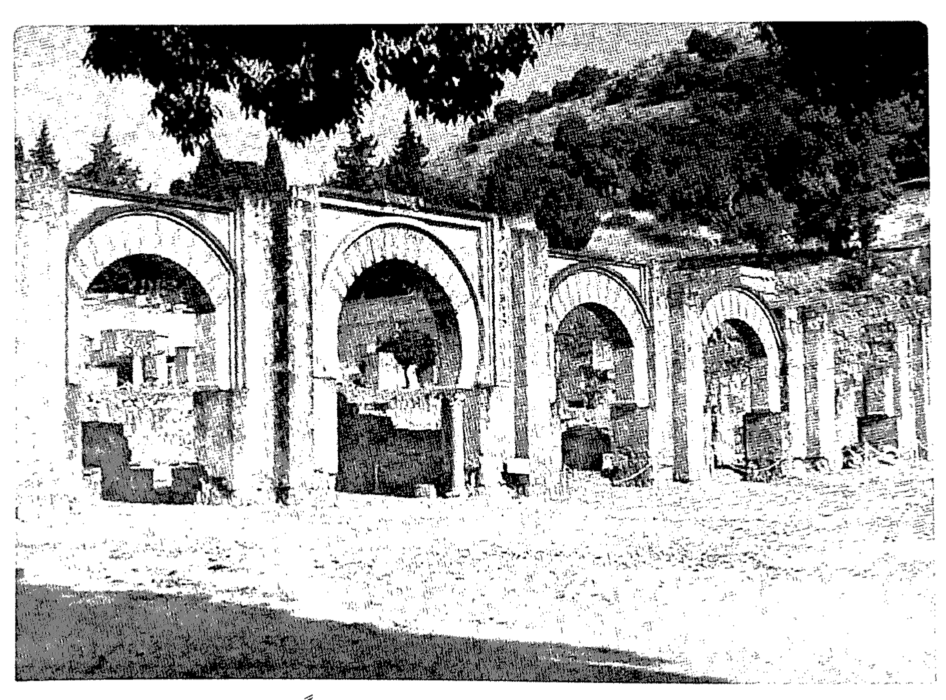
توفي الخليفة عبد الرحمن الناصر سنة 350هـ 961م، بعد حكم دام خمسين سنة ونصف، وخلفه ابنه وولي عهده الحكم المستنصر بالله.

ويقول ابن الآبار في وصفه: أعظم بني امية في المغرب سلطاناً، وأفخمهم في القديم والحديث شأناً، وأطولهم في الخلافة، بل أطول ملوك الإسلام قبله مدة وزماناً، وكان يكتبُ في دفترٍ أيام السرور التي تصفو له من غير تكدير، فلم تتجاوز أربعة وعشرين يوماً.

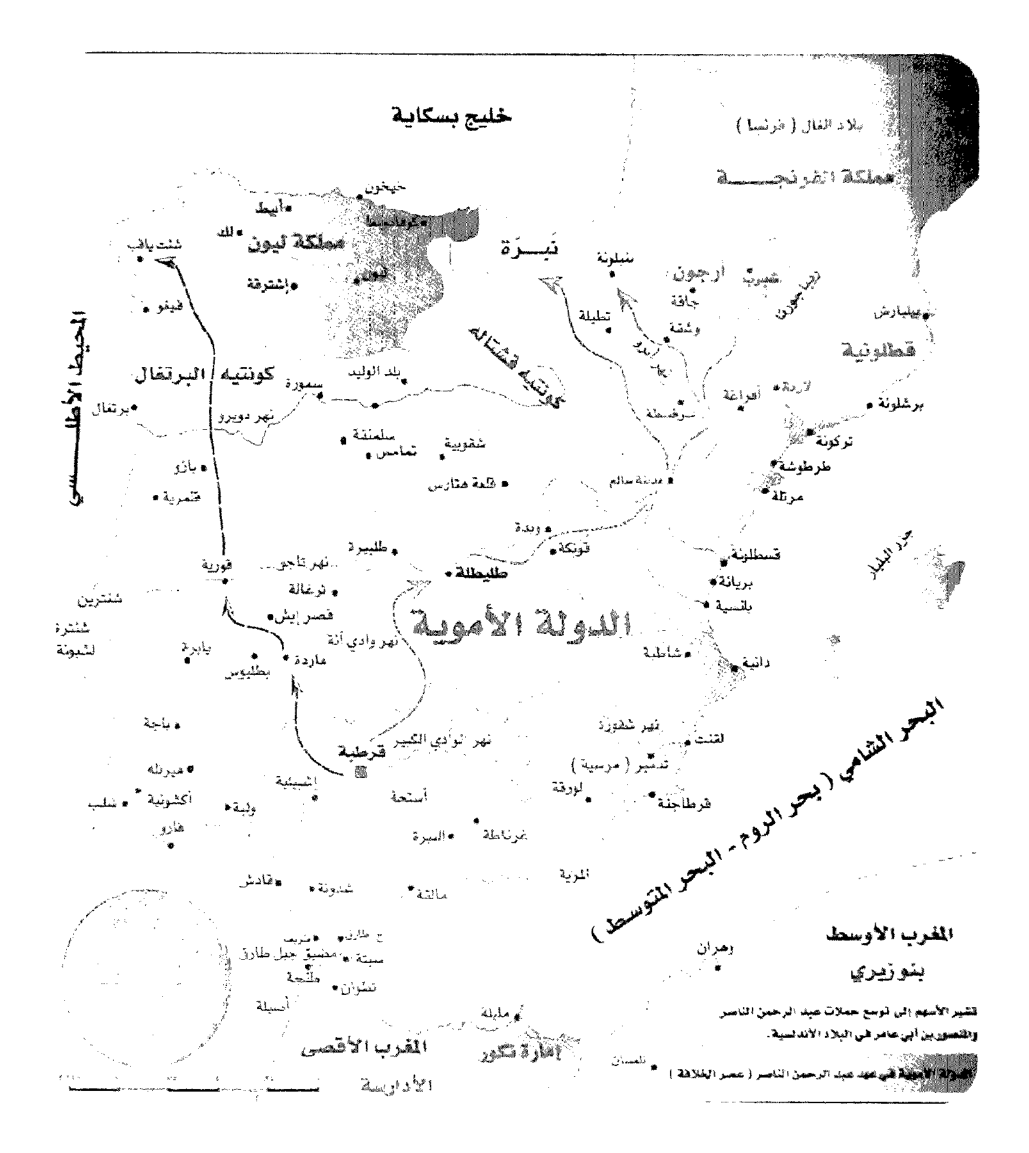
رحم الله الصنديد عبد الرحمن وأسكنه في الجنان إنه هو الحنان المنان...



قصر الزهراء الذي بناه عبد الرحمن الناصر



مدخل مدينة الزهراء حالياً



تشير الأسهم إلى توسع حملات عبد الرحمن الناصر والمنصور بن أبي عامر في البلاد الأندلسية.

الدولة الأموية في عهد عبد الرحمن الناصر (عصر الخلافة)

عصر الخلافة

الصنديد القاضي منذر بن سعيد البلوطي

886 - 966م

كُلُّ العُلومِ سِوى القُرآنِ مَشغَلَةٌ | إِلّا الحَديثَ وَعِلمَ الفِقهِ في الدينِ
العِلمُ ما كانَ فيهِ قالَ حَدَّثَنا | وَما سِوى ذاكَ وَسواسُ الشَياطينِ

لله در الإمام أحمد بن إدريس الشافعي عندما وضع قواعد العلم الصحيح في بيتي شعر، ولعل الصنديد الذي بصدد أن نخط عن حياته، لعله عدَّ هذين البيتين منهجاً له فسار يطلب علم الشريعة وفقهها حتى غدا قاضي البلاد وإمامها، و بلغت شهرته الآفاق إلا أنه لم يعول عليها، بل اتكل على الله وجعل الحق نصب عينيه ولم يخف في الله لومة لائم، إنه القاضي الخطيب المفوه المنذر بن سعيد البلوطي.

منذر بن سعيد بن عبد الله بن عبد الرحمن النفزي القرطبي، أبو الحكم، قاضي قضاة الأندلس في عصره، يُنسَب إلى قبيلة يقال لها: كُزنة من قبائل البربر، سكنت في موضع قريب من قُرْطُبَة، يقال له: فحص البلوط.

ولد سنة 272هـ 886م ،ونشأ في قُرْطُبَة، وأخذ عن كبار علمائها، وكان عالماً باختلاف العلماء، يميل إلى مذهب داود بن علي الظاهري، إلا أنه عندما تولى القضاء كان يفتي بالمذهب المالكي، وهو المذهب المتَّبع في

الأندلس منذ أيام هشام بن عبد الرحمن الأموي.

رحل نحو المشرق حاجاً سنة 308هـ، فأقام في رحلته أربعين شهراً، التقى فيها كبار علماء عصره، وأخذ عن محمد بن المنذر النيسابوري كتاب «المؤلف في الاختلاف»، وروى بمصر كتاب العين عن ابن ولاد، وسمع من ابن النحاس، وكان مذهبه في الفقه مذهب النظار والاحتجاج، وترك التقليد، وعندما عاد إلى **الأندلس** ولي قضاء ماردة وما حولها، ثم قضاء الثغور الشمالية، ثم قدم إلى قضاء الجماعة في قُرْطُبَة سنة 339هـ، في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر الأموي، وولي الصلاة بمدينة الزهراء.

وطيلة فترة قضائه، لم تُحفظ له جور في قضية، أو زلة في حكم، أو قسمة بغير سوية، أو ميل إلى هوى، أو إصغاء إلى عناية.

وكان القاضي المنذر فقيهاً محقِّقاً، وخطيباً مفوَّهاً بليغاً، لم يسمع في **الأندلس** أخطب منه، شديداً في دين الله، لا تأخذه في الله لومة لائم،

ومن أخباره مع الخليفة الناصر الأموي أن الناصر عمل في بعض سطوح الزهراء قبة من ذهب وفضة، وجلس فيها، ودخل الأعيان، فجاءه منذر بن سعيد، فقال له الخليفة كما قال لمن قبله: هل رأيت أو سمعت أن أحداً من الخلفاء قبلي فعل مثل هذا؟ فأقبلت دموع القاضي تتحدر، ثم قال: والله ما ظننت يا أمير المؤمنين أن الشيطان يبلغ منك هذا المبلغ وأن أنزلك منازل الكفار قال: ولمَ؟ فقال: قال الله عز وجل: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ

لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ} إلى قوله: {وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ} (الزخرف: 33- 35). فنكس الناصر رأسه طويلاً، ثم قال: جزاك الله خيراً عنا وعن المسلمين، والذي قلته هو الحق، وأمر بإزالة سقف القبة!!!.

وخطب يوماً فأعجبته نفسه، فقال: إلى متى أعظ ولا أتعظ، وأزجر ولا أزدجر، أدلُّ على الطريق المستدلِّين، وأبقى مقيماً مع الحائرين، اللهم فرِّغني لما خلقتني له، ولا تشغلني بما تكفَّلت لي به.

ومن جميل خُطَبِه أمام الخليفة الناصر وأعيان الدولة وأمرائها وجمع من الناس أما بعد: فإن لكل حادثة مقاماً، ولكل مقام مقالاً، وليس بعد الحق إلا الضلال، وإني قد قمت في مقام كريم بين يدي ملك عظيم، فأصغوا إليَّ معشر الملأ بأسماعكم، إن من الحق أن يقال للمحق صدقت، وللمبطل، كذبت، وإن الجليل تعالى في سمائه، وتقدّس بأسمائه، أمر كليمه موسى أن يُذَكِّر قومه بنِعَمِ الله عندهم، وأنا أُذَكِّرُكم نِعَم الله عليكم، وتلافيه لكم بولاية أميركم التي أمنت سربكم، ورفعت خوفكم، وكنتم قليلاً فكثركم، ومُسْتَضْعَفِين فقوّاكم، ومُسْتَذَلِّين فنصركم، ولّاه الله أياماً ضربت الفتنة سرادقها على الآفاق (السرادق كل ما أحاط بالشيء)، وأحاطت بكم شُعَلُ النفاق، حتى صرتم مثل حدقة البعير، مع ضيق الحال والتغيير، فاستبدلتم بخلافته من الشدة بالرخاء... إلى أن قال: فناشدتكم الله، ألم تكن الدماء مسفوكةً فحَقَنَها؟ والسبل مَخُوفةً فأمنها، والأموال مُنْتَهَبَةً فأحرزها، والبلاد

خراباً فعمرها، والثغور مُهْتَضَمةً (أي ضعيفة) فحماها ونصرها فاذكروا آلاء الله عليكم... وذكر باقي الخطبة.

ويروي ابن عبد البر أن رجلاً وجد القاضي منذر بن سعيد في بعض الأسحار بجانب المسجد، فعرفه، فجلس إليه، وقال: يا سيدي إنك لتُغرر بخروجك، وأنت أعظم الحكام، وفي الناس المحكوم عليه (أي أنك حكمت على أُناسٍ بشيءٍ لا يرضيهم وممكن أن يؤذوك)، والرقيق الدين فقال: يا أخي، وأنَّى لي بمثل هذه المنزلة؟ وأنَّى لي بالشهادة، ما أخرج تعرضاً للتغرر، بل أخرج متوكلاً على الله، إذ أنا في ذمته، فاعلم أن قدره لا محيد عنه، ولا وزر دونه.

كان القاضي منذر على متانته وجزالته حَسَنَ الخلق، كثيرَ الدعابة، له نوادر مستحسنة، فربما ساء ظن من لا يعرفه، حتى إذا رام أن يصيب من دينه شعرة، ثار ثورة الأسد الضاري، وكان من أهل النفاذ والتحصيل، متدرباً للمناظرة، متخلقاً بالإنصاف، جيد الفهم، قوي العلم، بليغاً موجزاً، يميل إلى طرق الفضائل، ويوالي أهلها، ويلهج بأخبار الصالحين، مع الورع، وكان كثير الصيام والتهجد.

ويقول الذهبي نقلاً عن الحسن بن محمد: قحط الناس في بعض السنين آخر مدة الناصر، فأمر القاضي منذر بن سعيد بالبروز إلى الاستسقاء بالناس، فصام أياماً وتأهَّب، واجتمع الخلق في مصلى الربض، وصعد الناصر في أعلى قصره ليشاهد الجمع، فأبطأ المنذر، ثم خرج راجلاً متخشعاً، وقام ليخطب، فلما رأى الحال بكى ونشج،

وافتتح خطبته بأن قال: السلام عليكم، ثم سكت وأطرق ملياً وهو حزين، ولم يكن من عادته، فنظر الناس بعضهم إلى بعض لا يدرون ما أصابه، ثم اندفع فقال: السلام عليكم، كتب ربكم على نفسه الرحمة، استغفروا ربكم وتوبوا إليه، وتقرَّبوا بالأعمال الصالحة لديه، فنضح الناس بالبكاء، وجأروا بالدعاء والتضرع، وخطب فأبلغ، فلم ينفض القوم حتى نزل غيث عظيم!!!.

وله مؤلفات في القرآن والسنة، والرد على أهل الأهواء والبدع، أخذها الناس عنه، وقرأوها عليه ومنها «**الإنباء عن الأحكام من كتاب الله**»، و«**الناسخ والمنسوخ**»، و«**الإبانة عن حقائق أصول الديانة**».

واستمر في منصبه حتى وفاته سنة 355هـ 966م في عهد الخليفة الحكم المستنصر الأموي، رحمه الله تعالى وجزاه الله خيراً كثيرا ....



عصر الخلافة

الإخباري أبو علي القالي

901 - 967م

أنست بها عشرين عاماً وبعتها وقد طال وجدي بعدها وحنيني

وماكان ظني أنني سأبيعه ولو خلدتني في السجون ديوني

ولكن لضعفٍ وافتقار وصبية صغار عليهم تستهل شؤوني

أبيات نظم يرثي بها حاله وقد أخذ الفقر منه مكاناً، كتب تلك الأبيات عندما اشتدت به الحاجة واضطره لبيع نسخة من «الجمهرة» بخط مؤلفها ابن دريد، فلم يكن الفقر مانعاً لأولئك الرجال من طلب العلم وتحصيله، فسار في طريق العلم وترك أثراً عظيماً لا يستغني عنه طلبة العلم إلى اليوم إنه «**كتاب الأمالي**» لصاحبه أبو علي القالي.

إسماعيل بن القاسم بن هارون بن عيذون البغدادي القالي، ويقال عنه: أبو علي اللغوي، النحوي، المفسر، مولده سنة 288هـ 901م في مناذكرد (من أعمال خلاط في أرمينيا) والقالي نسبة إلى قالي قلا، بلدة من أعمال أرمينيا، وقد سأله تلميذه الزبيدي: لم قيل لك: القالي؟ فقال: لما انحدرنا من بغداد كنا في رفقةٍ فيها أهل قالي قلا، وكانوا يُكرَمون لمكانهم من الثغر، (يقصد لهم مكانة لأن بلدتهم ثغر من ثغور المسلمين القريبة من الروم)، فلما دخلت بغداد نُسِبت إليهم

لكوني كنت معهم.

دخل أبو علي القالي الموصل فأخذ الحديث عن أبي يعلى الموصلي، ثم دخل بغداد سنة 303هـ، فأخذ عن كثير من علماء عصره كالبغوي، وابن صاعد، والأخفش، كما أخذ الأدب عن أبي بكر بن دريد، وابن الأنباري، وابن درستويه، ونفطويه، والزجاج، وجحظة البرمكي، وابن قتيبة، وقرأ كتاب سيبويه على ابن درستويه، وسأله عنه حرفاً حرفاً، وظل مقيماً في بغداد حتى سنة 328هـ، حيث قصد الأندلس وخليفتها عبد الرحمن الناصر الأموي، ووصل إلى قُرْطُبَة سنة 330هـ، فأكرمه الناصر غاية الإكرام، وأقام القالي بقية حياته في قُرْطُبَة تحت رعاية خلفائها، وكان له مكانة عظيمة عند الحكم المستنصر بالله بن عبد الرحمن الناصر الأموي.

وفي قُرْطُبَة كتب أبو علي أكثر كتبه، وأملى معظمها عن ظهر قلب، منها كتاب الأمالي، وهو كتاب معروف بيد الناس، كثير الفوائد، غاية في معناه، وله «**البارع**» وهو من أوسع كتب اللغة، رتَّبه على حروف المعجم، ويقع في خمسة آلاف ورقة، وهو من أجمع وأشهر كتب اللغة والظرف، لكنه فُقِد ولم يطبع، وبقيت منه ثلاث وسبعون ورقة ما زالت في المكتبة البريطانية في لندن.

قال ابن خلكان: وله التواليف الملاح، منها: كتاب الأمالي، وكتاب البارع في اللغة، بناه على حروف المعجم، وهو يشتمل على خمسة آلاف ورقة، وكتاب المقصور والممدود، وكتاب في الإبل ونتاجها، وكتاب في

حلي الإنسان والخيل وشياتها، وكتاب فعلت وأفعلت، وكتاب مقاتل الفرسان، وكتاب شرح فيه القصائد المعلقات، وغير ذلك.

وكتاب الأمثال، وتفسير السبع الطوال، وغير ذلك من الكتب النافعة الجامعة.

وكان أهل الأندلس يلقِّبونه بالبغدادي لمجيئه إليهم من بغداد، ويقال: إن الحكم المستنصر هو الذي كتب إليه، ورغَّبه بالمجيء إلى الأندلس، وكان الحكم مولعاً بالعلم والعلماء، يحيطهم برعايته، ويغدق عليهم صِلاتِه وإحسانِه، وقد خصَّ القالي بعناية خاصة، فكان يبعثه على التأليف، وينشطه بواسع العطاء، ويشرح صدره بالإجزال في الإكرام.

وللحكم المستنصر صنَّف أبو علي كتابه الشهير «الأمالي»، أو كما يقول المقري: طرَّزَه للحكم، وممن أخذ عن أبي علي محمد بن الحسن الزبيدي صاحب «**مختصر العين**»، و«**أخبار النحويين**»، وهو من أئمة النحو والأدب، وابن السيد اللغوي، وكان رجلاً عارفاً باللغة والنسب والأخبار، وكان مَكيناً عند المستنصر الأموي، ومنهم ابن مسلمة اللغوي وكان لغوياً أخبارياً.

وأبو محمد الزبيدي من مشاهير أصحاب أبي علي القالي، وقد رحل إلى المشرق ولم يَعدْ إلى الأندلس، وأبو نصر القرطبي الذي سمع من القالي، وكان رجلاً عاقلاً مقتصداً صحيح الأدب، ومؤدب الخليفة هشام المؤيد بن الحكم المستنصر،والشاعر يوسف بن هارون الرمادي، وله قصيدة مدح بها أبا علي القالي ومطلعها:

مَنْ حاكمٌ بيني وبين عدولي الشَّجْوُ شَجْوِي والعَوِيلُ عَويلي

في أيِّ جارِحةٍ أَصونُ مُعذِّبي سَلِمتْ مِنَ التَّعذيبِ والتَّنكيلِ

ومن الحكم الموجودة في كتاب الأمالي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سمع غلاماً يدعو ويقول: اللهم إنك تحول بين المرء وقلبه، فحل بيني وبين خطاياي فلا أعمل منها شيئاً، فُسّر عمر بقوله ودعا له بخير.

ومن النوادر في كتاب الأمالي أيضاً: قال أبو علي رحمه الله: (مطلب ما وقع بين حاتم وسفانة بنته من لومه إياها على الجود، وحجر أخواله على أمه لإفراطها في السخاء).

قال: وأخبرنا السكن بن سعيد العباسي بن هشام، عن أبي مسكين الدارمي قال: كانت سفانة بنت حاتم من أجود نساء العرب، وكان أبوها يعطيها صِرمة من الإبل، فتهبها وتعطيها الناس، فقال لها أبوها: يا بنية إن الغويَّيْن إذا اجتمعا في المال أتلفاه، فإما أن أعطي وتمسكي، وإما أن أمسك وتعطي، فإنه لا يبقى على هذا شيء فقالت: والله لا أمسك أبداً فقال: وأنا والله لا أمسك أبداً وقال: فلا نتجاور، فقاسمها ماله وتباينا.

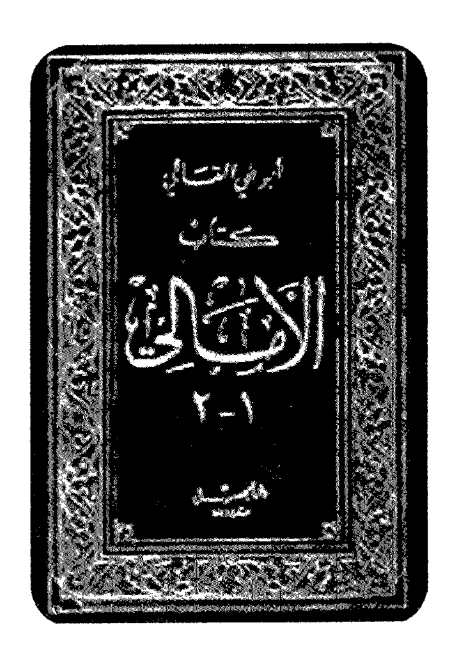
كان أبو علي القالي إماماً في علم العربية، مقدماً فيها، متقناً لها، استفاد منه الناس، وعوَّلوا عليه، واتخذوه حجة فيما نقلوه، وكانت كُتُبه في غاية التقييد والضبط والإتقان، وقد ألّف في علمه الذي اختص به تآليف مشهورة تدل على سعة علمه وروايته، وكان أعلم الناس بنحو

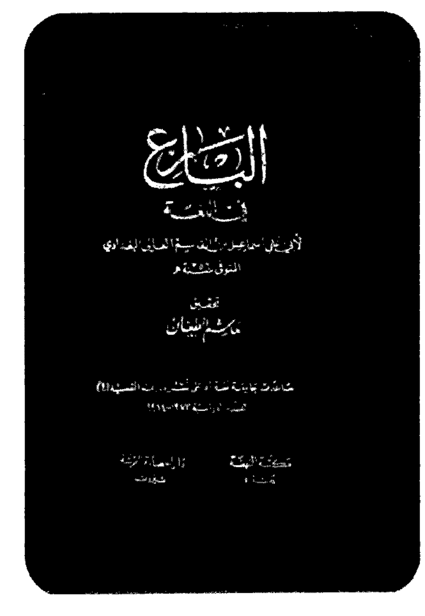


البصريين، وأرواهم للشعر مع اللغة.

توفي في قُرْطُبَة سنة 356هـ 967م ، في خلافة الحكم المستنصر بالله الأموي.

رحمه الله تعالى...





عصر الخلافة

الخليفة الصنديد الحكم المستنصر بالله

914 - 976م

«**لقد طولنا عليك**» كلمات كان يداعب بها الناصر المستنصر، ومات الناصر وسلم الحكم لعاشق الكتب وأهلها ومؤلفيها، الفتى الذي سار بالأندلس على طريق أبيه في الازدهار، والعز، وحفظ الرعية، ومنحهم حقوقهم، والحكم بما أنزل الله، إنه تاسع حكام الأندلس، طالِب العون من الله، الحكم المستنصر بالله.

الحكم المستنصر بالله بن عبد الرحمن الناصر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الأموي أبو العاص، ثاني خلفاء بني أمية في الأندلس، مولده سنة 302هـ 914م، في إمارة والده عبد الرحمن، وقد نشأ في كنف والده الذي اعتنى به عناية فائقة، وتعلَّق به تعلُّقاً كبيراً، حتى إن الناصر في بعض غزواته أمر أن يأتوه بولده الحكم وهو صغير من شدة شوقه إليه، وكان يؤثره على جميع أخوته، وقيل: إنه أخذ له بيعة العهد وهو طفل لم يتجاوز الثامنة، و قد تولى الحكم في خلافة والده كثيراً من المهام، ومن ذلك إشرافه على بناء مدينة الزهراء وغيرها، وبويع له بالخلافة بعد وفاة والده سنة 350هـ، وكان عمره ثمانية وأربعين سنة، وكان عند جلوسه أميراً مكتمل النضج والخبرة.

استهل الحكم عهده بتوسيع المسجد الجامع في قُرْطُبَة، وأصدر بذلك مرسوماً، وقد بلغت الزيادة فيه نحو مساحة الجامع الأصلية، فتضاعفت بذلك مساحته، واستغرق بناؤه أربعة أعوام، وصُنعت له قبة فخمة زخرفت بالفسيفساء البديعة، وأرسل قيصر القسطنطينية إلى الحكم منها قدراً كبيراً، كما أرسل له أستاذاً خبيراً بأعمال الفسيفساء، كما بنى إلى جانب المسجد داراً للصَّدَقة، وأخرى للوُعَّاظ وعمال المسجد.

ويروى أنه لما أتم الحكم توسعة المسجد، امتنع الناس عن الصلاة فيه، فاستغرب الحكم هذا، وسأل من حوله: ما الأمر؟ وما السبب الذي منع الناس من أن يقصدوا جامعه؟ قالوا: لقد انتشر بين الناس أنك بنيت توسعته على أسس من مال حرام، فأرسل إلى علماء قُرْطُبَة وأعيانها وأهل الفضل منها للاجتماع عنده، ثم قام فحلف أيماناً مغلظة أنه ما جعل في هذا البناء شيئاً حراماً ولو يسيراً، وإنما بناه من أخماس بيت المال، عند ذلك توافدت الناس إليه، وأقيمت الصلوات فيه.

وبعد وفاة الناصر طمع الإسبان بالثغور الإسلامية، وعقدوا حلفاً ضم مملكة ليون ونافار وإمارة قشتالة وبرشلونة لحرب المسلمين، فخرج إليهم الحكم بنفسه سنة 352هـ، معلناً الجهاد، واجتمعت إليه الجيوش بطُلَيْطِلَة، ثم سار فاخترق قشتالة، وحاول أميرها أن يقف بوجه المسلمين، فتمزَّقت قواته، وأرسل يطلب الصلح فأجيب، ثم نكث عهده، فهاجمه المسلمون مرة أخرى، واستولوا على مدينة أنتيسة

الحصينة، ثم أرسل الحكم جيشاً بقيادة والي سرقسطة يحيى بن محمد التجيبي، فدخل مملكة نافار، وكان ملكها «غرسية بن سانشو» قد أغار على البلاد الإسلامية، وحاول حليفه ملك ليون إنجادَه، ونشبت بين الفريقين معركة هُزِم فيها غرسية وحلفاؤه، واعتصموا بالجِبال، وفي الوقت نفسه سار القائد غالب الناصري مولى الحكم إلى مدينة قلهرة، من قواعد نافار الغربية، فافتتحها، وحصَّنَها بالرجال والعدة، وكان فتحاً عظيماً، وسار حاكم مدينة «وشقة» في قواته شمالاً نحو نافار، مما يلي جبال البرنيه، فاستولى على حصن «بيه»، واجتاح تلك المنطقة، وغنم ما فيها من السلاح والأقوات والماشية، وقد استغرقت هذه الغزوات والفتوحات الكبيرة بين صيفي 352- 353هـ، حتى أرسل إليه ملوك وأمراء تلك المناطق يطلبون الصلح والمهادنة، ويخطبون وده ورضاه، وغدت قُرْطُبَة مركز التوجيه في شبه الجزيرة الإسبانية كلها، وكعبة لملوك إسبانيا النصرانية، يَفِدُون إليها تباعاً، ويقدمون إليها عهود الطاعة، ويلتمسون منها الصداقة والعون، كما وردته رسائل صداقة ومودة من قيصر الروم، وإمبراطور ألمانيا.

وقد وصف المؤرخون قدوم «أردون» ملك ليون إلى الحكم، وما كان منه من مظاهر التعظيم والخضوع للخليفة الأموي، فيقول المقري في هذا الصدد: واستشعر الناس من مسرة هذا اليوم وعزة الإسلام فيه ما أفاضوا في التبجح به والتحدث عنه أياماً.

وكانت للخطباء والشعراء بمجلس الخليفة في هذا اليوم مقامات

حسان، وإنشادات لأشعار مُحْكَمَة متان.

وحَدَثَت في خلافة الحكم مجاعة عظيمة في قُرْطُبَة سنة 353هـ، فبذل الحكم للفقراء والمعوزين في سائر أرباض قُرْطُبَة والزهراء من النفقة ما يكفل أقواتهم ويسد عوزهم.

ومن الأخطار التي واجهت الحكم في خلافته خطر الفاطميين في المغرب الأقصى، وكان الحكم مُدرِكاً لهذا الخطر، متيقظاً له، فأرسل قوّاته إلى أرض العدوة من المغرب الأقصى، وقدّم له ملوك زناتة من مغراوة ومكناسة الطاعة وخطبوا له، ووفد عليه بنو أبي العافية وبنو خزر، فأكرم وفادتهم، وأجزل صِتهم، وثبّتهم على أعمالهم، وانتزع من بني إدريس ملكهم في الريف المغربي، وأَسَرَ مَلِكهم الحسن بن كنون الذي استعان بالفاطميين على الأمويين، وسيق إلى قُرْطُبَة، ثم نُفِيَ إلى مصر، حيث استقبله العزيز الفاطمي.

كما زاد الاعتناء بالأسطول البحري، و أمر قُوَّاده بحراسة سواحل البلاد وتحصينها بعد أن تهددها خطر النورمانيين.

وفي عام 355هجري هاجمت عصابات الفايكنج سواحل الأندلس الغربية وهم الذين هاجموا من قبل سواحل الأندلس في عهد عبد الرحمن بن الحكم الأموي كما ذكرنا من قبل، ولكن يبدو أن حالة الرخاء التي وصل إليها المجتمع الأندلسي قد أنستهم الهزائم القديمة، وأغرت المجوس أن يعيدوا الكَرَّة من جديد، فهاجموا السواحل الأندلسية الغربية بثمانية وعشرين مركباً، وبدؤوا يعيثوا فيها فساداً،

فخرج إليهم المسلمون، ودارت بينهم معارك شديدة، قُتِل فيها عدد من الطرفين، وأرسلت هذه المناطق رسائل إلى الحكم المستنصر بالله في قُرْطُبَة تخبره بما حدث، وتطلب منه العون والنجدة، فسارع بأمر الأسطول بالتحرك لنجدة المسلمين، وبالفعل دارت بين الطرفين معركة شديدة هزمهم فيها المسلمون، وحطَّموا عدداً من مراكبهم، واستطاعوا ردَّهم عن السواحل الأندلسية خائبين خاسرين، بعدما خَلَّصوا من معهم من أسرى المسلمين، وظلت سفنهم بعد انهزامهم تجوب المياه الغربية للأندلس، ولا تجرؤ على مهاجمتها، ثم اختفوا بعد ذلك.

وإن أهم ما يميز عهد الخليفة الحكم المستنصر هو إقامته سوقاً علمياً كبيراً في قُرْطُبَة، وكان هو جامعاً للعلم، كبير القدر، له نهم مفرط في العلم والفضائل، عاكفاً على المطالعة، جمع من الكتب ما لم يجمعه أحد من الملوك لا قبله ولا بعده، وبذل الأموال الكثيرة في طلبها، واشتُرِيت له من البلاد البعيدة بأغلى الأثمان، وكان يبعث إلى كبار علماء المسلمين في جميع الأقطار الإسلامية بالصِلات الجزيلة، للحصول على النسخ الأولى من مؤلفاتهم، من ذلك أنه بعث بألف دينار من الذهب العين إلى أبي الفرج الأصفهاني ليحصل منه على نسخة من كتابه الأغاني، كما أنه أسبغ رعايته على اللغوي الكبير أبي علي القالي، الذي ألَّف عدداً من الكتب تحت كنفه ورعايته، كما أهدى إليه كثيرٌ من علماء العصر مؤلفاتِهم، وكان للحكم طائفة من مهرة الوراقين في سائر البلاد، ولا سيما في بغداد والقاهرة ودمشق، ينقبون له عن الكتب، ويحصلون منها على النفيس والنادر، كما كانت له في بلاطه طائفة أخرى من

البارعين بنسخ الكتب وتحقيقها وتجليدها وتصنيفها.

ولما ضاقت أروقة القصر عن هذا العدد الكبير من الكتب الواردة إليه باستمرار، أنشأ الحكم على مقربة من القصر صرحاً عظيماً خاصاً بالمكتبة، تفنن المهندسون في ترتيبه وتنسيقه، وإنارة أقسامه.

لقد آثر الحكم المطالعة والعلم على لذَّات الملوك، فاستوسع علمه، ودق نظره، وكان في المعرفة بالرجال والأخبار والأنساب أحوذياً نسيج وحده، وكان ثقة فيما ينقله، وقلما يوجد كتاب في خزائنه إلا وله فيه قراءة أو نظر في أي فن كان، ويكتب فيه نسب المؤلف ومولده ووفاته، ويأتي بعد ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلا عنده لعنايته بهذا الشأن.

لقد كانت المكتبة التي أنشأها الحكم من أعظم مكتبات العصور الوسطى لضخامتها وتنوع محتوياتها، حتى قيل: إنها بلغت أربعمئة ألف مجلد، ولقد عُدَّ عصره من ألمع العصور في ازدهار العلوم والآداب.

وكانت هذه النزعة الأموية في تشجيع العلوم والآداب وجمع الكتب قد بدأت منذ عهد عبد الرحمن الداخل، وفي عهد الأمير عبد الرحمن بن الحكم وابنه محمد وكانت المكتبة الأموية أعظم مكتبات قُرْطُبَة، وكان عبد الرحمن الناصر يشغف بجمع الكتب من سائر الآفاق، وعني الحكم من بعده بهذا الشأن، فقام بجمع مكتبات القصر وتنظيمها، لتكون بداية طيبة للمكتبة الأموية العظيمة، التي أنفق بقية عمره في جمعها وتنسيقها.

يقول ابن حزم: ملأ الأندلس بجميع كتب العلوم. ويروي ابن حزم عن تليد الفتى، وكان على خزانة العلوم في قصر بني أمية، أن تليداً أخبره: أن عدد الفهارس التي كانت فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة، في كل فهرسة خمسون ورقة، ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين فقط.

ولم يكن هذا الشغف في عصر الحكم قاصراً على الخليفة فقط، فقد اعتنى كثير من كبراء العصر وعلمائه بإنشاء مكتبات خاصة زاخرة بنفائس الكتب، وشغفت النساء المثقفات بجمع الكتب أيضاً، بل لقد سرى هذا الشغف إلى اليهود والنصارى أنفسهم، وكان الكثير منهم يتقنون اللغة العربية، ويتذوَّقون ثمرات الفكر العربي من أدب وشعر وفلسفة وغير ذلك، وكان من أشهر هؤلاء الطبيب اليهودي حسداي الذي كان طبيب الحكم الخاص.

وإضافة إلى الاهتمام بجمع الكتب في عهد الحكم، فقد كان التعليم قد نهض نهضة عظيمة، فقد كان جميع أبناء الشعب يعرفون القراءة والكتابة، **هذا بينما كان أرفع الناس مكانة في أوروبا عدا رجال الدين لا يفقهون شيئاً!!**، وقد أسس الحكم عدداً كبيراً من المدارس يتعلَّم فيها الفقراء مجَّاناً، أما جامعة قُرْطُبَة، فقد كانت يومئذٍ من أشهر جامعات العالم، وكان مركزها في المسجد الجامع، وتُدرَّس في حلقاتها مختلف أنواع العلوم، والطلبة فيها يُعدُّون بالآلاف.

وكان الحكم كما ذكرنا يسبغ رعايته على سائر العلماء من مختلف الملل

والنحل، مسلمين كانوا أو غير مسلمين، ومن شواهد هذه الرعاية أن الأسقف العالم ريثموندو الإلبيري، المسمى باسمه العربي، ربيع بن زيد، كان أثيراً لديه، مُتمتِّعاً برعايته، لِتبحُّرِه في علم الفلك، والعلوم الفلسفية، وهي من الدراسات التي كان يهتم بها الحكم.

يقول العلامة دوزي: وعلى العموم فإن إغداق الحكم على العلماء الإسبان والأجانب لم يعرف حَدّاً، وقد كانوا يُهرَعون إلى بلاطه، وكان الحكم يشجعهم ويوليهم رعايته، حتى الفلاسفة استطاعوا في ظله أن ينصرفوا إلى بحوثهم دون خوف من أن يؤذيهم أحد.

ويقول أحد مؤرخي الإسبان: كانت دولة الحكم الثاني دولة الآداب والحضارة، كما كانت دولة أبيه دولة العظمة والبهاء.

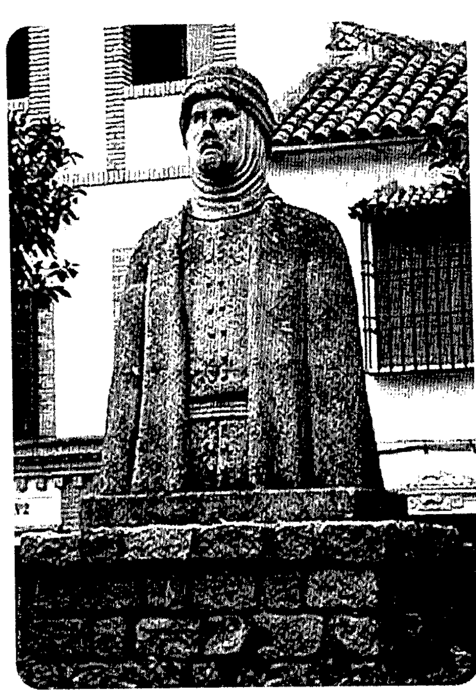
لقد بقيت مكتبة قُرْطُبَة قائمة حتى وقعت الفتنة الكبرى في سنة 400هـ، أي بعد وفاة الحكم بحوالي خمسة وثلاثين عاماً، حيث حاصر البربر قُرْطُبَة، فأخرجت معظم الكتب من الخزائن خلال الحصار، وبيعت بأمر الفتى واضح مولى المنصور بن أبي عامر، ثم نُهب ما تبقى منها عند اقتحام البربر لقُرْطُبَة.

تولى الحكم الخلافة كما ذكرنا وهو كهل عمره ثمان وأربعون سنة، ولم يكن له إلى ذلك الحين ولد، وكان ذلك مما يثير قلقه وجزعه، إذ كان يتوق أن يكون له وريث في الملك، ثم ولدت له حظيته البشكنسية «صبح» ولداً سنة 351هـ، سماه عبد الرحمن، فَسُرَّ به سروراً عظيماً، ولكن عبد الرحمن توفي طفلاً، فحزن الحكم لوفاته حزناً عميقاً، ثم

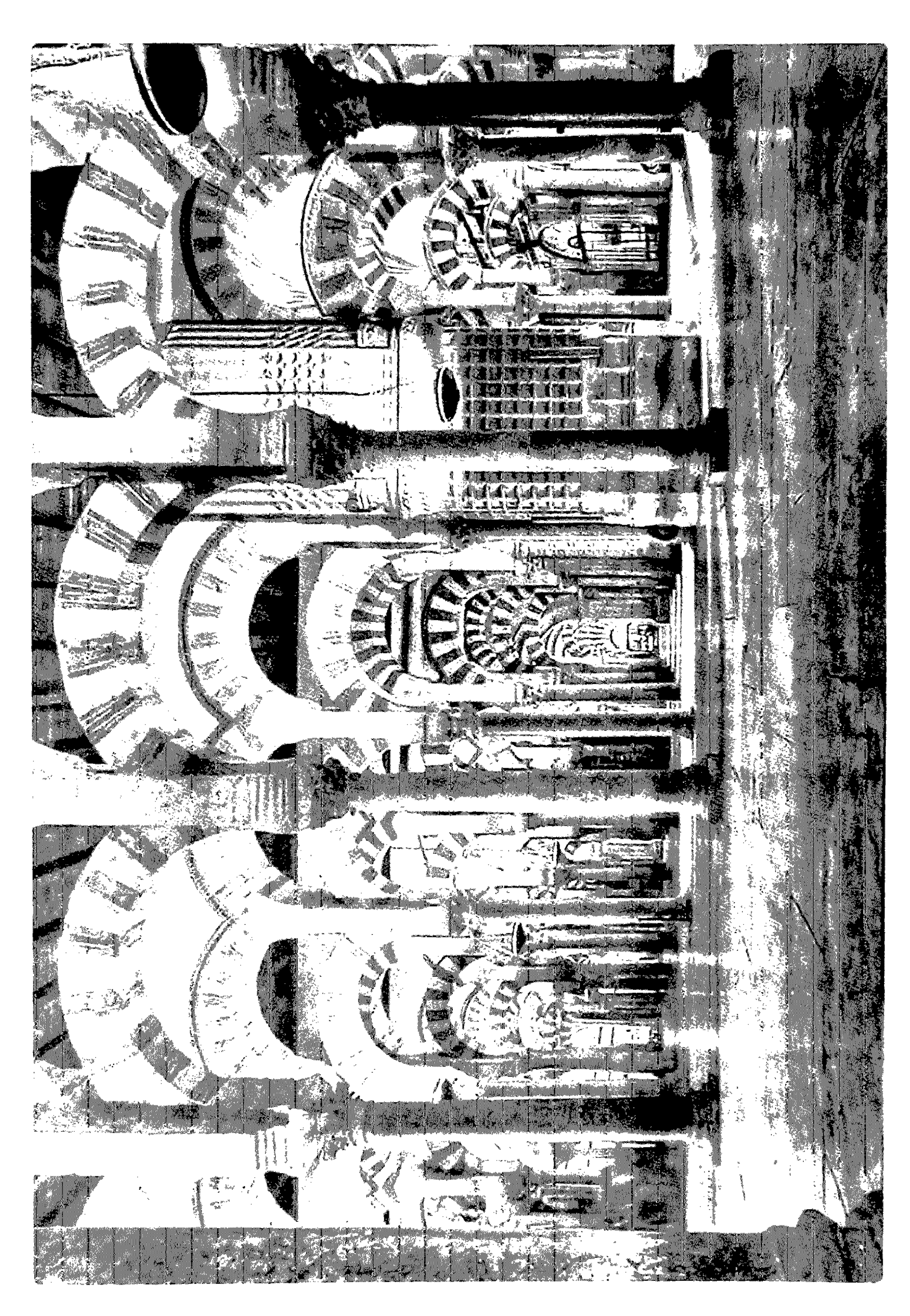
وولدت له «صبح» طفلاً آخر سنة 354هـ سماه هشاماً، ولقَّبه بالمؤيد، ورَشَّحه لولاية العهد، واعتنى به اعتناءً كبيراً، فأمر بأن تعد لتعليمه الدار المعروفة بدار الملك في قصر الزهراء، وندب لذلك كبار العلماء في عصره، وتوفي الحكم سنة 366هـ 976م، وابنه هشام لم يبلغ الحلم، فقام بتسيير أمور الدولة الحاجب محمد بن أبي عامر ريثما يكبر هشام.

وبوفاة الحكم بدأ عهد جديد في الدولة الأموية، وهو عهد الوصاية العامرية على الخليفة هشام، حيث برز دور المنصور محمد بن أبي عامر في حكم الدولة، وهذا سيأتي ذكره إن شاء الله..

رحم الله الحكم وأسكنه في جنان الخلد إنه على كل شيء قدير.



نصب تذكاري في قرطبة - الحكم المستنصر



توسعة مسجد قرطبة في عهد الحكم المستنصر

عصر الخلافة

المؤرخ الأديب أبو بكر بن القوطية

367هـ - 977م

علامـة في الأدب واللغـة، حافـظ للأخبـار وأيـام النـاس، فقيـه محـدث متقـن، كثيرُ التصانيـف، مـن أعلـم أهـل زمانـه باللغـة حافظـاً للفقـه والخبر والنـوادر والشـعر، ولـه في الحديـث قـدم ثابـت وروايـة واسـعة، وهـو عـلى ذلـك مـن أهـل النسـك والعبـادة والـورع، وكان صـدراً في الأدب، بصـيراً بالغريـب والنـادر والشـاهد والمثـل، كان عالمـاً بالخـبر والأثـر، حافظـاً لأخبـار الأندلـس وسـير أمرائهـا وأحـوال رجالهـا جيـد الشـعر صحيـح الألفـاظ».. لعـل تلـك الكلـمات مـن أجمـل مـا قيـل في شـخصية صنديدنـا الـذي نرسـم ملامـح مـن حياتـه القيمـة في تلـك الصفحـات، إنـه المـؤرخ الأديـب أبـو بكـر بـن القوطيـة.

محمـد بـن عمر بـن عبـد العزيـز الأندلسي القرطبي النحـوي، علامـة الأدب، أبـو بكـر بـن القوطيـة، والقوطيـة هـي سـارة بنـت المنـذر بـن جسـطية، مـن بنـات ملـوك القـوط، تزوَّجهـا بالشـام عيسـى بـن مزاحـم، ورجـع بهـا إلى الأندلـس، وهـو جـد عبـد العزيـز بـن إبراهيـم، جـد أبـو بكـر.

مولـده ونشـأته في قُرْطُبَـة، كان رأسـاً في اللغـة والنحـو، حافظـاً للحديـث، أخباريـاً باهـراً، لقـي أكثـر مشـايخ عـصره في الأندلـس، فأخـذ عنهـم،

وأكثر النقل من فوائدهم، وروى عنه الشيوخ والكهول، وطال عمره، فسمع الناس منه طبقة بعد طبقة.

ألَّف «**تصاريف الأفعال**» فجوَّده، وله «**المقصور والممدود**»، وله كتاب «**الأفعال الثلاثية والرباعية**»، وهو الذي فتح هذا الباب في النحو، و«**شرح رسالة أدب الكاتب**»، وكتاب «تاريخ فتح الأندلس» وأبدع فيه.

وله نظم رقيق، فتركه في كبره تورعاً، صنف تاريخاً في أخبار الأندلس، فكان يمليه من حفظه غالباً، ولما دخل أبو علي القالي إلى الأندلس اجتمع به، وكان يبالغ في تعظيمه وتوقيره، حتى إن الخليفة الحكم المستنصر بالله الأموي سأل أبو علي: من أنبل من رأيته ببلدنا في اللغة؟ فقال: أبو بكر بن القوطية.

ومما كان يزيِّن علمَه وفضلَه اتصافه بالزهد والتقوى والنسك، وكان في أول أمره ينظم الشعر بالغاً فيه حدة الإجادة، مع الإحسان في المطالع والمقاطع، وتخير الألفاظ الرشيقة، والمعاني الشريفة، ثم ترك ذلك كله، وأقبل على النسك والانفراد.

قال صاحب المطمح في وصفه: ممن له سلف، وثنية كلها شرف، وأبو بكر هذا أحد المجتهدين في الطلب، والمشتهرين بالعلم والأدب، والمنتدبين للعلم والتصنيف، والمرتبين له بحسن الترتيب والتأليف، وكان له شعر نبيه، وأكثره أوصاف وتشبيه.

ومن بديع شعره:

يا وادياً سارَ عنهُ الرَّكْبُ مُرْتَحِلاً   باللهِ قُلْ: أينَ سارَ الرَّكبُ يا وادي

أَبالغَضا نَزَلُوا أُمْ لِلِّوَى عَدَلُوا   أَمْ عَنكَ قَدْ رَحَلُوا خُلْفاً لِميعادِي

بَانُوا وقَدْ أَورَثُوا جِسْمِي الضّنَا   وكَأن كانَ النَّوى لَهُمُ أو لِي بِمِرصَادِ

وأما عن كتابه الشهير تاريخ فتح الأندلس، وهو مطبوع الآن، فكان يمليه من صدره غالباً كما ذكرت سابقاً، وهو كتاب حسن في بابه، يعكس العديد من المعلومات التاريخية والسردية، لذلك، ففكرة الفتح الإسلامي لإسبانيا (الأندلس) تختلف بشكل كبير عن باقي الكتاب، مثل الرازي.

ويدافع الكتاب عن أهمية العهد المعقود بين الفاتحين والعائلة المالكة القوطية، في الفتح الإسلامي للأندلس عام 711 هـ وما تلاه، وعهود شبيهة مع أعضاء الإدارة المدنية والكنسية والأرستقراطية القوطية. وقد نَصَّت تلك الاتفاقيات على سريانها على مُوَقِّعِيها من السكان الأصليين، وكذلك على نسلهم، والحفاظ على أملاكهم الشاسعة التي كانوا يملكونها من قبل سنة 711هـ.

ويذكر الكتاب أن أصول الفتح الإسلامي **للأندلس** على عكس ما يقول به الرازي، ويقول: لم تلعب فيها الحملات العسكرية الإسلامية دوراً رئيسياً، بل يُصِرُّ المؤلف على أن الفتح قام على العلاقات الناشئة بين السكان الجدد المسلمين الذين أتوا إلى **الأندلس** والسكان الأصليين

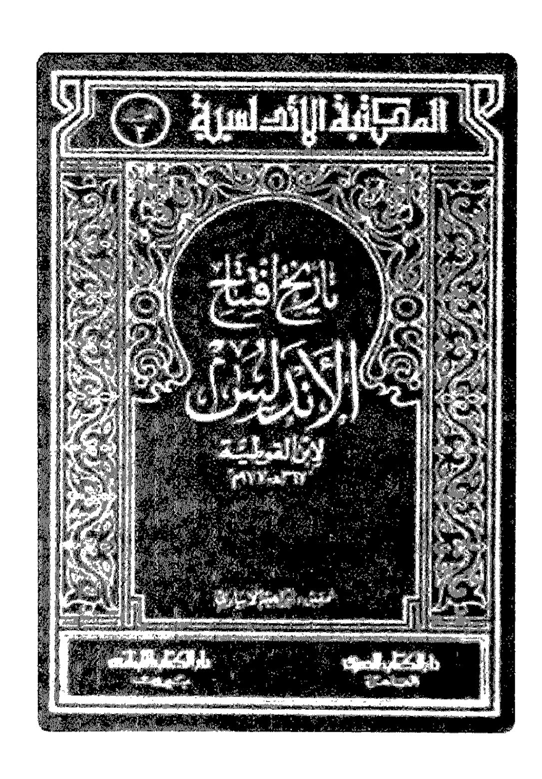
الإسبان والقوط.

ويختلف ذلك التأريخ بشكل كبير مع مؤرخي البلاط الأموي، الذين انصبت رواياتهم على الأسلحة والتشكيلات القتالية.

وكتاب تأريخ افتتاح الأندلس بقي منه مخطوطة واحدة فقط، في المكتبة الوطنية الفرنسية.

وكانت وفاة أبي بكر بن القوطية في قُرْطُبَة عام 367 هـ 977م .

رحمه الله تعالى ...



عصر الخلافة

الصنديد الوزير المنصور محمد بن أبي عامر

938 - 1002م

«سنوات معدودات، وإنجازات امتزج فيها الحُلم بالعَرَقِ بالدم، واعتنق فيها الحُبُّ والحرب والمؤامرة، انطلقت في أولها قاطرة عمره من ريف جنوب الأندلس، وانتهت إلى حاضرتها قُرْطُبَة التي قلّبَتْه بطناً لظهرٍ، وظهراً لبطن، وتقاذفَتْهُ أمواج السياسة فيها حتى اعتلى مدّها كوثبةِ الفهد على فريسةٍ أنهكتها مخالبه، فتربّع على عرش أقوى دولة إسلامية عرفتها الأندلس»، هكذا وصف الكاتب محمد قاسم الفاتحَ المجاهد الأندلسي المنصور محمد بن أبي عامر.

محمد بن أبي حفص عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عمر بن أبي عامر محمد بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك المعافري القحطاني أبو عامر، أحد ملوك الأندلس وصناديدها، كان جده الأكبر عبد الملك المعافري قد دخل إلى الأندلس مع جيش طارق بن زياد في أثناء فتحها، وكان أحد قُوَّاد هذا الجيش، وله في فتحها أثر جميل، وقد أقام في الجزيرة الخضراء، وكثر نسله فيها، وكانت لهم وَجاهة ونباهة، وجاور الأمراء بقُرْطُبَة عدد منهم، أحدهم أبو عامر محمد بن الوليد الذي عُرِفَ آلُ عامر به، وساد بعده ولده عامر، وتقدَّم عند الأمراء، وولي الأعمال، ومات بقُرْطُبَة، وكان أبو حفص عبد الله والد محمد بن أبي عامر

من أهل الزهد والتَّدَيُّن، سمع الحديث، وادى فريضة الحج، ومات منصرفاً من حجه بمدينة طرابلس الغرب، وكانت أم عبد الله والدة المنصور، بنت يحيى بن إسحاق، وزير عبد الرحمن الناصر وطبيبه، وأنجب عبد الله ولدان: هما محمد ويحيى.

ولد محمد بن أبي عامر سنة 326هـ 938م في مدينة «تركش» التابعة للجزيرة الخضراء، ولما بلغ توجه نحو قُرْطُبَة، وحضر مجالس الفقهاء على الرغم من فقره وانشغاله بتأمين قوت يومه.

وأخذ في طلب الحديث والأدب، وكان يسلك سبيل القضاة في أوله، مقتفياً آثار عمومه، ولما استعرت الحرب بين الفاطميين والأمويين في المغرب في عهد الحكم المستنصر الأموي، اشترك في الجيش الذي أُرسِل إلى المغرب، ثم عاد إلى قُرْطُبَة، واستأجر دكاناً عند باب القصر يكتب لمن يريد أن يرفع أمراً أو شكوى لدى الوزير أو الخليفة، إلى أن طلبت السيدة «صبح» والدة هشام المؤيد وزوجة الحكم المستنصر مَنْ يكتب عنها، فعرَّفها به من كان يأنس إليه بالجلوس من فتيان القصر، فترقى إلى أن كتب عنها، ونظر في أموالها وضياعها، وأخذ في التقرب إليها، حتى عظمت مكانته عندها، واستحسنته، ونَبَّهت عليه الحكم، ورغبت في تشريفه بالخدمة،ولذكائه وفطنته ودهائه ولاه الحكم الزكاة والمواريث في إشبيليا، وتمكن من قلب السيدة «صبح» بما استمالها من التحف والخدمة ما لم يتمكّن لغيره، حتى قال الحكم: ما الذي استلطف به هذا الفتى حرمنا حتى ملك قلوبهن، مع اجتماع زخرف

الدنيا عندهن، حتى صرن لا يصفن إلا هداياه، ولا يرضين إلا ما أتاه، إنه لساحر عظيم، وخادم لبيب، وغني خائف على ما بيده.

وولي بعد ذلك شرطة قُرْطُبَة، وأخذ بالتقرُّب أكثر من الخليفة الحكم، ومن حاجبه جعفر بن عثمان المصحفي.

وبعد ذلك مرض الخليفة الحكم مرض الموت سنة 366هـ، وابنه هشام المؤيد ما زال صغير السن، فأشار أبو عامر على المصحفي بإظهار ولي العهد هشام في الجيش، إرهاباً لأهل الخلاف، ففعل، وركب في الناس ركبته المشهورة، وأبو عامر بين يديه.

وكان الصقالبة وهم قوم يؤتى بهم من مختلف البلاد الإفرنجية ذكوراً وإناثاً إلى الأندلس، فتتولَّى الدولة رعايتهم، فيَنْشَؤون نشأة إسلامية، ولهم دَوْرٌ كبير في كثير من الحوادث في الأندلس، وكانوا يُشَكِّلُون غالبية حرس الإمارة والخلافة، يريدون تولية المغيرة بن عبد الرحمن الناصر الخلافة بدل من الطفل هشام المؤيد، وباعتبار أن الحكم المستنصر أخطأ حين عهد بولاية العهد لابنه الصغير ما دام يوجد من بني أمية من هو أولى بذلك، وكان المغيرة فتى بني أمية، ومن المؤهَّلين لتولي الخلافة، ففي عرف ذلك الزمان أن الولد قد تَمَّتْ له بيعة شرعية، وأن الخروج على هذه البيعة هو خروج على الولي الشرعي، وكان المغيرة ينوي الانقلاب على ابن أخيه.

وللمغيرة عداوة سابقة مع المصحفيين، ولا شك أن مصلحة المصحفيين كانت في تصفية المغيرة وإغلاق هذا الملف كله، فيضمنون انتهاء

مؤامرة الصقالبة، وإنهاء الرجل القوي الذي قد ينازع بعدئذ في منصب الخلافة، ويقود الخروج على الخليفة الشرعي، فأرسل المصحفي ابن أبي عامر باعتباره قائد الشرطة إلى دار المغيرة للتخلص منه، وحين رأى المغيرة ابن أبي عامر ومجموعته أيقن بالهلاك، فحاول بكل ما أطاق استنقاذ نفسه، فحن قلب ابن أبي عامر عليه، وأرسل يطلب من المصحفي أن يعفو عنه.

وحين بلغ المصحفي رجاء ابن أبي عامر ألا يقتل المغيرة لأنه قد أعلن الطاعة للخليفة الصغير، قدر ذلك في رأسه، وجلس يفكر، وأنه لو ترك المغيرة حياً فإنه سيكون أشد نقمة على المصحفي وجماعته بعد هذا الموقف، فلقد كانوا على وشك قتله، فرأى المصحفي أن يغلق هذا الباب كله، وأرسل إلى ابن أبي عامر يأمره بالتخلص منه على الفور، وما كان لأبي عامر في هذه اللحظة إلا أن يفعل ذلك، ولو لم يرض به.

فبادر بمجموعة من شرطته إلى دار المغيرة فقتله، وبعمله هذا قد أيَّدَ هشاماً، وأبقاه خليفة، وأصبحت السلطة بيد رجلين هما الحاجب المصحفي، وأبو عامر قائد الشرطة، وقد بدأ التنافس بين الرجلين خصوصاً بعد أن أوعزت «صبح» لولدها الخليفة الصغير بتعيين أبي عامر وزيراً مع المصحفي.

وبعد ذلك استطاع المصحفي القضاء على نفوذ الصقالبة بتأثير من أبي عامر، ولما سمع نصارى الشمال بالاضطرابات التي حصلت في قُرْطُبَة،

استغلوا الفرصة، وأغاروا على البلاد الإسلامية، فهاجم ملك ليون قلعة رباح واقتحمها، وارتكب مذبحة بسكانها، فلم يقم الحاجب المصحفي بأي شيء ربما خوفاً على مركزه إذا غادر قُرْطُبَة، فما كان من قائد الشرطة أبو عامر إلا أن تولى قيادة الجيش بنفسه، وسار نحو جليقية فغزاها، وجال في مناطقها ثلاثة وخمسين يوماً، فغنم وسبى، وفي طريق عودته وزَّع الغنائم على جنوده وعلى الناس ليتقرب بها إلى قلوبهم، فذاع صيته، وأحبه الناس لسخائه وشجاعته.

ثم توجَّه بجيش آخر في نفس السنة، ومعه غالب بن عبد الرحمن الناصري (مولى الحكم وأحد القادة الكبار)، فغزا الإسبان مرة أخرى، وانتصر عليهم نصراً مؤزراً، وأصبح ابن أبي عامر حديث الساعة، ولمع نجمه، فأصدر الخليفة المؤيد أمراً بتعيينه قائداً للجيش، إضافة إلى قيادة الشرطة، وبقي غالب بن عبد الرحمن قائداً لجيش الشمال ومركزه في مدينة «سالم».

وأراد أبو عامر التقرب من القائد غالب، فأرسل يطلب ابنته «أسماء» للزواج، وكان الحاجب المصحفي قد طلبها قبله لابنه، فزوجها أبوها من أبي عامر نظراً لهمته وشجاعته وإقدامه وعلو مكانته، وكان لأبي عامر عرساً مشهوداً في الأندلس.

وغزا أيضاً مع عمه غالب النصارى سنة 367 هـ، وجال في بلادهم، وسيطر على عدة حصون فيها، وارتفعت مكانة أبي عامر لدى الخليفة وأمه، ولدى الناس أيضاً، وأصبح الحاكم العام لقُرْطُبَة، وكانت

قُرْطُبَة قبل أن يتولى حكمها تعاني من اضطراب الأمور، واختلال الأمن، وانتشار الفساد والفسق، فضبط أمرها، وقمع أهل الشر والبغي، حتى ساد الأمن والهدوء بها، ثم إنه استدعى القائد غالب إلى قُرْطُبَة، فولّاه باسم الخليفة هشام الحجابة إلى جانب المصحفي الذي لم يبقَ لديه من الحجابة سوى الاسم، وتمكن أبو عامر أكثر فأصدر أمراً باسم الخليفة هشام بإقالة المصحفي وسجنه وأولاده مع مصادرة أموالهم.

وهكذا تخلص أبو عامر من أبرز منافسيه، وسار إلى غايته بسرعة مدهشة، ولجأ في تحقيقها إلى أذكى الوسائل وأشدها، واستطاع بعزمه وصرامته وبارع خططه أن يسحق كل عَقَبة، وأن يروِّع كل منافس ومناوئ له.

يقول ابن خلدون واصفاً صراع أبي عامر مع خصومه: ثم تجرَّد لرؤساء الدولة ممن عانده وزاحمه، فمال عليهم، وحطَّهم عن مراتبهم، وقتل بعضهم ببعض، كل ذلك عن أمر هشام وتوقيعه، حتى استأصل شأفتهم، ومزق جموعهم.

وأخذ أبو عامر عندما خلا له الجو من المنازعين بتنظيم أمور الجيش، فزاد من إدخال البربر إلى الجيش، وبذل لهم الأجور السخية، وقدمهم في المناصب، وأخَّر زعماء العرب، وفرق جند القبيلة الواحدة في صفوف مختلفة.

وأصبح بعد أن وضع يده على الجيش صاحبَ السلطة العليا دون

منازع ولا مدافع، وأصبح الخليفة هشام بعد ذلك أداة لينة يحركها أبو عامر كيف يشاء، إلا أن أبا عامر أصبح يخشى على نفسه من الوجود في قصر الزهراء، ومما قد يُضمِره بعض الحاقدين المتربِّصين، فقام ببناء قاعدة ملوكية جديدة تقع جنوب شرق قُرْطُبَة على نهر الوادي الكبير، وسماها الزاهرة، تشبهاً بالخليفة عبد الرحمن الناصر الذي بنى مدينة الزهراء، واستغرق في بنائها عامين، وفي سنة 370هـ انتقل أبو عامر إلى مدينة الزاهرة، واتخذ له حرساً خاصاً من البربر والصقالبة، وأحاط قصره الجديد بالحراس والحاشية يرقبون كل حركة وسكنة في الداخل والخارج، وخلت بذلك مدينة الزهراء (مركز الخلافة) وهجر الوزراء والكبراء قصر الخليفة، وساد الصمت حول مركز الخلافة الشرعي.

وأنشأ أبو عامر حول قصر الخليفة سوراً وخندقاً، وأحكم إغلاق أبوابه، ووكَّل به من يمنع دخول أي شخص إلى الخليفة دون علمه وإذنه، وبثَّ عيونه على هشام وحاشيته، وأشاع أنه قد فوض إليه النظر في سائر شؤون المملكة، لكي يتفرغ لشؤون العبادة.

لقد كان تصرف ابن أبي عامر محل سخط وحقد من والدة الخليفة صبح التي أحبته وأولته اهتمامها في بادئ أمره، فحرَّضت عليه قائد الثغر الأعلى عمه غالب بن عبد الرحمن الناصري، الذي استجاب لتحريضها، واستعان بملك ليون لحرب ابن أبي عامر، ووقعت بين أبي عامر وغالب معركة كبيرة انتهت بمقتل غالب بعد أن استعان أبو عامر بأحد قواد البربر ويدعى ابن حمدون، وتنازل أبو عامر عن قيادة

الجيش لابن حمدون ليكون حاجب الخليفة، ولما بادرته الشكوك حول ابنِ حمدون، وتوصُّلِ صبح أم الخليفة له، وسعيهم للانقلاب عليه استعان ابن أبي عامر بالتجيبين فقتلوه، واستتب له الأمر، وسار سيرة الملوك، وتلقَّب بالمنصور، وأمر بالدعاء له على المنابر، ونفذت الكتب والأوامر باسمه عن «الحاجب المنصور أبو عامر محمد بن أبي عامر». ونقش اسمه في السكة، أي النقود، وجرى الوزراء ورجال الدولة على تقبيل يده عند المثول لديه، واجتمعت حول شخصه وحول داره مظاهر الجلالة الملكية، وتم بذلك استئثاره بجميع السلطات والرسوم، ولم يبق للخلافة الأموية سوى الاسم.

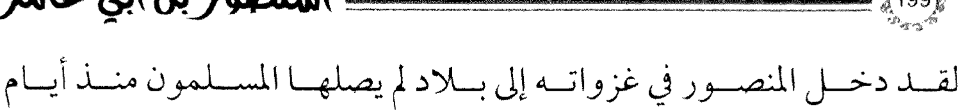
إن أهم ما يميز عهد الملك المنصور محمد بن أبي عامر هي غزواته المتتالية للممالك الإسبانية شمال **الأندلس**، يقول ابن خلدون: وردد الغزو بنفسه إلى دار الحرب، فغزا اثنتين وخمسين غزوة في سائر أيام ملكه، لم ينكسر له فيها راية، ولا فَلَّ له جيش (أي لم يهزم له جيش)، ولا أُصيبَ له بعث، ولا هلكت له سرية.

لقد كان هدف المنصور من هذه الغزوات هو سحق الممالك الإسبانية سحقاً تاماً، وأن يقضي على استقلالها القومي، وأن يخضعها جميعاً إلى سلطة الخلافة، وقد خالف المنصور في غزواته سنن أسلافه من الأمراء والقادة، فقد كان هؤلاء يحاربون في معظم الأحيان للدفاع ورَدِّ غارات النصارى، ولكن المنصور كان هو البادئ في أغلب الأحيان، ولم يقبل من أعدائه صلحاً أو مهادنة، ولم يقنع إلا بالنصر الكامل،ومن غزواته:

في سنة 371هـ سار بجيش كثيف إلى قلعة سمورة، تلك القلعة التي هُزِم أمامها المسلمون في عهد عبد الرحمن الناصر في معركة تسمى الخندق، فاستطاع المنصور أن يقتحمها ويفتك بأهلها، وتركها طعمة للنيران، فدمّرت معظم معالمها، وكانت هذه القلعة من أمنع القلاع وأحصنها في تلك البلاد، وقد هرب أهلها إلى قلعة قريبة منها تسمى «سانت مانس»، فتوجَّه إليهم المنصور، وأوقع بهم هزيمة منكرة، وقد أصبح الطريق إلى عاصمة مملكة ليون مفتوحاً أمام جيشه، إلا أنه لم يتابع بسبب شدة البرد القارص في الشتاء.

وفي سنة 373هـ توجه بجيش كبير لفتح ليون، فحاصرها مدة، وكان قد جاء إليها المدد من جميع بلاد الفرنج، ودارت المعركة ليالي وأياماً، وبقي الحصار الشديد الطويل حولها، واستشهد كثير من المسلمين، كما قتل من النصارى الكثير، ومن قادتهم بشكل خاص، حتى استطاع المنصور فتحها، وكانت تلك أول مرة تسقط ليون منذ الفتح الإسلامي، ويؤسر من هذه المدينة ثلاثة آلاف أسير، وأمر المؤذن أن يؤذن فوق هذه المدينة، ثم توجَّه شرقاً نحو برشلونة التي كانت بيد الفرنسيين، فاقتحمها وأحرقها، وأسر الكثير من أمرائها وأهلها.

وفي سنة 387هـ هاجم عاصمة جليقية «شنت يعقوب» براً وبحراً، واستطاع الوصول إليها بعد خطة محكمة، ولم يتوقع النصارى أن يصل المسلمون إليها، ففرُّوا من أمامهم لما رأوا طلائعهم، ودخل المنصور بجيوشه إلى المدينة، فغنم منها غنائم كثيرة.



لقد دخل المنصور في غزواته إلى بلاد لم يصلها المسلمون منذ أيام الفتح الإسلامي للأندلس، ولقد كادت غزوات المنصور وفتوحاته تدفع الممالك الإسبانية إلى حافة الخراب والهاوية.

وأما بالنسبة لإدارة البلاد اقتصادياً فقد نجح المنصور بذلك، وشهدت البلاد في عهده رواجاً اقتصادياً، وزاد دخل الدولة حتى بلغت الضرائب العادية في أواخر عصره 4,000,000 دينار، بل وبلغت جباية قُرْطُبَة (أي الضرائب) في عهده 3,000,000 دينار، إضافة إلى رسوم المواريث، وأموال السبي والغنائم.

وقد أدَّت حالة الرواج الاقتصادي هذا والذي نتجت عنه الغنائم والسبي إلى عزوف شباب الأندلس عن الزواج من الأندلسيات، لرخص ثمن الأسيرات من بنات الإفرنج، كما بلغ إجمالي الإنفاق العام للدولة نحو 3,500,000 دينار.

أما عن الحالة الأمنية، فقد استطاع المنصور أن يضبط أحوال البلاد الأمنية منذ بداية عهده بعدما ولاّه الخليفة على حاكمية قُرْطُبَة بعد عزل محمد بن الحاجب المصحفي، فأوكلها ابن أبي عامر إلى ابن عمه عمرو بن عبد الله بن أبي عامر الشهير بعسكلاجة، الذي أنهى حالة الانفلات الأمني التي سادت بداية خلافة هشام المؤيد بالله.

وكانت وفاته عند رجوعه من إحدى غزواته سنة 392هـ 1002م، ودفن في مدينة سالم، وكان قد أعد لنفسه كفناً إن مات أن يكفن به، من حلال كسبه وكسب أهله، وكان قد أعدَّ أيضاً صرة قماش، فيها ما

علق بثيابه وجسده من غبار الغزوات، أو في أثناء سيره إليها، وقد أوصى أن تدفن معه يوم وفاته في قبره لعلها تشفع له يوم القيامة.

ولبث قبره في مدينة سالم عصوراً مزاراً معروفاً، على الرغم من استيلاء النصارى على المدينة منذ أواخر القرن الخامس الهجري - الحادي عشر الميلادي.

كان الحاجب المنصور بطلاً شجاعاً، حازماً سائساً، عالماً، كثير الغزو، جم المحاسن، عالي الهمة، عديم النظير، جواداً وافر الجود والبذل، يُغدق صِلاته على من يستحقها من العاملين معه والمتَّصلين به، وعلى الفقراء وذوي الحاجات، وله في ذلك أخبار كثيرة، وكان يفاخر بنشأته المتواضعة، ويقلل من شأن نفسه، وكان ورعاً شديد الإيمان واليقين، ويزدجر إذا ذُكر الله وعقابه، وكان يحمل معه في سائر غزواته وأسفاره مصحفاً خَطَّه بيده، يقرأ به ويتبرك به في كل مناسبة.

وكان مهتماً بالعلم، له مجلس أسبوعي يعقده للبحث والمناظرة، ويشهده كثير من العلماء والأدباء من أصدقائه، وقد عمل على نشر العلم والمعرفة بين طبقات الشعب، فأنشأ كثيراً من دور العلم بقُرْطُبَة، وبالغ بالإنفاق عليها، وكان يزور المدارس والمساجد أحياناً، ويجالس الطلاب، ويكافئ من يستحق منهم.

رحم الله القائد بن أبي عامر إنه هو العلي القادر...





نصب تذكاري في مدينة قلعة النسور الإسبانية - الحاجب المنصور



عصر الخلافة

الأمير المظفر عبد الملك بن أبي عامر

1001 - 1008م

ذرية بعضها من بعض، فهذا الابن يمشي على نهج أبيه في سياساته الداخلية والخارجية، وفي غزوه الدائم للأراضي النصرانية، ولا يدع أحداً من جنود الكفر يهدأ و ينام، فتارةً يغزو ليون وتارة يغزو نافار إنه الأمير بن الأمير عبد الملك بن أبي عامر.

المظفر عبد الملك بن المنصور محمد بن أبي عامر، أبو مروان العامري، خليفة والده المنصور أبي عامر في منصب الحجابة للخليفة هشام المؤيد الأموي، ومدبّر ممالك الأندلس من بعده، والحاكم الحقيقي لها كما كان والده.

ولّاه أبوه على فاس، فتمكن من هزيمة زيري بن عطية المغراوي، وأقام بها، وعدل في أهلها عدلاً كبيراً، ثم استدعاه والده إلى قُرْطُبَة، وكان معه في غزوته التي مات بها (في مدينة سالم) فلما شعر أبوه بدنو أجله رده إلى قُرْطُبَة وأوصاه بضبطها، فأسرع إليها، وتولى الحجابة بعد وفاة والده سنة 392هـ 1001م ، بعد أن كتب له الخليفة المؤيد الأموي بولاية الحجابة مكان أبيه، وألبسه خلعة الحجابة، ولُقِّب بسيف الدولة، ولما تمت له الولاية نفذت كتبه إلى أقطار المملكة في الأندلس

وعـدوة المغـرب، يعلـم بوفـاة أبيـه، وتوليـه بتدبـير المملكـة مكانـه، فاستتب لـه الأمـر، وخضـع الجميـع لطاعتـه، وقـام بأمـور الدولـة جميعهـا كبيرهـا وصغيرهـا، وقبـض عـلى زمـام الأمـور بحـزم وكفايـة، واعتـزم أن يسـير عـلى خطـى والـده، سـواء في تدبـير الشـؤون الداخليـة، أو الاسـتمرار في غـزو الممالـك النصرانيـة.

وقـد زاد مـن حُـبِّ المسـلمين لـه وإعجابهـم بـه لأنـه افتتـح عهـده بـأن أسـقط عـن البـلاد سـدس الجبايـة، أي خفـض مـن الضرائـب، فاجتمـع النـاس عـلى حبـه، بعـد أن أظهـر العـدل والرفـق فيهـم، وكان محبّـاً للصالحـين، يسـتهدي أدعيتهـم، ويجـزل الثـواب لمـن يدلـه عليهـم، أي كان يحـب العلـماء والصالحـين ويقربهـم إليـه.

وكان أبـرَّ النـاسِ بأبيـه، وأثبتهـم عـلى عهـده، وأوصلهـم لأهلـه وصنائعـه، وكان لوالدتـه كذلـك مـا غـيّر لهـا حـالاً في أثنـاء ملكـه وولايتـه، ولا خالف لهـا أمـراً، وكان عـلى الرغـم مـن شـدة حيائـه غايـة في الشـجاعة والإقـدام، فـإذا دخـل الحـرب فهـو الأسـد الـكاسر، والليـث الماهـر.

كان مــن عــادة نصــارى الشــمال أنــه متــى مــات حاكــم الأندلــس، وبخاصــة إذا كان قويّــاً ضربــوا بالمعاهــدات والمواثيــق عُــرض الحائــط، وأخـذوا يُهاجمـون الثغـور والأراضي الإسـلامية بهـدف الثـأر مـن المسـلمين وإضعافهـم، وسـلب مـا يمكـن سـلبه، وهـم بهـذا أيضـاً يُضعفـون موقـف الحاكـم الجديـد، الـذي يسـعى لتوطيـد ملكـه، وربـما زادت هـذه المـرة أكثـر، وذلـك بسـبب الضربـات القويـة المؤثِّـرة التـي وجههـا لهـم المنصـور بـن أبي

عامر في حياته.

ومن هنا بدأ الحاجب المظفر يُجَهِّز لغزو نصارى الشمال، واجتهد في الإعداد، حتى إن أهل العدوة قد سمعوا بهذه الغزوة، فتوافدوا إلى الأندلس للمشاركة فيها، وفيهم جماعة كبيرة من أمرائهم وزعمائهم وفقهائهم، وقد أحسن الحاجب المظفر استقبالهم، وأغدق لهم بالعطاء.

خرج الحاجب المظفر من الزاهرة بجنده ليلة 11 شعبان سنة 393هـ في مشهد مهيب، وسار حتى وصل مدينة سالم، فانضمت إليه قوة من قشتالة، نزولاً على ما كان بين قشتالة والمنصور بن أبي عامر من معاهدات، ثم سار إلى إمارة بَرْشُلُونَة، ودارت بينه وبين نصارى بَرْشُلُونَة حرب شديدة، هُزموا فيها هزيمة نكراء، واستولى المسلمون على عدد من حصون بَرْشُلُونَة، وهدموا حصوناً أخرى، وغنموا وسبوا، وعمل الحاجب المظفر على إسكان المناطق المفتوحة بالمسلمين، فنهى الجنود عن تدمير البيوت وهدمها، وأمر بنقل المسلمين لعمارة هذه الأرض، وجعل لمن يسكنها منهم راتباً شهريّاً يتقاضاه من بيت المال، وبدأت المعركة بين المسلمين وقوات الأعداء في حصن ممقصر، واستطاع المظفر وقواته الاستيلاء عليه بعد قتال عنيف، وجاب المسلمون بعد ذلك في أراضي برشلونة، وهدموا كثيراً من حصونها، واستولوا على كثير من الغنائم والسبايا.

وبعد أن مَنَّ الله عليهم بالنصر قضى المظفر وجيشه عيد الفطر في أراضي برشلونة، واحتفل بالعيد احتفالاً ضخماً، واستقبل الامراء والأجناد

مهنئين لـه بالعيـد.

ثـم أمـر بإرسـال رسـالتين للتبشـير بالفتـح: إحداهمـا إلى الخليفـة هشـام المؤيـد، والثانيـة لتُقْـرَأ عـلى المسـلمين كافـة في قُرْطُبَة، ثـم في باقـي الولايات.

وجـاء في الرسـالتين أن عـدد السـبي بلـغ 5570، وأن عـدد الحصـون التـي اقتحمـت عَنْـوة سـتة حصـون، وعـدد الحصـون التـي أخلاهـا العـدوُّ فخُرِّبـت ودُمِّـرت 85 حصنـاً، وذكـر أسـماء هذه الحصـون كلها في الرسـالتين، ثـم أَذِنَ للمتطوعـين معـه للجهـاد بالعـودة إلى ديارهـم وبلدانهـم، إذ إن الهـدف الـذي خرجـوا مـن أجلـه قـد انتهـى، فعـاد المتطوعـون إلى بلادهـم مسروريـن فرحـين بنـصر الله.

وبعـد انتهـاء العيـد عـاد المظفـر عبـد الملـك بجيشـه عن طريـق مدينـة لاردة، واخـترق الثغـر الأعـلى جنوبـاً إلى قُرْطُبَـة، فدخلهـا، وهنالـك تلقَّـاه الأكابـر والعلـماء مهنِّـين ومسـتبشرين، وقصـد المظفـر مـن فـوره الخليفـة هشـاماً، فاسـتقبله أحسـن اسـتقبال، وأكـرم منزلـه، وألبسـه مـن ثيـاب الخلافـة وسـلاحها.

وكان هـذا في وقتهـا تكريـماً كبـيراً، فشَـكَرَه المظفـر، وقَبَّـل يـده، وفي اليـوم التـالي جلـس المظفـر بقـصر الزاهـرة، واسـتقبل مختلـف الوفـود، وكان يومـاً مشـهوداً.

وفي السـنة التاليـة لهـذه الغـزوة، وفي دلالـة واضحـة عـلى مـا وصلـت إليـه قـوة الدولـة وهيبتهـا في عهـده احتكـم إليـه قـادة الممالـك النصرانيـة، وفي ذلـك ينقـل ابـن عـذاري المراكـشي عـن المـؤرخ الفقيـه أبي مطـرف محمـد

بن عون الله (وهو من معاصري هذه الحوادث) قوله: (وانتهى المظفر عند ملوك الأعاجم في دولته إلى منزلة عظيمة، مثل منزلة والده المنصور، وأحلُّوه محلَّه في الإصغاء له والتعظيم؛ لجلاله والهيبة من سخطه، والطلب لمرضاته، حتى صار أعاظمهم يحتكمون إليه فيما شجر بينهم، فيفصل الحُكم فيهم، ويرضون بها قضاه ويقفون عنده).

وتوالت غزوات المظفر عبد الملك على الممالك الإسبانية التي بلغت سبع غزوات في مدة حكمه، من أهمها غزوته الخامسة سنة 397هـ، والتي واجه فيها تحالف ملوك الإسبان ضده (نافار - ليون - قشتالة)، وتعرف هذه الغزوة بغزوة «قلونية» حيث تمكن عبد الملك من هزيمة النصارى هزيمة كبيرة في ظاهر مدينة « قلونية» الواقعة شمال نهر دويرة على مقربة من شنت اشتيبن، وأحرز عليهم نصراً مبيناً، وتمكن من فتح حصن «قلونية» صلحاً، ووصل كتاب الفتح إلى قُرْطُبَة، فقُرِئَ على كافة الناس كالعادة، و كان له وقع عظيم، حيث كان أهل قُرْطُبَة يخشون سوء العاقبة من اجتماع الجيوش النصرانية لقتال المسلمين.

ولما وصل عبد الملك إلى قُرْطُبَة، اتخذ لقب المظفر بالله، تنويهاً لما أحرزه من النصر العظيم، وفي العام الذي بعده خرج عبد الملك بجيشه، فاخترق مملكة قشتالة، وتمكَّن من الاستيلاء على حصن «شنت» المنيع بعد معارك عنيفة، وعاد إلى قُرْطُبَة، ثم خرج من العام نفسه في شوال سنة 398هـ في غزوته السابعة والأخيرة، وتسمى «غزاة العلة»، وذلك أنه ما كاد يصل إلى مدينة سالم حتى اشتد به المرض،

فاستقر بها حيناً ينتظر الشفاء، وفي أثناء ذلك دبَّ الخلل في الجيش، ورحل عنه أكثر المتطوعة، وأخفق مشروع الغزو، وعاد عبد الملك إلى قُرْطُبَة عليلاً ضعيفاً في محرم سنة 399هـ، ومع ذلك فما كاد يشعر بقليل من التحسن حتى عقد العزم على التأهب لاستئناف الجهاد، وخرج بالفعل من قُرْطُبَة في منصف شهر صفر، لكن أصابته نكسة شديدة، صحبتها نوبة سعال عنيف، فحُمِل إلى قصر الزاهرة، ومن حوله خاصة غلمانه، وتوفي إثر ذلك سنة 399 هـ 1008م.

رحم الله المنصور ابن أبي عامر وابنه المظفر عبد الملك رحمة واسعة...



رسم تخيلي للمعركة التي هُزم بها الإسبان أمام جيوش المظفر عبد المللك

عصر الخلافة

الشهيد العالم أبو الوليد ابن الفرضي

962- 1013م

أسير الخطايا عند بابك واقفٌ   على وجل مما به أنت عارفُ
يخافُ ذنوباً لم يغب عنك غيبها   ويرجوك فيها فهو راجٍ وخائفُ
ومن ذا الذي يُرجى سواك ويُتّقى   وما لك في فصل القضاء مُخالفُ
فيا سيدي لا تُخزني في صحيفتي   إذا نُشرت يوم الحساب الصحائفُ
وكُن مُؤنسي في ظُلمة القبر عندما   يصُدّ ذوو ودّي ويجفو المُوالفُ
لئن ضاق عني عفوك الواسع الذي   أرجو لإسرافي فإني لتالفُ

وما الذي فعلته يا سيدي غير أنك نشأت بدولة الإسلام وتربيت على أخلاقه وكبرت على معرفة الله ونشر شريعته، فبذلت عمرك وأفنيته رخيصا في سبيل العلم ونشر المعرفة حتى أفضت روحك الطاهرة شهيداً إلى مولاك الذي لطالما تُقتَ للُقياه.. إنه العالم الجليل الشاعر الشهيد أبو الوليد الفرضي......

عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر القرطبي الأندلسي، أبو الوليد، الشهير بابن الفرضي، أحد علماء الأندلس وحفَّاظها، مولده في قُرْطُبَة سنة 351هـ 962م، وبها نشأ وأخذ عن علمائها، ثم ارتحل إلى المشرق سنة

382هـ، فحج، وأقام بمكة، وأخذ عن كثير من علماء عصره، وعاد إلى قُرْطُبَة، وقد جمع كثيراً من فنون العلم، فصنَّف كتابه في تاريخ علماء الأندلس.

ويتضمن كتاب تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي منهجية علمية مضبوطة تشمل ما يلي:

- مقدمة عن دوافع التأليف ومنهج الكتاب ومصادره.

- تراجم لـ 1651 رجلاً من أعلام الأندلس وعلمائها البارزين.

- ترتيب أسماء الأعلام وفقاً لحروف الهجاء، وترتيب الأعلام في كل باب وفقاً لسنة وفاتهم.

- ترتيب أسماء الأعلام في كل فصل من فصول الأسماء في الباب الواحد وفقاً لحرف الاسم الأول دون احتساب اسم الوالد في الترتيب، وهذا ما يكلف القارئ بعض من وقته وجهده، لأنه مضطر في هذا الحال إلى البحث.

- في ترتيبه لفصول الأسماء في الباب الواحد من أبواب حروف الهجاء، كباب حرف العين مثلاً، يحتسب المؤلف الحرف الأول من الأسماء، أو الجزء الأول من الأسماء المركبة من دون مراعاة لتسلسل الحروف أو الأجزاء التالية، لذلك جاء من اسمه عبد الملك أو عبد الله قبل من اسمه عبد الأعلى، وجاء من اسمه عباس بعد من اسمه عبد البر، وهكذا في سائر أبواب الكتاب.

- تخصيص فصل مستقلٍّ في كل باب من أبواب الحروف للأسماء المفردة، فهو في باب الألف مثلاً، يخصص فصلاً يشتمل على أسماء مفردة مثل: أبيض، أخطل، أزهر، وفي باب العين يخصص فصلاً يشتمل على أسماء مثل: عائد، العاصي، عبيدون، وكذلك كان يفعل بأسماء الغرباء الوافدين على الأندلس من البلدان الأخرى.

أما في التراجم نفسها فقد حرص المؤلف على الأمور التالية:

التزامه جانب الإيجاز والاختصار في التعريف بأعلامه، حتى لا يخرج عن الخطة التي رسمها لنفسه في مقدمة كتابه، يقول: (هذا كتاب جمعناه في فقهاء الأندلس وعلمائهم ورواتهم وأهل العناية منهم ملخصاً على حروف المعجم، قصدنا فيه قصد الاختصار، إذ كانت نيتنا قديماً أن نؤلف في ذلك كتابا موعباً (أي مستوعباً الكل) على المدن، ويشتمل على الأخبار والحكايات، ثم عاقت عوائق عن بلوغ المراد فيه، فجمعنا هذا الكتاب مختصراً).

وحفاظاً على ما تقدَّم من قصد الاختصار، حرص المؤلف على عدم تكرار أسانيده، وإعادة تفصيل أسماء الذين أخذ عنهم من العلماء والشيوخ، يقول: (وتركنا تكرار الأسانيد مخافة أن نقع فيما رغبنا عنه من الإطالة).

-ذكره اسم الشيخ المترجّم له، ونسبه، وكنيته، وموطنه، وتاريخ وفاته، ومكانها.

-ذكره الشيوخ الذين تتلمذ عليهم المترجّم له، والعلماء الذين سَمِع

منهم، أو روى عنهم، والعلماء الذين تتلمذوا عليه، أو رووا عنه.

-ذكره البلدان التي زارها، أو أقام فيها، في الأندلس وخارجها، وذكره العلماء الذين التقاهم، أو أخذ عنهم فيها.

-توسَّع في الترجمة للمشهورين، أو ذوي القدر الكبير من الأعلام، كعبد الملك بن حبيب السلمي، وبَقِيّ بن مَخْلَد، وحنش بن عبد الله الصنعاني، وأوجز إيجازاً في الترجمة للمغمورين من الأعلام، كحسان بن يسار الهذلي، ودحيم بن مطرف بن دحيم، وعبد الله بن خالد الزاهد.

-ركّز على الجانب الفقهي لدى المترجم لهم (الفقه، الحديث، الرواية، السماع، الحفظ،..) وأغفل الجانب الأدبي لديهم، وإن كانوا من الشعراء، خلافاً لما فعل الذين صنَّفوا في تاريخ علماء الأندلس من بعده كابن بشكوال والحميدي والضبي.

وبلغ فيه النهاية والغاية في الحفل والإتقان، وقد جمع كتاباً حافلاً في أخبار شعراء الأندلس، وكتاباً حسناً في «**المؤتلف والمختلف**»، وفي «**مشتبه النسبة**»، إلى غير ذلك من جمعه وتصنيفه.

وقد روى عنه وحدَّث الحافظ أبو عمر بن عبد البر القرطبي فقال: (كان فقيهاً، عالماً في جميع فنون العلم، في الحديث، وعلم الرجال، وله تواليف حِسان، (أي مؤلفات جيدة)، وكان صاحبي ونظيري، أخذت معه عن أكثر شيوخه، وأدرك من الشيوخ ما لم أدركه أنا، وكان بيني وبينه في السن نحواً من خمس عشرة سنة، صحبته قديماً وحديثاً، وكان

حسن الصحبة والمعاشرة، حسن اللقاء، قَتَلَتْه البربر في سنة الفتنة، وبقي ثلاثة أيام مقتولاً، وحضرت جنازته، عفا الله عنه).

قال ابن حَيَّان: (كان ممن قُتِل يوم فتح قُرْطُبَة سنة ثلاث وأربعمئة الفقيه الراوية الأديب الفصيح أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدي، المعروف بابن الفرضي، أصيب هذا اليوم، ووُرِيَ (أي دفن) متغيراً من غير غسلٍ ولا كفن ولا صلاة).

ولم يُرَ مثله في قُرْطُبَة في سعة الرواية، وحفظ الحديث، ومعرفة الرجال، والافتنان في العلوم، إلى الأدب البارع، والفصاحة المطبوعة، قلَّ ما كان يَلحَن في جميع كلامه من غير حوشيةٍ (أي إن فصاحته متقنة، ولا يتكلم بالعامية أبداً، مع ذكر الشاهد والمثل).

وقد روى ابن حزم عن أبي الوليد أنه قال: تعلَّقتُ بأستار الكعبة، وسألت الله تعالى الشهادة، ثم انحرفت وفكرت في هول القتل، فندمت وهممت أن أرجع فأستقيل الله ذلك، فاستحييت. (أي إنه سأل الله الشهادة، فخاف من هول القتل، فَهَمَّ أن يرجع عن دُعائه، فاستحى من الله).

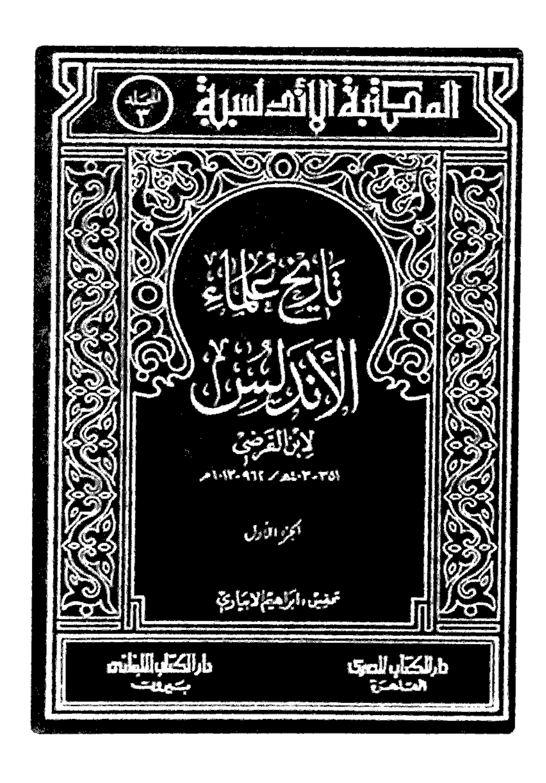
يقول ابن حزم: (فأخبرني من رآه بين القتلى ودنا منه، فسمعه يقول بصوتٍ ضعيف: «لا يُكلَم أحدٌ في سبيل الله، والله أعلم بمن يُكلَم في سبيله، إلا جاء يوم القيامة وجرحه يَثعب دماً، اللون لون الدم، والريح ريح مسك»، كأنه يعيد على نفسه الحديث الوارد في ذلك، ثم قضى نحبه على إثر ذلك، رحمه الله).

وكان جمّاعاً للكتب، فجمع منها أكثر ما جمعه أحد من عظماء البلد، وتقلّد خزانة الكتب بعهد العامرية، واستقضاه محمد المهدي بن عبد الجبار الأموي على بلنسية، وكان حسن الشعر والبلاغة والخط.

ومن جميل شعره قصيدة قالها في طريقه إلى المشرق، وكتب بها إلى أهله، وكان قد رحل في طلب العلم وتغرّب، مطلعها:

مضت لي شهورٌ منذ غِبْتُم ثلاثةٌ … وما خِلتُني أَبقَى إذا غِبْتُمُ شَهْرا
وما لي حَياةٌ بَعدَكم أَسْتَلِذُّها … ولو كانَ هذا لم أَكنْ في الهوى حُرّا
ولم يُسلِنِي طُولُ التَّنائِي هَواكُم … بَلى زَادَني شَوقاً وجَدَّدَ لي ذِكرى

وتوفي رحمه الله عام 403 هـ 1013م، شهيداً كما دعا الله عز وجل.



عصر الخلافة

الطبيب أبو القاسم الزهراوي أبو الجراحة

427هـ - 1036م

عميد الجراحين.. هو ذاك اللقب الذي استحقه صنديدنا الذي نخط عنه بِضع صفحات مشرقة من حياته التي بذلها لخدمة المسلمين، حتى أخرج للنور كتابه «**التصريف لمن عجز عن التأليف**» فقدم فيه أكثر من مئتي مخططٍ لأدوات طبية اخترعها أو صنعها ولا تزال تستخدم إلى يومنا هذا، إنه الحكيم الطبيب أبو القاسم الزهراوي.

خلف بن عباس الزهراوي الأندلسي، أبو القاسم، طبيب من صناديد أطباء الأندلس في القرن الرابع الهجري، مولده في الزهراء قرب قُرْطُبَة، وإليها نسبته، وفيها درس ومارس الطب والجراحة، وكان من أهل الفضل والدين والعلم، وقد ذكره العلامة ابن حزم الأندلسي في كتاباته، وصنفه على أنه واحد من أعظم أطباء الأندلس، ويلقب أبو القاسم بأبي الجراحة الحديثة، حيث إن له العديد من الإنجازات والابتكارات التي ساهمت في نهضة العالم، وبقي أثرها إلى يومنا هذا، كما أنه كتب العديد من الكتب أهمها كتاب (**التصريف لمن عجز عن التأليف**)، وهو الكتاب الذي يتكون من ثلاثين مجلداً، ويعتبر موسوعة طبية بحد ذاتها.

يقول عنه ابن حزم: ولئن قلنا: أنه لم يُؤلَّف في الطب أجمع منه للقول والعمل في الطبائع والجبر لنَصْدُقَنَّ.

وبعض اختراعاته ما زالت مستخدمة إلى يومنا هذا، حيث عمل على علاج الأمراض من خلال تقنية الكي، أي كوي الجراح، واخترع العديد من الأدوات الجراحية، منها ما كان يساعده في علاج الأذن أو الحلق، وشرح الحمل المنتبذ، وهو الحمل خارج الرحم.

كما تحدّث عن الأنواع المختلفة لأنابيب البذل، وهو أول عالم يقوم بذلك، وابتكر طريقة لعلاج الثؤلول من خلال استخدام أنبوب حديدي ومادة كاوية، واستخدم خطّافات مزدوجة في العمليات الجراحية، وقد كان أول طبيب يُقدم على هذه الخطوة، ثم توصّل إلى طريقةٍ ناجحة لإيقاف النزيف، وذلك عن طريق ربط الشرايين الكبيرة، وهو أول من قام بهذه العملية، ويكون بذلك قد سبق الطبيب باري بحوالي ستّمئة عام، أيضاً وصف الزهراوي كلاً من الحقنة العادية، والحقنة الشرجية، والملاعق الخاصة لخفض اللسان، وفحص الفم، ومقصلة اللوزتين، وابتكر عملية القسطرة، ووصفها، كما أنّه ابتكر الأدوات الخاصة بها، وقد أجرى العديد من العمليات الصعبة في مجال شق القصبة الهوائية، ويشار إلى إحجام العديد من الأطباء من قبله على عملها أمثال ابن سينا والرازي؛ وذلك نظراً لخطورتها.

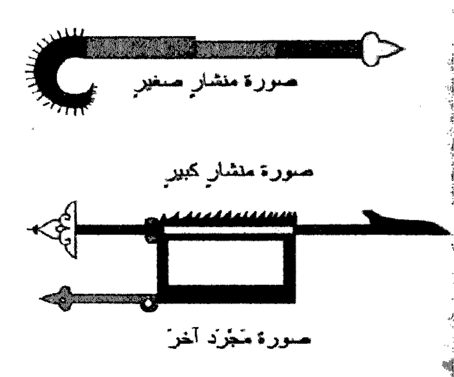
كما اخترع آلة دقيقة جدّاً تهدف إلى علاج انسداد فتحة البول

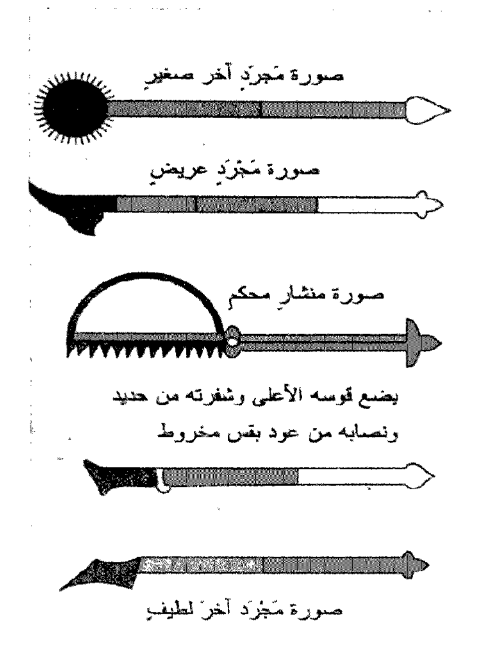
الخارجية عند الأطفال حديثي الولادة، الأمر الذي ساهم في تسهيل مرور البول، أيضاً صنع الخيطان الخاصة بعملية الجراحة، واستخدمها في إجراء جراحة الأمعاء، حيث صنعها من أمعاء القطط، واستعمل قوالب خاصة بهدف صناعة الأقراص الدوائية، وقد كان أول طبيب يقوم بذلك، وشرح الكيفية التي تتم فيها عملية قلع الأسنان بلطف، كما أنّه شرح أسباب كسور الفك خلال عملية القلع.

واخترع آلة خاصة تهدف إلى استخراج الجنين الميت، كما أنّه أول طبيب يستخدم آلات خاصة تهدف إلى توسيع عنق الرحم.

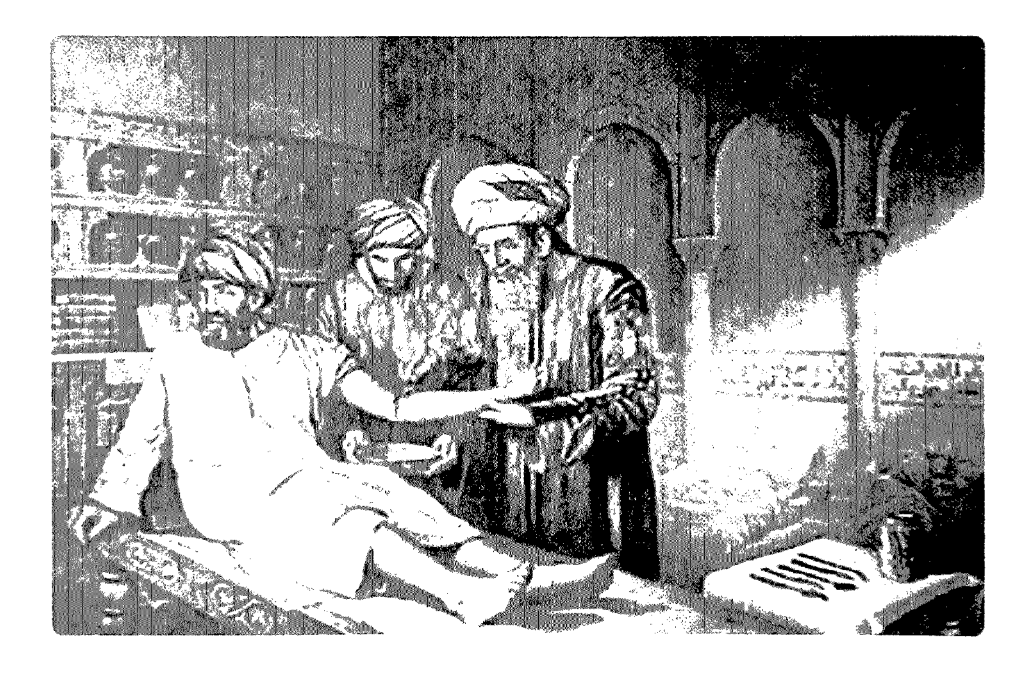
ومن مؤلفاته كتاب فيه أسماء العقاقير باليونانية والسريانية والفارسية والعجمية، وتفسير الأكيال والأوزان، وبدل العقاقير وأعمارها، وتفسير الأسماء الجارية في كتب الطب، وقد ذكرت دائرة المعارف البريطانية أنه أشهر من ألف في الجراحة عند العرب.

توفي رحمه الله في قُرْطُبَة سنة 427هـ 1036م، في عصر انهيار الخلافة الأموية، وقيام دول الطوائف في الأندلس رحمه الله تعالى وجزاه الله عنا كل خير...





صورة من كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف لـ أبي القاسم الزهراوي



عصر الخلافة

العالم المقرئ أبو عمر الطلمنكي

952-1038م

شخصيتنا هذه من الفضلاء الصالحين على هدي وسُنّة، قديم الطلب والعلم، مُقدَّماً في الفهم، مجوِّداً للقرآن، حَسن اللفظ به، فضائله جمّة أكثر من أن تحصى ، هذه هي الكلمات التي رآها ابن الحصار الخولاني وصفاً لائقاً بصنديدنا الذي نروي ما تيسر عنه بهذه الورقات، قبل أن يروي الفقيه عيسى بن محمد الحجاري قوله: خرج علينا أبو عمر الطلمنكي يوماً ونحن نقرأ عليه، فقال: اقرأوا وأكثِرُوا فإني لا أتجاوز هذا العام، فقلنا له: ولِمَ؟ يرحمك الله !!!!!

تعالوا بنا أخوتي لنتعرف على هذا الصنديد، إنه المقرئ الحافظ أحمد بن محمد الطلمنكي المكنّى بأبي عمر.....

أحمد بن محمد بن عبد الله المعافري الأندلسي الطلمنكي ،أبو عمر المقرئ الحافظ ، مولده سنة 340 هـ 952 م و الطلَمَنْكي نسبة إلى بلده طَلَمَنكة، وهي مدينة بثغر الأندلس الشرقي، بناها الأمير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم ، بها وُلد ونشأ بقرطبة ، ثم رحل إلى إفريقيا ومصر ومكة وسمع من علماء كثر ، ورجع إلى الأندلس بِعِلمٍ جَم ،

وأخذ علم القراءات عن كثير من علماء عصره و من تلاميذه :ابن

عبد البر القرطبي و ابن حزم الأندلسي و أبو محمد عبد الله بن سهل المقرئ وغيرهم .

قال عنه ابن الحصار الخولاني: كان من الفضلاء الصالحين على هدي وسنة، قديم الطلب والعلم، مقدماً في الفهم، مجوداً للقرآن، حسن اللفظ به، فضائله جمة، أكثر من أن تحصى .

وقال ابن الحَذّاء: وكان فاضلاً، شديداً في كتاب الله، سيفاً على أهل البدع، سكن قرطبة وقرأ بها ، ثم سكن المرية، ثم مرسية، ثم سرقسطة، ثم عاد إلى بلده طلمنكة مرابطاً، وقال الحميدي عنه: وكان إماماً في القراآت مذكوراً، وثقة في الرواية مشهوراً.

وقال القاضي عياض: تفنن في علوم الشريعة، وغلب عليه القرآن والحديث، وألف تواليف نافعة كثيرة ،كباراً ومختصرة، احتساباً.

وقال ابن الجزري: رجع إلى الأندلس بعلم كثير، وكان أول من أدخل القراءات إليها، وألف كتاب الروضة.

وقال ابن بشكوال: وانصرف إلى الأندلس بعلم كثير، وكان أحد الأئمة في علم القرآن العظيم، قراءته وإعرابه وأحكامه، وناسخه ومنسوخه، ومعانيه.

وجمع كتباً حساناً كثيرة النفع على مذاهب أهل السنة، وظهر فيها علمه، واستبان فيها فهمه، وكانت له عناية كامِلة بالحديث ونقله وروايته وضبطه ومعرفة برجاله وحَملته، حافظاً للسنن، وجامعاً لها،

إماماً فيها، وعارفا بأصول الديانات، مُظهراً للكرامات، قديم الطلب للعلم، مُقَدماً في المعرفة والفهم، على هَدْي وسُنة واستقامة.

وكان سيفاً مُجردا على أهل الأهواء والبدع، قامعا لهم، غيوراً على الشريعة، شديداً في ذات الله تعالى.

قال عيسى بن محمد الحجاري: خرج علينا أبو عمر الطلمنكي يوماً ونحن نقرأ عليه، فقال: اقرءوا وأكثِرُوا فإني لا أتجاوز هذا العام، فقلنا له: ولِمَ؟ يرحمك الله ! فقال: «رأيت البارحة في منامي مُنشداً يُنشدني:

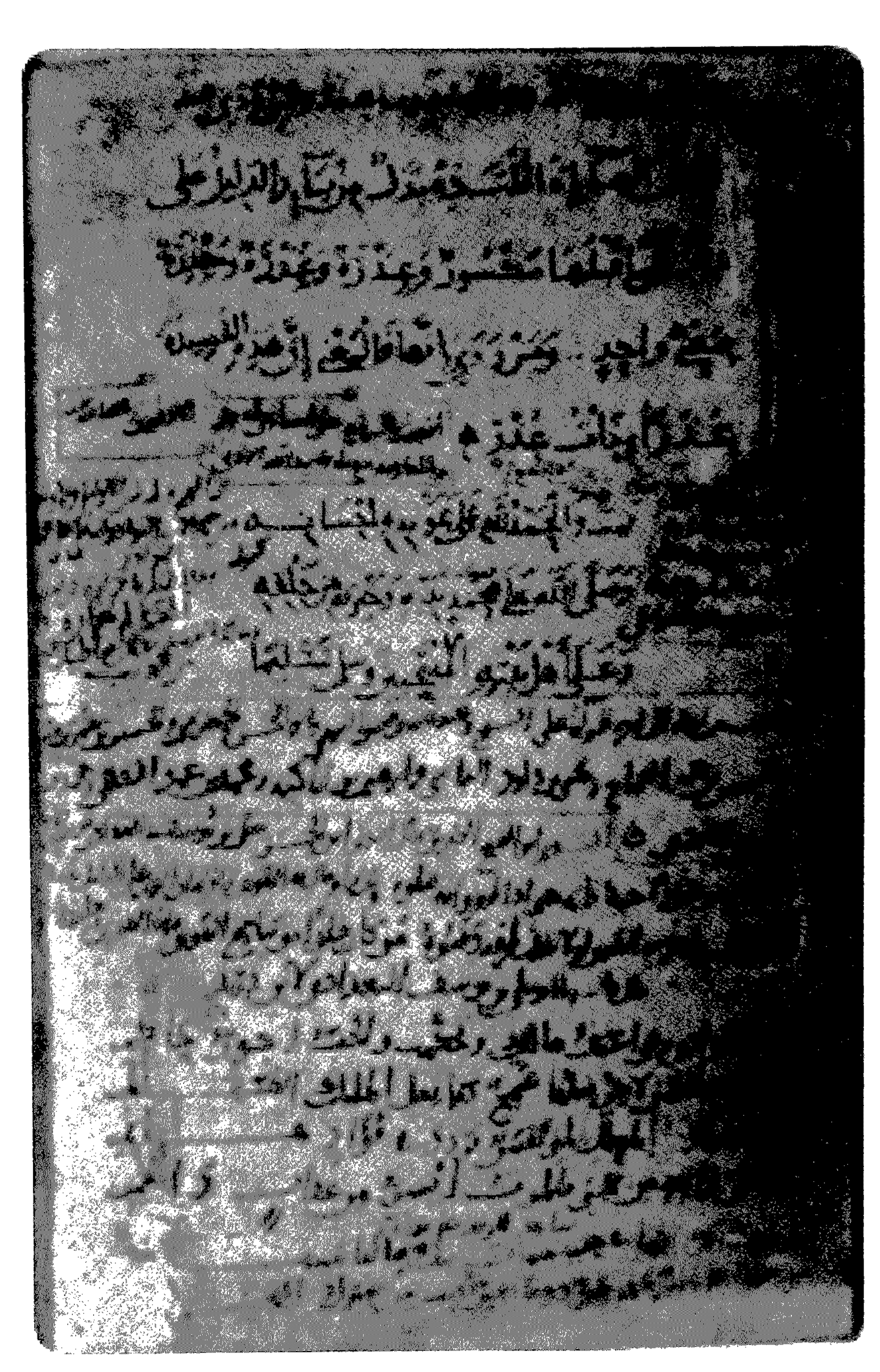
اغْتَنِموا البرَّ بشيْخٍ ثَوىَ ... تَرحَمُهُ السُّوقَةُ والصِّيد

قَد خَتَم العُمْرَ بعيدٍ مَضَى ... لَيس لهُ مِن بَعْده عِيدُ

قال: فتوفي في ذلك العام.

ومن مؤلفاته: الروضة في القراءات، كتاب في تفسير القرآن، نحو 100 جزء، البيان في إعراب القرآن، فضائل مالك، رجال الموطأ، الوصول إلى معرفة الأصول في مسائل العقود في السنة، الرسالة المختصرة في مذاهب أهل السنة، الدليل إلى طاعة الجليل فيما تنطوي عليه الجوانح وتباشره بالعمل الجوارح، وهو ستون جزءًا، وغير ذلك.

توفي رحمه الله تعالى في طلمنكة في ذي الحجة سنة 429 هـ 1038م وقد قارب التسعين من عمره.



مخطوطة بخط أبي عمر الطلمنكي الأندلسي بمكتبة ريس - تركيا

عصر ملوك الطوائف

* ابو الحزم جهور
* مجاهد العامري
* أبو عمر الداني
* ابن حزم الأندلسي
* المظفر بن الأفطس
* ابن عبد البر القرطبي
* ابن حيان المؤرخ
* أبو الوليد الباجي
* المعتمد بن عباد
* الحافظ الحميدي
* الزرقالي عالم الفلك

الأندلس

خلال عصر الطوائف

من قيام الفتنة عقب سقوط العامريين في جمادى الآخرة ٣٩٩هـ [illegible] إلى سقوط طليطلة في يد ألفونس السادس ملك قشتالة وليون في صفر ٤٧٨هـ / مايو ١٠٨٥ ميلادية

- مملكة ليون وقشتالة
- ״ نبرة
- ״ أرجون
- كونتية قطلونية
- ״ البرتغال
- حدود الأندلس الإسلامي بعد سقوط طليطلة

ملاحظة: لم توضع حدود لدويلات الطوائف لعدم وضوحها [illegible]

عصر ملوك الطوائف

الوزير أبو الحزم جهور

1030 - 1043م

في حالٍ تدهور فيها وضع الأندلس وخلو مقام الخلافة من حاكم تشدُّ به الأمة عضدها برز مصلحٌ ليعيد البلاد إلى الدرب الذي سار عليه الأجداد ويقوِّمَ المسار نحو البوصلة التي تأخذ بسفينة الإسلام إلى بر الأمان، فقضى على الفتن والفساد وأعاد الأمن والأمان إلى ربوع قرطبة التي أصبحت في عهده أسطورة تحسدها عواصم الأمم، إنه القائد المصلح أبو الحزم بن جهور.

جهور بن محمد بن جهور بن عبد الملك بن جهور بن عبد الله، أبو الحزم، مؤسس دولة بني جهور في قُرْطُبَة بعد انهيار الخلافة الأموية.

ينتمي أبو الحزم جهور إلى بيت من أعرق بيوت الموالي **الأندلسية**، كان جده الأكبر بخت بن أبي عبدة الفارسي مولى لعبد الملك بن مروان، ثم كان ولده يوسف بن بخت بن أبي عبدة من موالي عبد الرحمن الداخل الأموي، وأول من دخل إلى **الأندلس** من هذه الأسرة، وكان دخوله قبل دخول عبد الرحمن بمدة، فكان من كبار موالي قُرْطُبَة، وولاه عبد الرحمن الداخل حجابته، ثم تولى القيادة في عهد هشام بن عبد الرحمن، وتولى أبناؤه بعد ذلك مناصب الوزارة والقيادة

تبعاً لأمراء بني أمية، فتولى جهور بن عبد الملك، جد أبو الحزم جهور، الوزارة لعبد الرحمن الناصر، كما تولى محمد بن جهور، والد أبي الحزم، الوزارة في عهد المنصور محمد بن أبي عامر، أما أبو الحزم فقد كان كاتباً لعبد الرحمن بن المنصور بن أبي عامر، في نهاية المائة الرابعة الهجرية، وعاصر الحوادث والانقلابات العاصفة التي شهدتها عاصمة الخلافة بعد ذلك، وتولّى في هذه الفترة الوزارة لعلي بن حمود الإدريسي، الذي استولى على قُرْطُبَة مدة من الزمن، ثم إن ابن حمود نقم على أبي الحزم، فاعتقله، وصادر أمواله، ولما ثار أهل قُرْطُبَة على بني حمود وأنصارهم من البربر، كان عميدهم في ذلك أبو الحزم، وكان جهور يتمتع بزعامة شعبية بارزة، حتى أصبح في نهاية الأمر شيخ الجماعة والزعيم الحقيقي لقُرْطُبَة، وكان كثيراً ما يؤثر برأيه في تطور الشؤون والأحوال في تلك الفترة العصيبة التي كانت فيها الخلافة الأموية في الأندلس تلفظ أنفاسها الأخيرة، وتسير إلى مصيرها المحتوم، وهو السقوط.

فبعد خلع آخر خلفاء بني أمية هشام المعتد بالله سنة 422هـ 1030م، أجمع أهل قُرْطُبَة وكبراؤها على تولية أبي الحزم أمور المدينة وما حولها، وقد قامت هذه الدولة الفتية على أنقاض الخلافة الأموية، وكانت معظم مدن الأندلس وقواعدها قد استَقلّت عن مركز الخلافة، وقامت فيها دويلات عُرِفت بدول الطوائف.

وقد أقام أبو الحزم دولته على رقعة متوسطة من بلاد الأندلس، تمتد

من جبل الشارات شمالاً، حتى حدود غرناطة جنوباً، ومن منابع نهر الوادي الكبير شرقاً، حتى قرب أستجة جنوباً، وتشمل من المدن عدا قُرْطُبَة، جيَّان وأبدة وبياسة والمدور وأرجونة وأندوجر.

وكان جهور رئيس حكومة من نوع خاص، فإنه لم ينفرد بالرئاسة، ولم يستأثر بتدبير الأمور والبت فيها، ولكنه جمع حوله صفوة الزعماء والقادة، يتحدث باسمهم، أو باسم الجماعة، يرجع إليهم في تدبير الأمور، ويصدر القرارات باسمهم، فإذا طُلِبَ منه مال أو إمضاء أمر من الأمور قال: ليس لي عطاء ولا منع، إنما هو للجماعة، وأنا أمينهم، وإذا رابه أمر عظيم، أو اعتزم تدبير مسالة خطيرة، استدعاهم وشاورهم، وإذا خوطب بكتاب لا ينظر فيه إلا باسم الوزراء.

وقرن جهور ذلك كله بإجراء آخر، هو أنه لم يفارق رسم الوزارة، ولم ينتقل من داره إلى دار الخلافة، بل اكتفى بأنه رَتَّبَ عليها الحُجَّاب والحشم على ما كانت عليه أيام الخلافة، وجعل نفسه مُمسِكاً بالوضع حتى يأتي مستحق يُتفق عليه، فيسلم إليه مقاليد الحكم، كما أنه لم يتخذ أي إجراء يبرز رياسته، أو يحيط نفسه بأي مظهر من مظاهر الأبهة والفخامة، بل لبث على سابق رسمه من التواضع والقناعة وخفض الجناح، ومعاملة الجميع بالرفق والحسنى.

لقد عرفت حكومة أبي الحزم الفريدة في التاريخ الإسلامي بحكومة الجماعة، وكانت نموذجاً بديعاً في حكم الشورى في وقتٍ ساد فيه نزعة الرئاسة الفردية والحكم المطلق، وكان من أبرز مزاياها أن يستطيع

الرئيس أن يتنصل من المسؤولية إذا ما ساءت الأمور، وأمِنَ أن يستظل بلواء الجماعة، وأن يحرز الثناء وجميل الذكر إذا حسنت العواقب، فلقد سلك أبو الحزم في حكومته مسلك الأصالة والحزم، وكان همه الأول أن يقمع الشغب، وأن يوطد دعائم النظام والأمن، فصَانَعَ زعماء البربر، واستمالهم بالرفق، اتِّقاءً لدسائسهم، وتهدئةً لأطماعهم، كما جعل أهل الأسواق جنداً، وفرق السلاح فيهم، وفي البيوت، حتى إذا دهم أمر في الليل والنهار، استطاع أهل المدينة الدفاع عن أنفسهم، وأصلح القضاء، وعمل على نشر العدل بين الناس، وقضى على كل مظاهر البذخ والإسراف السائدة من قبل، وعمل على حفظ الأموال العامة، ولا سيما الأموال السلطانية، فعهد إلى أناس ثقات يشرف عليهم بنفسه لتحصيلها وحفظها، كما أنه فرَّق الأموال على التجار لتكون بيدهم دَيناً عليهم، يعملون بها، ويحصلون على ربحها فقط، ويحاسَبُون عليها من وقت إلى آخر، وكانت من نتائج هذه الإجراءات أن عم الرخاء مكان الكساد، وانتعشت الأسواق وازدهرت، ونمت الموارد.

استمرت حكومة الجماعة بقُرْطُبَة برئاسة الوزير أبو الحزم جهور تدبر الأمور في قُرْطُبَة ونواحيها مايقارب الاثني عشر عاماً، وقد سادت بها السكينة والأمن والأمان، وأبو الحزم لا يتحول عن خطته في التزام المسالمة والتواضع والتقشف، وأهل قُرْطُبَة مُجمِعين على طاعته ومحبته، وكانت قُرْطُبَة في عهده ملاذ كل خائف من أهل الأندلس؛ نظراً لما نَعِمَت به في عهد هذا الرئيس الجليل.

وكانت سياسة الوزير أبي الحزم بن جهور سبباً مباشراً في إقرار السلام والأمان والازدهار في قُرْطُبَة؛ وهذا ما جعلها موضع ثقة ملوك الطوائف الأخرى في بلاد **الأندلس**، وكانت الهيبة ورجاحة العقل صفتين تميَّزَ بهما الوزير ابن جهور، وهذا ما جعله موضع الوسيط العدل لفضِّ المنازعات والخصومات بين الأمراء المتنازعين، فحين كاد الصراع أن يحتدم بين المعتضد بن عَبَّاد صاحب إِشْبِيلِيَة، والمظفر بن الأفطس صاحب بَطَلْيُوس، حيث هاجم المعتضد بن عَبَّاد مدينة لَبْلَة الواقعة غربي إِشْبِيلِيَة، فاستغاث صاحبها ابن يحيى بالمظفر بن الأفطس لنجدته، فتحرَّك له، وأرسل جماعة من البربر لمهاجمة إِشْبِيلِيَة، وأرسل الوزير ابن جهور رسله ليُنْذرهم من رَحَى فتنةٍ تعصف ببلاد **الأندلس**، ويدعوهم إلى السلم وفضِّ النزاع.

وكان بهذا النصح المتكرِّر من الوزير جهور نجاة **الأندلس** من فتنة كبرى، وهكذا عاشت قُرْطُبَة في ظلِّ حكومة الجماعة آمنة من الفتنة، فضلاً عن ذلك الازدهار الاقتصادي والأمن السياسي، وظلَّ الوزير ابن جهور حاكماً لقُرْطُبَة حتى وافته المنية في صفر وقيل: المحرم سنة 435هـ 1043م، وقد أجمع أهل قُرْطُبَة على تقديم ابنه أبي الوليد محمد بن جهور حاكما عليهم، وبعد خمس وعشرين عاماً من وفاة أبي الحزم خضعت قُرْطُبَة لصاحب إشبيليا المعتمد بن عَبَّاد، وانتهى حكم بني جهور فيها.

ويجدر بنا هنا أن نذكر قصيدة لابن حَيَّان يرثي بها أبا الحزم بن

جهـور، ويمدحـه فيهـا، يقـول:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الشَّمْسَ قَدْ ضَمَّهَا الْقَبْرُ ... وَأَنْ قَدْ كَفَانَا فَقْدَهَا الْقَمَرُ الْبَدْرُ

وَأَنَّ الْحَيَا إِنْ كَانَ أَقْلَعَ صَوْبَهُ ... فَقَدْ فَاضَ لِلآمَالِ فِي إِثْرِهِ الْبَحْرُ

إِسَاءَةُ دَهْرٍ أَحْسَنَ الْفِعْلَ بَعْدَهَا ... وَذَنْبُ زَمَانٍ جَاءَ يَتْبَعُهُ الْعُذْرُ

فَلا يَتَهَنَّ الْكَاشِحُونَ فَمَا دَجَا ... لَنَا اللَّيْلُ إِلاَّ رَيْثَمَا طَلَعَ الْفَجْرُ

وَإِنْ يَكُ وَلَّى جَهْوَرٌ فَمُحَمَّدٌ ... خَلِيفَتُهُ الْعَدْلُ الرِّضَا وَابْنُهُ الْبَرُّ

لَعَمْرِي لَنِعْمَ الْعِلْقُ أَتْلَفَهُ الرَّدَى ... فَبَانَ وَنِعْمَ الْعِلْقُ أَخْلَفَهُ الدَّهْرُ

رحمه الله تعالى....

عصر ملوك الطوائف

أبو الجيش مجاهد العامري

436هـ - 1044م

للبـرِّ أمـراء وللبحـر أمـير، إن ضاقـت الفتوحـات في بـرِّ الأندلـس فـإنَّ في بحرهـا تتسـع رقعـة الفتوحـات أكثـر حتـى أصبـح الصليبيـون والفرنـج لا يهـدأ لهـم بـال ولا يأمنـون بـراً ولا بحـراً، فتشـكل لديهـم كابـوس مرعـب مـن جيـوش الإسـلام وأمرائهـم، ومـا نخـط عنـه واحـد منهـم، هـو ذاك الـذي كان أبـاً للجيـش وقائـداً لم يخب بـه ظـنُّ المسـلمين ويقـضُّ مضجـع أعـداء المسـلمين في الأندلـس، إنـه أبـو الجيش مجاهـد العامـري.

مجاهـد بـن يوسـف العامـري بالـولاء، أبـو الجيش، رومـي الأصـل، مـن مـوالي المنصـور محمـد بـن أبي عامـر، ومـن فحـول رجالـه، ثـم أصبـح مـن ملـوك الطوائـف في الأندلـس، وذلـك بعـد وفـاة المظفـر عبـد الملـك بـن المنصـور بـن أبي عامـر، وحـدوث الفتـن في قُرْطُبَـة بـين مـوالي الأمويـين والعامريـين، ثـم حصـول فتنـة البربـر في قُرْطُبَـة سـنة 412هــ، خـرج مجاهـداً منهـا إلى دانيـة، وتبعـه جمـع مـن مـوالي ابـن أبي عامـر، فضبطهـا وجميـع أعمالهـا، وأضـاف إلى ملكـه جـزر ميورقـة ومنورقـة ويابسـة، وتلقَّـب بالموفـق بـالله.

وكان ذا نباهـة ورياسـة، زاد عـلى نظرائـه مـن ملـوك الطوائـف في الأندلـس

بعده خصال منها: العلم والمعرفة والأدب، وقد قصده العلماء والفقهاء من المشرق والمغرب، وألَّفوا له تآليف مفيدة في سائر العلوم، فأجزل صِلاتهم على ذلك بآلاف الدنانير.

وكان مع ذلك من أهل الشجاعة والتدبير والسياسة، فضبط أمور مملكته أحسن ضبط، وحماها من غزو الروم، قال ابن حَيَّان مؤرخ **الأندلس**: كان مجاهد فتى أمراء دهره، وأديب ملوك عصره، لمشاركته في علوم اللسان، ونفوذه في علوم القرآن، عني بذلك من صباه وابتداء حاله إلى حين اكتهاله، ولم يشغله عن ذلك عظيم ما مارسه من الحروب براً وبحراً، حتى صار في المعرفة نسيج وحده، وجمع من دفاتر العلوم خزائن جمة، فكانت دولته أكثر الدول خاصّة، وأسراها صحابة.

ولعل أبرز ما يُميِّز الأمير مجاهد العامري هو غزواته الخارجية إلى جزر الروم في البحر المتوسط، في وقت كانت تعيش فيه الأندلس عصر ما يسمى ملوك الطوائف هذا العصر الذي اتَّسم بقيام خمس عشرة إمارة متناحرة في الأندلس، كل إمارة تسعى للقضاء على جارتها، إلا أن مجاهداً لم يصرف اهتمامه لقتال جيرانه المسلمين، بل جرَّد قُوَّته وأسطوله لجهاد الروم وغيرهم، متابعاً سيرة أستاذه المنصور محمد بن أبي عامر، وعلى الرغم من أن الملوك تكالبت عليه، وأحلوا به هزيمة كبيرة إلا أن ذلك لا يقلِّل من أهمية غزواته التي أتت في عصر ضعفٍ وتفككٍ للمسلمين في الأندلس.

وكان مجاهد العامري كما ذكرت من نسيج وحده، جمع بين كثير من الخصال والصفات الحميدة، وذلك في مجالات شتى، فهو بطل شجاع من أعظم فرسان عصره، لا يُبارِيه في المبارزة والرماية إلا القليل، يُباشِر القتال بنفسه، وكثيراً ما كان يخرق صفوف العدو في أثناء القتال، وكان لا ينضم لكتيبته الخاصة إلا أعاظم الفرسان.

وفي التجارة كان مجاهد من أذكى ملوك الطوائف، وأحذقهم بالشؤون المالية والتجارية، وأنشأ أسطولاً من السفن التجارية حقق من ورائه ثروة طائلة أحسن استغلالها في زيادة قوة ومناعة وعمران شرق الأندلس.

ولكن أعظم صفات مجاهد العامري كانت تتمثل في حبه للقرآن وعلوم القراءات والتفسير واللغة العربية، فقد كان مجاهد شديد العروبة على الرغم من أنه من الموالي، مُحِبّاً للقرآن منذ صباه، صيتاً به، معنياً بعلومه، فانتشر العلم في دولته، وقصده أكبر العلماء في القرآن واللغة، أمثال أبي عمرو بن سعيد الداني، صاحب القراءات الشهير، وأبي عمر بن عبد البر، صاحب كتاب الإجماع، وابن معمر اللغوي، وابن سيده، صاحب كتاب المُحكَم، وغيرهم كثير، حتى فشا العلم بين الجواري والغلمان، وصارت الجزر الشرقية منارة العلم والقرآن بالأندلس.

وكان مجاهد العامري من أعظم بحّارة الإسلام في ذلك العصر، ومن أكثرهم تمرساً بالحروب والغارات البحرية، حتى أصبح أسطورة

البحر المتوسط، وأُحيطت شخصيته في المراجع الأجنبية بالكثير من الخيال والروعة، بل إن تفاصيل كثير من حملاته البحرية على أوروبا نجد ذكرها في المراجع الإيطالية واليونانية، ولا نجد لها ذكراً في الكتب الإسلامية، وقد أَطلق عليه المؤرخون الغربيون اسم «موجتيوس»، وهو اسم كان كفيلاً أن يلقي الرعب والفزع في قلوب سكان إيطاليا وفرنسا لفترة تزيد عن ثلاثين سنة، وكانت غزوة جزيرة «سردانية» هي أعظم معاركه وغزواته البحرية والسبب الرئيسي لشهرة مجاهد في أوروبا وحوض البحر المتوسط الغربي.

وبينما كانت دول الطوائف الأخرى تخوض غمار المنازعات والحروب المحلية الصغيرة، كان مجاهد العامري يُفكِّر في مشروع ضخم ربما كان أعظم مشروع فكَّر فيه أمير من الأمراء في دولة الأندلس، وهو غزو جزيرة سردانية وافتتاحها، وقد كان مجاهد يرى أن إمارته الساحلية وأملاكه البحرية تقتضي أن يكون اعتمادها في القتال على الأساطيل قبل كل شيء، فاهتم بتقوية الأسطول، فجدد دار الصناعة القديمة التي كانت بدائية، واستكثر من شراء السفن والمعدات الحربية، حتى صار عنده خلال فترة وجيزة أقوى أساطيل البحر المتوسط، واستعدَّ لمشروعه الخطير، فحشد أسطولاً قِوامه مائة وعشرون سفينة مشحونة بالأبطال والعتاد الحربي البحري.

وأقلعت الحملة البحرية من «دانية» في ربيع الأول سنة 406هـ أغسطس 1015م، وكانت جزيرة سردانية موضع اهتمام المسلمين منذ فتح

الأندلس، وقد غزاها المسلمون عدة مرات سنة 711م، 752م، 813م، 816م، 817م، 838م،غير أن هذه الحملات كلها من الغزوات العارضة، لا تخطط للبقاء في الجزيرة، وكانت هذه الجزيرة تحت حكم الدولة البيزنطية، ثم حكم الإفرنج، ولكنها كانت مستقلة ذاتياً، يحكمها قادة محليون، وكانت طبيعتها الوعرة وشجاعة أهلها الجبليين واعتزازهم باستقلالهم، مما يعاون على دفع الغزاة، ورد الحملات الغازية العارضة.

كانت حملة مجاهد العامري على جزيرة سردانية كبيرة قوية تخطط للبقاء في الجزيرة، وإقامة سلطان الإسلام فيها بكل عزمٍ وقوة، ووصلت الحملة إلى الجزيرة بعد ثمانية أيام، ورَسَت في خليج كالياري في جنوب الجزيرة، ثم اندفع المسلمون إلى داخل الجزيرة بمنتهى القوة كالسيل الهادر، ووقعت بينهم وبين أهل الجزيرة معارك دموية قتل فيها جمعٌ غفير وفي مقدمتهم قائد الجزيرة «مالوتو»، وأَسَرَ المسلمون الكثير منهم، وأصبحت الجزيرة تحت حكم المسلمين.

شرع مجاهد في توطيد وضع المسلمين في الجزيرة، فأنشأ فيها مدينة واسعة، ونقل أهالي المجاهدين والمسلمين الفاتحين إليها، واستقدم هو زوجته وولده الوحيد علياً وباقي أسرته.

كان لهذه الغزوة الجريئة رد فعل عنيف وقوي لدى البابوية والدول الإيطالية القريبة، خاصةً أن مجاهداً العامري جعل جزيرة سردانية قاعدة انطلاق جهادية على شواطئ إيطاليا، وبالتحديد «جنوه» و«بيزا»، وكلاهما من أقوى الدول البحرية في البحر المتوسط، وفي الحال

أعلن البابا «بندكتوس الثامن» الحرب الصليبية ضد المسلمين، وكوَّن أسطولاً ضخماً أضعافَ أضعافِ الأسطول المسلم، وقرر الهجوم على سردانية لتحريرها من المسلمين.

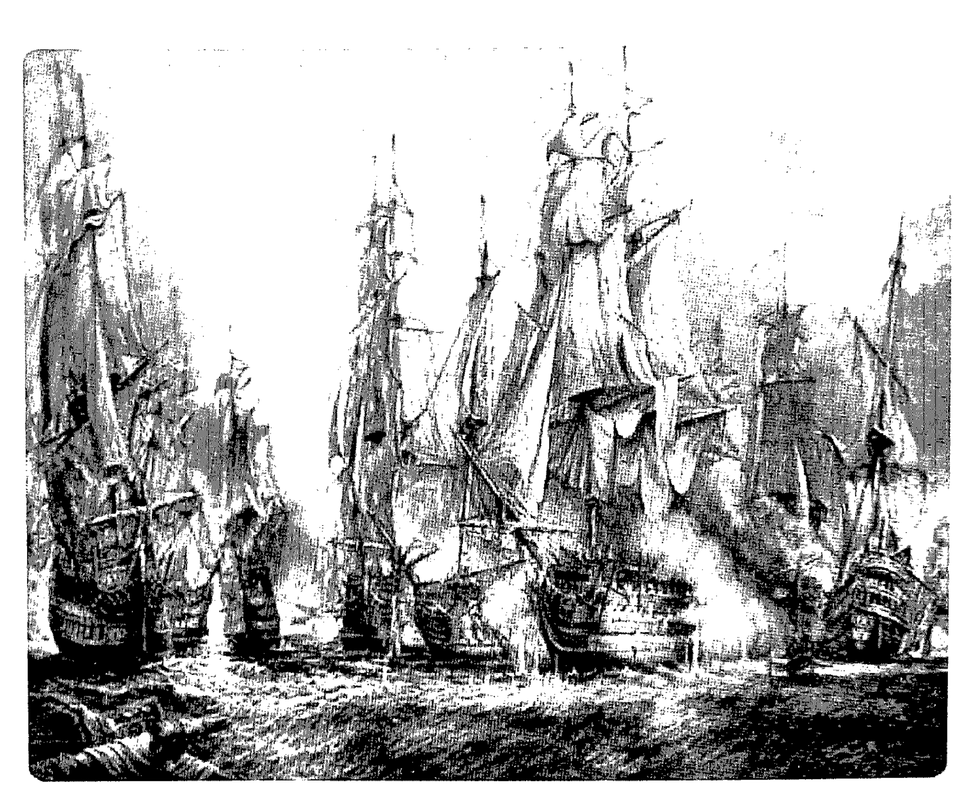
وصلت أخبار الحملة الصليبية البحرية لمجاهد العامري، فقرر الاستعداد لها بقوة، وبالغ في تحصين الجزيرة، ولكن تضافرت عليه عوامل كثيرة أدت في النهاية إلى هزيمة المسلمين، ومنها مقاومة أهل الجزيرة من الداخل، وسآمة الجنود المسلمين من رداءة الطقس، وقلة الغنائم، والبعد عن الأوطان، وهبوب الرياح والعواصف العاتية على الأسطول المسلم الراسي في خليج كالياري، مما أدى إلى غرق كثير من سفن الأسطول المسلم.

وكانت الهزيمة التي حلَّت بالمسلمين أن أسفرت على اعتقال عائلة مجاهد نفسه التي وقعت في الأسر كلها، ولم ينجُ من الأسطول الضخم البالغ مائة وعشرين سفينة سوى بضع سفن فقط عادت إلى الأندلس تجتر هزيمة شنيعة، وتبكي قتلى وأسرى بالآلاف، وهكذا تحطم هذا المشروع الضخم، ولم يُتَحْ للمسلمين أن يستقروا في سردانية، كما أتيح لهم من قبل أن يستقروا في صِقِلِّيَة، ولو نجح مجاهد العامري في مشروعه واستقر المسلمون في سردانية، لكان مرجحاً أن تزدهر بها حضارة إسلامية كبيرة تشع على ظلمات أوروبا، ولربما صارت أوروبا بعدها كلها مسلمة.

ولكن هذه الهزيمة الفادحة لم تمنع مجاهد العامري من أن يواصل

حملاتـه البحريـة القويـة في حـوض البحـر المتوسـط، ممـا جعلـه أسـطورة البِحـار، وكابوسـاً يقلـق كـرسي البابويـة سـنوات طويلـة.

توفي مجاهد العامري سنة 436هـ 1044م ، رحمه الله تعالى...



رسم تخيلي للأسطول البحري الأندلسي



عصر ملوك الطوائف

العالم الجليل أبو عمرو الداني

981- 1053م

أنار القرآن في فؤاده حتى شغف به حباً، وشغل الحديث عقله حتى عكف عليه حفظاً، حتى أضحى أحد أهم الأئمة في علم القرآن ورواياته وتفسيره، وأحد أهم حفظة وحملة الحديث في عصره، فوضع بعد ذلك ما جمع في مؤلفات ومصنفات تركها لنا لتروي قصة صنديد من أمة الإسلام طاف المشرق بحثاً عن العلم وما ملَّ أو كلَّ حتى انتهت رحلته في الدنيا وذهب إلى عوالم الخالق الأخرى، هو الحافظ المحدث عثمان بن سعيد بن عثمان الملقب أبو عمرو الداني ...

عثمان بن سعيد بن عثمان بن سعيد بن عمر الأموي بالولاء الأندلسي القرطبي الداني أبو عمرو، ويعرف قديماً بابن الصيرفي الإمام الحافظ، والمجود المقرىء عالم الأندلس.

مولده سنة 371هـ 981 م، وبدأ بطلب العلم سنة 386هـ، فرحل إلى المشرق سنة 397هـ، وأقام بالقيروان مدة أربعة أشهر لقي فيها جماعة من علمائها، ثم توجه إلى مصر فدخلها في يوم الفطر من العام نفسه، ومكث بها باقي العام والعام التالي، وهو عام 398هـ على حين خروج الناس إلى مكة، وقرأ بها القرآن وكتب الحديث والفقه والقراءات

وغير ذلك عن جماعة من المصريين والشاميين والبغداديين، ثم توجه إلى مكة وحج، ورجع إلى مصر فمكث بها أشهراً، ثم عاد إلى القيروان وأقام بها شهراً، ووصل الأندلس سنة 399هـ، وأمورها مضطربة فقد خرج البربر على الخليفة محمد المهدي الأموي وقتلوه، وظل أبو عمرو في قرطبة إلى سنة 403هـ حيث خرج منها إلى سرقسطة، فأقام بها سبعة أعوام، ثم خرج منها إلى قرطبة، ثم إلى دانية، ومنها خرج إلى ميورقة فأقام بها ثمانية أعوام، وعاد إلى مسقط رأسه دانية سنة 417هـ، فأقام بها.

وكان أبو عمرو أحد الأئمة في علم القرآن ورواياته وتفسيره ومعانيه، وطرقه وإعرابه، وجمع في ذلك كله مؤلفات حسنة مفيدة، وله معرفة بالحديث وطرقه، وأسماء رجاله ونقلته، وكان حسن الخط، جيد الضبط، من أهل الذكاء والحفظ، والتفنن في العلم، ديناً فاضلاً، ورعاً مالكي المذهب.

يقول أحد الشيوخ من معاصريه: لم يكن في عصره ولا بعد عصره أحد يضاهيه في حفظه وتحقيقه، وكان يقول: ما رأيت شيئاً قط إلا كتبته، ولا كتبته إلا وحفظته، ولا حفظته فنسيته.

وكان يسأل عن المسألة مما يتعلق بالآثار وكلام السلف، فيوردها بجميع ما فيها مسندة من شيوخه إلى قائلها.

قال الذهبي: إلى أبي عمرو المنتهى في تحرير علم القراءات، وعلم المصاحف، مع البراعة في علم الحديث والتفسير والنحو، وغير ذلك.

ألـف كتـاب «**جامـع البيـان**» في القـراءات السـبع في مشـهورها وغريبهـا، وكتـاب « **التيسـير**» في القـراءات ايضـاً، و «**والتجديـد في الإتقـان والتجويـد**» و «**المقنـع**» في رسـم المصاحـف ونقطهـا ، و«الاهتـداء في الوقـف والابتـداء» و«**البيـان في عـد آي القـرآن**» و«**الموضـح لمذاهـب القـراء** » و«**طبقـات القراء**» و«**الفتـن الكائنـة**» يـدل عـلى تبحـره في الحديـث ، وغـير ذلـك مـن المؤلفـات الكثـيرة التـي بلغـت مئـة وعشريـن كتابـاً .

تـوفي أبـو عمـرو في مسـقط رأسـه في دانيـة رحمـه الله تعـالى سـنة 444هـ 1053م، وعمـره 73 سـنة، ودفـن في مقـبرة دانيـة، ومشـى مجاهـد العامـري ملكهـا في جنازتـه، وشـيعه خلـق عظيـم .

ومن شعره يحث فيه على اتباع السنة والمذهب المالكي :

تـدري أخـي أيـن طـريـق الجـنـة   طـريـقـهـا الـقـرآن ثـم الـسـنـة

كـلاهـمـا بـبـلـد الـرسـول   ومـوطـن الأصـحـاب خـير جـيـل

فـاتـبـعـن جـمـاعـة المـديـنـة   فـالـعـلـم عـن نـبـيـهـم يـروونـه

وهـم فـحـجّـة عـلى سـواهـم   فـي الـنـقـل والـقـول وفي فـتـواهـم

واعـتـمـدن عـلى الإمـام مـالـك   إذ قـد حـوى عـلى جـمـيـع ذلـك

فـي الـفـقـه والـفـتـوى إلـيـه المـنـتـهى   وصـحـة الـنـقـل وعـلـم مـن مضى

عصر ملوك الطوائف

الإمام ابن حزم الأندلسي

994- 1064م

لم يكن الخلاف الفقهي ليمنع عالِماً إسلامياً جهبذاً من الثناء على جهبذٍ آخر، وإن اختلف معه في الرأي «إنها تعاليم الإسلام»، هكذا هو المصنف الكبير ابن القيم حينما اطلع على مؤلفات وكتب علامة الأندلس ووزيرها وفيلسوفها ابن حزم فلم يكن بابن القيم إلا أن يقول وصفاً يليق بصنديدنا «منجنيق العرب» فكان حقاً منجنيقاً ردَّ به كل ما خالف شرع الله وحارب به الفرنجة والصليبيين، إنه ابن حزم الأندلسي.

أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف بن معدان بن سفيان بن يزيد الفارسي ثم الأندلسي القرطبي اليزيدي الظاهري، الإمام الأوحد ذو الفنون والمعارف، والوزير الفقيه الحافظ الأديب.

كان جدُّه يزيد مولى للأمير يزيد بن أبي سفيان أخي معاوية رضي الله عنهما، وجدُّه خلف بن معدان أول من دخل الأندلس مع الأمير عبد الرحمن الداخل الأموي.

ولد أبو محمد في قُرْطُبَة سنة 384هـ 994م، ودرس فيها، وأخذ عن

كبار علمائها وعلماء الأندلس، وقد نشأ في تَنَعُّم ورفاهيةٍ، وذكاء مفرط، وذهن سيال، وكان والده من كبراء أهل قُرْطُبَة ومن أهل الخير والعلم والأدب، عمل بالوزارة في الدولة العامرية، وتوفي سنة 402هـ.

وكذلك تولى الوزارة أبو محمد ابن حزم في شبابه للمستظهر عبد الرحمن بن هشام الأموي، ثم اعتزل الوزارة، وتفرَّغ للعلوم الشرعية، وكان قد مهر أولاً في الأدب والأخبار والشعر، وفي المنطق والفلسفة، فأثَّرت فيه تأثيراً كبيراً، ثم أعرض عنها، وقد تفقه أولاً في المذهب الشافعي، ثم أدَّاه اجتهاده إلى القول بنفي القياس كلِّه جليه وخفيه، والأخذ بظاهر النص في عموم الكتاب والسنة، والقول بالبراءة الأصلية، واستصحاب الحال، وصنَّف في ذلك كتباً كثيرة، وناظر بها أئمة عصره.

وكان سليط اللسان في المناظرة، حتى يقول فيه ابن العريف: كان لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقين، فأعرض عن كتبه جماعة من الأئمة، وهجروها ونفروا منها، وأحرقت في وقت، واعتنى بها علماء آخرون، وفتَّشوها انتقاداً واستفادة.

قال الذهبي: كان ينهض بعلوم جمة، ويجيد النقل، ويحسن النظم والنثر، وفيه دين وخير، ومقاصده جميلة، ومصنفاته مفيدة، وقد زهد في الرئاسة، ولزم منزله مُكِبّاً على العلم، فلا نغلو فيه، ولا نجفوا عنه، وقد أثنى عليه قبلنا الكبار.

ويقول ابن بشكوال: كان أبو محمد أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم

الإسلام، وأوسعهم معرفة مع توسعه في علم اللسان، ووفور حظه من البلاغة والشعر والمعرفة بالسير والأخبار.

وقال أبو حامد الغزالي: وجدت في أسماء الله الحسنى كتاباً لأبي محمد بن حزم يدل على عظم حفظه وسيلان ذهنه.

أخبر ولده الفضل أنه اجتمع له بخط أبيه من تأليفه نحو أربعمئة مجلد، تشتمل تقريباً على ثمانين ألف ورقة.

ويروي ابن حزم سبب تعلمه للفقه أنه شهد جنازة، فدخل المسجد، فجلس ولم يركع، فقال له رجل: قم فصلِّ تحية دخول المسجد، وكان عمره ستاً وعشرين سنة، قال: فقمت وركعت، فلما رجعنا من الصلاة على الجنازة، دخلت المسجد فبادرت بالركوع، فقيل لي: اجلس، اجلس ليس ذا وقت صلاة، وكان بعد العصر، قال: فانصرفت وقد حزنت، وقلت للأستاذ الذي رباني: دلني على دار الفقيه عبد الله بن دحون قال: فقصدته، وأعلمته بما جرى، فدلني على موطأ مالك، فبدأت به عليه، وتتابعت قراءتي عليه، وعلى غيره نحو ثلاثة أعوام، وبدأت بالمناظرة.

يقول في وصفه صاحب مطمح الأنفس: فقيه مستنبط، ونبيه بقياسه مرتبط، ما تكلم تقليداً، ولا تعدى اختراعاً وتوليداً، ما تمنت به الأندلس أن تكون كالعراق، ولا حنّت الأنفس معه إلى تلك الآفاق، أقام بوطنه، وما برح عن عطنه (أي وطنه)، فلم يشرب ماء الفرات، ولم يقف عيشه الثمرات، تفرد بالقياس، واقتبس نار المعارف أي

اقتباس، فناظر بما نطق به وقاس، وصنف وحبّر حتى أفنى الأنقاس، ونبذ الدنيا وقد تصدت له بأفتن مُحيًّا، وأهدت إليه اعبق عرف وريا، وخلع الوزارة وقد كسته ملاها، وألبسته حلاها، وتجرد للعلم وطلبه، وجد في اقتناء نخبه.

ومؤلفاته كثيرة منها: «الإيصال إلى فهم كتاب الخصال الجامعة لحمل شرائع الإسلام في الواجب والحلال والحرام والسنة والإجماع» أورد فيه أقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أئمة المسلمين في مسائل الفقه والحجة لكل طائفة وعليها، وهو كتاب كبير.

وله كتاب «الإحكام في أصول الأحكام» في غاية التقصي وإيراد الحجج، وكتاب «الفصل في الملل والأهواء والنحل»، وكتاب «المجلى» في الفقه، وشرحه «المحلى في شرح المجلى بالحجج والآثار»، وكتاب «الآثار التي ظاهرها التعارض ونفي التناقض عنها»، وكتاب «التلخيص والتخليص في المسائل النظرية»، وكتاب «التصفح في الفقه»، وكتاب «درر القواعد في فقه الظاهرية»، وكتاب «مختصر في علل الحديث»، وكتاب «جمهرة أنساب العرب»، وكتاب «فضائل الأندلس»، وكتاب «رسالة في الطب النبوي»، و«غزوات المنصور بن أبي عامر»، و«تأليف في الرد على أناجيل النصارى»، و«بلغة الحكيم»، و«شرح فصول بقراط»، و«السير والأخلاق»، و«بيان الفصاحة والبلاغة»، و«الناسخ والمنسوخ»، و«جوامع السيرة»، و«التقريب لحد المنطق والمدخل إليه»، و«ملخص إبطال القياس»، و«المفاضلة بين الصحابة»، و«مداواة

النفوس»، و«طوق الحمامة» في الأدب، وغير ذلك الكثير من المؤلفات في مختلف أنواع العلوم.

ناضل ابن حزم في الدفاع عن مذهبه الظاهري نضالاً كبيراً، وثبت على مذهبه إلى أن مات، وقد وقعت بينه وبين علماء عصره من المالكية وغيرهم مناظرات كثيرة وحادة، ولا سيما مناظراته مع أبي الوليد الباجي من علماء المالكية، يقول ابن حَيَّان: حتى استهدف من فقهاء وقته، فتمالؤوا عليه، وأجمعوا على تضليله، وشنعوا عليه، وحذَّروا سلاطينهم من فتنته، ونهوا عَوامَّهم عن الدنو منه، فأصبح الملوك يُقصُونه عن مجالسهم، ويُسيرونه عن بلادهم، إلى أن انتهوا به منقطع أثره، (أي فقدان أثره)، حتى أحرق بعض مصنفاته في إشبيليا، ومزقت علانية، ولا يزيد مؤلفها في ذلك إلا بصيرة في نشرها، (أي وتلك الأفعال ما زادته إلا إصراراً على نشرها)، وجدالاً للمعاندة فيها، (أي كان يُدافع عن أفكاره وما جاء في كتبه بكل ما أوتي من علم وحكمة وحجة)، وعلى الرغم من تشرده في البلاد إلا أن ذلك لم يفتت من عضده، بل كان ينشر علمه إلى مختلف من يلقاه من الطلبة، يحدِّثُهم، ويفقههم، ويدارسهم.

توفي ابن حزم رحمه الله تعالى سنة 456هـ 1064م عن عمر يناهز اثنين وسبعين عاماً، حيث وافته المنية وهو مُبعَد إلى بادية «لبلة» في الأندلس، عَشيَّة يوم الأحد لليلتين بقيتا من شعبان، .

وفي رثائه لنفسه قال:

كأنكَ بالزُّوارِ لي قد تَبادَرُوا ... وقيلَ لهم: أودَى عليُّ بن أحمدِ
فيا رُبَّ مَحْزُونٍ هُناكَ وضاحِكٍ ... وكَمْ أدمعٍ تُذرَى وخَدٍّ مُخَدَّدِ
عفا اللهُ عَني يومَ أَرْحَلُ ظاعِناً ... عنِ الأهلِ مَحْمُولاً إلى ضِيقِ ملحدِ
وأَترُكُ ما قَدْ كُنتُ مُغْتَبِطاً بهِ ... وأَلقَى الذي آنَستُ منهُ بِمَرصَدِ
فوا راحتِي إنْ كانَ زَادِي مُقدَّماً ... ويا نَصَبي إنْ كُنتُ لم أَتَزَوَّدِ



عصر ملوك الطوائف

الملك المظفر بن الأفطس

460هـ- 1068م

جالسته الكتب وجالسها، عشقته فشغفها، ولم يشغله الملك عنها ولم تصرفه السياسة عن الأدب حتى سُمي «**أديب الملوك**» في الوقت الذي لقب به أيضاً «**سيف الدولة**» ولكل اسمٍ من مسماه نصيب فقاتل وخاض السياسة وقاد الأمة لينتصر ويظفر، إنه المظفر ابن الأفطس.

محمد بن عبد الله بن محمد بن مسلمة التجيبي الأندلسي، الملك المظفر، أبو بكر بن الأفطس، من صناديد ملوك الطوائف في الأندلس، ملك بطليوس ولشبونة وشنترين في غرب الأندلس، كان والده أبو محمد عبد الله بن مسلمة من أهل المعرفة التامة والدهاء والسياسة، وكانت غرب الأندلس بيد رجل يدعى «سابور» من موالي الحكم المستنصر بالله الأموي، فلما ضعفت الخلافة الأموية في قُرْطُبَة بعد سنة 400هـ، استقل سابور على ما بيده من بلاد الجوف الغربي، كغيره من الأمراء، وكان عبد الله بن مسلمة يدبِّر أمور سابور، فلما مات سابور، لم يكن لديه سوى ولدين لم يبلغا الحلم، فاستأثر ابن مسلمة في الحكم، وتم له ملك بلاد غرب الأندلس وقاعدته في بطليوس، واستمر إلى أن توفي سنة 437هـ، فخلفه ابنه محمد، وتلقب بالمظفر بالله.

فمع شدَّة المظفر وبأسه واستحكام قوته في الحروب والنزاعات، إلا أنه كان أديب ملوك عصره، شغوفاً بالعلم والثقافة ومجالسة العلماء، وشراء الكتب وجمعها، حتى أصبح رحمه الله حكاية زمانه في العلم، كما كان يُحضر العلماء للمذاكرة فيُفيد ويستفيد، وله التصنيف الرائق والتأليف الفائق، المترجم بـ(**التذكرة**)، والمشتهر اسمه بـ(**كتاب المظفر أو المظفري**)، وهو في مائة مجلد، وقيل: في خمسين مجلداً وقيل: في عشرة مجلدات، ويشتمل على علوم وفنون من مغازٍ وسِيَرٍ، ومَثَلٍ وخَبَرٍ، وجميع ما يختصُّ به علم الأدب، فكان موسوعة علمية وتاريخية وأدبية عظيمة، جمعت بين الآداب المتخيَّرة، والطرائف المستملحة، والنكت البديعة، والغرائب الملوكية، واللغات الغريبة، وقد ألَّف المظفر هذه الموسوعة بنفسه، ولم يستعن فيه بأحد من العلماء إلا بكاتبه أبي عثمان سعيد بن خيرة.

فأيُّ علم وثقافة، وأيُّ همَّة وعزيمة امتلكها المظفر بن الأفطس! وأين وقت الفراغ الذي خصصه ليكتب هذا السفر العظيم، وهذا ما حدا بابن حزم الأندلسي أن يفتخر به على ملوك الأندلس جميعاً، ويجعله فضيلة من فضائل الأندلس على مرِّ التاريخ، بقوله: وهل لكم ملك أَلَّف في فنون الأدب كتاباً في نحو مائة مجلدة مثل المظفر بن الأفطس ملك بَطَلْيُوس، ولم تشغله الحروب ولا المملكة عن همَّة الأدب؟

ومن شعره:

أَنِفْتُ مِنَ المُدَامِ لأَنَّ عَقْلِي   أَعَزُّ عَلَيَّ مِنْ أُنْسِ المُدَامِ

وَلَـمْ أَرْتَـحْ إِلَـى رَوْضٍ وَزَهْـرْ وَلَـكِـنْ لِلْـحَـمَـائِلِ وَالحُـسَـامِ
إِذَا لَـمْ أَمْـلِـكِ الـشَّـهَـوَاتِ قَـهْـراً فَـلَـمْ أَبْـغِـي الـشُّـفُـوفَ عَـلَى الأَنَـامِ

وكان يقول: مَنْ لم يكن شعره مثل شعر المتنبي والمعري فليسكت.

وإضافة إلى حبه وولعه بالعلم، فقد أقام ملكاً عظيماً ضاهى فيه ملك ابن عَبَّاد في إشبيليا، وابن ذي النون في طُلَيْطِلَة، وكانت بينهم حروب وغارات ومهادنات.

كما أقام الجهاد، وكان شجة (أي شوكة في حلق العدو)، بخلاف سائر ملوك الطوائف في عهده، ويذكر أنه لما قصد ملك الجلالقة في الأندلس «فرناند بن شانجه» مدينة شنترين، وكانت من أفضل ثغور المسلمين تتبع لابن الأفطس، فبدأ بحصارها، وأراد اقتحامها، وكادت المدينة تسقط لولا أن أتى المظفر بجيوشه لنجدتها، فقال له أميرها: لقد هممنا أن نستسلم للعدو، ولو لم تأتنا لضعفنا عن دفاعه.

ويروى أنه غزا بلاد شلمنكة وهي في جواره، فكتب إلى المعتمد بن عَبَّاد صاحب إشبيليا يفتخر، وينكت عليه بمسالمته للروم: من يصد صيداً فليصد كما صيدي، صيدي الغزالة من مرابض الأسد، أيها الملك إن الروم إذا لم تُغْزَ غَزَت، ولو تعاقدنا تعاقد الأولياء المخلصين فَلَلنا حدهم، وأذللنا جدهم، ورأي السيد المعتمد على الله سراجٌ تضيء به ظلمات المنى.

ثم ملك العدو مدينة قلمرية سنة 456هـ بخيانة أميرها التابع للمظفر،

فلما وقع بيد المظفر لامه على ما كان منه، ثم أمر به فضربت عنقه.

وكتب إليه الفونسو ملك قشتالة يتهدده ويتوعده، فأجابه المظفر: وصل إلى الملك المظفر من عظيم الروم كتاب مدع في المقادير، يرعد ويبرق، ويجمع تارة ويفرق، ويهدد بالجنود الوافرة، ولم يدر أن لله جنوداً أعز بهم الإسلام، وأظهر بهم دين نبينا عليه الصلاة والسلام، يجاهدون في سبيل الله، ولا يخافون لومة لائم، فأما تعييرك للمسلمين فيما وهن من أحوالهم، فبالذنوب المركوبة، والفرق المنكوبة، ولو اتفقت كلمتنا علمت أي صائبٍ أذقناك، كما كانت آباؤك مع آبائنا، وبالأمس كانت قطيعة المنصور على سلفك، أهدى إليه ابنته مع الذخائر التي كانت تفد كل عام عليه، ونحن فإن قَلَّتْ أعدادُنا، وعدم من المخلوقين استمدادنا، فما بيننا وبينك بحر تخوضه، ولا صعب تروضه، إلا سيوف يشهد بحدها رقاب قومك، وجلادٌ تبصره في يومك، وبالله وملائكته نتقوى عليك، ليس لنا سواه مطلب، ولا إلى غيره مهرب، وهل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين: شهادة أو نصر عزيز؟

وكان مع استغراقه في الجهاد لا يفتر عن العلم، ولا يترك العدل، صنع مدرسة يجلس فيها كل جمعة، ويحضره العلماء، وكان يبيت في منظرةٍ له، فإذا سمع صوتاً وجه أعواناً لكشف الخبر، وكان لا ينام إلا قليلاً.

توفي المظفر سنة 460هـ 1068م رحمه الله تعالى.....

مملكة بطليوس في غرب الأندلس

عصر ملوك الطوائف

الحافظ ابن عبد البر القرطبي

978- 1071م

سمير فؤادي من ثلاثين حجّة وصاقل ذهني والمفرّج عن همّي
بسطت لهم فيه كلام نبيّهم لما في معانيه من الفقه والعلمِ
وفيه من الآداب ما يهتدى به إلى البرّ والتقوى ونهيٌ عن الظلم

إنها كلمات قالها مؤلفها في كتابه «**التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد**» ذلك الكتاب الذي لو لم يكتب سواه لكان كافياً ليكون له الفضل على المسلمين وطلبة العلم والأجيال من بعده لكنه خطَّ مؤلفاً تلو الآخر حتى لفظِ أنفاسه الأخيرة، إنه العالم الصنديد البار ابن عبد البر القرطبي.

يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي الأندلسي المالكي، أبو عمر، الحافظ المحدث، والفقيه المتقن، أحد من سارت بتصانيفه ومؤلفاته الركبان في مختلف البلاد والأصقاع الإسلامية.

مولده في قُرْطُبَة سنة 368هـ 978م، وكان والده أبو محمد عالماً جليلاً توفي سنة 380هـ، ولم يأخذ عنه ولده أبو عمر العلم لصغره عند وفاته، وطلب العلم وعمره 22 سنة.

وأخذ عن كبار علماء قُرْطُبَة ومشايخها، وفارق قُرْطُبَة، وجال في غرب الأندلس مدة من الزمن، ثم تحول إلى شرق الأندلس، وسكن دانية، ثم بلنسية وشاطبة، وولي قضاء لشبونة وشنترين أيام المظفر بن الأفطس.

وهو عالم طال عمره، وتكاثر عليه الطلبة، وجمع وصنف، ووثق وضعَّف، ودأب في طلب الحديث وتفنن به، وبرع براعة فاق بها من تقدمه من رجال **الأندلس**، وكان مع تقدمه في علم الأثر وبصره في الفقه والمعاني له معرفة كبيرة في علم الأنساب والأخبار، فخضع لعلمه علماء الزمان.

ويقول عنه الذهبي رحمه الله: كان إماماً ديناً، ثقة متقناً، علامة متبحراً، صاحب سنة واتباع، وكان أولاً أثرياً ظاهرياً فيما قيل، ثم تحول مالكياً مع ميل بَيِّن إلى فقه الشافعي في مسائل، ولا ينكَر له ذلك، فإنه ممن بلغ رتبة الأئمة المجتهدين، ومن نظر في مصنفاته، بان له منزلته من سعة العلم، وقوة الفهم، وسيلان الذهن.

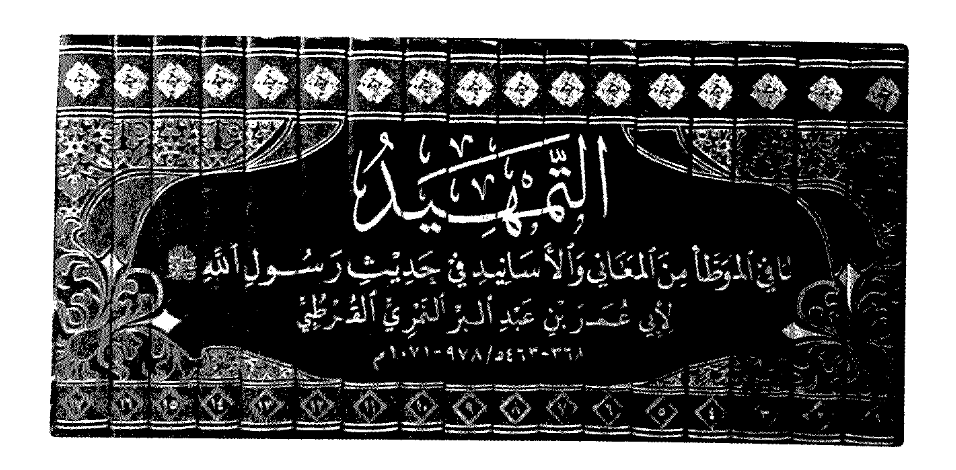
وكان أعلم من في **الأندلس** في السنن والآثار واختلاف علماء الأمصار على الرغم من أنه لم يخرج من **الأندلس** كما خرج منها وارتحل علماء كثيرون قبله، وقيل: عنه أخذ ابن حزم فن الحديث وعلومه، وكان على مذهب أهل السلف في الأصول، ولم يدخل في علم الكلام، وقد أطلق عليه معاصروه لقب «**حافظ المغرب**».

ألف الحافظ أبو عمر في موطأ الإمام مالك كتباً كثيرة منها: «**التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد**»، رتبه على أسماء شيوخ مالك، وهو

كتاب لم يسبقه إليه أحد، وكتاب «**الاستذكار لمذهب علماء الأمصار فيما تضمنه الموطأ من معاني الرأي والآثار**»، شرح فيه موطأ الإمام مالك، وله كتاب «**الاستيعاب في معرفة الأصحاب**»، وكتاب «**جامع بيان العلم وفضله**»، وكتاب «**الكافي في مذهب مالك**»، وكتاب «**القصد والأمم في نسب العرب والعجم**»، وكتاب «**الإنصاف في أسماء الله**»، وكتاب «**الفرائض**»، وكتاب «**البيان في تلاوة القرآن**»، و«**الدرر في اختصار المغازي والسير**»، وغيرها الكثير من الكتب الجامعة النافعة، وكان موفقاً في التأليف، مُعاناً عليه.

وقد أجازه من أهل العلم: من ديار مصر أبو الفتح بن سيبخت صاحب البغوي، وعبد الغني بن سعيد الحافظ، ومن الحرم أبو الفتح عبيد الله السقطي، وعلي بن عبد الله بن موهب الجذامي.

توفي ابن عبد البر رحمه الله تعالى ليلة الجمعة في ربيع الآخر في عام 463هـ_1071م، عن عمر يناهز خمسة وتسعين عاماً.



عصر ملوك الطوائف

المؤرخ ابن حَيَّان القرطبي

987- 1076م

«أعظم مؤرخ أنجبته الأندلس، بل والغرب كله الإسلامي والمسيحي منه على السواء» هذه الكلمات التي قالها الدكتور محمود علي مكي في حق ابن حيان، وما أدراك ما ابن حيان، أسطورة عصره ومفكره الأوحد ذاك جبل العلم الذي لا يضاهيه عالم بوقته حتى قالوا عنه إنه «**فريد دهره ووحيد عصره**» ويكفيه أن يقول عنه ابن خلدون أنه «**قيَّد شوارد عصره واستوعب أخبار أفقه وقطره**».

أبو مروان حيان بن خلف بن حسين بن حَيَّان بن محمد بن حَيَّان القرطبي الأندلسي، مؤرخ الأندلس، كان جده الكبير حيان مولى للأمير عبد الرحمن الداخل الأموي، وكان أبوه خلف بن حسين من وزراء المنصور بن أبي عامر.

ولد ابن حَيَّان في قُرْطُبَة سنة 377هـ 987م، ودرس بها، وكانت قُرْطُبَة يومئذٍ أعظم مركز للدراسات في الأندلس، وأضحت جامعتها الشهيرة منذ عهد الحكم المستنصر الأموي والمنصور بن أبي عامر، أعظم الجامعات الأندلسية، ودرس ابن حَيَّان الحديث والأدب واللغة، وكان من بين أساتذته أبو علي القالي، وصاعد البغدادي، وقد برع ابن

حَيَّان في الأدب والرواية حتى غدا من أعلامها، وخاصة محققيها.

وفي شبابه شهد سقوطَ الدولة العامرية، ثم تَضَعْضُعَ الخلافة الأموية، وسقوطها بعد ذلك، وقيام دول الطوائف، وبعد انهيار الخلافة ثم سقوطها حدثت الانتكاسة، وعم الكساد الاقتصادي، وتدهور العمران، وحفل العصر بالأزمات إلى حدِّ المجاعة، وأفَلَ نجم قُرْطُبَة عمرانياً وبشرياً، وصوَّر ابن حَيَّان الوضع قائلًا: «.. وطمست أعلام قصر الزهراء..، فطوي بخرابها بساط الدنيا، وتغير حسنها؛ إذ كانت جنة الأرض، فعدا عليها قبل تمام المائة من كان أضعف قوة من فارة المسك، وأوهن بنية من بعوضة النمرود، والله يسلط جنوده على من يشاء، له العزة والجبروت...».

قد أذكت مخيلة ابن حَيَّان، وصقلت قلمه، وأمدَّتْه بكثير من التعليقات الصائبة، والملاحظات النقدية القوية.

وعندما قامت دولة بني جهور في قُرْطُبَة، كان ابن حَيَّان من معاوني أبي الوليد محمد بن جهور، ثم عُيِّن وزيراً لابنه عبد الملك، حتى دخل المعتمد بن عَبَّاد أمير إشبيليا إلى قُرْطُبَة، وانتزعها من يد بني جهور.

واشتهر ابن حَيَّان في عصره بصدق الرواية، وبلاغة الأسلوب، ولعل كتابه «**المقتبس من رجال أهل الأندلس**» خير دليل على ذلك، فقد قدَّم ابن حَيَّان في كتابه هذا أفضل الروايات وأنفسها، وامتاز أسلوبه التاريخي بروح علمي ونقدي بارز، وقد جمع فيه بين بلاغة العرض التي يمتاز بها المسعودي (**صاحب كتاب مروج الذهب**)، وبين روح التحقيق والنقد

التي يمتاز به ابن الأثير (**صاحب الكامل في التاريخ**)، وقد عني ابن حَيَّان بإيراد الوثائق الرسمية الهامة للملوك والأمراء، بحيث لا نجدها في أي مصدر أخر من مصادر التاريخ **الأندلسي**، مثل كتاب الخليفة الناصر الأموي عن موقعة الخندق، ولعل اتصاله بملوك وأمراء عصره كبني جهور، وبني عَبَّاد، وبني ذي النون، قد سمح له بالاطلاع على المُكاتَبات الحاصلة بين الأمراء في ذلك العصر وما قبله، على أن ابن حَيَّان قد نوَّه في كتابه بما كانت عليه دول الطوائف من الفساد والانحلال، وبما كان يلتزمه الفقهاء إزاء ذلك من موقف سلبي يكشف عن نفاقهم.

وفي هذا الصدد يقول: (ولم تزل آفة الناس مذ خلقوا في صنفين كالملح، فيهم الأمراء والفقهاء، قلّ ما تتنافر أشكالهم، بصلاحهم يصلحون، وبفسادهم يفسدون، فقد خص الله تعالى هذا القرن الذي نحن فيه من اعوجاج صنفيهم لدينا بما لا كفاية لهم، ولا مخلص منه، فالأمراء القاسطون قد نكبوا بهم عن منهج الطريق ذياداً عن الجماعة، وجرياً إلى الفرقة، والفقهاء أئمتهم صموت عنهم (أي صامتون)، صُدُوفٌ (أي معرضون) عما أكَّده الله عليهم من التبيين لهم، قد أصبحوا بين آكل من حلوائهم، وخابط في أهوائهم، وبين مستشعر مخافتهم، آخذاً بالتقية في صدقهم.

ولابن حَيَّان مؤلفات أخرى غير المقتبس، ككتاب أخبار الدولة العامرية، وقد قَصَّ فيه ابن حَيَّان سيرة المنصور ابن أبي عامر وغزواته، ولكن لم يصل إلينا شيء من هذا الكتاب، وكتاب «**البطشة**

الكبرى» يصف فيه سقوط دولة بني جهور في قُرْطُبَة، ولم يصل منه شيء أيضاً، وقد كتب ابن حَيَّان رسائل أخرى منها كتاب أخبار القضاة، ولم يصل منها إلا القليل نقلها الكُتَّاب المتأخرون ،ونتكلم الآن عن المرجعية التاريخية لابن حَيَّان.

استند ابن حَيَّان في تاريخه إلى مرجعيات عدة منها: «المشاهدات العيانية» خاصة وأن عصره كان زاخرًا بالأحداث التي تستحق الرصد والتسجيل، واعتمد كذلك على «الروايات الشفوية» التي أخذها عن مقربيه ومكاتبيه، وهم أشخاص توافرت لديهم المعرفة بالحدث، والثقة فيما يُورِدون من أخبار، فدوّن الكثير من رواية هؤلاء.

كما استند أيضاً إلى «الوثائق الرسمية» التي اطَّلع عليها بحكم نشأته في أسرة مقربة من بلاط الخلافة، أو أطْلَعهُ عليها والده، حيث كان كاتباً ووزيراً مقرباً للعامريين، كما استند إلى آثار من تقدمه من الإخباريين والمؤرخين.

وقام بنقل مؤلفات هي الآن في عِداد المفقود من التراث الأندلسي، وكان في المقتبس أكثر اعتماده على الكتب والنقل منها.

وكان ابن حَيَّان قد عرف كيف يستفيد من جميع الكتب السابقة ذات القيمة التاريخية، ولذا اجتهد في أن يجمع أكبر عدد من المصادر التي تنوعت بتنوع الموضوعات التي عالجها في تاريخه الكبير منذ الفتح الإسلامي للأندلس حتى عصره.

ومن خصائص وأسلوب الكتابة التاريخية عند ابن حَيَّان: كان أسلوبه

يمتاز بالسهولة والوضوح والتعبير الدقيق عن الحقائق، وقوة التدليل والتفسير والتعليل، وامتاز بترابط الفكرة، وتخير المفردات والتراكيب العربية السليمة، وتخلّص من قيود السجع (أي التكلف) ومحسنات البديع المتكلفة، وتدلنا كتاباته التاريخية على أدبه الرفيع مع التزام الدقة والأمانة التاريخية.

ونتحدث هنا عن بعضاً من كتبه، ككتاب المقتبس في أخبار الأندلس، وقد خصص ابن حَيَّان كتابه الرئيسي والأكثر شهرة لمعالجة تاريخ الأندلس منذ الفتح الإسلامي حتى نهاية عصر الخليفة الحكم المستنصر.

ويقدم لنا فيه أوسع رواية عن تاريخ الأندلس في القرون الهجرية الأربعة التي يغطيها الكتاب بصورة لم تتكرر في كل ما وَصَلَنا من كتب عن تاريخ الأندلس.

وهو كتاب من أعاظم كتب التاريخ، لم تصلنا سوى أجزاء متفرقة منه، وموضوعه تاريخ الأندلس منذ الفتح العربي سنة 91هـ، حتى آخر خلافة الحكم المستنصر سنة 336هـ.

وهو أحد الكتب التي فاخر بها ابن حزم في رسالته في فضل الأندلس فقال: (ومنها كتاب التاريخ الكبير في أخبار أهل الأندلس تأليف أبي مروان بن حَيَّان، نحو عشرة أسفار، من أجلّ ما ألف في هذا المعنى. وهو في الحياة بعد، لم يتجاوز الاكتهال).

ولم يعثر إلى الآن إلا على أربعة أجزاء من مجمل أجزاء «**المقتبس**» العشرة، وقد نُشِرت الأجزاء الأربعة، وهي: الجزء الثاني، ويتناول الفترة 232 –

267هـ، والجزء الثالث، ويتناول الفترة 275 - 298هـ، والجزء الخامس، ويتناول الفترة 299 - 330هـ، والجزء السابع، ويتناول الفترة 360 - 364هـ.

وفضلًا عن ذكر أخبار الأندلس، يأتي «**المقتبس**» وبدقة على بعض أخبار إسبانيا المسيحية، مما جعل باحثاً حديثاً يقرّر بأن (ابن حَيَّان ينبغي ان يُجعل في طليعة من يُرجَع إليهم عند الحديث عن تاريخ إسبانيا المسيحية حتى أواخر القرن العاشر الميلادي).

ولعل ابن حَيَّان كان يعرف عجمية مستعربي الأندلس، أو أنه استمد أخباره من المستعربين بقُرْطُبَة، وكانوا على اتصال بإخوانهم في الدين في شمال إسبانيا.

وكتاب «**المتين**» وفيه تناول بالتفصيل أخبار الفتنة، وقيام ممالك الطوائف في الأندلس من 399هـ إلى 462هـ، وضاع ضمن تراث الأندلس، إلا أن بعض الروايات يصفه بأنه يقع في 60 جزءاً.

وكتاب المتين هو كتابُ ابن حَيَّان الأصيل، لم يصلنا إلا في مقتطفات ونتفٍ أوردها ابن بسام الشنتريني في كتاب «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة»، كما احتفظ ببعض فقرات الكتاب المؤرخون الذين أتوا بعد ابن بسام، كابن الأبار، وابن عذاري، وابن الخطيب.

وإن الفقرات التاريخية في كتاب ابن بسام الموسوعي، الذي أرخ فيه للأدب الأندلسي في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، مقتبسةٌ في معظمها من كتاب «**المتين**» لابن حَيَّان، يقول ابن بسام: (واعتمدت المائة الخامسة من الهجرة، فشرحت بعض محنها..،

وأحصيت علل استيلاء طوائف الروم على هذا الإقليم أي الأندلس..، وعولت في معظم ذلك على تاريخ ابن مروان بن حَيَّان، فإذا أعوزني كلامه، وعزني سرده ونظامه، عكفت على طللي البائد، وضربت في حديدي البارد).

ويقول ابن بسام في موضع آخر من «**الذخيرة**»: إنه يلخص أخبار ملوك الجزيرة **الأندلس** اعتماداً على ابن حَيَّان، ويقول: (لأني إذا وجدت من كلامه فصلاً قد أحكمه، أو خبراً قد سرده ونظمه، عولت على ما وصف..؛ إقراراً بالفرق، واعفاءً لنفسي من معارضة من أحرز بأفقنا في وقته قصبات السبق.

وكذلك كتاب أخبار الدولة العامرية: خصّ به فترة حكم المنصور بن أبي عامر بكتاب «**المآثر العامرية**» أو « **أخبار الدولة العامرية المنسوخة بالفتنة البربرية**»، وهو مؤلف ضخم، ضم أخبار الفترة الواقعة بين 336هـ إلى 399هـ، ويقص فيه ابن حَيَّان سيرة المنصور، وتفاصيل غزواته الخمسين.

وأجمع معظم الذين ترجموا لابن حَيَّان القرطبي **الأندلسي** على أنه كان إمام المؤرخين في **الأندلس**؛ لما تميَّزت به كتاباته التاريخية من سعة ودقة وتفصيل وجودة وجمال وأسلوب، لذا يحظى بتقدير كبير من المؤرخين، وعموم الكتَّاب في بلده يعتمدونه في الأخبار، وينقلون عنه تراجم الرجال، ويعجبون بأدبه وأسلوبه البليغ.

ونقل ابن بشكوال عن أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عون قوله: (كان

أبـو مـروان بـن حَيَّـان فصيحـاً في كلامـه، بليغـاً فيـما يكتبـه بيـده، وكان لا يعتمـد كذبـاً فيـما يحكيـه في تاريخـه مـن القصـص والأخبـار).

وقـال الحميـدي في جـذوة المقتبـس: (صاحـب التاريـخ الكبـير في أخبـار **الأندلـس** وملوكهـا، ولـه حـظ وافـر مـن العلـم والبيـان وصـدق الإيـراد..، وأدركنـاه بزماننـا).

أما ابن الآبار فيسميه (جهينة أخبار المروانية، ومؤرخ آثارها السلطانية).

عـاش ابـن حَيَّـان أكثـر مـن تسـعين عامـاً، وتـوفي سـنة 469هـ 1076م، ودفـن في مقـبرة الربـض جنـوب شرق قُرْطُبَـة، عـلى مقربـة مـن نهـر الـوادي الكبـير، رحمـه الله رحمـة واسـعة.



رسم تخيلي للمؤرخ الأندلسي

عصر ملوك الطوائف

الإمام أبو الوليد الباجي

1012-1081م

كانت الكرامة مما تعلمه في فقه الشريعة الإسلامية ، قضى شخصيتنا هذا عمره بطلب العلم والرزق معاً حتى لا يكون عالة على أحد فاشتغل بضرب ورق الذهب للغزل حتى سُمي بالذهبي، وجمع العلوم والفنون، وكان متسع الآفاق عميق العقل والفكر بعيد النظر، نتحدث الآن عن العلامة الجليل أبو الوليد الباجي....

سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب بن وارث التجيبي القرطبي الباجي، أبو الوليد، فقيه كبير من كبار فقهاء المالكية في الأندلس، أصله من مدينة بطليوس، وتحوَّل جده إلى باجة قرب إشبيليا، فنسب إليها، وولد أبو الوليد بها سنة 403هـ 1012م، ونشأ كما ينشأ أقرانه في بلاد الأندلس التي كانت تشهد حركة علمية، ونهضة ثقافية، وانطلاقة حضارية، فبادر إلى تلقّي مبادئ الثقافة الإسلامية من حفظ للقرآن، وتعلم مبادئ العربية من نحو وصرف، كما تلقى أوليات معلوماته الفقهية والعقدية، ليتوجه بعد ذلك صوب علماء عصره ليأخذ عنهم ويتلقى منهم في مختلف فنون المعرفة السائدة.

تلقَّى أبو الوليد الباجي من عدد كبير من علماء عصره بالأندلس،

واجتمع بهم، ونذكر منهم ابن الرحوي، وابن الأصبع، وأبي محمد مكي، وابن شاكر القبري، ومحمد بن إسماعيل ابن فورتش، وأبي سعيد الحفري، والقاضي يونس بن مغيث.

ولم تكن همة أبي الوليد لتقف عند هذا الحد، فقد أجازه علماء **الأندلس**، وشهدوا له بالأهلية، مما دفعه إلى الرحلة إلى بلاد المشرق رغبةً منه في الاستزادة والتحصيل.

رحل أبو الوليد سنة 426هـ أو نحوها، فأقام بالحجاز مع أبي ذر الهروي، ولازمه، وحج أربع حجج، وقد أخذ عن علماء الحجاز، والقادمين على الحرمين من العلماء من كل البلاد الإسلامية، ومن هؤلاء أبو بكر المطوعي، وأبو بكر ابن سحنون، وابن صخر، وابن أبي محمود الوراق، وغير هؤلاء.

ثم رحل إلى بغداد حيث أقام ثلاثة أعوام يسمع الحديث، ويتلقى الفقه عمن لقيهم من خيرة الفقهاء على مختلف المذاهب، مالكية وشافعية وحنفية، لا يفرق بينهم، وضالته المنشودة التحصيل ثم العودة إلى بلاده بعلم غزير، فلا غرابة أن نجده يلازم أبا الفضل بن عمروس إمام المالكية، وأبي الطيب الطبري، كما تلقى عن أبي إسحاق طاهر بن عبد الله الشرازي الشافعي، وأبي عبد الله الدامغاني، والصيمري رئيس الحنفية، وأبي الحسن العيثقي، وأبي الفتح الطناجري، وابن حمامة، وأبي علي العطار، وأبي القاسم التنوخي، وغير هؤلاء من علماء العراق.

وقد روى أبو الوليد الباجي عن الحافظ الخطيب البغدادي، وروى الخطيب عنه.

قال الخطيب: أنشدني أبو الوليد لنفسه:

إذا كُنتُ أَعلَمُ يَقِيناً بأنَّ جَميعَ حَياتِي كَساعة
فَلِمْ لا أَكونُ ضَنِيناً بها وأُنفِقُها في صَلاحٍ وطاعة

ثم دخل بعد ذلك الشام، فسمع وتلقى عن أبي السمسار وطبقته، وانتقل إلى الموصل، حيث أقام هناك سنة حاز فيها علماً غزيراً، ودَرَسَ على السمناني الأصول، وفي مصر سمع من أبي محمد بن الوليد وغيره.

وهؤلاء العلماء الذين اجتمع بهم أبو الوليد في الحجاز والعراق والشام والموصل ومصر هم أعلام زمانهم، ورؤساء المذاهب الفقهية والعقدية ممن تُشَدُّ للاجتماع والتلقي عنهم الرحال، ويُسافِرُ لهم الرجال.

وكان مُقَامُ أبي الوليد بالمشرق طويلاً، إذ بلغ نحو ثلاثة عشر عاماً، فلا غرابة أن يعود بعلم غزير، ومَقَامٍ رفيع شهد له به من تَلقَّى عنهم، واجتمع بهم.

وبعد أن نال أبو الوليد بُغيته، وقد طال شوقه إلى ملاقاة أهله ووطنه، قَفَلَ راجعاً إلى **الأندلس**، حيث تنتظره مهام كبيرة، وبِدَعٌ كثيرة سيسعى إلى إماتتها، وإسكات مروجيها بحجج قوية مقنعة، وعلم غزير يجمع إلى النقل العقل.

ولم يشأ أبو الوليد أن يتوجَّه إلى مقام الصدارة والرئاسة في **الأندلس**،

وهو بها جدير، وهو الذي أجَّر نفسه ببغداد مدة مُقامِه فيها لحراسة درب كان يستعين بأجرته على نفقته، ولم يشأ أن يطلب الرئاسة، بل على العكس، رغب عنها، وفَضَّل سعيها إليه ما دام أهلاً لها، وهي عزة نفس، وهمّة عالية، وصيانة للعلم، وتعظيم له، عملاً بقول من قال:

ولو أنَّ أهلَ العِلمِ صَانُوهُ صانَهُمْ ... ولو عَظَّمُوهُ في النُّفُوسِ لَعُظِّما

ولم تُقبل الدنيا بسرعة على أبي الوليد، فتولى في أول وروده إلى الأندلس ضرب أوراق الذهب، وعقد الوثائق، وقيل: إنه كان يخرج للإقراء وفي يده أثر المطرقة إلى أن انتشر علمه، واشتهرت تآليفه، وعُرِفَ قدره، فاتسعت حاله، وكثر ماله، واستعمله الرؤساء للوساطة والسفارة فيما بينهم، ونال لأجل ذلك أقصى التكريم والتبجيل.

تفرَّغ أبو الوليد للتعليم والإقراء، فأقبل عليه خلق كثير، واستفاد منه عدد كبير، وذاع صيته وشهرته بين الناس، فصارت حلقته محط رحالهم، وحاز الرئاسة العلمية بالأندلس على حد تعبير القاضي عياض.

ومن أبرز من تلقى عنه وتفقه على يديه: أبو بكر الطرطوشي، والقاضي ابن شيرين، وسمع منه القاضيان الحافظان: أبو علي الجيَّاني، والصدفي، والقاضي أبو القاسم المعافري، والسبتي، وابن أبي جعفر المرصي، وغيرهم.

وهؤلاء الذين ذكرناهم من تلاميذ أبي الوليد يشهدون بسعة علمه وأفقه، فإذا كانت شهرتهم قد طارت، وصيتهم قد ذاع، فإن لأستاذهم

أبي الوليد اليد الطولى في ذلك.

إن الشهادة تكون أصدق وأقرب إلى الواقع عندما تصدر عن الزملاء والخصوم والمنافسين، فلا غرابة أن تجتمع كلمة هؤلاء على الشهادة لأبي الوليد بالرئاسة العلمية.

فهذا القاضي أبو علي بن سكرة، كما أورد ذلك ابن بشكوال في كتاب الصلة، يقول: ما رأيت مثله على سمته وهيبته وتوقير مجلسه وهو أحد أئمة المسلمين.

وقال أبو محمد بن حزم: لم يكن لأصحاب المذهب المالكي به القاضي بعد الوهاب مثل أبي الوليد.

ويذكر أن الباجي لما عاد إلى الأندلس، وولي القضاء في عدة مدن، كان له دور كبير في دعوة ملوك الطوائف إلى الاتحاد ونبذ الفرقة، وكان المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس من أكبر المناصرين للباجي في هذه المسألة.

ويقول المِقري: ولما قدم الباجي من المشرق إلى الأندلس بعد ثلاثة عشر عاماً وجد ملوك الطوائف أحزاباً متفرقة، فمشى بينهم في الصلح، وهم يُجِلُّونه في الظاهر، ويستثقلونه في الباطن، ويستبردون نزعته، ولم يفد شيئاً، فالله تعالى يجازيه عن نيته.

ولا شك أن من كانت هذه شهرته العلمية، ومكانته الاجتماعية في تغيير بعض الأوضاع، وإماتة بعض الدعوات، والانتصار على أصحابها، ثم

الاستقلال بآراء اجتهادية تثير ضعاف العقول، ثم الانتصار عليهم، فإن من كان له هذا التأثير في محيطه سيترك آثاراً خالدة وتآليفاً عميقة لن تكون من قبيل المكرر المُعاد، فلا غرابة إذا تعددت مؤلفات الباجي وتنوعت، فشملت أغلب فنون المعرفة، ولا عجب إذا كانت من المختصر والمطول، ولم تقتصر كتبه على فن دون آخر...

وأهم ما كتبه:

كتاب الاستيفاء في شرح الموطأ: وهو كتاب فيه علم غزير، وكتاب المنتقى في شرح الموطأ: وهو اختصار الاستيفاء، وكتاب السراج في علم الحجاج ، وكتاب مسائل الخلاف (لم يكمله)، وكتاب المقتبس من علم مالك بن أنس، وكتاب المهذب في اختصار المدونة الكبرى، وكتاب شرح المدونة، وكتاب اختلاف الموطأ، وكتاب مختصر المختصر في مسائل المدونة، وكتاب أحكام الفصول في أحكام الأصول، وكتاب الحدود في أصول الفقه، وكتاب الإشارة في أصول الفقه، وكتاب تبيين المنهاج، وكتاب التشديد إلى معرفة طريق التوحيد، وكتاب تفسير القرآن (لم يكمله) وكتاب فرق الفرق، وكتاب الناسخ والمنسوخ (لم يكمله) وكتاب السنن في الوثائق والزهد والوعظ، وكتاب التعديل لمن خرج له البخاري في الصحيح، وكتاب مسح الرأس، وكتاب في غسل الرجلين، وكتاب النصيحة لولديه، ورسالته المسماة تحقيق المذهب، وله غير ذلك .

إن هذه العناوين المختلفة والعديدة تبرهن على سعة الباجي، وغوصه

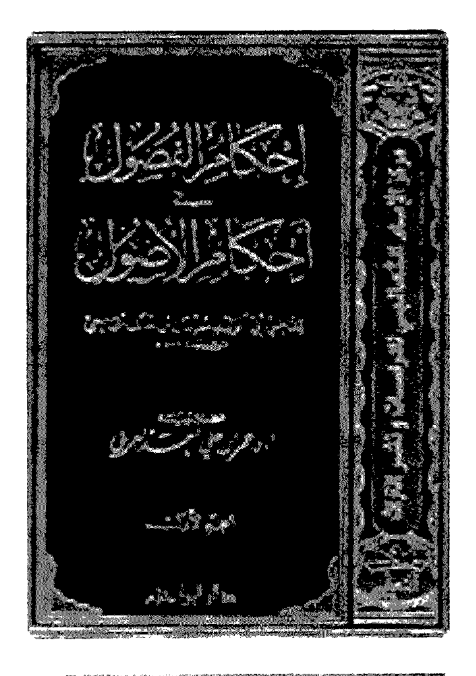
في المسائل الدقيقة غوص من لا يهاب الغرق، كما تبين التزام صاحبها الشديد بمذهبه المالكي التزاماً وتمسكاً من غير تحجر أو تعصب، يتجلَّى ذلك في خدمته للكتاب الأول للمذهب وهو الموطأ، وشروحه الثلاثة: المطوَّل وهو الاستيفاء، والمتوسط وهو المنتقى، والمختصر وهو الإيماء، وكتاب اختلاف الموطأ وعنايته بالمدونة شرحاً واختصاراً.

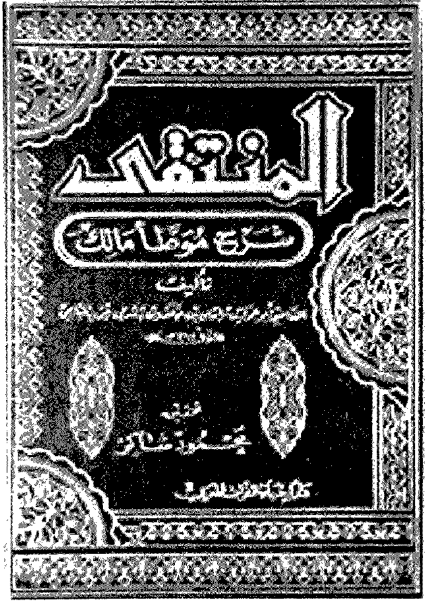
يقول القاضي أبو علي الصدفي: ما رأيت مثل أبي الوليد الباجي، وما رأيت أحداً على سمته وهيئته وتوقير مجلسه.

ويقول ابن ماكولا في الإكمال: أما الباجي ذو الوزارتين، ففقيه متكلم، أديب شاعر... إلى أن قال: وكان جليلاً رفيع القدر .

وتوفِّي الباجي قبل أن يشهد سقوط طُلَيْطِلَة على يد ملك قشتالة سنة 478هـ، ثم استنجاد ملوك الطوائف، وعلى رأسهم المعتمد بن عَبَّاد صاحب إشبيليا بيوسف بن تاشَفِيْن أمير المرابطين في المغرب الأقصى، وحدوث معركة الزلاقة سنة 479هـ، وانتصار المسلمين انتصاراً ساحقاً على القشتاليين.

وتوفي رحمه الله وهو في سن الواحدة والسبعين، وقد كانت وفاته سنة 474هـ1081م، فكانت حياته مليئة بالأعمال المجيدة، والآثار الخالدة، وبقي ذكره لا يُنسى لما قدمه لدينه وأمته من أعمال جليلة ستكون له بين يدي الله شفيعاً........


إحكام الفصول
في
أحكام الأصول


المنتقى
شرح موطأ مالك
تأليف

عصر ملوك الطوائف

صاحب إشبيلية المعتمد محمد بن عَبَّاد

1039-1095م

فيما مَضى كُنتَ بِالأَعيادِ مَسرورا　　فَساءَكَ العيدُ في أَغماتَ مَأسورا
تَرى بَناتكَ في الأَطمارِ جائِعَةً　　يَغزِلنَ لِلناسِ ما يَملِكنَ قِطميراً
بَرَزنَ نَحوَكَ لِلتَسليمِ خاشِعَةً　　أَبصارُهُنَّ حَسيراتٍ مَكاسيرا
يَطأنَ في الطينِ وَالأَقدامُ حافِيَةٌ　　كَأَنَّها لَم تَطأ مِسكاً وَكافورا

يبكي ابن عباد حياته التي عاشها في حكم إشبيلية، يبكي المجدَ الذي كان المسلمون يتمتعون به في ربوع الأندلس، ويرثي حضارةً قامت في عهد أجداده، حتى جعل من إشبيلية وما حولها مقصدا للعلماء من شتى الأطياف ومسكناً لطلبة العلم من كل بقاع الدنيا....

أبو القاسم المعتمد على الله محمد بن المعتضد بالله عَبَّاد بن الظافر محمد بن إسماعيل بن قريش بن عَبَّاد بن عمرو بن أسلم بن عمرو بن عطاف بن نعيم اللخمي الإشبيلي الأندلسي، أعظم ملوك الطوائف في الأندلس، يعود نسبه إلى النعمان بن المنذر اللخمي ملك الحيرة في العراق قبل الإسلام، وأول من دخل الأندلس من أجداده نعيم وابنه عطاف، قدما من العريش في مصر، وأقاما في قرية «طشانه» من قرى

إشبيليا، وأول من نَبَغَ من هذه الأسرة جده محمد بن إسماعيل الذي تولى القضاء في إشبيليا، وأحسن السياسة مع الرعية، فأحبته، وكان من أهل العلم والأدب والمعرفة التامة بتدبير أمور الدول، ولد في مدينة بابجة غرب الأندلس سنة 431هـ 1039م.

ولما انهارت دعائم الخلافة الأموية في قُرْطُبَة، وأخذت مدن الأندلس في الاستقلال عن مركز الخلافة، بايع أهل إشبيليا القاضي محمد بن إسماعيل ملكاً عليهم سنة 414هـ، واستمر إلى أن توفي سنة 434هـ، وفي عهده سقطت الخلافة الأموية في قُرْطُبَة سنة 422هـ، واستولى على قُرْطُبَة بنو جهور، وأصبحت الأندلس ممالك متفرقة ومتناحرة، وقد عُرف هذا العهد بعهد ملوك الطوائف كما ذكرت سابقاً، وهم الذين كانوا في شِقاق مستمر، يُقاتِلون بعضهم بعضاً، وينتزع القوي منهم أملاك الضعيف، ويُحالفون النصارى بعضهم على بعض، وكان الأمراء النصارى يرحِّبُون بهذه الفرص للتفريق بين أمراء المسلمين، وإضعاف شوكتهم، ثم إخضاعهم وانتزاع أراضيهم تباعاً، وكانت دولة بني عَبَّاد في إشبيليا أقوى هذه الدول وأعظمها شأناً.

خلف القاضيَ محمد بن إسماعيل في منصبه ابنُه أبو عمرو عَبَّاد، وتلقَّب بالمعتضد بالله، وكان عَبَّاد من شجعان الملوك وطغاتهم، دخل في حروب طاحنة مع جيرانه من أمراء غرناطة ومالقة وقُرْطُبَة والإمارات الغربية، وانتهت باستيلائه على قُرْطُبَة وقرمونة وأستجة ومورور ورندة وما حولها من الأراضي، وتوفي المعتضد سنة 461هـ،

وخلفه ابنه محمد، ولُقِّب بالمعتمد على الله، والظافر بحول الله.

وُلِدَ أبو القاسم محمد المعتمد على الله في مدينة باجة سنة 431هـ، وتولّى المُلك بعد وفاة والده سنة 461هـ، حيث كان في الثلاثين من عمره، وقد ورث المعتمد مملكة قوية، وتُعدُّ من أقوى دول الطوائف في الأندلس، وقد اشتهر المعتمد بصفاته الباهرة من النباهة والشجاعة والفروسية والجود والبذخ والكرم، كما اشتهر برفيع أدبه، وروائع نظمه، وفي عهده سطعت مملكة إشبيليا، وكادت أن تُعيد ببهائها وفخامة بلاطها مجد قُرْطُبَة الذاهب.

وكان المعتمد يجمع حوله عدداً من الوزراء ،وألمع كُتَّاب ذلك العصر وشعرائه، كأبي بكر بن عمار، وأبي الوليد بن زيدون، وأبي بكر بن اللبانة، وابن حمديس الصقلي، وقد وصفه ابن القطاع السعدي فقال: كان أندى الملوك راحة، وأرحبهم ساحة، وأرفعهم عماداً، لذلك كانت حَضرته ملقى الرحال، وموسم الشعراء، وقبلة الآمال، ومألف الفضلاء، حتى إنه لم يجتمع بباب أحد من ملوك عصره من أعيان الشعراء وأفاضل الأدباء ما كان يجتمع ببابه.

وقد كانت قصور بني عَبَّاد في إشبيليا نموذجاً للروعة والفن الرفيع، وبالمجمل فقد بلغت مملكة إشبيليا في عهده ذروة القوة والفخامة والمجد، إلا أن هذا المجد كان يكدره كثرة الحروب والتناحر بين ملوك الطوائف، وكان المعتمد على الرغم من ذكائه وفطنته، يرى نفسه مضطراً إلى سلوك نفس المنحدر الخطر الذي سلكه جده وأبوه من قبل في سبيل

السيادة والملك، ولم يرَ بأساً في سبيل تحقيق أطماعه، وذلك بتعاونه مع ملك قشتالة الإسباني ضد إخوانه المسلمين، وأن يدفع له الجزية، وكان ملك قشتالة يومئذٍ يُدعى «**ألفونسو السادس**»، وكان ملكاً وافر العزم والدهاء، وكان يعمل بكل وسعه لضرب المسلمين ببعضهم وتفريقهم، ولا يبخل على حلفائه منهم بعونه وتأييده.

وكان المعتمد بن عَبَّاد يرى في بني ذي النون أمراء طُلَيْطِلَة أشد أعدائه، خصوصاً بعد أن تملك بنو ذي النون قُرْطُبَة، وقتلوا بها عمرو بن المعتمد بن عَبَّاد، وقد عاد المعتمد واستردها بعد حروب كثيرة، وقد أرسل المعتمد وزيره ابن عمار سفيراً إلى ألفونسو السادس لعقد حلفٍ معه ضد أمراء ذي النون، وكان بنو ذي النون حلفاء لملك قشتالة، إلا أن ملك قشتالة كان له طمع في مملكتهم المتداعية في طُلَيْطِلَة، وكان يخشى غزوها خوفاً من ابن عَبَّاد، فكانت المعاهدة السرية التي عقدها ابن عمار مع ألفونسو تنص على أن يتعهد ألفونسو بمعاونة المعتمد على خصومه من المسلمين والنصارى، وتعهَّد المعتمد من جانبه بأن يترك ألفونسو حراً في محاربة طُلَيْطِلَة والاستيلاء عليها، وأن يؤدِّي له جزية الخضوع، وتم لملك قشتالة ما أراد، ففي سنة 478هـ استولى على طُلَيْطِلَة، وأنهى حكم بني ذي النون فيها، وتكون بذلك فقدت الأندلس أحد أبرز معاقلها الإسلامية في الشمال، وأدرك المعتمد بعد ذلك سوء تصرفه، وفداحة الخطأ الذي ارتكبه، وذلك بأن حليفه ألفونسو ما كاد ينتهي من طُلَيْطِلَة حتى بعث إلى المعتمد يطالبه بتسليم بعض الأراضي والحصون التي كانت تحت حكمه بحجة أنها

تابعة لطُلَيْطِلَة، حيث أرسل يقول له: تنزل عن الحصون التي بيدك ويكون لك السهل، فضرب المُعتمِد رسول ألفونسو، وقتل من كان معه، وبلغ الخبر ألفونسو، وكان متوجهاً لحصار قُرْطُبَة، فرجع إلى طُلَيْطِلَة، وثار الخلاف بين الحليفين.

وتوعد ألفونسو المُعتمِد بِشَرِّ العواقب، وشعر المعتمد بالخطر الذي يتهدده من حليفه القديم، وشعر أمراء الأندلس جميعاً بأن ملك قشتالة سوف يجتاح مدنهم وأراضيهم كلها، إذا لم يبادروا للاتحاد والتضافر على مواجهة الخطر المحدق بهم، واجتمعت كلمتهم على توحيد القوى والخطط، لكنهم رأوا أن قوتهم المضعضعة لا تكفي لدرء الخطر، وانتهوا بالبحث والتشاور على وجوب الالتجاء إلى إخوانهم في المغرب، وكانت المغرب يحكمها المرابطون، ودولتهم فيها قوية مرهوبة الجانب، وكان أميرهم أبو يعقوب يوسف بن تاشَفِيْن من كبار الملوك وخيارهم في ذلك العصر، ويلقب بأمير المسلمين.

وبعد التواصل مع دولة المرابطين استجاب يوسف بن تاشَفِيْن لنداء ملوك الطوائف، وعبر إليهم في جيش ضخم، وسارت الجيوش الإسلامية المتحدة لحرب ألفونسو، والتقى الفريقان في سهل الزلاقة قرب مدينة بطليوس، وأبلت الجيوش المرابطية والأندلسية بلاءً كبيراً، وأبلى المعتمد في هذا اليوم المشهود بلاءً حسناً، وشهد له به فيما بعد الأمير يوسف بن تاشَفِيْن في رسالته عن هذه الواقعة، وكانت هذه المعركة في شهر رمضان سنة 479هـ، انتهت بهزيمة ألفونسو وجيوشه

من النصارى هزيمة كبيرة، وتحطمت فيها قوة إسبانيا النصرانية، وانقشع الخطر الداهم عن الأندلس، واستمدت حياة جديدة.

وبعد ذلك عاد يوسف بن تاشَفِيْن إلى المغرب، وعاد المعتمد إلى ملكه في إشبيليا وباقي ملوك الطوائف إلى ممالكهم، وكان أمير المسلمين يوسف بن تاشَفِيْن قد عزم على إنهاء هذه التفرقة في الأندلس، وكره ما كان عليه ملوكها من الترف والبذخ والتناحر والاستعانة بالنصارى على بعضهم، فعبر سنة 484هـ إلى الأندلس بجيوش كثيرة، وأصدر أوامره بالاستيلاء على مدنها وقواعدها، فبدأ بغرناطة واستولى عليها وأرسل أميرها سجيناً إلى أغمات، ثم أرسل قائده سير بن أبي بكر لحصار إشبيليا وانتزاعها من يد المعتمد، وأدرك المعتمد أنه سوف يخوض معركة حياة أو موت مع المرابطين، فامتنع بإشبيليا، واستعد داخلها للدفاع عنها لما شهده من تفوق المرابطين عليه بالأهبة والعدد..

شدد المرابطون الحصار على إشبيليا، وفي هذه الأثناء سقطت قُرْطُبَة بيدهم، وقتل فيها الفتح بن المعتمد بعد أن دافع عنها، ثم سقطت رندة، وقتل بها ولده الآخر يزيد الراضي، وشعر المعتمد بأن الأمل يغيض في نفسه شيئاً فشيئاً، لكنه استمر في مقاومته حتى دخل المرابطون إشبيليا عنوة، فاستقبلهم المعتمد مع خاصته على باب قصره يدافع عن مُلكِه حتى اللحظة الأخيرة، ولكن هذه البسالة النادرة لم تغنِ عنه شيئاً، فاستولى المرابطون على المدينة، وأَسَرُوا المعتمد وأهله، وسيطروا على قصره وماله ومتاعه، وهكذا سقطت مملكة بني عَبَّاد

كلمح البصر بعد أن لمع نجمها في سماء الأندلس حيناً من الزمن، وقد وصف دفاع المعتمد وصموده يوم اقتحام إشبيليا صديقه وشاعره ابن اللبانة فقال: ودخل البلد من جهة واديه، وأصيب حاضره بعادية باديه، بعد أن ظهر من دفاع المعتمد وبأسه وترامية على الموت بنفسه ما لا مزيد عليه، ولا انتهى خلق إليه.

وبعد أسر المعتمد، قرر يوسف بن تاشَفِيْن الإبقاء على حياته، ونفيه إلى المغرب، وسِيقَ المعتمد وأهله من قصر إشبيليا الفاخر، وحُمِلوا على سفن أُعدَّت لنقلهم إلى المنفى، وسارت السفن من إشبيليا في نهر الوادي الكبير في طريقها إلى المغرب، وفي الطريق احتشدت جموع الناس على ضفتي النهر تودع المعتمد وأهله بالبكاء والنواح، حينما شهدت سيدها وراعيها بالأمس مع أهله رهين الأسر والذل.

وأُنزِل المعتمد وأسرته أولاً بطنجة حيث اعتقلوا بها أياماً، ثم أُخِذوا بعد ذلك إلى مكناسة، فأقاموا بها أشهراً، ثم قرر يوسف بن تاشَفِيْن تسييرهم إلى أغمات (وهي مدينة صغيرة تقع قرب مراكش عاصمة المرابطين)، وكانت قد اختيرت لتكون منفى للأمراء الأندلسيين، وحل المعتمد وأهله في أغمات أواخر سنة 484هـ، وزُجُّوا إلى قلعتها المنيعة، وهناك قضى أعواماً يعاني في أغلال الأسر، ويتجرَّع غصص المهانة والذل.

ولم يكن مقام المعتمد بأغمات معتقلاً عادياً، بل كان سجناً شنيعاً بكل معنى الكلمة، ضُيِّقَ فيه على المعتمد وآله أشد تضييق، ولم يكن يطلق إليهم ما يكفيهم من النفقة، فكان المعتمد وزوجته اعتماد الرميكية

التي كانت تسطع في الأندلس بجمالها وخلالها البارعة، وأبناؤه الأمراء، وبناته الأقمار، يرتدون الثياب والأطمار الخشنة، وكانت بنات المعتمد يشتغلن بالغزل ليعلن والدهن وأُسرَتهن.

واشتدت وطأة الأسر على اعتماد زوجة المعتمد، ولم تقوَ طويلاً على المحنة، فتوفيت، ودفنت في أغمات قرب معتقل زوجها، وحزن عليها المعتمد حزناً شديداً، ورثاها بكثير من الأشعار، وفي أواخر أيامه ضَيَّقَ عليه يوسف أشد تضييق، وأمر بتصفيده بسبب ثورة قام بها ولده عبد الجبار في حصن أركش من حصون إشبيليا الجنوبية، وكان ممن أفلت عند سقوطها.

وفي شهر شوال سنة 488هـ 1095م توفّي المعتمد في سجنه بأغمات بعد أسرٍ دام تقريباً أربعة أعوام، وعمره سبعاً وخمسون سنة، ودُفِنَ قرب زوجته اعتماد، وهكذا اختتم المعتمد حياته الباهرة في غمر المحنة وظلمات العدم، وتفرَّق من بعده ولده وآله في مختلف أنحاء البلاد، ورثاه شعراء كثيرون، ولبثت ذكراه طويلاً حية في المغرب والأندلس، وبعد وفاته بقليل وفد على أغمات أبو بحر بن عبد الصمد، وهو من شعراء دولته، فوقف عند قبره، وخر أمامه باكياً، وغمره بقبلاته، وأنشد بين الجماهير التي احتشدت حوله مرثية عظيمة في المعتمد بن عَبَّاد.

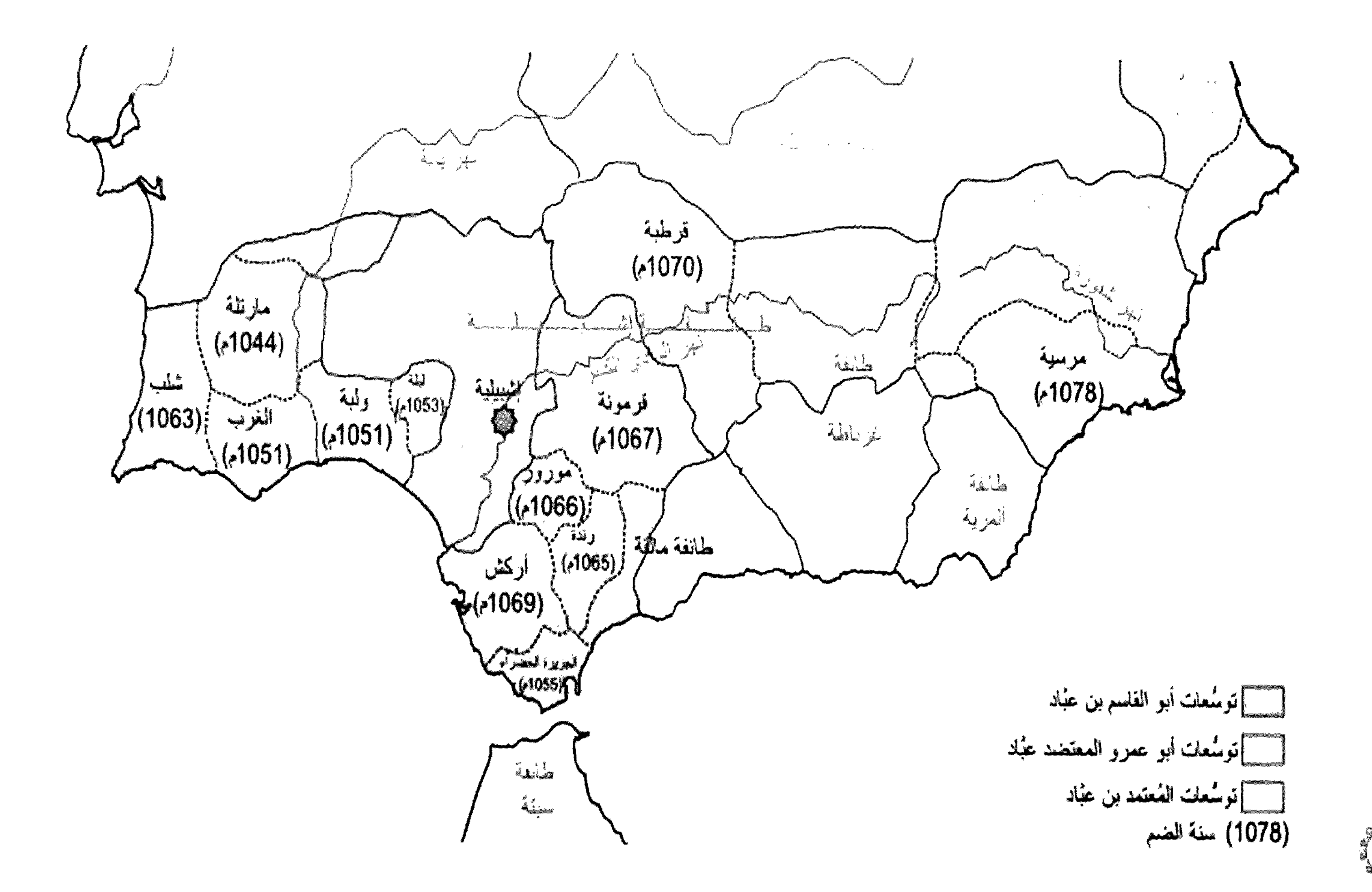
وعندما سقطت دولة المرابطين بعد ذلك بنحو أربعين عاماً غدا قبر المعتمد بن عَبَّاد وقبر زوجته في أغمات مزاراً يقصده الوافدون من أنحاء المغرب والأندلس، واستمر كذلك عصوراً.

يقـول الدكتـور عبـد الله عنـان: كانـت خاتمـة المعتمـد بـن عَبَّاد مأسـاة مـن أروع المـآسي الملوكيـة، ومـا زالـت مِحنَـة هـذا الأمـير الشـاعر تحتفـظ إلى يومنا عـلى الرغـم مـن كـر العصـور بألوانهـا المشـجية، (أي المؤثـرة)، وقـد أثـارت عطـف الروايـة الإسـلامية وتأثرهـا البالـغ، إلى أن قـال: ومنهـا مـا يشـدد الحملـة عـلى يوسـف بـن تاشَـفِيْن، ويصفـه بأقسـى الصفـات، فيقـول لنـا ابـن الأثـير مثـلاً في التعليـق عـلى أَسْرِ بنـي عَبَّـاد واعتقالهـم: وفعـل أمـير المسـلمين بهـم فعـالاً لم يسـلكها أحـد مـن قبلـه، ولا يفعلهـا أحـد يـأتي بعـده، إلا مـن رضى لنفسـه بهـذه الرذيلـة... وأبـان (أي اظهـر) أمـير المسـلمين بهـذا الفعـل عـن صغـر نفسـه، ولـؤم قـدره، ولقـد كان عقـاب يوسـف بـن تاشَـفِيْن للمعتمـد بـن عَبَّـاد عقابـاً قاسـياً، فابـن عَبَّـاد بتحالفـه مـع النصـارى، وتعريضـه مسـتقبل الأندلـس كلهـا للخطـر يسـتحق أعظـم لـوم، إلا أنـه حينـما اسـتفحل الخطـب، وظهـر شـبح الخطـر عـلى الإسـلام كان هـو أول الداعـين إلى الوحـدة، وإلى طلـب الغـوث مـن المرابطـين، وقـد أبـلى بـلاءً عظيـماً في معركـة الزلاقـة، وعـاون في نيـل النـصر أعظـم معاونـة.

رحمه الله وغفرله انه على كل شيء قدير...



عملة متداولة في عهد المعتمد


قرطبة
(1070م)
مارتلة
(1044م)
شلب
(1063)
الغرب
(1051م)
ولبة
(1051م)
لبلة
(1053م)
إشبيلية
قرمونة
(1067م)
مورور
(1066م)
رندة
(1065م)
أركش
(1069م)
الجزيرة الخضراء
(1055م)
طائفة مالقة
غرناطة
طائفة المرية
مرسية
(1078م)
طائفة سبتة
توسُعات أبو القاسم بن عبّاد
توسُعات أبو عمرو المعتضد عبّاد
توسُعات المُعتمد بن عبّاد
(1078) سنة الضم

عصر ملوك الطوائف

الحافظ الحميدي

1029- 1095م

كـتـاب الله عـز وجـل قـولـي | ومـا صحت بـه الآثار ديـني
ومـا اتـفـق الجميع عليه بـدءاً | وعـوداً فـهو عـن حـق مـبين
فدع ما صد عن هذي وخذها | تـكـن مـنها على عـين الـيقين

لم يكـن يسـعى صنديدنـا هـذا إلا للحفـاظ عـلى الأصـول والقواعـد التـي وردت في القـرآن الكريـم، ومـا جـاء في السنة النبويـة المطهـرة، فهـو مجتهـد، والمجتهـد إذا أخطـأ فلـه أجـر وإن أصـاب فلـه أجـران، وكـما يقـول المثـل «لـكل **مجتهـد نصيـب**»، فلعلنـا نوفـق في ذكـر الحقيقـة التـي وردت عـن عـالم الأندلـس وصاحـب ابـن حـزم وتلميـذه الإمـام الحافـظ شـيخ المؤرخـين أبـا عبـد الله الحميـدي ...

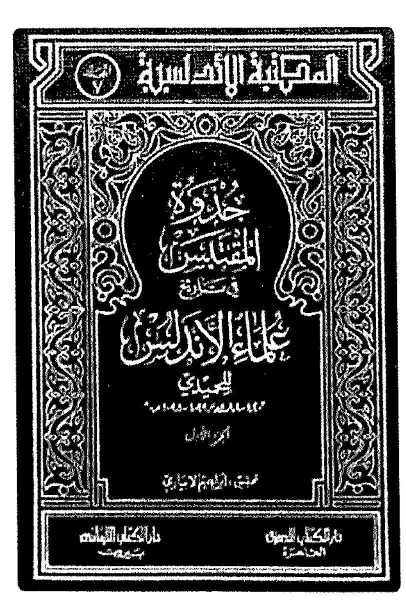
الإمـام أبـو عبـد الله محمـد بـن أبي نـصر فتـوح بـن عبـد الله بـن فتـوح بـن حميـد بـن يصـل الأزدي الحميـدي **الأندلسـي** الميورقـي ، الحافـظ المتقـن ، وشـيخ محدثـين **الأندلـس** والمغـرب في زمانـه ، مولـده في جزيـرة ميورقـة (تقـع شرق **الأندلـس** في البحـر المتوسـط) سـنة 420هـ-1029م، ويقـول هـو : أصـل أبي مـن قرطبـة مـن محلـة تعـرف بالرصافـة ، فتحـول وسـكن جزيـرة ميورقـة ، فولـدت بهـا ، وسـمع العلـم في صغـره ، وكان يقـول : كنـت أُحمـل

للسماع على الكتف ، وذلك في سنة 425، فأول ما سمعت من الفقيه أصبغ بن راشد ، وكنت أفهم ما يقرأ عليه .

لازم الحافظ الحميدي في شبابه الإمام ابن حزم الظاهري ، فكان من كبار تلامذته وأتباعه ، وكان متعصباً له ، ويميل إلى قوله ، ولما ضيق على ابن حزم وشدد عليه ، رحل الحميدي إلى المشرق ، وكانت بداية رحلته سنة 448هـ ، فأقام بمصر مدة ، أخذ فيها القاضي القضاعي وغيره ، ثم ارتحل إلى دمشق ، وأخذ عن عدد من علمائها ، وقصد مكة ، وأخذ فيها عن المحدثة الفاضلة كريمة المروزية ، وأخيراً أقام في بغداد واستقر فيها ، فكان من نوابغ علمائها في الحديث والفقه والأدب، وعُدّ من أصحاب الحديث علماً وعملاً وعقداً وانقياداً ، وكان من اجتهاده أنه كان ينسخ بالليل في الجو الحر ، فيجلس في إجانة (إناء يغسل فيه الثياب) في ماء يتبرد به .

و يقول الأمير أبو نصر ابن ماكولا : لم أر مثل صديقنا أبي عبد الله الحميدي في نزاهته وعفته وورعه ، وتشاغله بالعلم ،ولقد كان الحميدي غزير العلم ، حريصاً على نشره ، ورعاً تقياً ، زاهداً متقشفاً ، إماماً في الحديث وعلله ورواته ، متحققاً بعلم التحقيق والأصول على مذهب أصحاب الحديث بموافقة الكتاب والسنة ، فصيح العبارة ، متبحراً في علم الأدب والعربية والترسل، وقد سئل الحافظ أبو طاهر السلفي عن الحميدي فقال : لا يرى مثله قط ، وعن مثله لا يسأل ، جمع بين الفقه والحديث والأدب ، ورأى علماء الأندلس ، وكان حافظاً .

ترك الحميدي عدد من المؤلفات منها : « **جمل تاريخ الإسلام**» و **الذهب المسبوك في وعظ الملوك** » و « **كتاب الترسل** » و « **جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس**» و كتاب « **مخاطبة الأصدقاء**» وكتاب «**حفظ الجار**» و كتاب « **ذم النميمة**» و « **نوادر الأطباء**» و«**تفسير غريب ما في الصحيحين**» و « **الجمع بين الصحيحين**» وهو الكتاب الذي اشتغل به حتى وفاته ، وله شعر رصين في المواعظ والأمثال، وكانت وفاته رحمه الله تعالى في بغداد بعيداً عن وطنه سنة 488هـ 1095م، وصلى عليه الإمام أبو بكر الشاشي و دفن عند باب أبرز ، ثم إنهم نقلوه بعد سنتين إلى باب حرب ، حيث دفن عند الزاهد بشر الحافي ، ويقول الحافظ ابن عساكر : كان الحميدي قد أوصى إلى مظفر بن رئيس الرؤساء أن يدفنه عند بشر ، فخالف ، فرآه بعد مدة في النوم يعاتبه ، فنقله في صفر سنة إحدى وتسعين ، وكان كفنه جديداً ، وبدنه طرياً ، يفوح منه رائحة الطيب .





عصر ملوك الطوائف

عالم الفلك أبو إسحاق الزرقالي

1029م -1087م

ليت الغرب عندما يفخر في الحداثة التي يستخدمها بالفساد اليوم يرجع بعداد الزمن قليلاً إلى الوراء ليرى من خلف تلك الكواليس التي صنعت واكتشفت ما عجزت عنه أوربا بقرون، ليتهم ينصفونا ويفصحون بالحقيقة التي طال خفائها وحان وقت كشفها، لنتعرف بتلك السطور على عالمٍ ومخترعٍ استطاع منذ قرون قياس طول البحر الأبيض المتوسط قياساً دقيقاً وصحح البيانات الجغرافية لكبار العلماء منهم «**بطليموس والخوارزمي**» وحسب مسار ميل أوج الشمس بالنسبة للنجوم الثابتة فأجاد وأبدع، هو ذلك العالم الجهبذ الفريد هو أبو إسحاق الزرقالي.

أبو إسحاق إبراهيم بن يحيى النقّاش التجيبي الزرقالي، المعروف بالزرقالي، أو ابن الزرقالي، وهو منجّم وصانع أدواتٍ، وواحدٌ من أبرز فلكيي عصره، ومرجعاً فريداً في الجبر.

وعلى الرغم من أن اسمه المتداول هو الزرقالي، إلّا أنه من المرجح أن يكون اسمه مشتقّاً من الكلمة اللاتينيّة التي تعني النقّاش.

والرزقالي هو عالمٌ عربيٌّ مسلمٌ، وُلد في طُلَيْطِلَة في الأندلس، حيث قام

هناك بأغلب عمليّات الرصد الفلكيّة، ثم انتقل الى قُرْطُبَة في وقتٍ لاحق، وأمضى ما تبقّى من حياته فيها.

وألهمت أعماله وأدواته العديد من علماء الفلك المسلمين في الأندلس، وقد سميت حفرة موجودة على القمر باسمه تكريماً له.

وُلد الزرقالي عام 420هـ1029م في مدينة طُلَيْطِلَة في **الأندلس**، حيث تلقّى تعليمه، وقام بأغلب أرصاده فيها، وكان إلى جوار دراسته يعمل نقاشاً، لذا عرف بالنقاش.

يقول ابن الأبار: كان وحيد عصره في علم العدّ والرصد وعلل الأزياج، ولم تأت **الأندلس** بمثله من حين فتحها المسلمون إلى وقتنا هذا، وتأتي شهرة الزرقالي من أعماله الرائدة في الجغرافية الفلكية، فهو أول من قاس طول البحر الأبيض المتوسط قياساً دقيقاً، حيث أعطى اثنتين وأربعين درجة، وهو رقم قريب جداً من قيم القياسات الحديثة، كما كان أول من أثبت أن رحلة ميل أوج الشمس هي (12,04) ثانية بالنسبة للنجوم الثوابت، والرقم المعاصر هو (11،08)، وهو أول من قال بدوران الكواكب في مدارات بيضاوية.

أما عن اختراعه فقد ابتكر آلات فلكية جديدة وصفها في كتاب له يعرف باسم **(الصحفية الزرقالية)**، شرح فيه كيفية استعمال الإسطرلاب على منهاج جديد، والتحسينات التي أضافها إلى الإسطرلابات، وقد أهدى هذا الكتاب إلى المعتمد على الله محمد بن عَبَّاد صاحب

إشبيليا، كما قام بحساب مواقع النجوم، ووضعها في أزياج عرفت باسم الأزياج الطليطلية، وتشمل الأرصاد التي قام بها مع زملائه في طُلَيْطِلَة.

كما ألف رسالة في غاية الأهمية تحتوي على المعلومات الضرورية التي قدمت خدمة جليلة لعلماء العرب والمسلمين في ميدان الرصد، ولقد تُرجِمت هذه الرسالة إلى عدة لغات، كما اعتمد عليها علماء أوروبا في عصر نهضتهم في جميع أرصادهم الفلكية طوال قرنين من الزمان.

واخترع الزرقالي نوعاً جديداً من الإسطرلاب معروف باسم «**الصفيحة الزرقالية**»، وقد حظيت بأهمية كبيرة، وقد دخلت هذه الصفيحة إلى مجال علم الفلك تحت اسم «**الإسطرلاب الزرقالي**»، وفي القرن الخامس عشر نشر راجيومونتانوس مخطوطاً يبين فيه مجمل فوائدها.

وهو من الأوائل الذين أثبتوا حركة أوج الشمس بالنسبة للنجوم، ووجد أنها تصل إلى 12،04 دقيقة في السنة، والقيمة الحقيقية هي 11،8 د قيقة .

كما وضع الزرقالي جداول عن الكواكب، وهي المعروفة بالزيج الطليطلي، بناء على أرصاده التي قام بها في مدينة طُلَيْطِلَة من 1061 إلى 1080م، وصحَّح الزرقالي المعلومات الجغرافية لبطليموس والخوارزمي، فقد وجد أن طول البحر الأبيض المتوسط هو 42 درجة وليس 62 درجة كما قال بطليموس.

وتكمن فائدة الجداول الفلكية (**الأزياج**) أنها تسهل القيام بالأنشطة الأساسية في علم الفلك العملي: وهي التنجيم، وتحديد مواقيت الصلاة، واتجاه القبلة (اتجاه مكة من مكان ما)، ورؤية الهلال.

ويمكننا تصنيف محتوى أعمال الزرقالي في أربعة فئات، وهي: النظريات الفلكيّة، والجداول الفلكيّة، السحر، والأدوات الفلكيّة.

وفيما يلي أربعة أعمالٍ للزرقالي تعنى بالنظريات الفلكيّة....

بحث حول حركة النجوم الثابتة: كُتبَ قرابة عامي 1084/ 1085م، وما زال موجوداً حتّى الآن في اللغة العبرانيّة، ويضمّ دراسةً لثلاثة نماذج، في النموذج الثالث يصبح ازدياد قيمة المتغيرات مستقلّاً عن تأرجح ميل دائرة البروج.

عملٌ يلخّص خمسة وعشرين عاماً من الرصد الشمسي بعنوان «في **سنة الشمس**»، أو «**الرسالة الجامعة في الشمس**»، ومن المرجح أنّه كُتب بين عامي 1075-1080م، وما زال موجوداً حتى يومنا هذا في كلا اللغتين العربية واللاتينيّة.

وأثبت الزرقالي في عمله هذا أن ذروة الشمس لها حركتها الخاصة التي تبلغ درجة واحدة كل 279 سنة يوليانية (شرقية)، وابتكر نموذجاً شمسيّاً باختلافٍ مركزيٍّ متغير، وأصبح ذو أهميّةٍ كبيرة في المغرب وأوروبا اللاتينيّة حتى عصر نيكولاوس كوبرنيكوس، وأشار ابن باجة إلى وجود مرجعٍ غير مباشر لعملٍ نظريٍّ بعنوان: «مقالة في إبطال الطريق التي سلكها بطليموس في استخراج البعد الأبعد لعطارد».

وتلك الجداول الشمسيّة هي نتاج عمليات الرصد التي أجراها في طُلَيْطِلَة، والهدف الأساسيّ منها هو تسهيل حساب خطوط الطول الأرضيّة باستخدام مدار الأرض الذي حسبه البابليون...

ويوجد إشارةٌ في أعمال ابن القيّم إلى كتاباتٍ مفقودةٍ للزرقالي بعنوان «**بخطّ يده**» يصحح فيها النموذج القمري البطلمي حيث فهم ابن القيّم هذا التصحيح كنتيجةٍ لانزياح مركز متوسط الحركة القمريّة في خط الطول إلى نقطةٍ في خطٍ مستقيم يصل مركز الشمس مع الذروة الشمسيّة.

ومن أحد أعمال الزرقالي هو رزنامةٌ موجودةً باللغة العربيّة واللاتينيّة.

وقد حظيت أعماله باهتمام كبير لدى الغربيين، فتُرجِمت مؤلفاته إلى اللاتينية وغيرها من اللغات.

ومن كتبه «**العمل بالصفيحة الزيجية**»، و«**التدبير**» في الفلك، و«**المدخل إلى علم النجوم**»، و«**رسالة في طريقة استخدام الصفيحة المشتركة لجميع العروض**» في الفلك.

قال القفطي: أبصر أهل زمانه بأرصاد الكواكب، وهيئة الأفلاك، واستنباط الآلات النجومية.

وتقتصر أعمال الزرقالي في مجال السحر على بحثٍ عن الطلاسم السحرية بعنوان «**رسالة في حركة الكواكب السيّارة وتدبيره**»، حيث استخدم السحر لصنع الطلاسم، ويوجد له في هذا المجال اثنتان من

المخطوطات، وما تزالان محفوظتين باللغة العربيّة، وتحويان نسختين نصيتين مختلفتين، كما يوجد مخطوطةٌ ثالثة ملخّصة باللغة اللاتينيّة.

أمّا فيما يتعلّق بالأدوات الفلكيّة، فقد وُجد بحثان في آليّة إنشاء واستخدام الاكواتوريوم قرابة عامي 1080-1082م، وتختلف آلة الزرقالي تلك عن النموذج السابق الذي صممه العالم **الأندلسي** ابن السامح قرابة عامي 1025-1026م، بكونه أداةً مستقلّة تمثّل مدارات الكواكب وانتقالاتها على جانبيّ صفيحةٍ، بينما تستخدم صفيحةٌ أخرى لتدوير الكواكب.

ويوجد بحثان آخران عن نوعين من الأدوات الفلكيّة العالميّة، الأول هو بحثٌ من 100 فصل بعنوان «**الصفيحة المشتركة لجميع العروض**»، حول استخدم الصفيحة الزرقاليّة، والآخر مؤلف من 60 فصلاً يشرح فيه استخدام الصفيحة الشكازية، حيث استُبدل فيه الإسقاط الاستوائي الكروي بالإسقاط الطولي الطولي في مستوي سمت الانقلاب.

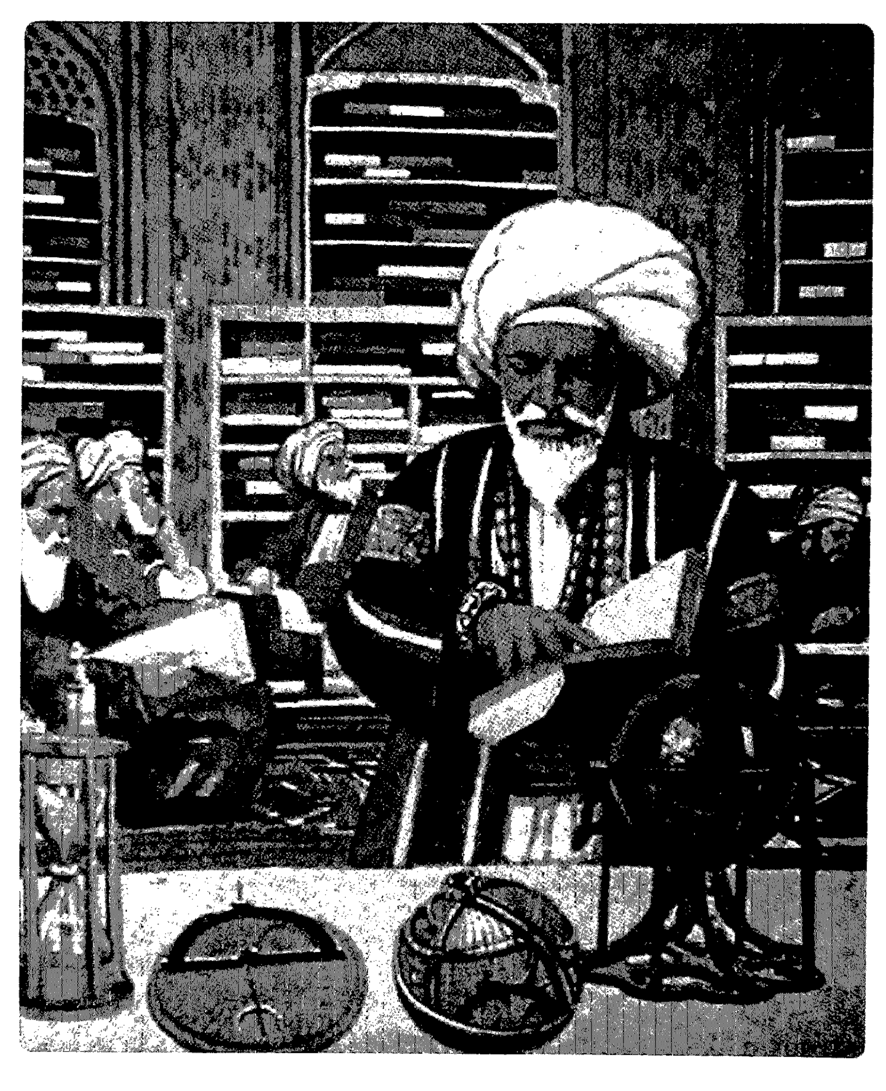
وكان لعلماء الفلك العرب تأثيرٌ كبيرٌ في الغرب، حيث درس الباحثون الغربيون أعمال الزرقالي بحرصٍ شديد.

وقام جيرار الكريموني بترجمة أعمال الزرقالي إلى اللغة اللاتينيّة في القرن الثاني عشر، كما قام راجيو مونتانوس في القرن الخامس عشر بتأليف كتابٍ عن فوائد الصفيحة الزرقاليّ.

وكان لمؤلفات الزرقالي أيضا تأثير كبير على الفلكيين الإسبان الذين وضعوا الزيج المعروف باسم جداول ألفونسو نسبةً إلى ألفونس ملك

قشتالة، وقاموا بترجمة جميع أعماله إلى اللغة المحلية القشتاليّة، وذلك بعد مئتي سنة على وفاة الزرقالي.

وتوفي الزرقالي عام 480هـ 1087م في إمارة إشبيلية، رحمه الله عوضه الله وجزاه الله كل خير .



رسم تخيلي لعالم الفلك والأدوات الفلكية

عصر المرابطين

* يوسف بن تاشفين
* ابن السيد البطليوسي
* عبد الله بن عياض
* عبد الحق بن عطية
* ابن بسام الشنتريني
* أبو بكر بن العربي
* عبد الملك ابن زهر
* محمد بن أسلم الغافقي

الأندلس في عصر المرابطين

مملكة نبرة	مملكة البرتغال
مملكة أرجون	الثغر الأعلى الأندلسي
قطلونية	دولة المرابطين والأندلس
مملكة قشتالة وليون	

مملكة الفرنجة

بحر الظلمات

بحر الروم

الجزائر الشرقية

المغرب الأقصى

البرتغال

قشتالة

ليون

أرجون

قطلونية

الغرب

المنشار

جبال الشارات

جبال المعدن

الزلاقة

برشلونة

طركونة

لاردة

سرقسطة

تطيلة

وشقة

بربشترو

قلعة أيوب

مدينة سالم

شقوبية

سلمنقة

طليطلة

وقش

طلبيرة

قونكة

اقليش

قسطليون

بلنسية

شاطبة

دانية

لقنت

أوريولة

مرسية

قرطاجنة

جيان

قرطبة

إشبيلية

غرناطة

المرية

مالقة

باجة

قمرية

قورية

ميورقة

منورقة

سبتة

تطوان

فاس

مليلة

وهران

عصر المرابطين

أمير المسلمين يوسف بن تاشَفِيْن

1009- 1106م

عندما يتربى الإنسان على حب الجهاد وعشق الرباط فلن يثنيه عن ذلك شيء، ولن تثبط همته وعزمه ظروف الحياة ومآسيها، فكيف بالمعتمد بن عَبَّاد وهو يقول: «**إن يوسف بن تاشَفِيْن قد غدا معقد الآمال، وإنه يُعتقد أن الله قد اصطفاه لإنقاذ الإسلام**»، ذاك البطل الذي لم يجد التاريخ له مثيلاً، ذاك الصنديد البربري الذي حلم، فقام وقاتل، وجاهد، ورفع راية الإسلام مرفرفة فوق قصور الفرنجة، فأعزَّ الله به الإسلام، وأعزَّه بالإسلام...

يوسف بن تاشَفِيْن بن إبراهيم المصالي الصنهاجي اللمتوني الحميري، أبو يعقوب، أمير المسلمين، وملك دولة المرابطين في المغرب و**الأندلس**، وتُعرَف دولتهم بدولة الملثمين؛ لأنهم كانوا يضعون اللثام على وجوههم، وكانت منازلهم في بلاد السوس في أقصى بلاد المغرب من جهة الجنوب، وكانوا قد تَعرَّفوا على الإسلام حديثاً على يد فقيه من فقهاء القيروان يدعى عبد الله بن ياسين.

ولد يوسف بن تاشفين سنة 400هـ1009م في المنطقة الواقعة على المثلث الحدودي بين موريتانيا والجزائر والمغرب، وأول من قام منهم بالإمارة

يحيى بن عمر بن تلالكين، ثم أخوه أبو بكر بن عمر، وكانت بلاد المغرب بيد أمراء من زناتة، وهم في حالة ضعف، فتقدم أبو بكر بجيوشه نحو هذه البلاد وملك مدينة فاس.

وكان يوسف بن تاشَفِيْن رجلاً شجاعاً عادلاً مِقداماً، أحبَّه قومه وأطاعوه، فنزل له أبو بكر عن الإمارة سنة 463هـ، ورجع أبو بكر إلى بلاده الجنوبية، وقام يوسف بأمر الدولة الفتية، فاختط وبنا عاصمتها مراكش سنة 465هـ، وكانت أرضها تتبع لبعض المصامدة، فاشتراها يوسف لتكون قاعدة لجيوشه، ومستودعاً لذخائره، واختط بها قصبةً ومسجداً، وكان يعمل في بناء المسجد بنفسه مع الفعلة، ثم بدأ بتوسيع مناطق سيطرته، فاستولى على طنجة سنة 470هـ، ثم تقدَّم نحو المغرب الأوسط، فاستولى على تلمسان ووهران، واستمر في فتوحاته حتى بلغ الجزائر ثم تونس، وكانت مدن المغرب بيد زعماء محليين، فقضى يوسف على دولهم، وبسط سلطانه على المغرب من تونس شرقاً حتى المحيط الأطلسي غرباً.

وكان يوسف عازماً على قصد بلاد **الأندلس** وملكها وانتزاعها من يد ملوك الطوائف، وكان ملوكها يعلمون بِنيَّتِه، فأرسل بعضهم إلى بعض، وكان مفزعهم في ذلك المعتمد بن عَبَّاد؛ لأنه كان أشجع القوم وأكبرهم مملكة، فوقع اتفاقهم على مكاتبة الأمير يوسف، يسألونه الإعراض عنهم، وأنهم تحت طاعته.

وكانت **الأندلس** في حالة يرثى لها من الضعف والوهن بسبب تناحر

ملوكها، واستعانتهم على بعض بملوك قشتالة الإسبانية، وكان «ألفونسو السادس» ملك قشتالة قد ملك طُلَيْطِلَة أبرز الثغور الشمالية للأندلس، وذلك سنة 478هـ، وأرسل إلى المعتمد بن عَبَّاد صاحب إشبيليا يتهدَّده، ويطلب منه تسليم عدد من الحصون في بلاده، وشعر ملوك الطوائف، وفي مقدمتهم المعتمد بن عَبَّاد، أن مصيرهم جميعاً إلى السقوط والزوال إذا لم تجتمع كلمتهم، وإذا لم يتداركهم غوثٌ من الخارج، واتجهوا جميعاً بأبصارهم إلى الضفة الأخرى من البحر، إلى المرابطين إخوانهم في الدين، وإلى أميرهم يوسف بن تاشَفِيْن، وكان يومئذٍ في ذروة القوة والسلطان، وقد ذاع صيته، واشتهرت فتوحاته، فبعثوا إليه برسلهم وكتبهم، يستنصرون به على محاربة النصارى، ويصفون له ما أصاب الأندلس من المِحَنِ على يَدِهم، وما يهددها من خطر السقوط والفناء إذا لم يتداركها بغوثه ونصرته، وتردد يوسف في البداية في إجابة مطلبهم، لأنه لا يعرف أحوال الجزيرة، ولم يشتبك من قبل قط مع النصارى، ولكنه اعتزم في النهاية بعد أن استشار قومه وفُقَهاءَه أن يستجيب إلى دعوتهم، وأن يبادر إلى نجدتهم، ولا ريب أن يوسف كانت تحدوه في ذلك نزعة دينية جهادية.

دخل يوسف بن تاشَفِيْن والمرابطون أرض الأندلس، ودخل إلى إشبيلية والناس يستقبلونه استقبال الفاتحين، ثم قصد بطليوس حيث كانت على مقربة من الزلاقة التي كان قد نزلها ألفونسو السادس، فتوجَّه إليه أمير المسلمين بجيوشه، ووصلت الأخبار إلى ألفونسو، فجمع عساكره، وحشد جنوده، وسار من طُلَيْطِلَة.

وبدأ يلحق بركب يوسف بن تاشَفِيْن المجاهدون المتطوعة من قُرْطُبَة وإشبيلية وبطليوس، وهكذا حتى وصل الجيش إلى الزلاقة في شمال البلاد الإسلامية، وعدده أكثر من الثلاثين ألف رجل.

ولا نعجب، فهذه هي أهمية القدوة وفِعْلِها في المسلمين، وصورتها كما يجب أن تكون، تحرَّكت مكامن الفطرة الطيبة، وعواطف الأُخُوَّة الصادقة، والغَيْرَة على الدين الخاتِم، تلك الأمور التي تُوجَد لدى عموم المسلمين بلا استثناء، وتحتاج فقط إلى مَنْ يُحَرِّكها من سُباتها.

تحرَّك الثلاثون ألف رجل بقيادة يوسف بن تاشَفِيْن ليصلوا إلى الزلاقة، وهو ذلك المكان الذي دارت فيه الواقعة وهي من أشهر المواقع الإسلامية في التاريخ.

وكان النصارى قد استعدُّوا لقدوم يوسف بن تاشَفِيْن، فجمعوا عدداً ضخماً من المقاتلين، بلغ في بعض التقديرات أكثر من ثلاثمائة ألف مقاتل، على رأسهم ألفونسو السادس بعد أن جاءه العون من الممالك النصرانية فرنسا وإيطاليا وغيرهما، وقَدِمَ ألفونسو السادس يحمل الصلبان وصور المسيح، وهو يقول: **بهذا الجيش أقاتل الجنَّ والإنس، وأقاتل ملائكة السماء، فهو يعرف تماماً أنها حرب صليبية ضد الإسلام.**

وكان ألفونسو السادس من قبل هذا أرسل إلى يوسف بن تاشَفِيْن رسالة كلها غرور واستعلاء، وهذا نصها:

(باسمك اللهمَّ فاطر السموات والأرض، وصلى الله على السيد المسيح،

روح الله وكلمته، الرسول الفصيح، أما بعدُ: فإنه لا يخفى على ذي ذهنٍ ثاقب، ولا ذي عقل لازب، أنك أمير الملة الحنيفية، كما أني أمير الملة النصرانية، وقد علمتَ الآن ما عليه رؤساء أهل **الأندلس** من التخاذل والتواكل وإهمال الرعية، وإخلادهم إلى الراحة، وأنا أسومهم بحُكم القهر، وجلاء الديار، وأسبي الذراري وأُمَثِّل بالرجال، ولا عذر لك في التخلُّف عن نصرهم إذا أمكنتك يد القدرة، وأنتم تزعمون أن الله تعالى فرض عليكم قتال عشرة منَّا بواحد منكم، فالآن خَفَّف الله عنكم، وعلم أن فيكم ضعفاً، ونحن الآن نقاتل عشرة منكم بواحد منا، لا تستطيعون دفاعاً، ولا تملكون امتناعاً، وقد حُكِيَ لي عنك أنك أخذتَ في الاحتفال، وأشرفت على ربوة القتال، وتماطل نفسك عاماً بعد عام، تُقَدِّم رِجْلاً وتؤخِّر أخرى، فلا أدري أكان الجُبن أبطأ بك أم التكذيب بما وعد ربُّك، ثم قيل لي: إنك لا تجد إلى جواز البحر سبيلاً لعلَّةٍ لا يسوغ لك التقحُّم معها، وها أنا أقول لك ما فيه الراحة لك، وأعتذر لك وعنك، على أن تفي بالعهود والمواثيق والاستكثار من الرهان، وتُرسل إليَّ جملة من عبيدك بالمراكب والطرائد والمسطحات، وأجوز بجملتي إليك، وأقاتلك في أعزِّ الأماكن لديك، فإن كانت لك فغنيمة كبيرة جُلبت إليك، وهدية عظيمة مَثَلَتْ بين يديك، وإن كانت لي كانت يدي العليا عليك، واستحقيت إمارة المِلَّتَيْنِ، والحُكم على البرَّيْنِ، والله تعالى يُوَفِّقُ للسعادة، ويُسَهِّل الإرادة، لا ربَّ غيره، ولا خير إلاَّ خيره، إن شاء الله تعالى).

فلما تمَّ عبور جيش المرابطين إلى **الأندلس** أرسل يوسف بن تاشَفِيْن

برسالة إلى ألفونسو السادس يقول له فيها: (بَلَغَنا يا ألفونسو أنك دعوتَ إلى الاجتماع بنا، وتمنيتَ أن تكون لك سفن تعبر بها البحر إلينا، فقد عَبَرنا إليك، وقد جمع الله تعالى في هذه الساحة بيننا وبينك، وسترى عاقبة دعائك ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [الرعد: 14، غافر: 50]. وخيَّره يوسف بن تاشَفِيْن بين الإسلام والجزية والحرب.

تَسَلَّم ألفونسو السادس الرسالة وما إن قرأها حتى استشاط غضباً و(جاش بحر غيظه (أي اشتد غضبه)، وزاد في طغيانه وكفره، وقال: أبمثل هذه المخاطبة يُخاطبني، وأنا وأبي نغرم الجزية لأهل مِلَّته منذ ثمانين سنة؟!) ثم أرسل ليوسف بن تاشَفِيْن متوعِّداً ومُهَدِّداً: فإني اخترت الحرب، فما ردُّك على ذلك؟ وعلى الفور أخذ يوسف بن تاشَفِيْن الرسالة، وقلبها وكتب على ظهرها: (الجواب ما تراه بعينك لا ما تسمعه بأُذنك، والسلام على مَنِ اتَّبع الهدى)، فلما وقف ألفونسو على هذا الجواب ارتاع له، وعلم أنه بُلي برجل لا طاقة له به.

وقال صاحب الروض المعطار: ولما تحقق ابن فرذلند ألفونسو السادس جواز يوسف استنفر جميع أهل بلاده وما يليها وما وراءها، ورفع القسيسون والرهبان والأساقفة صلبانهم، ونشروا أناجيلهم، فاجتمع له من الجلالقة والإفرنجة وما يليهم ما لا يُحصى عدده، وجعل يُصغي إلى أنباء المسلمين متغيِّظاً على ابن عَبَّاد، حانقاً ذلك عليه، متوعِّداً له، وجواسيس كل فريق تتردَّد بين الجميع، وبعث ألفونسو السادس إلى ابن عَبَّاد أن صاحبكم يوسف قد تعنى من بلاد

بعيدة وخاض البحور، وأنا أكفيه العناء فيما بقي، ولا أُكَلِّفكم تعباً، أنا أمضي إليه وألقاكم في بلادكم؛ رفقاً بكم، وتوفيراً عليكم، وقال لأهل ودِّه ووزرائه: إني رأيت إن أمكنتهم من الدخول إلى بلادي فناجزوني بين جدرها ربما كانت الدائرة عليَّ، فيكتسحون البلاد، ويحصدون مَنْ فيها في غداة واحدة، لكن أجعل يومهم معي في حوز بلادهم، فإن كانت عليَّ اكتفوا بما نالوه، ولم يجعلوا الدروب وراءهم إلاَّ بعد أهبة أخرى، فيكون في ذلك صونٌ لبلادي، وجبرٌ لمكاسري، وإن كانت الدائرة عليهم كان مني فيهم وفي بلادهم ما خِفْتُ أنا أن يكون منهم فيَّ وفي بلادي إذا ناجزوني في وسطها.

وفي محاولة ماكرة لخديعة المسلمين أرسل ألفونسو السادس يُحَدِّدُ يوم المعركة، فأرسل أن: غداً الجمعة، ولا نُحِبُّ مقاتلتكم فيه؛ لأنه عيدكم، وبعده السبت يوم عيد اليهود، وهم كثيرون في محلَّتنا، ونحن نفتقر إليهم، وبعده الأحد عيدنا، فلنحترم هذه الأعياد، ويكون اللقاء يوم الاثنين.

تَسَلَّم يوسف بن تاشَفِيْن الرسالة، وكاد ينخدع بها لأنه كان يعتقد أن الملوك لا تغدر، ولقد كانت هذه أُولى جولاته مع النصارى، إلاَّ أن المعتمد بن عَبَّاد فهم الخديعة، ونبَّه يوسف بن تاشَفِيْن إلى ما قد يكون فيها من الغدر.

وبحذر تامٍّ لم يلتفت يوسف بن تاشَفِيْن إلى ما جاء في رسالة ألفونسو السادس، وقام بتعبئة الجيش وتجهيزه يوم الخميس، ووضعه على أتمِّ

الاستعداد.

إنها لحظة لم يتذوَّقها الأندلسيون منذ سنوات وسنوات في أرض الأندلس، يقوم جيش مسلم ويستعد لحرب النصارى من بعد سنوات الذل والهزيمة والجزية، ولا شكَّ أنها لحظات تتلقاها قلوب المؤمنين باشتياق، كاشتياقها إلى الشهادة، ويأمر يوسف بن تاشَفِيْن بقراءة سورة الأنفال، ويأمر الخطباء بتحفيز الناس على الجهاد، ويمرُّ هو بنفسه على الفصائل ينادي ويقول: طوبى لمن أحرز الشهادة، ومَنْ بقي فله الأجر والغنيمة.

وجاء في الروض المعطار: ووعظ يوسف وابن عَبَّاد أصحابهما، وقام الفقهاء والعُبَّاد يعظون الناس ويحُضُّونهم على الصبر، ويُحَذِّرُونهم من من الفرار.

وفي ليلة الجمعة كان ينام مع الجيش شيخ كبير من شيوخ المالكية في قُرْطُبَة، وهو الفقيه الناسك أبو العباس أحمد ابن رميلة القرطبي، والذي قال عنه ابن بشكوال في الصلة: كان معتنياً بالعلم، وصُحبة الشيوخ، وله شِعر حسن في الزهد، وكان كثير الصدقة وفعل المعروف، وكان أبو العباس هذا من أهل العلم والورع والفضل والدين.

ولم تكن مهمَّة الشيخ يومها مجرَّد الجلوس في المسجد، أو إلقاء الدروس، أو تعليم القرآن فقط، فقد كان هذا الشيخ يَفْقَه أمور دينه، ويعلم أن الجهاد هو ذروة عزة هذا الدين، وفي هذه الليلة يرى ابن رُمَيْلَة رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول له: «**يَا ابْنَ رُمَيْلَةَ، إِنَّكُمْ**

مَنْصُـورُونَ، وَإِنَّـكَ مُلاقِينَـا».

يسـتيقظ ابـنُ رُمَيْلَـة مـن نومـه وهـو الـذي يعلـم أن رؤيـة الرسـول صـلى الله عليـه وسـلم في المنـام حـقٌّ؛ لأن الشـيطان لا يتمثَّـل بـه.

ويقـوم الشـيخ فرحـاً مـسروراً، لا يسـتطيع أن يملـك نفسـه، فقـد بـشَّره الرسـول صـلى الله عليـه وسـلم، وسـيموت في سـبيل الله، فالْحُسْـنَيَيْن أمـام عينيـه، نـصر للمؤمنـين، وشـهادة تنالـه، فيـا لهـا مـن فرحـة! ويـا لـه مـن أجـر!

وعـلى الفـور يذهـب ابـن رميلـة رحمـه الله في جنـح الليـل، فيُوقـظ قـادة المسـلمين، حتـى أيقـظ المعتمـد بـن عَبَّـاد، وقـصَّ عليهـم رؤيـا رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم، ولا شـك أن هـذه الرؤيـا قـد هـزَّت ابـن عَبَّـاد، فأرسـل بخبرهـا إلى يوسـف بـن تاشَـفِيْن وكلّ قـوَّاد الجيـش، وقامـوا مـن شـدَّة فرحهـم في منتصـف الليل،أيقظـوا الجيـش كلـه عـلى صـوت: رأى ابـن رُمَيْلَـة رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم يقـول لـه: «**إِنَّكُـمْ مَنْصُـورُونَ، وَإِنَّـكَ مُلاقِينَا!!!!**يـاالله عـلى هـذا الشـعور!!».

وكان المعتمـد بـن عَبَّـاد يراقـب، فيـما يراقـب معسـكر المرابطين أيضـاً ،خوفاً عليهـم مـن مكائـد ابـن فرذلنـد؛ إذ هـم غربـاء لا عِلْـمَ لهـم بالبـلاد، وجعـل يتـولَّى ذلـك بنفسـه؛ حتـى قيـل: إن الرجـل مـن الصحراويـين المرابطـين كان يخـرج عـن طـرق محلاتهـم لبعـض شـأنه أو لقضـاء حاجتـه فيجـد ابـن عَبَّـاد بنفسـه مطيفـاً بالمحلَّـة بعـد ترتيـب الكراديـس، وهـي كتائـب الخيـل، عـلى أفـواه طـرق محلاتهـم، فـلا يـكاد الخـارج منهـم عـن المحلـة يُخطـئ ذلـك

من لقاء ابن عَبَّاد لكثرة تطوافه عليهم».

ثم جاء في الليل فارسان من طلائع المعتمد يخبران أنهما أشرفا على محلة ألفونسو وسمعا ضوضاء الجيوش واضطراب الأسلحة، ثم تلاحقت بقية الطلائع محقِّقين بتحرُّك ألفونسو، ثم جاءت الجواسيس من داخل معسكر ألفونسو يقولون: «استرقنا السمع الساعة، فسمعنا ابن فرذلند أي الفونسو يقول لأصحابه: ابن عَبَّاد مسعر هذه الحروب، وهؤلاء الصحراويون وإن كانوا أهل حفاظ وذوي بصائر في الجهاد، إلا أنهم غير عارفين بهذه البلاد، وإنما قادهم ابن عَبَّاد، فاقصدوه واهجموا عليه، وإن انكشف لكم أي هزمتوه هان عليكم هؤلاء الصحراويون بعده، ولا أرى ابن عَبَّاد يصبر لكم إن صدقتموه الحملة»، وعند ذلك بعث ابن عَبَّاد كاتبه أبا بكر بن القصيرة إلى يوسف يُعَرِّفه بإقبال ألفونسو ويستحثُّ نُصرته، فمضى ابن القصيرة يطوي الأرض طيّاً، حتى جاء يوسف بن تاشَفِيْن فعَرَّفه جلية الأمر.

وبعد ترتيب الجيش وصلاة فجر يوم الجمعة الموافق 12 من شهر رجب 479هـ - 23 من أكتوبر 1086م، نقض ألفونسو السادس عهده، وبدأ بالهجوم في ذلك اليوم؛ إذ الغدر والخيانة ومخالفة العهود هو الأصل عندهم.

ولقد صُدم الجيش الإسلامي، وفوجئ بالفعل كما ستؤكد الرسالة التي كتبها يوسف بن تاشَفِيْن نفسه فيما بعد، وانحطَّ عليه جيش النصارى بكتائب «**تملأ الآفاق**»، وبدت الصدمة الأولى صدمة هائلة حقّاً.

وكان الجيش الإسلامي قد انقسم إلى ثلاث فرق رئيسة:

الفرقة الأولى: **فرقة الأندلسيين:**

وتضم الجيش الأندلسي، وعلى رأسه المعتمد بن عَبَّاد، ومعه ملوك الأندلس؛ ابن صمادح صاحب المرية، وعبد الله بن بلقين صاحب غرناطة، وابن مسلمة صاحب الثغر الأعلى، وابن ذي النون، وابن الأفطس.. وغيرهم، وقد أمرهم يوسف أن يكونوا مع المعتمد، فكان المعتمد في القلب، والمتوكل بن الأفطس في ميمنتها، وأهل شرق الأندلس في ميسرتها، وسائر أهل الأندلس الآخرين في مؤخرة هذه الفرقة، وقد اختار المعتمد أن يكون في المقدمة وأول مَنْ يصادم الجيش الصليبي.

ويُريد بذلك أن يغسل عار السنين السابقة وما رآه من ذل وهوان، أو لعله كان يُريد أن يحوز القدر الأعلى من النصر إن تم، فيُنسب الأمر له، والله أعلم بالنوايا.

الفرقة الثانية: **فرقة من جيش المرابطين:**

وعلى رأسهم البطل المرابطي الكبير داود ابن عائشة، وكانت هذه الفرقة خلف الجيش الأندلسي.

الفرقة الثالثة: **جيش المرابطين الرئيسي:**

بقيادة يوسف بن تاشَفِيْن وكان يختفي خلف أحد التلال على مسافة من الجيش، بحيث لا يُرى هذا الجيش، فيظن الأعداء أن كل جيش المسلمين هو الفرقتان الأوليان: جيش الأندلسيين، وجيش المرابطين

الـذي يقـوده داود ابـن عائشـة.

وقـد أراد يوسـف بـن تاشَـفِيْن مـن وراء ذلـك أن تحتـدم الموقعـة، فتُنْهـك قـوى الطرفـين حتـى لا يسـتطيعان القتـال، فيقـوم هـو ويتدخَّـل بجيشـه ليَعـدل الكِفَّـة لصالـح صـفِّ المسـلمين.

لم تكـن خطَّـة يوسـف بـن تاشَـفِيْن رحمـه الله جديـدة في حـروب المسـلمين، فقـد كانـت هـي الخطـة نفسـها التـي اسـتعملها خالـد بـن الوليـد رضي الله عنـه في موقعـة الولجـة في فتـوح فـارس، وهـي أيضـاً الخطـة نفسـها التـي اسـتعملها النعـمان بـن مقَـرِن رضي الله عنـه في موقعـة نهاونـد في فتـوح فـارس أيضـاً، فـكان يوسـف بـن تاشَـفِيْن رحمـه الله رجـلاً يقـرأ التاريـخ، ويعـرف رجالاتـه ويعتـبر بهـم.

وفي يـوم الجمعـة الموافـق 12 مـن شـهر رجـب 479هـ - 23 مـن أكتوبـر 1086م هجـم ألفونسـو السـادس بجيشـه الضخـم عـلى الجيـش الأول للمسـلمين الجيـش الأندلسـي، ومـال ألفونسـو السـادس عـلى المعتمـد بجموعـه، وأحاطـوا بـه مـن كل جهـة، فاشـتد القتـال بينهـم، وصـبر ابـن عَبَّـاد وجيشـه الأندلسـي صـبراً لم يُعهـد مثلـه لأحـد، واسـتبطأ يوسـف وهـو يلاحـظ طريقـه، وعَضَّتـه الحـرب، واشـتدَّ البـلاء، وأبطـأ عليـه الصحراويـون، وسـاءت ظنـون أصحـاب المعتمـد، وانكشـف بعضهـم وفيهـم ابنـه عبـد الله، وأُثْخِـنَ ابـن عَبَّـاد بالجراحـات، وضُرِبَ عـلى رأسـه ضربـة فلقـت هامتـه حتـى وصلـت إلى صدغـه، وجرحـت يمنـى يديـه، وطُعـن في أحـد جانبيـه، وعُقـرت تحتـه ثلاثـة احصنـة، كلـما هلـك واحـد

قُدِّمَ له آخر، وهو يقاسي حياض الموت يضرب يميناً وشمالاً، وتَذَكَّر في تلك الحال ابناً له صغيراً كان مغرماً به، كان تركه في إشبيلية عليلاً اسمه المعلى، وكنيته أبو هاشم، فقال:

أبَا هَاشِمٍ هَشَّمَتْنِي الشِّفَارُ فَلِلَّهِ صَبْرِي لِذَاكَ الأُوَارُ
ذَكَرْتُ شَخِيصَكَ تَحْتَ الْعَجَاجِ فَلَمْ يُثْنِنِي ذِكْرُهُ لِلْفِرَارِ

ثم ما لبث إلا أن انضم إليه القسم الأول من جيش المرابطين وقائده داود ابن عائشة، وكان بطلاً شهماً، فنَفَّس بمجيئه عن ابن عَبَّاد، إلا أن ألفونسو كان قد قسَّم هو الآخر جيشه إلى قسمين، فانهال بالقسم الآخر على جيش المرابطين الذي يقوده داود ابن عائشة بأعداد ضخمة، فاقتتلوا قتالاً عظيماً، وصبر المرابطون صبراً جميلاً، وداسهم اللعين بكثرة جنوده حتى كاد يستأصلهم، وكانت بينهم مضاربة تفلَّلت فيها السيوف، وتكسَّرت الرماح، وسارت الفرقة الثانية من عسكر اللعين مع البرهانس وابن رذمير نحو ملحة لعله يقصد محلة (أي موقع) ابن عَبَّاد، فداسوها، واستمرَّت الهزيمة على رؤساء **الأندلس** إلى جهة بطليوس، ولم يثبت منهم غير ابن عَبَّاد وجيشه، فإنهم ثبتوا في ناحية، يُقاتلون ولم ينهزموا، وقاتلوا قتالاً شديداً، وصبروا صبر الكرام لحرب اللئام...، وبدا المعسكر الإسلامي مرة أخرى في حالة الهزيمة.

وهنا بدأ تحرك الجيش المرابطي الرئيسي الذي يقوده ابن تاشَفِيْن، وذلك بعد أن كانت قد أُنهكت قوى الطرفين من المسلمين والنصارى، وبعد طول صبر ينزل يوسف بن تاشَفِيْن بالقسم الرئيسي من جيش المرابطين

الذين كانوا معه، وهم في كامل قوتهم، فيحاصرون الجيش النصراني.

قسَّم يوسف بن تاشَفِيْن الجيش الذي كان معه إلى قسمين: فالأول وقائده سير ابن أبي بكر في قبائل المغرب وزناتة والمصامدة وغمارة وسائر قبائل البربر، يُساعد جيش المسلمين الذي يقوده داود ابن عائشة والمعتمد بن عَبَّاد، والقسم الثاني بقيادته هو، ومعه باقي قبائل صنهاجة والمرابطين يلتفُّ خلف جيش النصارى، ويقصد مباشرة إلى معسكرهم، فأضرمها ناراً وأحرقها، وقَتَل مَنْ كان بها من الأبطال والرجال والفرسان، الذين تركهم ألفونسو بها يحرسونها ويحمونها، وفرَّ الباقون منهزمين نحو ألفونسو، فأقبلت عليهم خيله من محلته فارِّين، وأمير المسلمين يوسف في أثرهم بساقته وطبوله وبنوده، وجيوش المرابطين بين يديه يُحكِمون في الكفرة سيوفهم، ويروونها من دمائهم، فقال ألفونسو السادس: ما هذا؟! فأُخبر الخبر بحرق محلته ونهبها، وقتل حماتها، وسبي حريمها، فردَّ وجهه إلى قتاله، وصمم أمير المسلمين نحوه، فانتشبت الحروب بينهما، فكانت بينهما حروب عظيمة لم يُسمع قط بمثلها...

وحين علم النصارى أن المسلمين من ورائهم، وأنهم محاصَرون «ارتاعت قلوبهم، وتجلجلت أفئدتهم، ورأوا النار تشتعل في محلتهم، وأتاهم الصريخ بهلاك أموالهم، وأخبيتهم، فسُقط في أيديهم (أي دب الرعب في قلوبهم)، ورجعوا قاصدين محلتهم (أي مواقعهم)، فالتحمت الفئتان، واختلطت الملتان، واشتدت الكَرَّات، وعظمت الهجمات، والحروب

تـدور عـلى اللعـين، وتطحـن رؤوس رجالـه، ومشـاهير أبطالـه، وتقـذف بخيلهـم عـن يمينـه وشـماله، وتداعـى الأجنـاد والحشـم والعبيـد للنـزال والترجُّل عـن ظهـور الخيـل، ودخـول المعـترك، فأمـدَّ الله المسـلمين بنـصره، وقـذف الرعـب في قلـوب المشركـين.

وهكـذا حـوصر جيـش النصـارى بـين الجيـش الأندلـسي مـن الأمـام، وجيـش المرابطـين مـن الخلـف، وبالفعـل بـدأ الاضطـراب والتراجـع في صفـوف النصـارى، وقـد التـفَّ جنـود النصـارى حـول ألفونسـو السـادس يحمونـه، ثـم حدثـت خلخلـة عظيمـة في جيشـهم.

يقـول الحمـيري: فبـادر إليـه يوسـف، وصدمهـم بجمعـه، فردَّهـم إلى مركزهـم، وانتظـم بـه شـمل ابـن عَبَّـاد، ووجـد ريـح الظفـر، وتبـاشر بالنـصر، ثـم صدقـوا جميعـاً الحملـة، فتزلزلـت الأرض بحوافـر خيولهـم، وخاضـت الخيـل في الدمـاء، وصـبر الفريقـان صـبراً عظيـماً، ثـم تراجـع ابـن عَبَّـاد إلى يوسـف، وحمـل معـه حملـة نـزل معهـا النـصر، وتراجـع المنهزمـون مـن أصحـاب ابـن عَبَّـاد حـين علمـوا بالتحـام الفئتـين، فصدقـوا الحملـة.

وتـزداد شراسـة الموقعـة حتـى قُبيـل المغـربِ، ثـم ومـن بعيـدٍ يُشـير يوسـف بـن تاشَـفِيْن إلى أربعـة آلاف فـارسٍ مـن رجـال السـودان المَهَـرَة، وهـم حرسـه الخـاص فيترجلـون عن خيولهـم، ليقتحمـوا فيما يشـبه المهمـة الخاصة في قلـب جيـش النصـارى، وينفـذون إلى مَلِكِهـم، وبالفعـل نفـذ أربعـة آلاف مقاتـل إلى قلـب المعمعـة، وفي أثنـاء ذلـك، التقـى بالطاغيـة ألفونسـو غـلام أسـود بيـده خنجـر يدعـوه البرابـر بالأفطـس، قطـع جـرز درعـه، وطعنـه

في فخذه مع مدار سرجه، فكان ألفونسو يقول بعد ذلك: التحق بي غلام أسود فضربني في الفخذ بمنجل أراق دمي، فتخيل له الأفطس أنه منجل لكونه رآه معوجاً، وبقي أثر الطعنة مع ألفونسو بقية عمره، فكان يعرج منها.

ويقول لسان الدين بن الخطيب: «ولم تزل الكَرَّات بين المحلات تتعاقب، والهجمات سِجَالاً تداول، والحرب تدور، وأَمَرَ الأميرُ يوسف العبيدَ فترجَّلوا عن الخيل، ودخلوا المعركة بالمزارق (الرماح القصيرة الخفيفة)، وبعد هذا لجأ ألفونسو إلى تل يحتمي به كان قريباً من معسكره، ومعه نحو الخمسمائة فارس كلهم مكلوم(أي مصاب)، وباقي الجيش كله إما أسر أو قتل... ولما جاء الليل تسلل وهو لا يلوي على شيء، وأصحابه يتساقطون في الطريق واحداً بعد واحد من أثر جراحهم، فلم يدخل طُلَيْطِلَة إلا في دون المائة، وبعض الروايات تقول بأن الذين نجوا أقل من الثلاثين، وغنم المسلمون كل ما لهم من مال وسلاح ودواب وغير ذلك، واستشهد من المسلمين فيها حوالي ثلاثة آلاف رجل.

وبذلك كانت الزلاقة دون مبالغة كمعركتي اليرموك والقادسية.

وكان رأي المعتمد بن عَبَّاد أن يواصل الجيش مطاردته لألفونسو المنسحب حتى يقضي عليه نهائيّاً، ولكن ابن تاشَفِيْن كان يرى أن الضغط عليهم وإرهاقهم يجعلهم يستبسلون في القتال، فيقاتلون قتال مَنْ لا يرى حياته إلا بموت خصمه، وفي هذا ضرر على المسلمين، ولا

سيما وأن مطاردة ألفونسو وهو على هذا الحال قد تُوقع في طريقه بعض المسلمين المنسحبين، الذين يتواصل عودتهم إلى الجيش مع انقلاب كفة المعركة، وهم بالنسبة له أقل قوة وهو أقدر على الإيقاع بهم، فإن انتظروا هذا اليوم فتكامل عدد المسلمين برجوع الذين انسحبوا، هان عليهم أن يقاتلوه في اليوم الثاني.

وردَّ عليه ابن عَبَّاد بقوله: إن فرَّ أمامنا لقيه أصحابنا المنهزمون، فلا يعجزون عنه، إلا أن يوسف أصرَّ على الامتناع وقال: الكلب إذا أُرهق لا بُدَّ أن يعضَّ.

ونحن إذ نقرأ التاريخ الآن نرى أن ابن عَبَّاد كان أصوب رأياً من ابن تاشَفِيْن في هذا الأمر، فلقد استمر ألفونسو يقاتل المسلمين بعدها عشرين سنة، ولم يضعف، ولم يتوانَ، ويُتوقع أنه لو كان قُضي عليه في يوم الزلاقة لكنا نكتب الآن تاريخاً آخر، ولكان المسلمون استطاعوا أن يستعيدوا طُلَيْطِلَة مرة أخرى، هذا والله تعالى أعلم، ونقول: يرى الشاهد ما لا يراه الغائب....

وبعد هذه المعركة جمع المسلمون من الغنائم الكثير، ولكن يوسف بن تاشَفِيْن وفي صورة مشرقة ومشرِّفة من صور الإخلاص والتجرُّد، وفي درس عملي بليغ لأهل **الأندلس** عامَّة، ولأمرائهم خاصَّة يترك كل هذه الغنائم لأهل **الأندلس**، ويرجع في زُهدٍ عجيب، وورع صادق إلى بلاد المغرب، ولسان حاله يقول: {**لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُورًا**} [الإنسان: 9].

وقال المقري في نفح الطيب: وأقامت العساكر بالموضع أربعة أيام،

حتى جمعت الغنائم، واستُؤْذِن في ذلك السلطان يوسف، فعفَّ عنها، وآثر بها ملوك **الأندلس**، وعَرَّفهم أن مقصدَه الجهاد والأجر العظيم، وما عند الله في ذلك من الثواب المقيم، فلمَّا رأتْ ملوك **الأندلس** إيثار يوسف لهم بالغنائم استكرموه، وأحبُّوه وشكروا له صنيعه هذا.

وما أن انتهت أحداث الزلاقة حتى يصل إلى يوسف بن تاشَفِيْن نبأ مُفزع من بلاده بالمغرب، وإنه يحمل مصيبة قد حَلَّت به وبداره، فابنه الأكبر قد مات، فكان هذا الأمر سبب رجوع ابن تاشَفِيْن إلى المغرب...

ولكنه لم يلبث أن عاد إلى **الأندلس** مرة أخرى بجيش كبير ليحارب النصارى إلى جانب قوات **الأندلس** سنة 483هـ تحت أسوار حصن « أليدو » أو «ليبط»، وهذا الحصن الذي بناه ألفونسو ليكون قاعدة جديدة لهجماته على مدن **الأندلس**، ولكن هذه المرة لم تحدث معارك كبيرة أو فاصلة، وترك يوسف بعض قواته في **الأندلس** تحت إمرة خيرة قواده سير بن أبي بكر.

ولم يمض عام حتى عاد يوسف إلى **الأندلس** بجيش ضخم، ولكن هذه المرة ليس لحرب النصارى، وإنما لانتزاعها من يد ملوك الطوائف، وكان قد عظم عليه ما كانوا عليه من التناحر والتخاذل والتفرقة، والإفراط في البذخ والترف وإهمال شؤون رعيتهم، فعزم على أن يبيد ملكهم، وأن يستخلص **الأندلس** من أيديهم، ليقوم هو بالدفاع عنها والذود عن كرامتها، فبدأ بالاستيلاء على غرناطة، ثم

وزَّع جيوشه في أنحاء الأندلس، فأرسل قائده سير بن أبي بكر لانتزاع إشبيليا من يد المعتمد بن عَبَّاد، فحاصرها مدة حتى اقتحمها بعد أن دافع عنها المعتمد دفاعاً مستميتاً، واستولى المرابطون على قُرْطُبَة بعد أن قتلوا فيها المأمون بن المعتمد، ثم استولوا على المرية وبلنسية ومرسية ورندة، ثم زحفوا نحو بطليوس، فاستولوا عليها بعد أن قتلوا أميرها المتوكل بن الأفطس مع ولديه، وهكذا سيطر يوسف على الأندلس بضربة حاسمة، وكان انتهاؤه من الاستيلاء عليها سنة 487هـ.

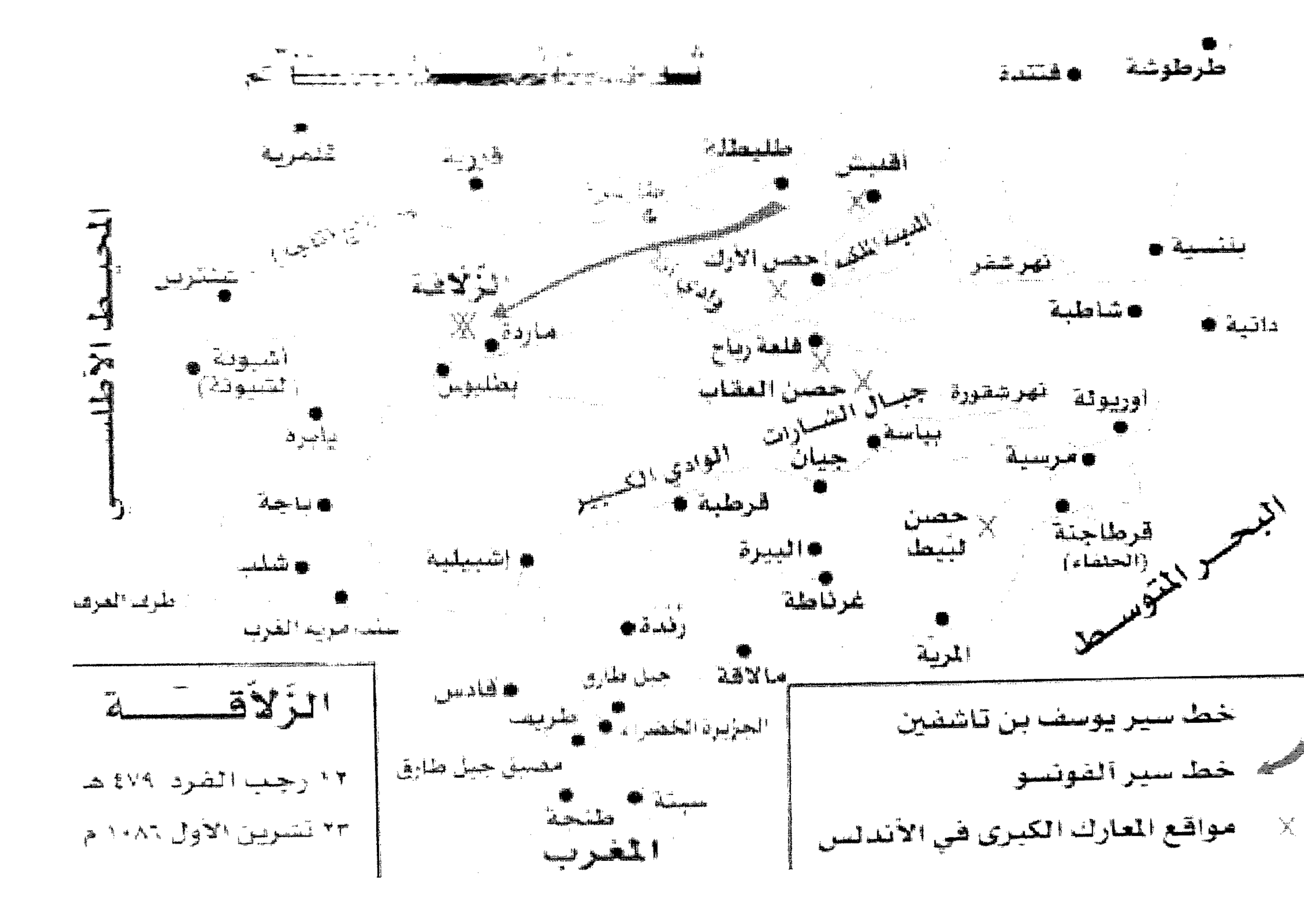
ثم أرسل سفيره العلامة أبو بكر ابن العربي إلى الخليفة العباسي في بغداد «المستظهر بالله»، ومعه هدايا جليلة، وكتاب يخبره بما فتح الله عليه، ويطلب منه تقليده الولاية على ما يحكم من الأراضي، فاستجاب المستظهر لرغبته، وبعث إليه بمرسوم الولاية، وبالخلعة (أي عباءة الإمارة) والتشاريف، وكان الفقهاء قد نصحوه أن تكون ولايته صادرة عن الخليفة الشرعي في بغداد، لتجب طاعته على كافة الرعية....

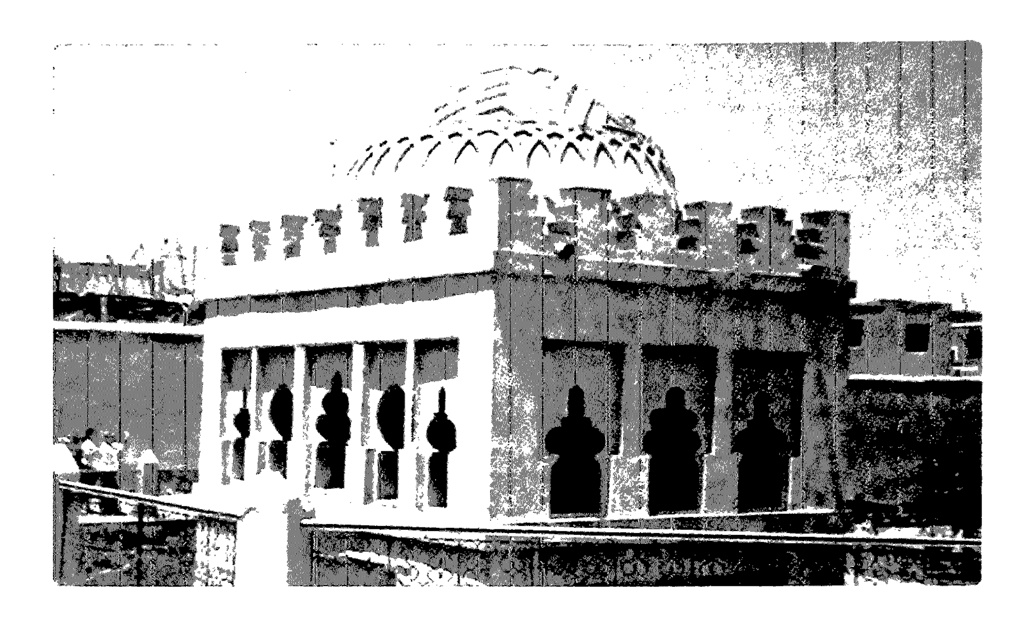
وكان يوسف بن تاشَفِيْن حسن السيرة، خيراً، عادلاً، يميل إلى أهل العلم والدين، ويكرمهم، ويستشيرهم، ويعمل بآرائهم، ويقضي على نفسه وغيره بفتياهم، ويحُضُّ على العدل، ويصدح بالحق، وقد كان بلا ريب من الرجال الأفذاذ الذين خُلِقُوا للزعامة وإنشاء الدول، وكان يتمتع بمواهب عالية من الذكاء والفطنة وبُعد النظر، وكان في الحرب قائداً عظيماً، وجندياً مجرباً، وفارساً شجاعاً، ولم تكن انتصاراته بكثرة العدد والعتاد، وإنما بخططه البارعة، وتنظيمه لجيشه، وانتهاز

الفرص السانحة.

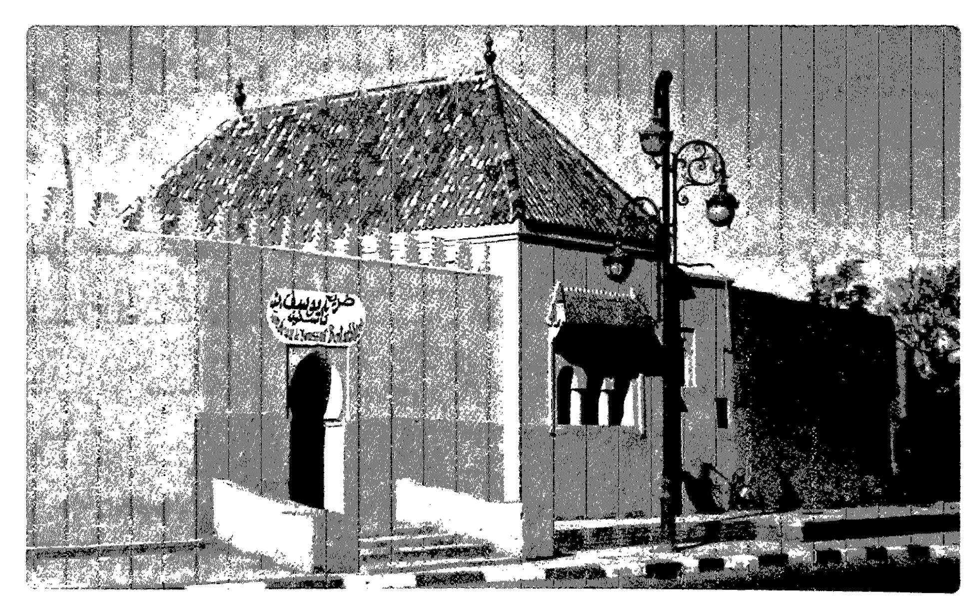
وكان التقشف من أخص صفاته، فقد كان على الرغم من مُلكه الشامخ، يعيش كأبسط رعاياه بعيداً عن كل مظاهر الترف والنعماء، وبلغ من تقشفه أنه لم يأكل سوى خبز الشعير ولحم الإبل، ولا يشرب سوى لبن الإبل، وقد وهبه الله بسطة في الجسم، وصحة بديعة، وطالت حياته حتى جاوز التسعين من العمر، حكم فيها أربعين عاماً،وقام بأعظم الفتوحات والإنجازات، وبنى دولة المرابطين الواسعة..

توفي الأمير يوسف بن تاشفين في شهر محرم سنة 500هـ 1106م رحمه الله تعالى ورزقنا الله أمثاله في هذه الأيام العصيبة التي نمر بها، إنه على كل شيء قدير وبالإجابة جدير ....


المحيط الأطلسي
البحر المتوسط
طرطوشة
فتندة
بلنسية
شاطبة
دانية
اوريولة
مرسية
قرطاجنة (الحلفاء)
حصن لييط
المرية
غرناطة
البيرة
بياسة
جيان
جبال الشارات
نهر شقورة
حصن العقاب
قلعة رباح
حصن الأرك
أقليش
طليطلة
نهر شقر
قرطبة
الوادي الكبير
رندة
مالاقة
جبل طارق
الجزيرة الخضراء
طريف
قادس
مضيق جبل طارق
سبتة
طنجة
المغرب
إشبيلية
شلب
باجة
يابرة
اشبونة (لشبونة)
شنترين
قلمرية
بطليوس
ماردة
الزلاقة
طرف الغرف
الزلاقة
١٢ رجب الفرد ٤٧٩ هـ
٢٣ تشرين الأول ١٠٨٦ م
خط سير يوسف بن تاشفين
خط سير ألفونسو
مواقع المعارك الكبرى في الأندلس



قبة بناها المرابطون في مدينة مراكش - المغرب



ضريح يوسف بن تاشفين في مدينة مراكش - المغرب

عصر المرابطين

العالم النحوي ابن السيد البطليوسي

1052- 1127م

أخو العلمِ حيٌّ خالدٌ بعد موتهِ وأوصاله تحتَ الترابِ رميم

وذو الجهل ميتٌ وهو ماشٍ على الثرى يُظن من الأحياءِ وهو عديم

صنديدنا هذا لخص فهم الحياة وفقهها في هذين البيتين الذين خرجا سجيةً من ثغر علامة قرطبة وأديبها، وشاعرها وعالمها وفقيهها، ومن الفضائل التي تنسب للأندلس، إنه من أبنائها، إنها الأندلس التي خرجت عالماً متبحِّراً بالآداب واللغات، مقدَّماً في معرفتها وإتقانها!! نعم إنه أبو محمد عبد الله ابن السيد البطليوسي ...

أبو محمد عبد الله بن محمد بن السِّيْد البَطَلْيَوْسي النحوي، من كبار أئمة اللغة والأدب في الأندلس، أصله من مدينة شِلْب، ومولده في بطليوس سنة 444هـ 1052م غربي قُرْطُبَة وهو أحد من تفخر به جزيرة الأندلس من علماء العربية.

ولد ابن السيد ونشأ في بطليوس غرب الأندلس، وهي مدينة كبيرة تخرَّج فيها كثير من العلماء والأدباء، وكان ابن السيد أشهرهم، وفيها تلقى علومه، ثم انتقل إلى بلنسية فسكنها، وكان عالماً متبحِّراً بالآداب واللغات، مقدَّماً في معرفتها وإتقانها، ووُصِفَ بأنه كان حسن التعليم،

جيد التلقين والتفهيم، ثقةً حافظاً ضابطاً، وكان الناس يجتمعون إليه، ويقرؤون عليه ويقتبسون منه،نشأ البطليوسي في بيت علم وفضل، وتلقّى العلم في بطليوس على أبيه، ثم على أخيه أبي الحسن علي بن محمد بن السيد، ومعظم ما روي عنه كان كتباً في اللغة، درس القراءات على علي بن أحمد بن حمدون المعروف بابن اللطينية، كما درس اللغة على أبي بكر عاصم بن أيوب البطليوسي.

وفي سنة 464هـ ارتحل ابن السيد إلى المَرِيَّة، ومكث فيها عاماً واحداً، سمع في أثنائه من عبد الله بن جبير القيرواني، ثم غادرها إلى قُرْطُبَة لإكمال تعليمه فدرس فيها الحديث على أبي علي الحسين بن أحمد الغسّاني الجيّاني شيخ المحدّثين بقُرْطُبَة.

وكان من أساتذته كذلك أبو الفضل البغدادي، وعبد الدايم بن مرزوق بن جبر القيرواني، وهما من رواة الأدب والأشعار الوافِدِين من خارج الأندلس وغيرهم.

ولد وعاش في عصر ملوك الطوائف، وخدم عبد الملك بن رزين صاحب السهلة الذي امتد حكمه بين عامي 436- 496هـ، وكان عند وصوله إلى ابن رزين قد ارتفعت منزلته، وصار من أهل الحل والعقد في دولته، ومن خواص ابن رزين وجلسائه وندمائه، ولكن ابن السيد فر من ابن رزين، وكان السبب في ذلك إعراض ابن رزين عن الشعراء والأدباء، وعدم وصلهم بالعطايا والمكرمات.

ألف ابن السيد كتباً نافعة جامعة منها:

كتاب «**المثلث**» في مجلدين، أتى فيه بالعجائب، ودل على اطلاع عظيم، فإن «**مثلث**» قطرب في كراسة واحدة، واستعمل فيها الضرورة وما لا يجوز وغلط في بعضه.

وكتاب «**الاقتضاب في شرح أدب الكتَّاب**»، وطبع في دار الجيل، بيروت، عام 1987م.

وشرح «**سقط الزند**» لأبي العلاء المعري شرحاً استوفى فيه المقاصد، وهو أجود من شرح أبي العلاء صاحب الديوان الذي سماه «**ضوء السقط**».

وكتاب في الحروف الخمسة، وهي: السين والصاد والضاد والطاء والذال، جمع فيه كل غريب.

وكتاب «**الحلل في شرح أبيات الجمل**» وطبع بتحقيق د.مصطفى إمام، في مطبعة الدار المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى، عام 1979م.

وكتاب «**الخلل الواقع في الجمل**» أيضاً، ولعله الكتاب نفسه الذي طُبع باسم إصلاح الخلل، بتحقيق سعيد سعودي، في دار الطليعة، بيروت.

وكتاب «**التنبيه على الأسباب الموجبة لاختلاف الأمة**».

وكتاب «**شرح الموطأ**».

وكتاب في أصول الفقه بعنوان «**الإنصاف في التنبيه على الأسباب التي أوجبت الخلاف بين الفقهاء**».

وكتاب «الحدائق في أصول الدين».

وكتاب «الاقتضاب في شرح أدب الكتاب لابن قتيبة».

قال ابن خلكان: وسمعت أن له شرح ديوان المتنبي، ولم أقف عليه، وقيل: إنه لم يخرج من المغرب، وبالجملة فكل شيء يتكلم فيه فهو في غاية الجودة.

وله نظم حسن، فمن ذلك قوله:

أخو العِلْمِ حَيٌّ خالدٌ بعدَ مَوتِهِ   وأَوصالُهُ تَحتَ التُّرابِ رَميمُ
وذو الجهل مَيْتٌ وهو ماشٍ على الثرى   يُظَنُّ مِنَ الأحياءِ وهو عَديمُ

وله في طول الليل:

تَرى ليلَنا شَابتْ نَواصيْهِ كِبرةً   كَما شِبتُ أمْ في الجَو روض بَهارِ
كأنَّ الليالي السبعَ في الجَوِّ جُمِّعَتْ   ولا فَصلَ فِيما بِينها لنهارِ

وله من أول قصيد يمدح بها المستعين بن هود:

هم سَلَبوني حُسنَ صَبري إذْ بانُوا   بأقمارِ أَطواقٍ مَطالِعُها بَانُ
لَئنْ غادَرُوني باللِّوى إنَّ مُهجَتِي   مُسايرةٌ أَظعانُهم حَيثما كانُوا
سَقَى عَهدَهم بالخِيفِ عَهدَ غَمائم   يُنازِعُها مُزنٌ من الدمعِ هَتَّانُ
أأحبابَنا هل ذلكَ العهدُ راجعٌ   وهل لي عنكمْ آخرَ الدَّهرِ سُلوانُ
ولي مقلةٌ عَبرى وبينَ جَوانِحي   فؤادٌ إلى لُقياكُم الدهرَ حَنَّانُ

تَنكَّرتِ الدنيا لنا بعدَ بُعدِكم وحلَّتْ بِنا مِنْ مُعضِلِ الخَطبِ أَلوانُ

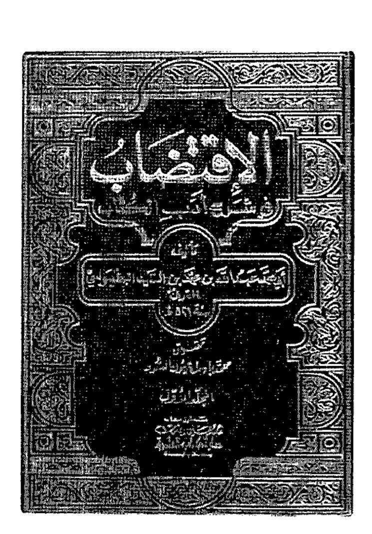
ومن مديحه:

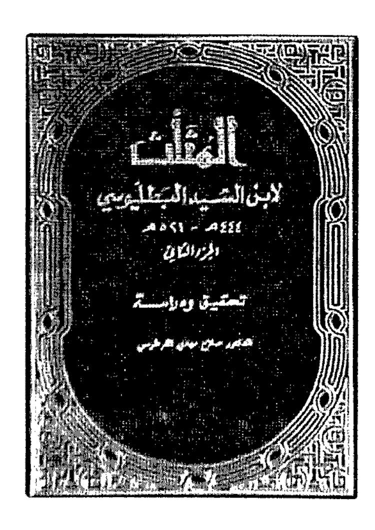
رحلْنا سوامَ الحمدِ عنها لغيرِها فلا ماؤُها صدا ولا النّبتُ سَعدانُ

إلى ملكٍ حاباهُ بالحُسْنِ يوسفٌ وشادَ له البيتَ الرَّفيعَ سُليمانُ

مِنَ النّفَرِ الشُّمِّ الذينَ أكفَّهم غُيوثٌ ولكنَّ الخَواطرَ نِيرانُ

وشهد ابن السيد سقوط دول الطوائف على يد المرابطين بقيادة أمير المسلمين يوسف بن تاشَفِيْن، وعاش بقية حياته في بلنسية، وبها توفي سنة 521هـ ـ 1127م رحمه الله تعالى....





عصر المرابطين

القائد المجاهد عبد الله بن عياض

542هـ- 1147م

إن مواكب الأبطال في التاريخ لاتنقطع بطلٌ يودع بطل، بواسلٌ وأسود في وجه العدو لايهابون الموت بل يفتحون صدورهم له بكل ترحاب عقيدتهم الشهادة في سبيل الله ونشيدهم رسمنا على القلب الفتوحات وشعارهم النصر أو الإستشهاد.

سنتحدث الأن عن صنديد من صناديد الأندلس وبطلٌ من أبطال عهد المرابطين الذي اذاق الأعداء ويلات الهزيمة والذل ..

إنه المجاهد البطل عبد الله بن عياض .....

أبو محمد عبد الله بن عياض، وقيل: إن اسمه عبد الرحمن، من القادة المجاهدين الكبار في عهد الدولة المرابطية في الأندلس، فارس الأندلس في عهده بلا منازع كان أميراً لشرق الأندلس، وكان مَقرُّه في مرسية.

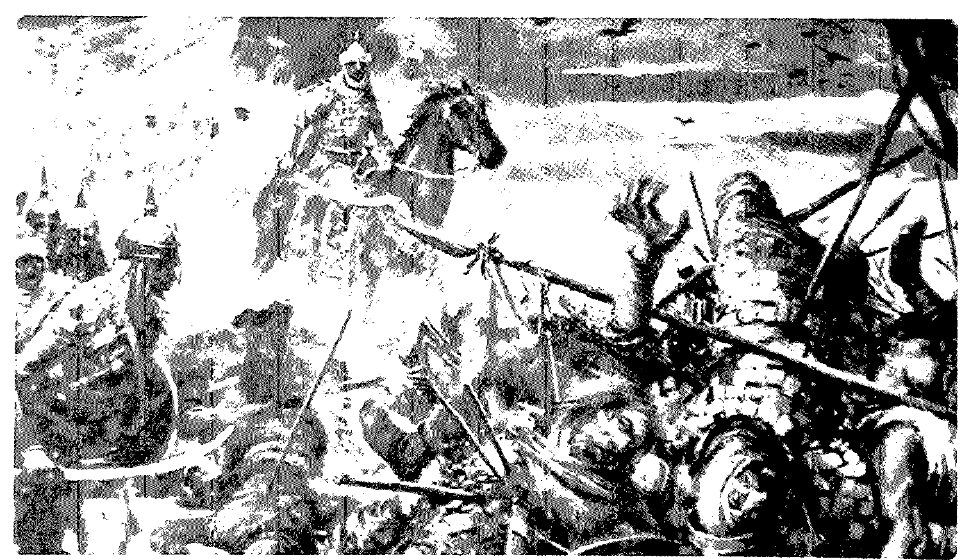
قال المراكشي في المعجب: كان من الصالحين الكبار، بلغني عن غير واحد أنه كان مُجابَ الدعوة، سريع الدمعة، رقيقاً، فإذا ركب الخيل لا يقوم له أحد، وكان النصارى يعدُّونه بمئة فارس، فحمى الله به الناحية مدة إلى أن توفي رحمه الله عليه.

ويروى عنه أنه قال: نزلت محلة الفرنج علينا، فكانوا إذا رمونا بالنبل صار حائلاً بيننا وبين الشمس كالجراد، والذي صح عندنا أن عدد خيلهم مئة ألف فارس، ومن الرجال مئتا ألف أو يزيدون، وكنا نعدُّ على مقربة من سورنا أربع مئة خيمة ديباج أو نحوها نحقق هذا، فاشتد علينا الحصار، فخرجنا في مئتي فارس، فشققنا الروم نقتل فيهم، ولجأنا إلى حصن الزيتونة قاصدين بلنسية.

وكان عبد الله بن عياض على قدر كبير من الشجاعة، يقول أحد جنوده: أبصرت ابن عياض وهو شابٌ حدث، وقد صارع رومياً غلب جميع من في بلاد **الأندلس**، فجاءه الرومي، فدفعه ابن عياض عن نفسه دفعةً حسبت أن الرومي انتفضت أوصاله، ثم أمسك بخاصرة الرومي حتى رأيت الدم تحت أصابع ابن عياض، ثم رفعه، وألقى به على الأرض، فطار دماغه.

وله قصة أخرى: وذلك أنه وقف فارس من جملة خيالة الروم على لاردة، وطلب المبارزة، فخرج ابن عياض عليه قميص طويل الكم قد أدخل فيه حجراً مدحرجاً، وربط رأس الكم، وتقلد سيفه، والرومي شاكٍ في سلاحه، فحمل عليه ابن عياض فطعنه الرومي في الطارقة، فنشب الرمح، فأطلقها ابن عياض من يده، وبادر فضرب الرومي بكمه، فنثر دماغه، فعجبنا وكبرنا، فاشتهر اسمه على صغر سنه، وأما أنا فحضرت معه أيام مملكته حروباً، كان حجر لا يؤثر فيه، وكان في هيئته كأنه برج غريب الخلقة، ولما وصلنا الزيتونة بعد قضاء حوائجنا،

جئنا لاردة في السَّحَر أي الصبح، فوقعنا في خيام العدو المحيط بالبلد، فجعلنا نضرب على الطوارق، ونصيح، فنفرت الخيل، ونحن نقتل من لقيناه، فدخلنا البلد سالمين وكانت أخر معركة له مع إمارة برشلونة الإفرنجية، حيث دارت معركة هزم فيها الفرنجة، وانتصر المسلمون، فلما انفصل المصاف، قصد المسلمون الماء ليشربوا، وتجرد ابن عياض من درعه، ونحو الخمسمئة من الفرنج في غابة عند الماء، فالتفت ابن عياض إلى أصحابه أن ارموا الفرنج بالنبل، فجاءه سهم من الفرنجة في أسفل ظهره، فأخرج منه بعد قتل أولئك الخمسمئة، وإذ بالسهم قد أصاب النخاع، فحملوه إلى مرسية، وتوفي بها من أثر جراحه رحمه الله تعالى سنة 542هـ 1147م، وحزن المسلمون لوفاته، وكان قد أوصى بإمارة شرق **الأندلس** لخادمه محمد بن سعد بن مردنيش.



صورة تخيلية لإحدى معارك القائد عبد الله بن عياض

عصر المرابطين

المفسر عبد الحق بن عطية

1088-1148م

كُلُّ العُلومِ سِوى القُرآنِ مَشغَلَةٌ   إِلّا الحَديثَ وَعِلمَ الفِقهِ في الدينِ

العِلمُ ما كانَ فيهِ قالَ حَدَّثَنا   وَما سِوى ذاكَ وَسواسُ الشَياطينِ

هذا هو دين صنديدنا العملاق، الذي أفنى حياته في خدمة كتاب الله، وبرع في تفسير كلماته، وشرح مفرداته حتى أخرج لنا تفسيراً فريداً من نوعه، و سمي شيخ المفسرين ، كما أنه شيخ المجاهدين المرابطين ولم يكن التفسير يشغله عن الاجتهاد في الفقه واللغة والمنطق حتى غدا علامة عصره ، فيا ترى من هو خادم كتاب الحق هذا؟؟ إنه العالم الجليل عبد الحق بن عطية...

عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية المحاربي الغرناطي، أبو محمد، أحد قضاة الأندلس، ومن صدور رجالها، وكان ابن عطية رحمه الله نابغة بمقاييس النبوغ في عصره؛ لأنه أحاط بكل العلوم المعروفة في زمانه، وكان على جانب كبير من الثقافة والتنوع المعرفي والعلمي.

نشأ في بيت علم وفضل، وتلقَّى العلم عن والده، وعن علماء زمانه، ثم رحل طالباً للعلم، فحصَّل منه العظيم والجليل، وتولّى القضاء لفترة، وكان صاحب جهاد بالسيف، كما كان صاحب جهاد بالقلم،

فجمع بين كلا الفضيلتين.

وكان فقيهاً نبيلاً، عارفاً بالأحكام والحديث والتفسير، أديباً بارعاً، وشاعراً لغوياً ضابطاً، حسن التقييد، له نظم ونثر بارع، وكان غاية في الذكاء والدهاء وحسن الفهم وجلالة التصرف، سريَّ الهمة في اقتناء الكتب، ولي القضاء في مدينة المرية سنة 529هـ في عهد المرابطين، فتوخّى الحق، وعدل في الحكم.

وأجلُّ أثاره العلمية كتابه «**المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**»، الذي أجمع أهل العلم على أنه غاية في الصحة والدقة والتحرير، وقد وصفه أبو حَيَّان فقال: (أجلُّ مَن صنَّف في التفسير، وأفضل من تعرَّض فيه للتنقيح والتحرير)، وقد امتازت عبارات ابن عطية بالسلاسة والسهولة، وتجافى فيه عن كل غموض وتعقيد، ناهيك عن حسنٍ في العرض، وإخلاص في القصد، فجاء تفسيراً محدد الخطوات، واضح العبارات.

وضع ابن عطية لنفسه منذ البداية منهجاً كاملاً في التفسير، ورسم طريقاً واضحة المعالم، حاول الالتزام به ما استطاع إلى ذلك سبيلاً..

وميزة ابن عطية في كتابه لم تقتصر وتقف عند حَدٍّ ما، بل وضع منهجاً كاملاً لتفسيره، وسار شوطاً أبعد من ذلك، إذ رسم للمفسرين من بعده طريقة مثلى، ومنهجية واضحة المعالم، حين جعل من التفسير عِلماً يستند إلى قواعد ومبادئ قائمة على الدقة والاستقصاء والترتيب.

وسنذكر بعض من ميزات ومنهجية العالم ابن عطية في تفسيره:

- قصد أن يكون جامعاً وجيزاً.

- لا يذكر من القصص إلا ما لا تنفك الآية إلا به.

- أثبت أقوال العلماء في المعاني المنسوبة إليهم.

- إذا وقع من العلماء ما يكون منحاه من القول الباطن نبَّه عليه.

- سرد التفسير بحسب رتبة ألفاظ الآية من حكم أو نحو أو لغة، أو معنى، أو قراءة.

- قصد تتبع الألفاظ كيلا يترك لفظًا بلا تفسير، ولا ينتقل من لفظ إلى غيره، ثم يعود إلى لفظ تركه.

- قصد إيراد القراءات متواترها وشاذها، وبيان وجوهها في المعنى واللغة.

- اعتمد تبيين جميع المعاني وجميع محتملات الألفاظ.

وقال عنه صاحب (كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون): ابن عطية أجلّ من صنف في علم التفسير، وأفضل من تعرض للتنقيح فيه والتحرير، وقد اتخذ المتأخرون تفسيره مصدراً للنقل إلى تفاسيرهم منهم القرطبي، كما ضاهى تفسير ابن عطية تفسير الكشاف للزمخشري.

وقال صاحب المطمح في وصفه: فتى العمر كهل العلاء، حديث السن قديم السناء، لبس الجلالة بُرداً ضافياً، وورد ماء الأصالة صافياً، وأوضح للفضل رسماً عافياً، وجعل فهمه شهاباً رصداً، سما إلى رتبة الكهول صغيراً، وشن كتيبة ذهنه على العلوم مغيراً، فسباها معناً وفصلاً،

وحواهـا فرعـاً وأصـلاً، ولـه أدبٌ يسـيل رضراضـاً، ويسـتحيل ألفاظـاً مبتدعـة وأغراضـاً.

ومن جميل شعره يندب فيه عهد شبابه:

سقياً لعهد شبابٍ ظَلْتُ أَمـرَحُ ... في ريعانه وليالي العيشِ أَسحارُ
أيامُ روضِ الصِّبا لم تذوِ أغصنه ... ورَونقُ العُمرِ غَضٌّ والهوى جارُ
والنفسُ تركضُ في تَضميرِ شرّتها ... طرفاً له في زمان اللهوِ إحضارُ

ووصفـه الحافـظ الذهبي بشيخ المفسريـن، إضافـة إلى علمـه وتوليتـه القضـاء، فقـد كان رجـلاً مجاهـداً، شـارك كثير مـن غـزوات المرابطين في **الأندلس**، ثـم قصـد ميورقـة ليتـولى قضاءهـا، فصُـدَّ عـن دخولهـا، وصُرِفَ منهـا إلى لورقـة اعتـداءً عليـه، وبهـا تـوفي رحمـه الله تعـالى سـنة 543هـ 1148م وأجـزل عطايـاه انـه عـلى كل شـيء قديـر .....



عصر المرابطين

المؤرخ والأديب ابن بسام الشنتريني

542هـ- 1147م

أبا بكر المجتبى للأدب رفيع العماد قريع الحسب

أيلحن فيك الزمان الخؤون ويعرب عنك لسان العرب

وإن لم يكن أفقنا واحدا فينظمنا شمل هذا الأدب

لعل تلك الكلمات من أجمل ما ورد عن مؤرخ الأندلس الذي حفظ للأجيال تاريخها وتراثها بعد أن سهر الليل والنهار ومشى على الطرقات وجاب البلدات، ليضع بين أيدينا كتابه المشهور: «**الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**»، ليتداوله الأجيال بعد الأجيال مئات السنين والسنين ...إنه مؤرخ الأندلس الأديب ابن بسام الشنترين..

أبو الحسن علي بن بسام، أديب مؤرخ من أهل شنترين، وشنترين مدينة تقع في غرب الأندلس (في البرتغال حالياً)، وكانت تتبع هذه المدينة لبني الأفطس أصحاب مملكة بطليوس من ملوك الطوائف، وعندما استولى المرابطون على الأندلس بقيادة يوسف بن تاشَفِيْن، وبدؤوا بإنهاء ملوك الطوائف، كانت شنترين قد سقطت على يد ألفونسو السادس ملك قشتالة سنة 486هـ، الذي استغل صراع المرابطين وملوك الطوائف، إلا أن المسلمين عادوا واستردوها، ولكنها سقطت

نهائياً سنة 542هـ، واستولى عليها ألفونسو هنريكين ملك البرتغال، وهي المدينة التي حاول خليفة الموحدين يوسف بن عبد المؤمن استرجاعها، إلا أنه استشهد تحت أسوارها سنة 580هـ.

وولد ابن بسام في شنترين، وغادرها فتىً حدثاً خوفاً من سقوطها بيد البرتغاليين، وقصد مدينة إشبيليا، فأقام بها بضعة أعوام قضاها في بؤس ومشقّة، يدرس على شيوخها، ويتعيش بقلمه وأدبه.

وفي سنة 494هـ قصد مدينة قُرْطُبَة، ودرس على شيوخها، واستقر بها طيلة حياته، وكانت قُرْطُبَة قد فقدت يومئذٍ كثيراً من أهميتها القديمة وبهائها السالف.

ولكنها احتفظت بكثير من سمعتها وتقاليدها العلمية القديمة، وظلت مركزاً من أهم مراكز الدراسة في الأندلس.

عاش ابن بسام في فترة صعبة من التاريخ الأندلسي، هذه الفترة التي شهدت تراجع المسلمين في الأندلس، وسقوط مدنهم واحدة تلو الأخرى بيد الإسبان، وذلك بسبب التخاذل والتناحر الذي أبداه ملوك الطوائف فيها، والذي أدى فيما بعد إلى سقوط طُلَيْطِلَة بيد القشتاليين سنة 479هـ، ثم عبور المرابطين بقيادة يوسف بن تاشَفِيْن إلى الأندلس، وانتصاره الساحق على الإسبان في الزلاقة سنة 479هـ، وانتقالها إلى المرابطين.

ولقد جاء ابن بسام في عصر زهت فيه الآداب، وبهرته هذه النهضة الأدبية التي عاصر فيها جمهرة من أعلامها، وتذوق الكثير من

روائعهم من المنثور والمنظوم، فجالت في خاطره فكرة لم تخطر ببال أحد من قبله، وهي أن الأدب **الأندلسي** لم يُنْصَف من مواطنيه، ولم يقدر قدره، فاعتزم أن يقدم للناس أروع صورة من أدب **الأندلس**، وأدب الطوائف بنوع خاص، فكتب مؤلفه الضخم «**الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**»، بمدينة قُرْطُبَة، الذي فرغ منه سنة 503هـ.

وقد أشار ابن بسام في مقدمة كتابه إلى الدافع الذي جعله يصنف الكتاب، وهو أنه رأى انصراف أهل عصره وقطره إلى أدب المشرق والتزود منه، والإعجاب به، وإهمال أدب بلدهم، فأراد بوضع الذخيرة وجميع ما تضمَّنه من رائق المنثور والمنظوم أن يبصِّر أهل **الأندلس** بتفوق أُدَبائهم، وروعة إنتاجهم، وأنه من حقهم أن يزهوا بأدبهم، وأن يتذوَّقوه، وأن الإحسان ليس مقصوراً على أدب المشرق.

وقسم ابن بسام كتاب «**الذخيرة**» على أربعة أقسام:

أولها لأهل قُرْطُبَة وما يجاورها من بلاد في وسط **الأندلس**.

والثاني لأهل إشبيلية والجانب الغربي من **الأندلس**.

والثالث لأهل الجانب الشرقي من **الأندلس**.

أما القسم الرابع والأخير فقد افرده لمن دخل الى جزيرة **الأندلس** في القرن الخامس للهجرة من أديب وشاعر، وكذلك لبعض مشاهير الكُتّاب آنذاك بإفريقية والبلاد التونسية والشام والعراق.

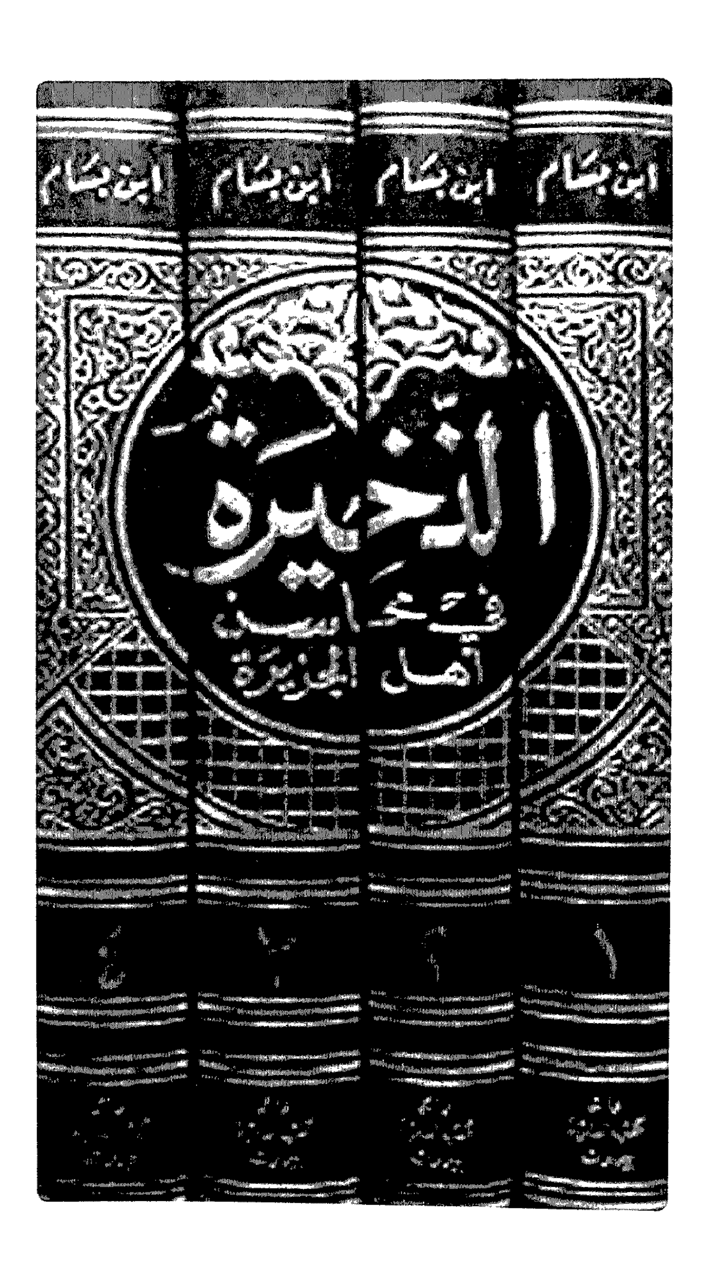
أما المنهج الذي انتهجه في كتابه فهو إيراد توطئة تاريخية، يتبعها بمن

يترجم لهم من الرؤساء والكتّاب والوزراء والشعراء، على هذا الترتيب وهو يبدأ عادة بترجمة العَلَم المُراد في نثرٍ بديع مسجوع، ويورد مقتطفات من شعره أو نثره، وهو يُكثر من المقارنة بين شعر معاصريه وشعر القدامى، ويشير إلى المواضع التي قلَّدوا القدامى فيها.

ويعتبر كتاب **الذخيرة** لابن بسام مثل كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه من الكتب **الأندلسية** المميزة، ويعتبر أروع نموذج للأدب **الأندلسي** الرفيع، وإنه لَيَكاد يشعر القارئ عند تلاوة محتوياته، بأنه يعيش مع شخصياته في عصرهم، وفي ظروف مجتمعهم.

ويمتاز أسلوبه بالمسجع المشرق، كما يمتاز بملاحظاته النقدية القوية، التاريخية والاجتماعية، وهو في أحيان كثيرة لا يحجم عن مهاجمة معاصريه من الأمراء والكتاب الشعراء، وذلك أن ابن بسام كاتب مستقل بعيدٌ عن التملق، فهو لم يخدم أو يتقرب من أحد من ملوك عصره، ولم يتطفل على موائدهم، على عكس كثير من الأدباء والشعراء في عصره، الذين كانوا يحتشدون في قصور الطوائف، ويتقلبون في نعمة أمرائهم.

توفي ابن بسام في مدينة قُرْطُبَة عن سن عالية سنة 542هـ 1147م وهو العام الذي سقطت فيه دولة المرابطين في المغرب على يد الموحدين رحمه الله تعالى .....


ابن بسام
ابن بسام
ابن بسام
ابن بسام
الذخيرة
في محاسن
أهل الجزيرة

عصر المرابطين

العالم القاضي أبو بكر ابن العربي

1076- 1148م

إذا ما عاد بنا الزمن إلى عصر الخلافة الراشدة لنقرأ الفتنة الكبرى التي حصلت بين الصحابة الكرام رضوان الله عليهم، ستحتار عقولنا وتنشغل أذهاننا ونلتمس معرفة الحقيقة التي جرت آنذاك، فلأجل ذلك سخر الله لهذه الأمة علامةً وضع كتاباً من أعظم المؤلفات، فنّد به الفتنة وشرح تفاصيلها ودقائقها بين أمورها وأوضحها بكتابه المشهور «**العواصم من القواصم**» تعالوا بنا إخوتي لنخط بعض الصفحات عن هذا الصنديد ....إنه العالم المجتهد الملقب بأبي بكر بن العربي ...

أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد المعافري الأندلسي الإشبيلي المالكي، الشهير بابن العربي، ختام علماء الأندلس، وآخر أئمتها وحفاظها.

مولده في إشبيليا سنة 468هـ 1076م، وكان والده أبو محمد أديباً شاعراً عالماً، رئيساً في قومه، من وزراء بني عَبَّاد في إشبيليا، ومن أصحاب الإمام ابن حزم، وكذلك أخواله كانوا من البيوتات العلمية الكبيرة في الأندلس.

وقد ارتحل ابن العربي مع والده إلى المشرق لطلب العلم سنة 485هـ، فبدأ في الجزائر، والتقى في بجاية بأبي عبد الله الكلاعي وغيره، ثم رحل إلى سوسة والمهدية في تونس، فالتقى بمجموعة من فقهاء القيروان كالمازري، وابن حبيب، وابن الحداد، ووصل إلى مصر بعد رحلة شاقة قال عنها: **خرجنا من البحر خروج الميت من القبر**.

وسمع في مصر من كثير من العلماء، ثم انتقل إلى بيت المقدس، فأقام فيه ثلاث سنوات، ثم توجه إلى دمشق فكان فيها سنة 489هـ، ومن دمشق انتقل إلى بغداد، وبها سمع من طراد الزينبي، وجماعة من العلماء، وأخذ علم الأصول عن أبي بكر الشاشي، وأبو حامد الغزالي، وفي علم الأدب عن أبي زكريا التبريزي، ومن بغداد نزل في الكوفة، ثم واصل رحلته إلى مكة سنة 489هـ، وبها أخذ عن أبي عبد الله الطبري محدث مكة، ومحمد بن عبد الملك الواعظ، وبعد قضائه مناسك الحج عاد إلى بغداد، والتقى بها الغزالي مرة ثانية، ثم عاد راجعاً إلى بلاده، فمر بمصر، وأقام في الإسكندرية، وبها توفي والده أبو محمد، وقيل: توفي في بيت المقدس.

وعاد إلى **الأندلس** سنة 493هـ، وقد جمع علماً وافراً غزيراً، واشتهر اسمه، ولمع نجمه، وكان من مستشاري الأمير سير بن أبي بكر قائد جيوش المرابطين في **الأندلس** في عهد يوسف بن تاشَفِيْن، ثم ولي القضاء في إشبيليا سنة 528هـ مدة من الزمن، وكان عمره ستين عاماً، فحمدت سياسته، وكان ذا شدة وسطوة، والتزم بالأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر، وفي فترة قضائه احتاج سور إشبيليا إلى بنيان جهة منه، ولم يكن فيها مال متوفر، ففرض على الناس جلود ضحاياهم، وكان ذلك في عيد الأضحى، فأحضروها كارهين، ثم اجتمع عليه جهلة العوام، وثاروا عليه، ونهبوا داره، فخرج إلى قُرْطُبَة.

وأقبل على نشر العلم وتدوينه، وكان رئيساً محتشماً، وافر الأموال، بحيث أنشأ على إشبيليا سوراً من ماله.

وكان فصيحاً بليغاً خطيباً، ثاقب الذهن، عذب المنطق، كريم الشمائل، كامل السؤدد، متبحّراً في العلم، شهد له بذلك أساتذته وتلامذته من بعده، وعنه قال الغزالي: إنه أحرز من العلم في وقت تردده إليَّ ما لم يحرزه غيره مع طول الآمد، وذلك لما خص به من توقد الذهن، وذكاء الحس، واتِّقاد القريحة، وإنفاذ البصيرة، وما يخرج من العراق إلا وهو مستقل بنفسه، حائز قصب السبق بين أقرانه.

ونُقل عنه أنه قال: كل من رحل من **الأندلس** لم يأت بمثل ما أتيت به من العلم إلا الباجي.

وقد بلغ رتبة الاجتهاد في الفقه، وكان شجاعاً في إبداء رأيه وفهمه وتمييزه بين آراء الأئمة الكبار، والحكم بفساد الرأي المخالف كائناً من كان قائله إذا لم ير صوابه، حتى ولو كان المخالف الإمام مالك نفسه.

وترك ابن العربي مؤلفات كثيرة في مختلف أنواع العلوم، ففي القرآن وعلومه صنف «**الناسخ والمنسوخ**»، و«**كتاب المشكلين**»، و«**أحكام**

القرآن»، و«**أحكام القرآن الصغرى**»، و«**قانون التأويل**»، وغيرها.

وصنف في علوم الحديث «**عارضة الأحوذي بشرح الترمذي**»، و«**المسالك إلى موطأ الإمام مالك**»، و«**القبس في شرح موطأ مالك بن أنس**»، و«**النيربين في شرح الصحيحين**»، و«**الأحاديث المسلسلات**»، وغيرها.

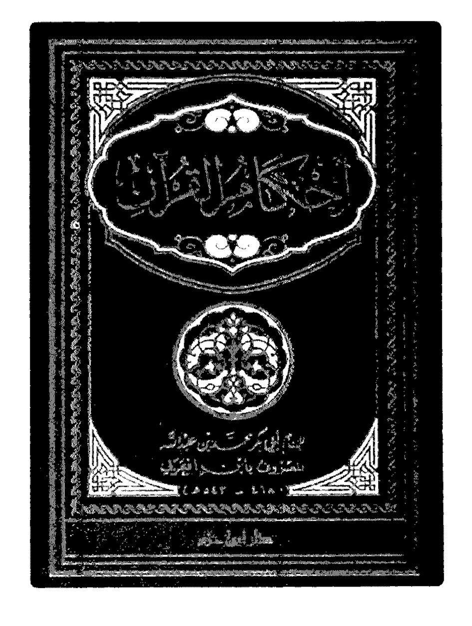
كما صنف في علم الكلام كتاب «**العواصم من القواصم**»، وقد تحث في هذا الكتاب عن موقعة صفين بين علي ومعاوية رضي الله عنهما، وما نشأ عنها من خلاف وعقائد، وله «**الدواهي والنواهي**»، و«**رسالة الغرة**» رد فيها على رسالة لابن حزم تسمى رسالة الدرة في مسائل الاعتقاد، و«**الأمد الأقصى بأسماء الله الحسنى**»، و«**كتاب المتوسط في معرفة صحة الاعتقاد**».

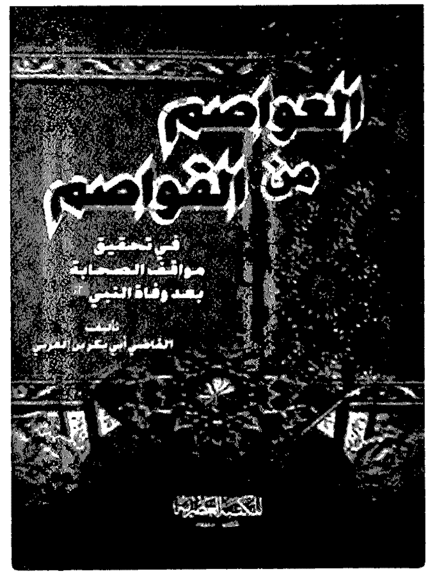
وصنف في الفقه «**الإنصاف في مسائل الخلاف**»، و«**التلخيص في أصول الخلاف**»، و«**تلخيص التلخيص**»، و«**الرسالة الحاكمة على الأيمان اللازمة**».

وفي أصول الفقه صنف «**المحصول في أصول الفقه**»، و«**التمحيص في أصول الفقه**»، و«**نكت المحصول في علم الأصول**».

وله عدة مؤلفات في السيرة والتاريخ واللغة والنحو كـ«**سراج المهتدين**» في السيرة، و«**أعيان الأعيان**» في التاريخ، و«**ملجئة المتفقهين إلى غوامض النحويين واللغويين**»، وغير ذلك من المؤلفات الواسعة النافعة.

وبعـد تركـه للقضـاء، ودخـول الموحديـن إلى إشـبيليا، خـرج إلى قُرْطُبَـة، ثـم عـبر البحـر مـع أهلـه إلى المغـرب، فحُبِـس بمراكـش نحـو سـنة، ثـم أطلقسراحـه، وتـوفي قـرب فـاس ودُفِـنَ قربهـا سـنة 543هــ 1148م رحمـه الله تعـالى وأسـكنه فسـيح جناتـه.





عصر المرابطين

الطبيب عبد الملك ابن زهر

1091- 1162م

كما أن حلم ملايين الشباب اليوم هو الدراسة في أرقى جامعات العالم والمتمثلة بجامعات الغرب، كان هذا الحلم هو غاية المنى لشباب أوربا عندما كانوا يطمحون في الدراسة بالجامعات العربية والإسلامية!! نعم وهذا لا يخفى على أحد، إذ كانت جامعة قرطبة إحداها، جامعة قرطبة التي خرجت آلاف العباقرة والأطباء والمهندسين والعلماء، وخرجت أيضاً أعظم طبيب في عصره وزمانه، ذاك الطبيب الذي حارب الخزعبلات والخرافات واتجه نحو العلم فأجاد بتجاربه وأبدع...

فهل عرفتم من هو هذا الطبيب؟؟؟ إنه الطبيب الحاذق عبد الملك بن زهر الإشبيلي.

عبد الملك بن زهر بن عبد الملك بن مروان، أو أبو مروان، الملقب ابن زهر الإشبيلي، وهو أحد الأطباء المسلمين **الأندلسيين** المعروفين في إشبيلية.

وُلِد في إشبيلية عام 484هـ 1091م، وقد سكنت عائلته **الأندلس** بداية القرن العاشر إلى بداية القرن الثالث عشر ميلادي، وهي عائلة عريقة في مهنة الطب، إذ كان والده أبو العلاء أحد الأطباء المتفوّقين في مجال

عملهم، كما كان جده أيضاً طبيباً ماهراً.

درس ابن زهر الإشبيلي الأدب وعلوم الشريعة والفقه في بداية حياته، ثم تعلّم الطب على يد والده أبي العلاء، ولم يقتصر ابن زهر على ذلك، بل انتقل إلى الشرق، ودرس الطب فيه، ثم عاد إلى بلاده الأندلس، وذهب إلى مدينة دانية، وعمل فيها، فشاع صيته نظراً لمهارته وكفاءته.

وكانلأبن زهر مكانة علمية خاصة في عصره، إذ شرح طريقة التغذية القسرية والاصطناعية عن طريق الحلقوم أو الشرج.

ويقول ابن أبي أصيبعة في طبقات الأطباء عن أبي مروان إنه (كان جيد الاستقصاء في الأدوية المفردة والمركبة، حسن المعالجة، قد ذاع ذكره في الأندلس وفي غيرها من البلاد، واشتغل الأطباء بمصنفاته، ولم يكن في زمانه من يماثله في مزاولة أعمال صناعة الطب).

كما بحث في قروح الرأس وأمراضه، وأمراض الأذنين والأنف والفم والشفاه والأسنان والعيون، وأمراض الرقبة والرئة والقلب، وأنوع الحمى، والأمراض الوبائية، ووصف التهاب غشاء القلب، وميز بينه وبين التهاب الرئة.

وابن زهر من أوائل الأطباء الذين اهتموا بدراسة الأمراض الموجودة في بيئة معينة، فقد تكلم عن الأمراض التي يكثر التعرض لها في مراكش.

كما أنه من أوائل الأطباء الذين بيّنوا قيمة العسل في الدواء والغذاء،

ولم يكن ابن زهر يمارس الطب على الطريقة التقليدية التي كانت تقدس آراء الأقدمين، وتسير على خطاهم، بل كان طبيباً مستقل الرأي، واسع المعرفة، معتدّاً بنفسه، اتخذ سبيل التجربة نهجاً وقانوناً يسير على هديه، وهو القائل: (**إن التجربة تثبت الحقائق، وتذهب البواطل**).

كما قال: (**إن التجربة إما أن تصدق قولي حياً كنت أو ميتاً، وإما أن تكذّبه**).

ويبدو أنه أخذ على نفسه عهداً بأن لا يصدّق إلا ما نتج من تجربة يؤيدها المنطق والبرهان، وهو ما كان له أثر كبير في التطورات العلمية والعملية التي أدخلها الفيلسوف الإنجليزي فرانسيس بيكون في الدراسة والبحث العلمي في أوائل القرن السابع عشر، ليؤسس بذلك الثورة العلمية الحديثة المبنية على الملاحظة والتجريب.

ذكر المؤرخ والطبيب ابن أبي أصيبعة في كتابه «**عيون الأنباء في طبقات الأطباء**» أن ابن زهر ألف سبعة كتب، لكن لم يصلنا منها سوى ثلاثة.

ويعد «**كتاب التيسير في المداواة والتدبير**» أحد أشهر كتب ابن زهر، وهو موسوعة طبية يبرز فيها تضلعه في الطب، وموهبته فيه، وقد أهداه لصديقه ابن رشد الذي ألف فيما بعد «**كتاب الكليات في الطب**»، فكان كل من الكتابين يتمم الآخر، وقد تُرجم هذا الكتاب إلى اللاتينية في البندقية عام 1490م، ثم في ليدن الهولندية عام 1531م، وكان له أثر كبير في الطب الأوروبي، حتى القرن السابع عشر.

كما ألف ابن زهر «**كتاب الاقتصاد في إصلاح الأنفس والأجساد**»، وهو

خلاصة للأمراض، والأدوية، وعلم حفظ الصحة، والطب النفسي، ولا يوجد من هذا الكتاب سوى مخطوطتين: إحداهما في المكتبة الوطنية في باريس، والثانية تملكها مكتبة الإسكوريال في إسبانيا.

وألف أيضاً «**كتاب الأغذية والأدوية**»، الذي يصف فيه مختلف أنواع الأغذية والعقاقير، وآثارها في الصحة، وقد تُرجم إلى اللاتينية.

أما الكتب التي ضاعت فهي: **كتاب الزينة**، و**مقالة في علل الكلى**، و**تذكرة في أمر الدواء المسهل**، و**رسالة في علتي البرص والبهق**، وقد استمر تأثير ابن زهر في الطب الأوروبي حتى القرن السابع عشر الميلادي، وذلك بفضل ترجمة كتبه إلى اللاتينية والعبرية.

وكان ابن زهر الإشبيلي معتدل الطول، قويّ الجسد والبنية، نضر الوجه، إذ لم يتغيّر حتى وفاته، كما كان صديقاً وفياً، وجريئاً في الكلام، توفي ابن زهر في اشبيلية عام 1162م رحمه الله تعالى وعوضه بالجنة.



صورة تخيلية لإبن زهر الإشبيلي

عصر المرابطين

الطبيب محمد بن أسلم الغافقي

561هـ - 1166م

إذا ذهبتم اليوم إلى الساحة المسماه «الكاردينال سالازار» في قرطبة ستجد تمثالاً شامخاً قد نصبه الإسبان لرجل صنديد وعالم وطبيبٍ إسلامي، قد ساد كار الطب في عصره وزمانه وأيامه حتى غدى أعظم طبيب في العيون، والتي عجزت عنها كل ممالك العصر في وقتها، وكتب صنديدنا هذا خمسة وخمسين فصلاً لدراسة أعضاء العين وأمراضها وعلاجاتها!!!!! إنه الحكيم الطبيب محمد بن أسلم الغافقي.

محمد بن قسوم بن أسلم الغافقي القحطاني اليماني، الطبيب، وجراح العيون، والصيدلي البارع، الذي قال عنه العالم الألماني مايرهوف: الغافقي أعلم أطباء المسلمين في العصور الوسطى بالأدوية والأعشاب.

ولد الغافقي في القرن السادس الهجري، في عصر دولة المرابطين في الأندلس، ولم يُعرف تاريخ ميلاده، وشهد سقوط هذه الدولة، وقيام دولة الموحدين، ويقال: إنه ولد في بلدة اسمها بيلكزار، أي القصر الجميل، وهذه البلدة أو القرية تتبع لقُرْطُبَة.

ومحمد بن أسلم الغافقي من الشخصيات المجهولة وغير معروفة

الترجمة، لكنه تراث في هذا العالم، وفي ميدان طب العيون، وما زال يثير اهتمام الباحثين على مستوى العالم، وهناك إجماع على أن إبداع هذا الرجل الفاضل في ميدان الطب عموماً، وطب العيون خصوصاً يمتاز بالدقة، والصرامة العلمية، والمنهجية في طرح القضايا والفرضيات.

تشح المصادر في تعريفنا بمراحل دراسة الغافقي ونشأته العلمية، لكن مخطوطة كتاب ابن أسلم «**المرشد في الكحل**» تبين بعض عناصر التنشئة العلمية للغافقي، وولعه المبكِّر بالعلم، خصوصاً ميدان الطب، ونفهم من المخطوطة أن ابن أسلم الغافقي مارس مهنة الطب من بابها الواسع، بعدما تفقّه في أمهات كتب الطب السابقة عليه، مثل كتب حنين ابن إسحاق، وعلي بن عيسى، وأبي القاسم الزهراوي، وغيرهم.

ولشهرة ابن أسلم الغافقي في الطب ذكره ابن البيطار أكثر من مائتي مرة في كتبه نقلًا عنه.

وكان أول من عَرَّف بالغافقي العالم الفرنسي الشهير-Leclerc- في كتابه «**تاريخ الطب العربي**»، الذي تحدث عن مخطوطة «**المرشد في الكحل**»، وجاء بعده العالم -Hirschberg- في كتابه «**أطباء العيون العرب**»، وقد نبه هذا العالم الفرنسي إلى وجود مخطوطة لكتاب الغافقي في مكتبة الإسكوريال تحت رقم 835.

وألّف الغافقي كتاب «**الأدوية المفردة**» في العقاقير والأعشاب، وقد ضاع أصله، ولم يبق لنا إلا مختصر له عمله ابن العبري، ونشره ماكس

مايرهوف عام 1933م، وقد ترجم أيضاً مايروهوف للغافقي مؤلفه الشهير «**المرشد في الكحل**»، وهو أهم كتاب للغافقي، الذي ينتقل فيه من تشريح العين، وخصائصها، وأمراضها، وأمزجة أصحابها، وصولًا إلى ربط لون العين بالجغرافيا والمناخ، كما تحدث عن أسباب ضعف النظر، وأسباب انعدام الرؤية نهائياً، وبعض الأمراض وعلاجها كالرمد، وبياض العين والقرحة.

كما برع الغافقي في عمليات إزالة المياه البيضاء من العين، وله مؤلفات أخرى في طب العيون، والأورام، والحميات، منها كتاب «**الأدوية والمفردات**» اختصره ابن العبري، وتُرجم إلى العبرية واللاتينية، و«**جامع المفردات**» وقد اختُصر في «المنتخب» بواسطة ابن العبري، وتوجد منه عدة مخطوطات، و«**منتخب الغافقي في الأدوية المفردة**».

وكتاب «**الأعشاب والنباتات الطبية**».

التعريف بكتاب المرشد في الكحل:

يعد كتاب المرشد في الكحل لابن أسلم الغافقي من أهم المصادر والمراجع في تاريخ علم طب العيون، وقد تم الاحتفاظ بالمخطوطة الأصلية في مكتبة متحف الإسكوريال الشهير، والكحل بمعناه العام الشامل هو تلك المواد التي توضع بين الجفنين.

ومن مميزات كتاب «**المرشد في الكحل**» لابن أسلم الغافقي أن فيه شرحاً واسعاً وكاملاً عن كل ما يتعلَّق بطب العيون، بحيث خصص

الغافقي خمسة وخمسين فصلاً لدراسة تركيب أعضاء العين، وأمراض العين وعلاجاتها.

ويعطي الغافقي في كتابه «**المرشد في الكحل**» معلومات نفيسة حول علاقة العين بالمزاج والعالم الخارجي، فنراه يصف العين الزرقاء مثلاً بأن مزاجها بارد يابس، ونظرها أقوى في الليل من النهار، وينطبق هذا على أعين المشايخ والمسنين عندما تميل أعينهم نحو الزرقة، أما العين الكحلاء (السوداء) فهي أكثر حرارة ورطوبة، ولذلك أكثر ما يعرض لها علل البخارات، وعلل الماء، لكثرة رطوبتها، وكلما كانت العين أشد سواداً كانت أكثر حرارة ورطوبة، وأحد أدلته على ذلك أهل الحبشة، فإن أعينهم سوداء لأن الغالب على بلادهم الحرارة.

فلاحظوا إخوتي الكرام عظمة هذا الطبيب الفاضل، وعلو همته، فهو ينتقل من تشريح العين وخصائصها وأمراضها وأمزجة أصحابها، وصولاً إلى ربط لون العين بالجغرافيا والمناخ.

ويشرح لنا الغافقي كذلك كيف أن مزاج العين ومزاج غيرها من أعضاء الجسم يتغير حسب عدة ظروف: السن والجنس ومكان الإقامة والعادة والمهنة، ويقول الغافقي: إن كحولة العين تكون من سبعة أسباب: نقصان النور الباصر، كُدُورة النور الباصر، صغر الرطوبة الجليدية، انخفاض الرطوبة الجليدية، كثرة الرطوبة البيضية، تكاثف الطبقة العنكبوتية، وغلظ الطبقة العينية، وأما أضداد هذه الأسباب السبعة فتعطي اللون الأزرق.

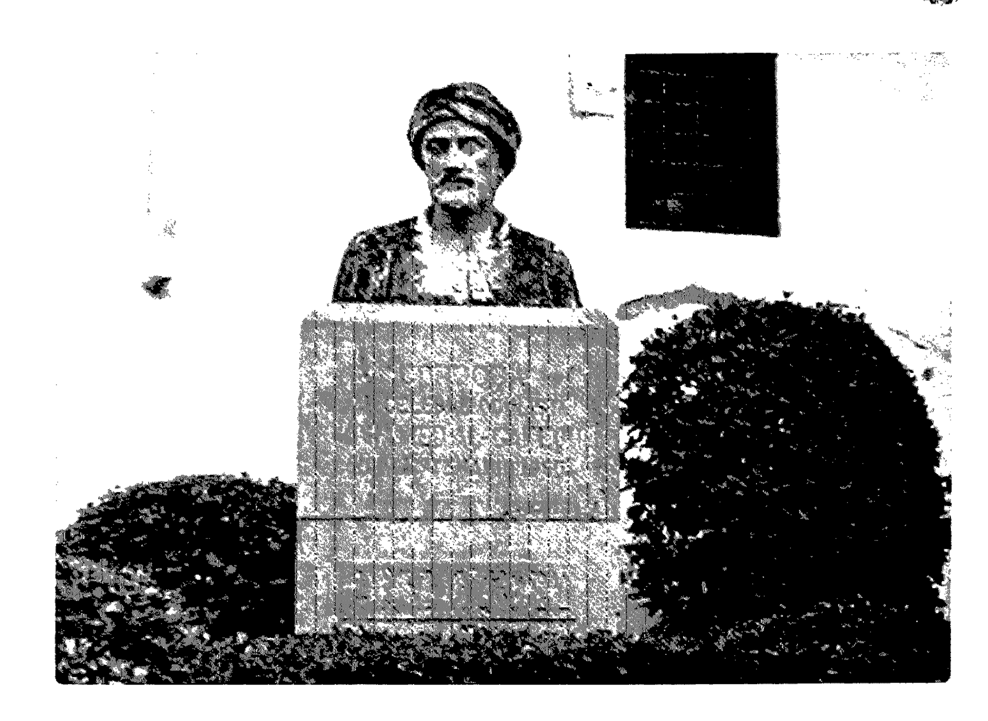
ويخصص ابن أسلم الغافقي في أمراض العين فيقول: إن الضرر ينال حاسة البصر على ثلاثة أوجه: فقدان النظر كلية أو العمى، نقصان النظر، غشاوة وظلمة أو خروج النظر عن طبيعته، فيرى الإنسان أشياء ليست موجودة في الطبيعة.

وتوفّي ابن أسلم الغافقي على الأرجح في النصف الثاني من القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي، وحدد الزركلي في الأعلام تاريخ وفاته بسنة 560هـ 1165م.

وبقي لنا أن نذكر أن تراث هذا العالم الفذ في ميدان طب العيون لا زال يثير اهتمام الباحثين على مستوى عالٍ.

وجدير بالذكر أن هناك نظارات بالإسبانية تدعى(Gafas)، وهي كلمة ذات أصل عربي مشتقة من اسم مؤسس طب العيون الطبيب الأندلسي «**الغافقي محمد بن أسلم**».

وقد كرَّمت حكومة قُرْطُبَة محمد بن أسلم الغافقي، بمناسبة الذكرى المئوية الثامنة لوفاته، في عام 1965م، وشيّدت له تمثالاً نصفيّاً وفاءً له في ساحة ديل كاردينال سالازار في قُرْطُبَة، رحمه الله ونفعنا بعلمه، وجزاه المولى عز وجل عن الإنسانية خيراً كثيراً....



نصب تذكاري للطبيب محمد الغافقي في قرطبة



(AL-MORCHID FI'L-KOHHL)

ou

LE GUIDE D'OCULISTIQUE

Ouvrage inédit de l'oculiste arabe-espagnol

لمحمد بن قسوم بن اسلم الغافقي

MOHAMMAD IBN QASSOÛM IBN ASLAM AL-GHÂFIQÎ

(XII° siècle)

Traduction des parties ophtalmologiques d'après le manuscrit conservé à la bibliothèque de L'Escurial

par

MAX MEYERHOF

Docteur en médecine, Dr 'honoris causa' en philosophie,
Membre du Comité International d'Histoire des Sciences,
Membre de l'Institut d'Egypte,
Oculiste au Caire.

Laboratoires du Nord de l'Espagne
Directeur: J. Cusi, Pharmacien
MASNOU, BARCELONE - ESPAGNE
MCMXXXIII

عصر الموحدين

❊ يوسف بن عبد المؤمن

❊ أبو القاسم السهيلي

❊ عبد الحق الإشبيلي

❊ أبو بكر بن الطفيل

❊ القاسم بن فيره الشاطبي

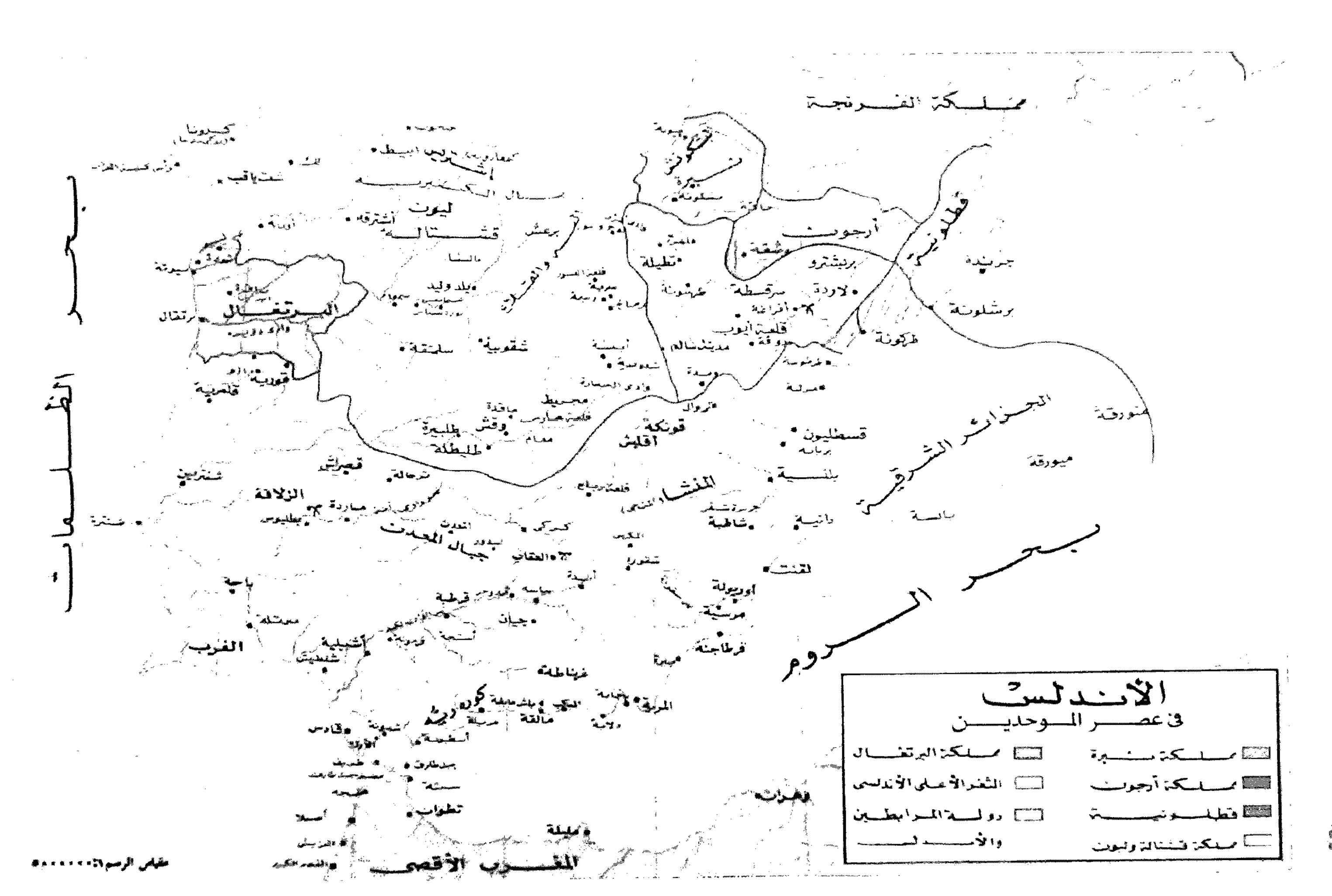
❊ الفيلسوف ابن رشد

❊ ابن زهر الإشبيلي

❊ يعقوب المنصور

❊ الرحالة ابن جبير

❊ ابن الآبار القضاعي


الأندلس
في عصر الموحدين
مملكة نبرة
مملكة البرتغال
مملكة أرجون
الثغر الأعلى الأندلسي
قطلونية
دولة المرابطين
مملكة قشتالة وليون
والأندلس
مملكة الفرنجة
بحر الظلمات
بحر الروم
الجزائر الشرقية
البرتغال
قشتالة
ليون
أرجون
قطلونية
برشلونة
سرقسطة
طليطلة
قونكة
بلنسية
دانية
شاطبة
مرسية
قرطاجنة
قرطبة
جيان
أشبيلية
غرناطة
مالقة
المرية
ميورقة
منورقة
يابسة
باجة
الغرب
الزلاقة
تطوان
سبتة
مليلة
المغرب الأقصى
وهران

عصر الموحدين

أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن

1138- 1184م

(الحمد لله وحده) هذه هي العلامة التي تميز بها صنديدنا في المكاتبات والمراسلات ، نسب الحمد لله وحده على ما أتاه الله من ملك وسلطة وعلم ومعرفة، فقد جمع صنديدنا هذا بين السياسة والفقه والفلسفة والمنطق والحكمة في آن واحد حتى قالوا عنه: أنه كان حازماً شجاعاً، عارفاً بسياسة رعيته وبلده ، وله علم بالفقه، كثيرَ الميل إلى الحكمة والفلسفة، ستتعرف الأن على بطل من أبطال دولة الموحدين المجاهدين... إنه القائد يوسف بن عبد المؤمن.

يوسف بن عبد المؤمن بن علي القيسي الكومي أبو يعقوب، ثالث خلفاء دولة الموحدين في المغرب، وثاني ملوك بني عبد المؤمن في المغرب و**الأندلس**.

مولده في مدينة تينمل في المغرب سنة 533هـ 1138م، وكان أنجب أولاد أبيه وأكملهم في الحرب والمعارف، نشأ في ظهور الخيل بين أبطال الفرسان، وفي قراءة العلم بين أفاضل العلماء.

وعندما توفي والده سنة 558هـ، كان يوسف في إشبيليا والياً عليها، فتولّى الملك في مراكش أخوه محمد بن عبد المؤمن باستخلاف أبيه

له، وظهر منه اشتغال بالراحة، وانهماك في البطالة، فخلعه يوسف، وبويع له وهو في إشبيليا، ثم عبر إلى مراكش، فتمت له البيعة العامة سنة 560هـ، وولى على **الأندلس** أخاه عمر بن عبد المؤمن.

وعندما استقر ملكه في المغرب، ووطّد دعائمه، عبر إلى **الأندلس** سنة 566هـ في مئة ألف فارس من العرب والبربر لحصار محمد بن سعد بن مردنيش أمير بلنسية في شرق **الأندلس**، المتحالف مع ملك قشتالة، ولما علم ابن مردنيش بقدوم يوسف لحربه، أيقن بالهلاك، خصوصاً بعد أن انضم أخوه يوسف بن سعد بن مردنيش إلى جيش الموحدين، فقيل: إنه انتحر بالسم، وبادر ولده هلال بتقديم الطاعة للموحدين.

وأقام أبو يعقوب يوسف في **الأندلس** مدة خمس سنوات، ونشبت بينه وبين ملوك قشتالة وليون والبرتغال حروب كثيرة، لم تُسفِر عن نتائج حاسمة، وخلال إقامته قام بأعمال عمرانية جليلة، منها بناء قنطرة عظيمة على نهر الوادي الكبير تصل بين إشبيليا وطربانة، كما أنشأ الجامع الأعظم في إشبيليا، وجدد سورها من ماله الخاص، وعاد إلى المغرب سنة 571هـ.

وقد ظلَّ يوسف بن عبد المؤمن بن علي يحكم دولة الموحدين اثنين وعشرين عاماً مُتَّصلاً، منذ سنة 558هـ 1163م حتى سنة 580هـ 1185م، وقد نَظَّم الأمور وأحكمها في كل بلاد **الأندلس** وبلاد المغرب العربي، وكانت له أعمال جهادية ضخمة ضدَّ النصارى، لكنه كان يعيبه شيء خطير، وهو أنه كان متفرِّد الرأي، لا يأخذ بالشورى.

وفي سنة 580هـ نقض فرناندو ملك قشتالة العهد بينه وبين الموحدين، فأغار على بلاد المسلمين، مما جعل يوسف يعبر بجيوش ضخمة ليس لقتاله فحسب، بل كان عليه أن يحارب أيضاً ملك ليون وملك البرتغال في غرب الأندلس.

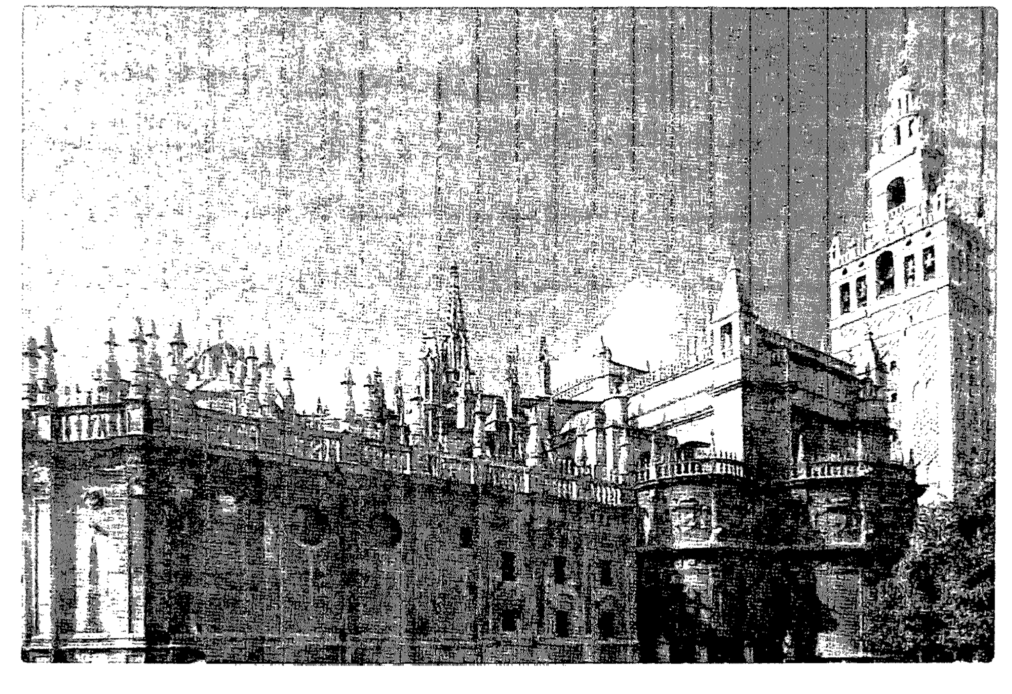
واتجه السلطان يوسف بجيوشه غرباً نحو مدينة شنترين، وكان البرتغاليون قد استولوا عليها سنة 542هـ، فأحكم الموحدون الحصار عليها، وكان البرتغاليون قد أعدُّوا إعداداً قوياً ومتيناً للدفاع عنها، فَجَرَت معارك عنيفة بين الموحدين وحامية المدينة، واستمر القتال أياماً دون أن يتمكن الموحدون من اقتحام المدينة، وفي اليوم السادس أمر يوسف الجيش بالانسحاب من جانب المدينة، فاضطرب الجيش، وكثر الضجيج، واختلطت الأصوات، فانسحب أكثر الجيش ليلاً، وقد خالفوا الخطة المرسومة للانسحاب، فلما علا الصباح، وجدت حامية شنترين الخليفة وحوله قلة من الجيوش والحرس، فهجمت هجمة شرسة وبشدة، واستطاعت أن تصل إلى مقرِّه، وتجرحه جرحاً بليغاً، إلا أن مؤخرة الجيش الموحدي تمكنت من ردِّها على أدبارها، وحُمِل يوسف وهو جريح، يشرف عليه عدد من الأطباء منهم ابن زهر وابن الطفيل، وتم عبور نهر التاج، وبعد مدة وجيزة توفي متأثراً بجراحه سنة 580هـ 1184م، وحُمِل إلى المغرب، فدفن عند أبيه عبد المؤمن، والمهدي ابن تومرت في مدينة تينمل، وعمره سبعاً وأربعين سنة.

قال المؤرخون في وصفه: كان فاضلاً عادلاً ورعاً، حافظاً للقرآن بشرحه وناسخه ومنسوخه، عالماً بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم حسنه وصحيحه، متفنّناً في العلوم الشرعية والأصولية، حسن الحديث، طيب المجالسة، أعرف الناس كيف تكلمت العرب، وأحفظهم لأيامها في الجاهلية والإسلام، وقد صرف عنايته في ذلك، ولقي فضلاء إشبيليا أيام ولايته لها، وطمح إلى العلوم العقلية، فبدأ بعلم الفلسفة والطب، وجمع من كتب الحكمة شيئاً كثيراً، وكان ممن صحبه من العلماء في هذا الشأن ابن الطفيل، وابن زهر الطبيب، والفيلسوف ابن رشد.

وكان شديد الملوكية، ضابطاً لأمور مملكته، بعيد الهمة، سخياً جواداً، استغنى الناس في أيامه، وله في غيبته عن **الأندلس** نوّاب وحكّام قد فوّض الأمور إليهم لما علم من صلاحهم لذلك.

وكان راغباً في العمارة، مثابراً على الجهاد مُشيعاً للعدل، مقسطاً فيه، وخص جزيرة **الأندلس** ببعوثه لها فقمعوا عاصيها، وأحسن لأجنادها، وأمدهم بالخيل لغزو الكفار بائسين من أعدائها رحمه الله تعالى.

وخلفه ابنه يعقوب المنصور الآتي ذكره إن شاء الله....



مئذنة إشبيليا والتي بناها يوسف بن عبد المؤمن



عملة متداولة في عهد الأمير يوسف بن عبد المؤمن

عصر الموحدين

الحافظ أبو القاسم السهيلي

1114- 1185م

أمن يرى ما في الضمير ويسمع أنت المعدّ لكل ما يتوقع

تلك كلماتٌ قالها صنديد قد أخذ الله منه البصر ومنحه البصيرة، تلك البصيرة التي أبصر بها نور كتاب الله عز وجل، فحفظه وفهمه ورتله وجوده حتى غدى واحد من كبار قُرَّاء القراءات المتواترة ليحظى بشرف العلم الذي مزجه بنور القرآن الكريم وفهم الحديث والتفسير وليكون قدوةً لأجيالٍ أتت بعده لترتل القرآن ترتيلا ولتتعلم أنه ليس هناك عائق أمامنا أبداً لطلب العلم وتحصيله....نكتب لكم الأن صفحات موجزة عن العلامة القارئ الحافظ أبو القاسم السهيلي...

الإمام أبو القاسم وأبو زيد عبد الرحمن بن الخطيب عبد الله بن الخطيب أحمد بن أصبغ بن فتوح السهيلي المالقي الأندلسي، مولده في مالقة سنة 508هـ 1114م، ويقال له: السهيلي، نسبة إلى قرية قرب مالقة تسمى «**سهيل**»، وقد سميت بذلك لأنه لا يرى النجم سهيل في تلك البلاد إلا من رأس جبلٍ شاهق فيها.

وأخذ علم الحديث والقراءات، وقرأ القراءات واشتغل وحصل، حتى برع وساد أهل زمانه بقوة القريحة، وجودة الذهن، وحسن

التصنيف، ولازم القاضي أبو بكر بن العربي، فترة من الزمن، وكان مالكي المذهب، يظهر ذلك جلياً في مؤلفاته، أخذ عنه الناس، وانتفعوا بعلمه، وكان مؤرخاً، لغوياً، أديباً نحوياً، أخبارياً، شاعراً، حافظاً له حظ وافر من العلم والأدب، عُمي عندما كان عمره 17 سنة.

وله تصانيف مفيدة، وأشعار ممتعة، ومن أشهر مؤلفاته كتاب «**الروض الأُنُف في شرح السيرة النبوية لابن هشام**»، يقول ابن كثير: يذكر فيه نكتاً حسنة على السيرة لم يسبق إلى شيء منها أو أكثرها.

وكتاب «**نتائج الفكر**»، و «**التعريف والإعلام فيما أُبْهِمَ في القرآن من الأسماء والأعلام**»، و «**شرح آية الوصية**» في الفرائض، وكان ببلده يتسوغ بالعفاف، ويتبلغ بالكفاف، حتى نما خبره إلى صاحب مراكش يوسف بن عبد المؤمن الموحدي، فطلبه إليها، وأحسن إليه، وأقبل بوجهه كل الإقبال عليه، فأقام بها نحو ثلاثة أعوام...

ومما يؤثر عنه أبياته المشهورة في الفرج، وقد أنشدها للحافظ ابن دحية وقال: ما يسأل عبد الله بها في حاجة إلا قضاه إياها وهي:

يا مَنْ يرى ما في الضَّميرِ ويَسمَعُ … أنتَ المُعَدُّ لِكُلِّ ما يُتَوَقَّعُ

يا من يَرجَّى للشدائدِ كلِّها … يا من إليه المُشتكى والمَفزَعُ

يا من خزائنُ رزقه في قول: (كن) … امننْ، فإنّ الخيرَ عندَك أجمعُ

ما لي سِوى قَرعِي لِبَابِكَ حَيلةٌ … فلئِنْ رُدِدتُ فأيُّ بابٍ أَقرَعُ

ما لي سَوى فَقري إليك وسيلةٌ … وبالافتقارِ إليكَ فَقريَ أَدْفعُ

من ذا الذي أَدعو واهتِفُ باسِمـهِ إنْ كانَ فَضلُك عن فَقيرِك يـُمنَـعُ
حاشا لِمـجـدِكَ أنْ تُـقنِّطَ عـاصياً الـفَـضلُ أَجزَلُ والمَـواهِبُ أَوسَعُ
ثـم الـصلاةُ عـلى الـنبـيِّ وآلِـهِ خـيـرِ الأنـامِ ومَـنْ بـهِ يُـستَشـفَعُ

وتوفي رحمه الله تعالى في مراكش المغرب سنة 1185م ودفن فيها....



عصر الموحدين

الحافظ المحدث عبد الحق الإشبيلي ابن الخراط

1116-1186م

إن الذين يطعنون اليوم بالحديث الشريف ويشككون في صحّة كتابي الإمام البخاري والإمام مسلم، فعليهم بداية أن يبحثوا في أرشيف الإسلام لعلهم يجدوا علم الرجال والسند ويروا بأعينهم كيف كانت تُجمع السنة وكيف يؤخذ السند وكيف أن الحديث الواحد لم يأتِ إلا بعد عناء طويل وتعب مرير حتى يصل الإمام إلى حديث صحيح فيخرج إمعة في هذا الزمان ليطعن به وينسف تعبه وأجتهاده، وعلم الرجال والعلل والسند من العلوم المتميزة عند المسلمين وقدوتنا هذا واحد من كبار علماءه في الحديث الشريف إنه العلامة الحافظ عبد الحق بن الخراط...

أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الأزدي الإشبيلي، ويعرف بابن الخراط، محدّث حافظ، فقيه، خطيب، شاعر.

ولد سنة 510هـ 1116م، وتلقى العلم أولاً ببلده إشبيلية عن جُلّة علمائها وكبار شيوخها، أمثال المحدث الكبير أبي الحسن ابن شريح، وأبي حفص عمر بن أيوب، وطاهر بن عطية المري، وأبي بكر ابن مديد، وطارق بن موسى، وغيرهم.

أخذ بالخصوص عن المحدث الشهير أحمد بن عبد الملك الأنصاري الذي فاق أهلَ عصره في الحديث وعلومه، حتى كان يقال عنه: ابن معين وقته، وبخاري زمانه.

ألّف في السنن كتابه الكبير المسمى: «**المنتخب المنتقى**»، الذي جمع فيه مفترق الصحيح من الحديث الواقع في المصنفات والمسندات.

ولقد لازم عبد الحق الإشبيلي، المحدث الكبير الأنصاري، وعليه تخرج، ومنه استنتج طريقه في تأليف كتب الحديث في الأحكام الشرعية، وحذا حذوها، وتفرغ لنشر العلم وتدريسه ببجاية، فبعث بها نهضة علمية ذات أثر كبير، جعلت من هذه المدينة صلة الوصل في الثقافة بين المغرب والمشرق.

والعالم عبد الحق يعدُّ من المكثرين في التآليف، إذ صنف عدة كتب في الحديث وغيره، منها:

1) **الجمع بين الصحيحين، في مجلدين.**

2) **كتاب المعتل في الحديث.**

3) وكتاب **المرشد**، ضمنه حديث مسلم كله، وما زاد البخاري على مسلم، وأضاف على ذلك أحاديث حساناً وصِحاحاً من كتاب أبي داوود، والنسائي، والترمذي، وما جاء في كتاب الموطأ، مما ليس في البخاري ومسلم، وهو أكبر من صحيح مسلم.

4) وكتاب **الجامع الكبير في الحديث**، جمع فيه أحاديث الكتب الستة،

وأضاف إليه كثيراً من مسند البراز وغيره.

5) **وكتاب التوبة**، في مجلدين.

6) **ومعجزات الرسول عليه السلام**، في مجلد.

7) **وكتاب العاقبة في الزهد.**

8) **وكتاب تلقين الوليد في الحديث.**

9) **وكتاب الأنيس في الأمثال والمواعظ والحكم والآداب من كلام الرسول عليه السلام.**

10) **وكتاب مختصر الكفاية في علم الرواية.**

11) **وكتاب فضل الحج والزيارة.**

12) **وكتاب المنير.**

13) **وكتاب الرقائق.**

14) **وكتاب الرشاطي في الأنساب من القبائل والبلاد**، وهو في مجلدين.

15) **وكتاب الحافل في اللغة**، ضاهى به كتاب «القرويين» للهروي، يقع في سبعة عشر مجلداً.

16) **وله كتاب مهم في الفقه المالكي**، تعقب فيه على كتاب « التهذيب» لبراذعي، انتقد عليه أشياء كثيرة أحالها على معناها، وهو من أهم الكتب الحديثية التي ألفها عبد الحق الإشبيلي.

17) **كتاب الأحكام الشرعية**، وهي كبرى، ووسطى، وصغرى التي عرف واشتهر بها بين المحدثين، فانتشرت في جميع الأقطار الإسلامية، وكثر تداولها بين العلماء.

تقع «**الأحكام الكبرى**»، في ست مجلدات ضخمة استقاها عبد الحق من كتب الأحاديث الصحاح، وأحاديثها مسندة إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

أما «**الأحكام الوسطى**»، فتقع في مجلدين.

«**والأحكام الصغرى**» وتعرف أيضاً «**بمختصر الأحكام الشرعية**» تقع في مجلد متوسط الحجم، وهي في لوازم الشرع والنهي وأحكامه وحلاله وحرامه، في ضروب الترغيب والترهيب، وذكر الثواب، والعقاب، أخرجها من الكتب الستة، ومن الموطأ، ومن كتب الأحاديث الأخرى الصحيحة، فتخيرها صحيحة الإسناد، معروفة عند النقاد من المحدثين الكبار، وهي محذوفة الأسانيد.

أما مكانة عبد الحق الإشبيلي العلمية لا تخفى على كبار العلماء، فقد اعتمده الحفَّاظ المحدثون النقاد في التعديل والتجريح، ومدحوه بذلك، كالحافظ الذهبي، والحافظ ابن حجر العسقلاني، كما اعتمده الفقهاء الكبار، أمثال ابن الحاجب، والشيخ خليل، وابن عرفة، وغيرهم الكثير، لأن عبد الحق إذا سكت عن الحديث، فإنه لا يسكت إلا على الصحيح والحسن.

قال الفقيه ابن عبد السلام: ومواد الاجتهاد في زماننا أيسر من زمان المتقدمين، لو أراد الله بنا الهداية، لأن كتب الأحاديث والتفاسير دونت، وكان الرجل يرحل في سماع الحديث الواحد.

وكان العالم عبد الحق الإشبيلي يُزاحم فحول الشعراء.

ومن جميل شعره في الوعظ:

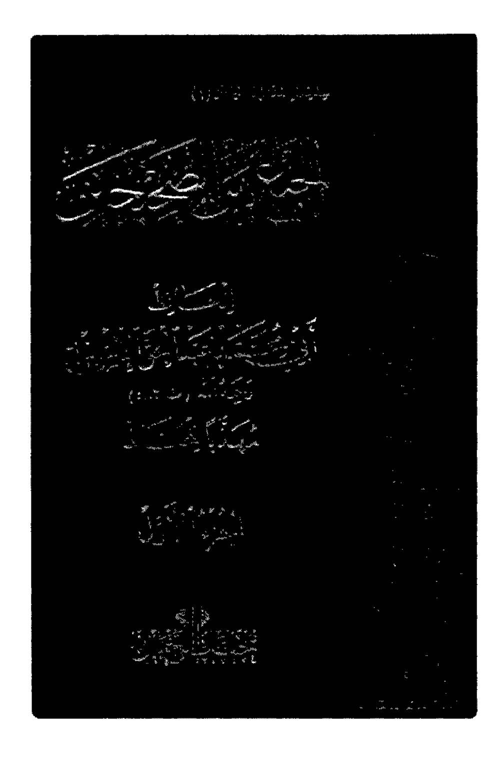
إنَّ في الموتِ والمَعادِ لَشُغلاً ... وادِّكاراً لذي النُّهى وبَلاغا

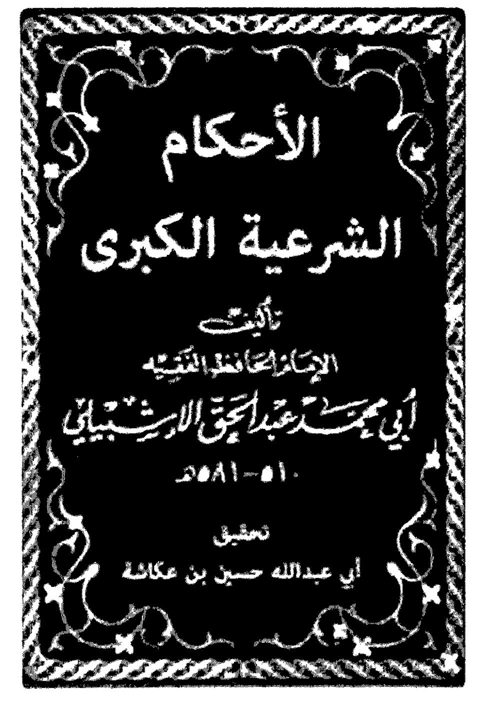
فاغتَنِمْ خُطَّتَينِ قَبلَ المَنايا ... صِحةَ الجسمِ يا أخي والفَراغا

واختلف المؤرخون في السنة التي تُوفي فيها العالم عبد الحق الإشبيلي، فمنهم من يقول: إنه تُوفي سنة 581هـ، وفريق آخر يقول: إنه توفي سنة 582هـ، ومنهم الفقيه الغبريني الذي ألف لعلماء بجاية لهذا العهد وله كتاب «**عنوان الدراية**».

ويقول الغبريني: «وكان تاريخ وفاة عبد الحق مكتوباً في رخامة عند قبره الذي يوجد خارج باب المرسى ببجاية، وتوفي بها أواخر ربيع الثاني من عام اثنين وثمانين وخمسمائة 582هـ 1186م.

هذا هو عبد الحق الأزدي الإشبيلي المحدث الكبير، صاحب التآليف الحديثية المقيدة العديدة وغيرها، الذي عاش عمره كله قارئاً باحثاً مُنقِّباً، مُحقِّقاً، انتهت حياته الثقافية، وهو على قمة مجد علمي بعد عمر مديد يزيد على سبعين سنة، رحمه الله وجزاه عنا كل خير.




الأحكام
الشرعية الكبرى
تأليف
الإمام الحافظ الفقيه
أبي محمد عبد الحق الإشبيلي
٥١٠-٥٨١هـ
تحقيق
أبي عبدالله حسين بن عكاشة

عصر الموحدين

الفيلسوف أبو بكر بن الطفيل

580هـ- 1185م

لم ينحصر إبداع علماء المسلمين في الشريعة فحسب، بل سبقوا الأمم في الطب، وسبقوا اليونانيين في الفلسفة وعلم الكلام حتى أصبح هناك علماً مستقل يسمى «**الفلسفة الإسلامية**» بعد أن بلغ علمائها السماء بالمجد والفهم والعمق، فكان لهم نصيبٌ كبير مما خطه التاريخ لنا وكتبه عن هؤلاء الجهابذة والصناديد ليكن منهم شخصيتنا هذه إنه الطبيب والفيلسوف الكبير أبو بكر بن الطفيل....

أبو بكر محمد بن عبد الملك بن محمد بن طفيل القيسي، أحد أعلام الطب والفلسفة والحكمة في الأندلس، ومن عباقرة التفكير الإسلامي،

أصله من وداي آش من أعمال غرناطة، تلك المدينة التي خرَّجت كثيراً من العلماء والأدباء.

درس ابن الطفيل الفقه والحديث أولاً، ثم مال إلى الحكمة وعلوم الأوائل، فدرس الطب في إشبيليا، وكان في مقدمة أساتذته ابن باجة،

وهو من أعظم فلاسفة الأندلس يومئذٍ، وبرع منذ شبابه في الفلسفة والطب، كما برع في الفقه والأدب، وبدأ ابن الطفيل حياته في الوقت الذي بدأت فيه دولة المرابطين في الأندلس تنهار، وقامت في كل مدينة

أندلسية إمارة جديدة، وكانت بلده وادي آش قد حذت حذو غيرها، فاستقلّ بها أحمد بن ملحان الطائي سنة 540هـ، وكان ابن الطفيل من كتّابه، وخَدَمَه مدة من الزمن، ثم سقطت إمارة ابن ملحان بعد أن استولى الموحدون على الأندلس، وانتقل ابن الطفيل إلى خدمة الموحدين، فكان من كتّاب عثمان بن عبد المؤمن بن علي الموحدي أمير مالقة وسبتة والجزيرة الخضراء، ثم انتقل إلى إشبيليا عندما تولى إمرتها يوسف بن عبد المؤمن والذي أصبح خليفة الموحدين بعد وفاة أبيه سنة 558هـ، وكان للأمير يوسف اهتمام كبير بالعلم والعلماء، فجمع حوله ثلة من كبار المفكرين والأدباء والفقهاء في عصره، وكان في مقدمتهم ابن الطفيل، وأضحت إشبيليا في عهده مركز الثقل الفكري والعلمي في الأندلس خلفاً لقُرْطُبَة عاصمة الخلافة السابقة، إضافة لكونها عاصمة الموحدين في الأندلس.

تقرب ابن لطفيل من الأمير يوسف حتى أصبح طبيبه ومستشاره الخاص، ورافقه إلى مراكش عندما انتقل يوسف إليها بعد أن تمت مبايعته بالخلافة سنة 558هـ، وكان موضع ثقته، وقد عهد إليه الخليفة بتنظيم قصيدة حماسية لحث العرب في المغرب وإفريقيا على الجهاد في الأندلس، والإشادة بالعرب ونخوتهم وطيب منبتهم، فنظم ابن الطفيل قصيدة مشهورة من أربعين بيتاً تفيض بلاغة وروعة، وتدل على ما كان للفيلسوف من منزلة عالية في النظم، تضعه في صف كبار الشعراء وقد جاء في مطلعها:

أَقيمُوا صُدورَ الخيلِ نحوَ المضاربِ ... لغزوِ الأعادي واقْتِناءِ الغَرائبِ

وأذكوا المذاكي العادياتِ على العدا ... فقد عرضتْ للحربِ جُردَ السلاهِبِ

ولما عبر يوسف بن عبد المؤمن إلى الجهاد في الأندلس سنة 566هـ كان ابن الطفيل في رفقته، وقضى ابن عبد المؤمن في الأندلس خمسة أعوام، كان مقامه في إشبيليا، وقد اجتمع حوله يومئذٍ ثلاثة من أئمة التفكير الإسلامي، هم طبيبه الخاص ابن الطفيل، وتلميذه القاضي أبو الوليد ابن رشد، والطبيب العبقري عبد الملك بن زهر الإشبيلي، وكان الخليفة يشغف بالأخص بملازمة صديقه وطبيبه ابن الطفيل، ولا يصبر على فراقه.

وكان ابن الطفيل يقوم بمهمة السفير بين الخليفة والعلماء، ويدعوهم إليه من مختلف الأقطار، وينبِّه على رفيع قدرهم لدى الخليفة، وهو الذي نوه للخليفة بفضل ابن رشد وبراعته، وهو الذي أشار على ابن رشد بوجوب عمل تلخيص جديد لشروح أرسطو، وتقريب مفاهيمها، وكشف غموضها، وكانت بينه وبين ابن رشد مراجعات ومباحثات في «**رسم الدواء**».

ولما توفي الخليفة يوسف بن عبد المؤمن بعد جراحه في حصار شنترين سنة 580هـ، استمر ابن الطفيل في منصبه طبيباً خاصاً للخليفة الجديد يعقوب المنصور بن يوسف.

ومن أشهر مؤلفات ابن الطفيل: رسالة «**حي بن يقظان**»، أو «**أسرار الحكمة المشرقية**» وهي قصة فلسفية رائعة تلخص أسرار الطبيعة

والخليقة»، و«**الأرجوزة الطبية المجهولة**» في أكثر من 7700 بيت، ورسالة «**النفس**»، وغيرها من مؤلفات ورسائل أخرى لم تصل إلينا، وللكاتب الفرنسي «**ليون غوتيه**» كتاب في حياته وآثاره.

ويقال: إن ابن طفيل كانت له آراء مبتكرة في الفلك، ونظريات في تركيب الأجرام السماوية وحركاتها....

ويقول الباحث ليون غوتيه في كتابه عن ابن طفيل: على الرغم من عدم وجود أي شيء مكتوب عن الفلك، باستثناء بعض الفقرات القصيرة في كتاب حي ابن يقظان، فإننا نعرف أن ابن طفيل لم يكن راضياً عن النظام الفلكي الذي وضعه بطليموس، وأنه فكر في نظام جديد، واستشهد الكاتب على ذلك بما كتبه كل من ابن رشد والبطروجي، فابن رشد في شرحه الأوسط لِـ«**الآثار العُلوِيَّة**» لأرسطو، انتقد بدوره فرضيات بطليموس عن تكوين الأفلاك وحركاتها، وقال: إن ابن طفيل يوفر في هذا المجال نظريات رائعة يمكن الاستفادة منها كثيراً.

كما أن البطروجي في مقدمة كتابه الشهير عن الفلك، ذكر أن ابن طفيل أوجد نظاماً فلكياً، ومبادئ لحركاته، غير تلك المبادئ التي وضعها بطليموس.

ويتساءل الباحث الفرنسي عن احتمال أن تكون فرضيات ابن طفيل تشتمل على بعض العناصر الأساسية من الإصلاح الفلكي العظيم الذي جاء به كوبرنيك وجاليلي بعد أربعة قرون..

وتـوفي ابـن الطفيـل سـنة 581هـ 1185م في عاصمـة الخلافـة الموحديـة مراكـش، ودفـن بهـا، وحـضر الخليفـة يعقـوب جنازتـه بنفسـه رحمه الله تعالى وأسكنه فسيح جناته....





صورة تخيلية للفيلسوف أبو بكر بن الطفيل و كتابه

عصر الموحدين

الإمام المقرئ ابن فيره الشاطبي

1144- 1194م

بَدَأْتُ بِبِسْمِ اللهُ فِي النَّظْمِ أَوَّلاَ تَبَارَكَ رَحْمَاناً رَحِيماً وَمَوْئِلاً، وَثَنَّيْتُ صَلَّى اللهُ رَبِّي عَلَى الرِّضَا مُحَمَّدٍ المُهْدَى إِلَى النَّاسِ مُرْسَلاً وَعِتْرَتِهِ ثُمَ الصَّحَابَةِ ثُمّ مَنْ تَلاَهُمْ عَلَى الْإِحْسَانِ بِالخَيْرِ وُبَّلاَ وَثَلَّثْتُ أَنَّ الْحَمْدَ لله دائِماً وَمَا لَيسَ مَبْدُوءًا بِهِ أَجْذَمُ الْعَلاَ وَبَعْدُ فَحَبْلُ الله فِينَا كِتَابُهُ فَجَاهِدْ بِهِ حِبْلَ الْعِدَا مُتَحَبِّلاَ ....

ما تلك الابيات إلا مفتاح بحرٍ من النظم الجزيل لا يستغني عنه قارئ ومجود لكتاب الله جل وعلا، إنها مطلع منظومة «**حرز الأماني ووجه التهاني**» في القراءات السبع، فكانت سراجاً لطلاب علم القراءات الذي اختصهم الله تعالى في حفظ كتابه العزيز، هي من نظم صنديدنا الجليل الإمام القاسم بن فيره الشاطبي....

القاسم بن فيره بن خلف بن أحمد الرعيني ، والرعيني نسبة إلى رعين من أقيال اليمن، أبو محمد، الإمام العامل القدوة، سيد القراء.

وُلِدَ الإمام الشاطبي في آخر سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة 538هـ 1144م بشاطبة في الأندلس، ونشأ بها مُقبلاً على العلم، حيث تعلَّم القراءات على شيخه أبي عبد الله محمد بن أبي العاص النَّفزي، ثم رحل إلى بلنسية

بالقرب من بلده، فعرض بها التيسيرَ مِن حفظه، والقراءاتِ على ابن هُذيل، وسمع منه الحديثَ، ثم رحل للحَجِّ فسمع مِن أبي طاهر السِّلَفي بالإسكندرية، ولما دخل مصر أكرمه القاضي الفاضل، وهو من أصحاب السلطان صلاح الدين، وعرف مقداره، وأنزله بمدرسته التي بناها داخل القاهرة، وجعله شيخاً لها، وفيها نظم قصيدتَه اللامية الموسومة بـ(**حِرز الأماني ووجه التَّهاني**)، والتي اشتهرت في الآفاق باسم الشاطبيَّة نسبةً إليه، وبقي متصدراً لإقراء القرآن الكريم وقراءاته والنحو واللغة، فعظم شأنه، وبَعُدَ صيته وكان عالماً بكتاب الله قراءةً وتفسيراً، وبحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، مبرِّزاً فيه.

وكان الامام الشاطبي ضريراً، وله الباع الطويل في فن القراءات والنحو والفقه والحديث، وله النظم الرائق، مع الورع والتقى والصبر على فقرٍ شديد، وكان يقول عند دخوله إلى مصر: إنه يحفظ وقر بعير من العلوم، بحيث لو نزل عليه ورقة أخرى ما احتملها.

وكان إذا قُرئ عليه صحيح البخاري ومسلم والموطأ تُصحح النسخ من حفظه، ويملي التعليقات على المواضع المحتاج إليها، وكان أوحد زمانه في علم النحو واللغة، عارفاً بعلم الرؤيا، حسن المقاصد، مخلصاً فيما يقول ويفعل ،وقد انتفع به خلق كثير، وكان يتجنب فضول الكلام، ولا ينطق في سائر أوقاته إلا بما تدعو إليه الضرورة، ولا يجلس للإقراء إلا على طهارة في هيئة حسنة، وخشوع واستكانة، وكان يمرض المرض الشديد، فلا يشتكي، ولا يتأوَّه، وإذا سئل عن حاله قال:

العافيـة، لا يزيـد عـلى ذلـك.

ولعـل أبـرز مـا اشـتُهر بـه الشـاطبي هـو قصيدتـه المشـهورة المسـماة بــ «حـرز الأمـاني ووجـه التهـاني» في القـراءات كـما ذكرنـا سـابقاً، ولقـد أبـدع فيهـا كل الإبـداع، وهـي تحتـوي عـلى ألـف ومائـة وثلاثـة وسـبعين بيتـاً، وتُعـدُّ عمـدة القـراء في نقلهـم، فقـلَّ مـن يشـتغل بالقـراءات إلا ويُقـدِّم عـلى حفظهـا ومعرفتهـا، وهـي مشـتملة عـلى رمـوز عجيبـة، وإشـارات خفيفـة لطيفـة، لم يسـبقه أحـد إلى مثلهـا، وقـد روي أنـه كان يقـول: لا يقـرأ أحـد قصيـدتي هـذه إلا وينفعـه الله عـز وجـل بهـا، لأني نظمتهـا لله تعـالى مخلصـاً في ذلـك.

وفي متـن الشـاطبية، ذلـك النظـم المدهـش نجـد الشـاطبي لم يكتـفِ بالقـراءات فحسـب، بـل ضَمَّـن عـلى منظومتـه العديـد مـن الفوائـد النحوية واللغويـة، والإرشـادات الوعظيـة، والاقتباسـات الحديثـة.

والشـاطبية قصيـدة لاميـة اختـصرت كتـاب (**التيسـير في القـراءات السـبع**) للإمـام أبي عمـرو الـداني، وقـد لقيـت إقبـالاً منقطـع النظـير، ولا تـزال العمـدة لمـن يريـد إتقـان القـراءات السبع، وظلَّـت موضـع اهتـمام العلـماء منـذ أن نظمهـا الشـاطبي روايـة وأداءً، وذلـك لإبداعهـا العجيـب في اسـتعمال الرمـز، وإدماجـه في الـكلام، حيـث اسـتعمله عوضـاً عـن أسـماء القُـرَّاء أو الـرواة، فقـد يـدل الحـرف عـلى قـارئ واحـد أو أكثـر مـن واحـد، وهنـاك رمـوز ومصطلحـات في المنظومـة البديعـة لا يعرفهـا إلا مـن أتقـن منهـج الشـاطبي، وعـرف مصطلحـه، وقـد ضَمَّـن في مقدمـة المنظومـة

منهجه وطريقته، ومن أبياتها:

وَفِي يُسْرِهَا التَّيْسِيرُ رُمْتُ اخْتِصَارَهُ فَأَجْنَتْ بِعَوْنِ اللهِ مِنْهُ مُؤَمَّلاَ

وَأَلْفَافُهَا زَادَتْ بِنَشْرِ فَوَائِدٍ فَلَفَّتْ حَيَاءً وَجْهَهَا أَنْ تُفَضَّلاَ

وَسَمَّيْتُهَا «حِرْزَ الْأَمَانِي» تَيَمُّناً وَوَجْهَ التَّهَانِي فَاهْنِهِ مُتَقَبِّلاَ

ولم يحظَ كِتابٌ في القراءات بالعناية التي حظيت بها المنظومة...

كما نظم قصيدة دالية في خمسمئة بيت مَنْ حفظها أحاط علماً بكتاب التمهيد (في شرح موطأ الإمام مالك) لابن عبد البر القرطبي.

ومن شعره رحمه الله:

ألم ترَ أن الدِّين يندُب أهلَه غريباً شديداً واحداً دُون صاحبِ

إذا عدد القرآن تُتلى حروفُه ويَنسى حُدُوداً كُل أفقٍ وجانبِ

يقول: ألستُم تُؤمنون بربكم منُزِّل آياتِ الكتابِ العجائبِ

فما لكُمُ عنها عُروضاً فعالُكُم ولا بُدَّ من عرضٍ على الله حاسبِ

لمن يترُك القراءُ وردَ فُراته وُرُوداً من الدُّنيا أُجاج المشاربِ

وقال عنه ابن الجزري رحمه الله: كان الشاطبي أعجوبة في الذَّكاء، آيةً من آيات الله، مواظباً على السُّنة، وقال: بلغنا أنَّه وُلد أعمى.

وقال عنه ابن كثير رحمه الله: كان دَيِّناً خاشعاً ناسكاً كثيرَ الوقارِ، لا يتكلَّم فيما لا يعنيه.

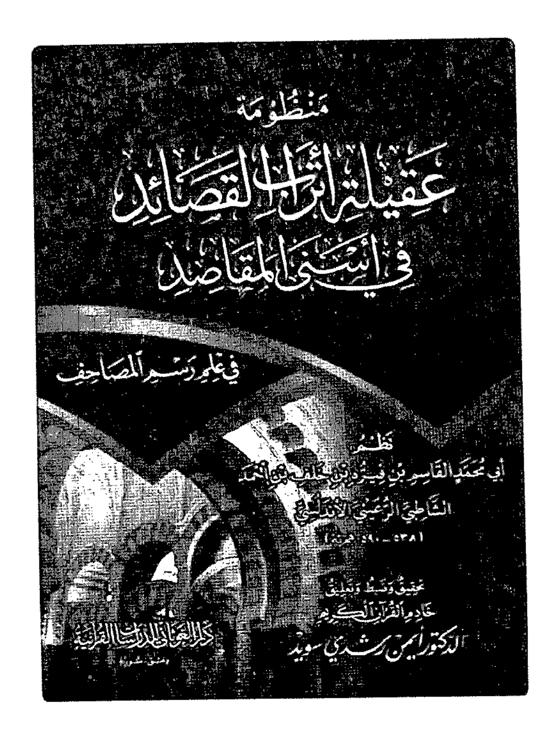
وقال الحافظ الذَّهبي رحمه الله: واستوطن مصر، واشتهر اسمُه، وبعُد صيتُه، وقَصَدَه الطلبة من النَّواحي، وكان إماماً علَّامةً ذكيّاً كثيرَ الفنون، منقطعَ القرين، رأساً في القراءات، حافظاً للحديث، بصيراً بالعربية، واسعَ العلم، وقد سارت الرُّكبان بقصيدته، وحفِظَها خلقٌ لا يُحصَون.

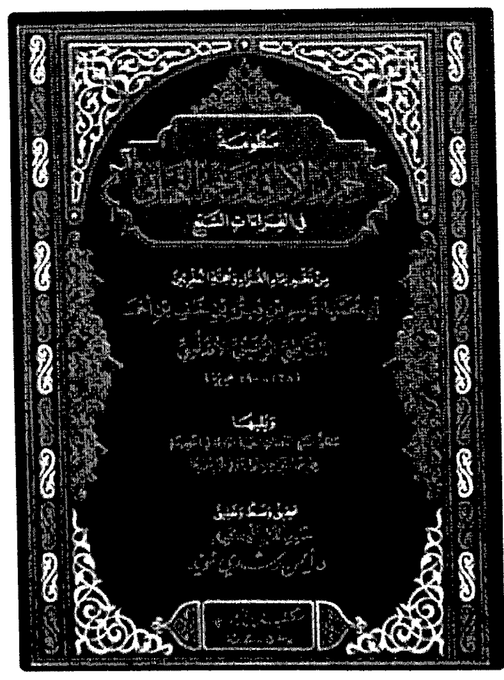
وقال السخاوي رحمه الله: قال لي يوماً: جرت بيني وبين الشيطان مخاطبةٌ، فقال لي: فعلت كذا فسأهلكك، فقلت له: والله ما أبالي بك.

وكان رحمه الله يعذل أصحابه في السِّر على أشياءَ لا يعلمها منهم إلا الله عز وجلَّ، وكان يجلس إليه من لا يعرفُه، فلا يرتاب في أنَّه لا يُبصر؛ لأنَّه لذكائه لا يظهر منه ما يظهر مِن الأعمى في حركاته.

توفي الإمام الشاطبي سنة 590هـ 1194م في مدينة القاهرة، ودفن في تربة القاضي الفاضل بالقرافة الصغرى، وقبره يُزارإلى يومنا هذا رحمه الله رحمة واسعة وجعل كتبه في ميزان حسناته...


صناديد الأندلس 711
القرن 12


منظومة
عقيلة أتراب القصائد
في أسنى المقاصد
في علم رسم المصاحف
نظم
أبي محمد القاسم بن فيرة بن خلف بن أحمد
الشاطبي الرعيني الأندلسي
تحقيق وضبط وتعليق
خادم القرآن الكريم
الدكتور أيمن رشدي سويد
دار الغوثاني للدراسات القرآنية


منظومة
في القراءات السبع
وتليها

عصر الموحدين

الفيلسوف ابن رشد

1126- 1198م

«لو سكت من لا يعرف لقلَّ الخلاف»

«أكبر عدو للإسلام جاهل يكفّر الناس»

«ما من رجل تكبر أو تجبر إلّا لذلة وجدها في نفسه»

«مجالسة الصالحين تحولك من ستة إلى ستة: من الشك إلى اليقين.. ومن الرياء إلى الإخلاص.. ومن الغفلة إلى الذكر.. ومن الرغبة في الدنيا إلى الرغبة في الآخرة.. ومن الكبر إلى التواضع.. ومن سوء النية إلى النصيحة»..هل يمكن لهذا الكلام الذي يقطر بالحكمة والفهم أن يصدر من رجل عادي أو حتى عالم عادي؟! بالطبع لا، فهذا كلام الفلاسفة الكبار والحكماء العلماء، كلام الذين ارتبط ذكرهم بعمق التفكير وبُعده، وكان من هؤلاء الصناديد والعلماء شخصيتنا التي سأحدثكم عنه الأن إنه العلامة الفيلسوف الكبير الشهير ابن رشد....

اسمه محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد الأندلسي، فيلسوف العرب، أبو الوليد القرطبي، مولده سنة 520هـ 1126م قبل وفاة جده الفقيه ابن رشد بشهر، ويقال له: ابن رشد الحفيد. تمييزاً له عن جده أبو الوليد بن رشد الفقيه.

نشأ في قُرْطُبَة في أسرة ذات جاه وعلم، فقد كان جده أبو الوليد قاضياً في قُرْطُبَة، وإماماً لجامعها، ومن مستشاري الدولة المرابطية في الأندلس، وكذلك والده أبو القاسم أحمد من الفقهاء، وله حلقة في جامع قُرْطُبَة.

أخذ ابن رشد العلم عن جماعة من العلماء، وحفظ موطأ الإمام مالك، وبرع في الفقه والطب، وكان مالكي المذهب،، ثم أقبل على الفلسفة وخاصة الفلسفة اليونانية، حتى صار يُضرب به المثل في ذلك، ودافع عن الفلسفة، وصحح لعلماء سابقين له كابن سينا والفارابي في فهم بعض نظريات أفلاطون وأرسطو، ومنهجه أنه كان لا يرى تعارضاً بين الفلسفة والدين.

ولي قضاء إشبيليا فترة من الزمن في عهد يوسف بن عبد المؤمن الموحدي، وحُمِدَت سيرته.

ويقول عنه ابن الآبار: لم ينشأ في الأندلس مثله كمالاً وعلماً وفضلاً، وكان متواضعاً، منخفض الجناح، دمث الأخلاق، حسن الرأي، يقال عنه: أنه ما ترك الاشتغال مذ عقل سوى ليلتين، ليلة موت أبيه، وليلة عرسه!!، وإنه سوّد فيما ألّف وقيّد نحواً من عشرة آلاف ورقة، ومال إلى علوم الحكماء، فكانت له فيها الإمامة، وعني بكتاب أرسطو، وترجمه إلى العربية، وزاد عليه زيادات كثيرة، وكان يُفزَع إلى فتياه في الطب، كما يُفزَع إلى فتياه في الفقه، مع وفور العربية، وقيل: كان يحفظ ديوان أبي تمام والمتنبي.

وكان متواضع الملبس، قوي النفس، وكانت بينه وبين الطبيب أبي مروان

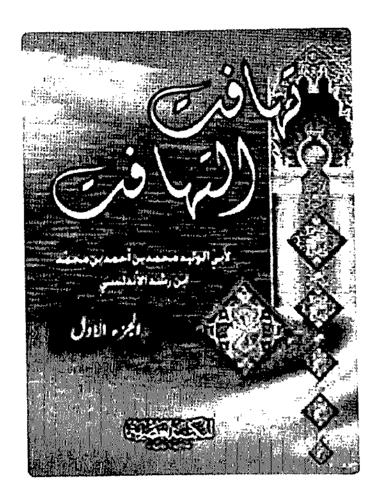
ابن زهر الإشبيلي مودة، وقد ذاع صيته حتى وصل إلى ملك الموحدين يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن، فاستدعاه إليه، وأكرمه، واحترمه كثيراً، وجعله طبيبه الخاص، كما ولاه منصب قاضي الجماعة في قُرْطُبَة، ثم إشبيليا، ثم نقم عليه لأجل الفلسفة، وما نسبه إليه خصومه من الكفر والزندقة، فألزمه الجلوسَ في داره في بلدة تدعى **«اليسانة»** قرب قُرْطُبَة، وأن لا يدخل عليه أحد، وأحرق بعض كتبه، ثم رضي عنه بعد تأكده من بطلان التُّهَمِ التي وُجِّهت إليه، واستدعاه إليه وأكرمه.

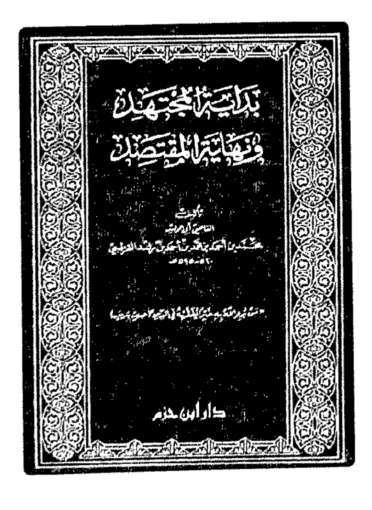
أسّس ابن رشد المدرسة الرشدية في الفلسفة، وقد اعتَبرَ على عكس الرأي العام أن الفلسفة والدين كلاهما أدواتٌ تمكن الإنسان من البحث ومعرفة السبيل للخلاص البشري، وفي الوقت الذي كان الدين يعني ويهمّ جميع الناس، بقيت الفلسفة حكراً على تلك الفئة من الناس التي تمتلك فكراً وذكاءً أكبر.

وحاول ابن رشد أن يُظهِر التطابق بين المعتقدات الإسلامية ومعتقدات الفيلسوف الإغريقي أرسطو، وأشهر أعماله تفسيرات لآراء أرسطو حول السياسة والشعب، وانتُقد ابن رشد من قبل خلفاء عصره، ومُنعت الكثير من أعماله فيما منع من دخول مراكش، لكنه بين أقرانه من المفكِّرين كان يحظى بمكانةٍ واحترامٍ كبيرين.

وتناول ابنَ رشد العديدُ من الكتَّاب المشاهير أمثال دانتي وجيمس جويس في مؤلفاتهم، إشارةً منهم إلى مكانته، ورغبةً في معرفة المزيد عن حياته.

وترك ابن رشد أكثر من خمسين كتاباً منها «**فلسفة ابن رشد**»، وتسميته حديثة، وهو مشتمل بعض مصنفاته، و «**التحصيل**» في اختلاف مذاهب العلماء، و «**بداية المجتهد ونهاية المقتصد**» في الفقه، و «**فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال**»، و «**الضروري**» في المنطق، و «**تهافت التهافت**»، رد فيه على كتاب أبو حامد الغزالي «**تهافت الفلاسفة**»، وله أيضاً «**منهاج الأدلة**» في الأصول، و «**تلخيص كتاب أرسطو**»، و «**علم ما بعد الطبيعة**»، و «**الكليات**» بالتصور الشمسي في الطب، و «**شرح أرجوزة ابن سينا**» في الطب، و «**تلخيص كتاب النفس**»، و «**رسالة في حركة الفلك**»، و «**الحيوان**» ذكر فيه أنواع الحيوانات، وقد ألف كثير من الباحثين في سيرته، وتناوله المهتمون بالفلسفة في كتبهم لما عرف له من الأثر الواضح في الفلسفة العالمية.، وكانت وفاته في مراكش سنة 595هـ 1198م في أول دولة الناصر محمد بن يعقوب، وقد خلّف ولداً طبيباً عالماً اسمه عبد الله، وخلَّف أيضاً أولاداً اشتغلوا في الفقه والعلم، واستُخدِموا في قضاء المدن رحمهم الله جميعاً...





عصر الموحدين

الطبيب أبو بكر ابن زهر الإشبيلي

1113- 1199م

قد يرث الابن عن أبيه أو أجداده العلم، وقد يرث المال، وقد يرث السلطة، فكيف بمن يرث جميعها؟! ، صنديدنا في هذه الصفحات عالم تحلى بالتواضع رغم أن المجد جاءه من جميع الجهات، فكان طبيباً، وفي الوقت ذاته ابن عائلة توالت منصب الوزارة، فضلاً عن تلقيه العلم والفلسفة حتى صار أستاذاً فيها ليتتلمذ على يديه الفيلسوف الشهير ابن رشد، كلماتنا هذه عن الطبيب العالم المجاهد أبو بكر محمد بن عبد الملك بن زهر الإشبيلي...

أبو بكر محمد بن عبد الملك بن زهر بن عبد الملك بن محمد بن مروان الإيادي، أحد جهابذة الطب في الأندلس، وأول من نبغ من هذه الأسرة في علم الطب والد جده عبد الملك بن محمد الذي رحل إلى المشرق، وولي رياسة الطب في بغداد، وجده العلامة الطبيب الشاعر أبو العلاء زهر بن عبد الملك، إليه المنتهى في علم الطب في عصره، وله عدة مؤلفات منها: «**الأدوية المفردة**»، و «**الخواص**»، و «**حل شكوك الرازي**»، وتوفي في قُرْطُبَة سنة 525هـ، وقد ورث عنه ابنه عبد الملك هذا العلم أيضاً، وكان من أمهر أطباء عصره، خدم دولة المرابطين ثم شهد سقوطها وقيام دولة الموحدين، واتَّصل بعبد المؤمن بن علي

وكانت وفاته سنة 557هـ، وقد ترك عدة مؤلفات أيضاً في الطب منها «**التيسير في المداواة والتدبير**»، و«**الأغذية**»، وغيرها.

أما محمد فكان مولده في إشبيليا سنة 507هـ 1113م، ونشأ بها، وحفظ القرآن، وسمع الحديث، وأقبل على الأدب واللغة العربية، فبرع في ذلك كله، كما اعتنى بالشعر، فبلغ الإجادة فيه، وانفرد بالإجادة في نظم الموشحات التي فاق بها أهل المغرب والأندلس أهل المشرق، وحفظ صحيح البخاري متناً وإسناداً، وتعلَّم الطب من أبيه عبد الملك بن زهر، ففاق فيها أهل زمانه، وخدم بها دولتي المرابطين والموحدين، وكان حسن المعالجة، جيد التدبير لا يماثله أحد، وكان مع ابن الطفيل وابن رشد من خاصة جلساء الخليفة يوسف بن عبد المؤمن الموحدي، وكان صحيح البنية، قوي الأعضاء، وبلغ الشيخوخة ولم يفقد قوة أي عضو من أعضائه، إلا ثقل في السمع اعتراه في أواخر عمره، وكان يحسن لعب الشطرنج، بارعاً فيها، وكان سمحاً جواداً سخياً بماله وجاهه.

وكان ذا حظوة عند الملوك، في رتبة الوزراء لهم، قال عنه الذهبي: بلغ الغاية والحظ الوافر من اللغة والآداب والشعر وعلو المرتبة في العلاج عند الدولة، مع السخاء والجود والحشمة.

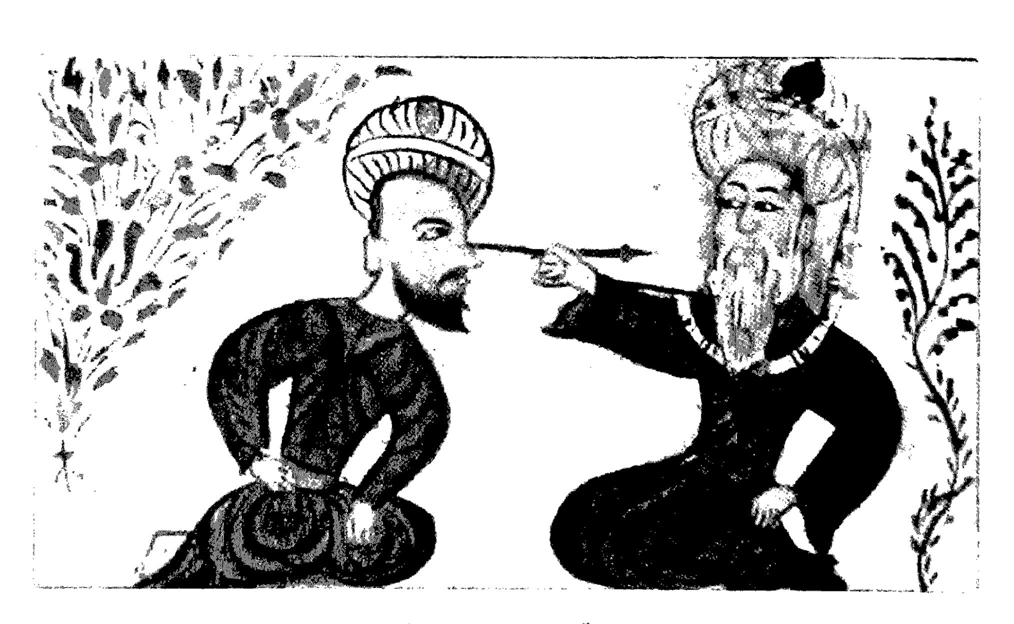
وقال تلميذه ابن دحية في وصفه: مكانه مكين في اللغة، ومورده معين في الطب، كان يحفظ شعر ذي الرمة وهو ثلث اللغة، مع الإشراف على جميع أقوال أهل الطب، مع سمو النسب، وكثرة النشب، صحبته

زمانــاً، ولــه أشــعار حلــوة.

تــرك عــدة مؤلفــات في الطــب منهــا: «الترـيــاق الخمســيني»، ورســالة في طـب العيـون، إضافـة إلى شـعر رقيـق، وموشـحات انفـرد في عـصره بإجـادة نظمهــا، أشــهرها موشــحة مطلعهــا:

أيُّها الساقي إليكَ المُشتكى   قدْ دَعونَاكَ وإنِ لم تَسمع

تــوفي رحمــه الله تعــالى ســنة 595هــ 1199م في مراكــش، في أول دولــة الخليفــة محمــد النــاصر بــن يعقــوب المنصــور بــن يوســف بــن عبــد المؤمــن الموحدي، ودفــن في مقابــر الشــيوخ....



صورة تخيلية لطبيب العيون

عصر الموحدين

الخليفة يعقوب المنصور

1160- 1199م

ليعلم الجميع، أن الملك يقوم على العدل، والعدل يقوم على وجود العلماء، ومجد وتقدم الأمم تكون عندما يقرب قادتها العلماء الربانيين والأخيار، وهذا ما كان عليه حال المسلمين في عهود نهضتهم ومجدهم،

وصنديدنا في هذه الورقات هو خليفةٌ إسلامي، قرب العلماء والفلاسفة فنهض بالأمة وعمل على صناعة الأجيال وعمل أيضاً على بناء العمران حتى بنى أكبر مسجد في العالم بعصره وكان في مجلسه علماء وأخيار كثر ومن بينهم أكبر فيلسوف في الإسلام وهو ابن رشد، فكان عهد ذاك الخليفة عهد قوة ومنعة للمسلمين نتكلم الآن عن الخليفة الثالث في دولة الموحدين يعقوب المنصور.

يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي الكومي القيسي الموحدي أبو يوسف المنصور بالله، أعظم ملوك الموحدين في المغرب والأندلس، مولده سنة 554هـ 1160م في مراكش في خلافة جده عبد المؤمن بن علي، وبويع له بعد وفاة والده سنة 580هـ، وكان قد حضر معه وقعة شنترين، وتمت له البيعة في إشبيليا.

وكان قد ولي الوزارة في عهد أبيه، فبحث عن الأحوال بحثاً شافياً،

وطالع مقاصد العمال والولاة وغيرهم مطالعة أفادته معرفة جزئيات الأمور، ولما مات أبوه اجتمع رأي أشياخ الموحدين وبني عبد المؤمن على مبايعته وتقديمه، فبايعوه ولقَّبُوه بالمنصور، ودعوه بأمير المؤمنين كأبيه وجده، فقام بالأمر أتم قيام، وهو الذي أظهر أبهة ملكهم، ورفع راية الجهاد، ونصب ميزان العدل، وبسط أحكام الناس على حقيقة الشرع، و نظر في أمور الدين، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وأقام الحدود حتى في أهله وعشيرته والأقربين، كما أقامها في سائر الناس أجمعين، فاستقامت الأحوال في أيامه وعظمت الفتوحات، ورتب قواعد بلاد الأندلس، فأصلح شأنها وقرر المقاتلين في مراكزها، ومهد مصالحها في مدة شهرين، ثم عاد إلى مراكش عاصمة دولته، فخرج عليه علي بن إسحاق بن غانية من جزيرة ميورقة، واستولى على بجاية وما حولها، فجهز إليه الأمير يعقوب عشرين ألف فارس، وأسطولاً في البحر، ثم خرج لقتاله بنفسه سنة 583هـ، فاستعاد ما أخذه ابن غانية من البلاد.

وفي سنة 586هـ استولى الفرنج على مدينة شلب في غرب الأندلس، فتجهز يعقوب بجيوش كبيرة، وعبر البحر إليها، فحاصرها واستعادها، ثم استعاد أربع مدن أخرى كان الفرنج قد أخذوها من المسلمين قبل أربعين سنة، فخاف منه ملك قشتالة ألفونسو الثامن، وصالحه مدة خمس سنوات.

وبعد انقضاء مدة الهدنة بين الموحدين والإسبان، خرج ألفونسو

بجيوش كثيرة، فعاث فساداً في البلاد الإسلامية، وبعث برسالة إلى الأمير يعقوب يتهدده، فلما قرأها الأمير مزقها وكتب على قطعة منها **(ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون)** الجواب ما ترى لا ما تسمع؟ وهو محتوى قريب من الرسالة الذي أرسلها الأمير يوسف بن تاشَفِيْن إلى ملك قشتالة قبل معركة الزلاقة الشهيرة منذ أكثر من مئة سنة على هذه الواقعة.

تجهّز السلطان يعقوب المنصور لقتال ألفونسو، وجمع جنده، والعديد من المتطوِّعين من البربر وعرب أفريقيا، وانضمت إليه الجيوش الأندلسية، فتجمع له جيش ضخم، ويقول عنه بعض المؤرخين: إن عدده ستمئة ألف مقاتل، ويقولون: أنه كانت المسافة بين مقدمة الجيش ومؤخرته مسيرة ثلاثة أيام، بينما يذكر آخرون أن العدد بين مئتي ألف وثلاثمئة ألف مقاتل فقط.

انطلق المنصور بجيشه إلى بلاد الأندلس، ومكث في إشبيلية مدة قصيرة نظم فيها جيشه، وتزود بالمؤن، وبادر بالسير إلى طُلَيْطِلة عاصمة مملكة قشتالة، فبلغه أن ألفونسو حشد قواه في مكان بين قلعة رباح وقلعة الأرك، فغير مساره إلى هناك، وعسكر في مكان يبعد عن موضع جيش ألفونسو مسيرة يومين، ومكث يستشير وزرائه وقادة جيشه في خطط المعركة، وكان ذلك في الثالث عشر من يونيو عام 1195 الموافق لـ الرابع من شعبان 591هـ.

وكان أبو عبد الله بن صناديد أحد قادة الحرب الأندلسيين قد أشار

على السلطان المنصور باختيار قائد موحد للجيش، كما أشار عليه بتقسيم الجيش إلى أجزاء على النحو التالي:

الأندلسيون ويقوده أحد زعمائهم حتى لا تضعف عزيمتهم عندما يولى عليهم أحد ليس منهم، واختير ابن صناديد لقيادتهم، ويوضع في ميمنة الجيش العرب، والبربر يوضعون في الميسرة،والجيش الموحدي النظامي يوضع في القلب، والمتطوِّعون من عرب وبربر وأندلسيين يوضعون في مقدمة الجيش للبدء بالقتال، والسلطان المنصور وحرسه وجيشه الخاص وبعض المتطوِّعين كقوات احتياطية تقوم بمراقبة المعركة من بُعد لتقوم بهجوم مضاد متى لزم الأمر.

استجاب السلطان لمشورة ابن صناديد، وعيّن قائداً موحداً للجيش، واختار أحد وزرائه وهو أبو يحيى بن أبي حفص قائداً عاماً، وكان السلطان يمر على أفراد جيشه، ويحمسهم، ويبثُّ فيهم الشجاعة والثقة بنصر الله.

وعلى الجبهة الأخرى حاول ألفونسو الحصول على بعض المدد والمساعدات من بعض منافسيه السياسيين ملوك نافار وليون، فوعدوه بالمدد، إلا إنهم تعمَّدوا الإبطاء، فقرر خوض المعركة بمن معه من القوات التي لم تكن بالقليلة، فقد أوصلها المؤرخون إلى حوالي ثلاثمئة ألف مقاتل منهم فرسان قلعة رباح وفرسان الداية.

وكان الجيش القشتالي يحتل موقعاً متميزاً مرتفعاً يُطلُّ على القوات

المسلمة، وقد كانت قلعة الأرك تحميهم من خلفهم، وقد قسموا أنفسهم لمقدمة يقودها الخيالة تحت إمرة لوبيز دي هارو أحد معاوني ألفونسو، وقلب الجيش ومؤخرته ويضم عشرة آلاف مقاتل من خيرة مقاتلي قشتالة، ويقودهم ألفونسو بنفسه.

وفي يوم القتال بدأ المتطوعون في الجيش الموحدي في التقدم قليلاً لجس النبض، وكان القشتاليون اتبعو نظاماً متميزاً وذكياً، وهو نزول الجيش على دفعات كلما وُوْجِهَ الجيش بمقاومة عنيفة استبدال مقدمة الجيش بمقدمة أخرى في كل مرة يقاومون فيها.

وأرسل القشتاليون في بادئ الأمر سبعة آلاف فارس وصفهم صاحب البيان المغرب في أخبار أهل الأندلس والمغرب: كبحر هائج تتالت أمواجه، وقد ردّ المتطوعون المسلمون هجمة الجيش الأولى، فما كان من القشتاليين إلا أن أمروا بإرسال دفعة ثانية، وقد قاومها المتطوعة المسلمة مقاومة قوية جداً، وهذا ما جعل بلوبيز دي هارو يرسل قوة كبيرة لتفكيك مقدمة الجيش الإسلامي والقضاء عليه.

وكانت الهجمة الثالثة قوية جداً، فقد استطاع العدو اختراق المقدمة، وقتلوا كثيراً من أفراد جيش الموحدين، وكان من بينهم أبو يحيى بن أبي حفص قائد الجيش كله، واستمروا يخترقون الجيش، حتى وصلوا إلى القلب فما كان من ابن صناديد والعرب والبربر وهم أجنحة الجيش الإسلامي إلا أن حاصروا القشتاليون، وفصلوا بين مقدمة جيشهم ومؤخرته.

وفي تلك الأثناء خرج السلطان المنصور، فتعاون جميع أقسام الجيش الإسلامي معه على الفتك بمن حاصروا من القشتاليين، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وفر الباقون.

وبعد ذلك بدأ المسلمون في التقدّم ناحية من تبقى من الجيش المسيحي، وهم عدة آلاف تحت قيادة ألفونسو، أقسموا على ألّا يبرحوا أرض المعركة حتى وإن كانت نهايتهم فيها، وقاوم القشتاليين مقاومة عنيفة، حتى قتل أغلبهم، ورفض ألفونسو التحرك حتى حُمِل مرغماً إلى قلعة الأرك، ومن بوابتها الخلفية توجه إلى طُلَيْطِلَة عاصمته، وقام المسلمون بعد انتهاء المعركة بحصار قلعة الأرك التي كان قد فر إليها لوبيز دي هارو ومعه خمسة آلاف من جنده، وقاوم الأعداء قليلاً، ثم اضطروا للاستسلام، وطلبوا الصلح، فوافق السلطان المنصور مقابل إخلاء سبيل من أُسر من المسلمين.

ويختلف مؤرخو المسلمين في نتائج المعركة، فيقول المقري في كتابه نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: وكان عدّة من قُتِل من الفرنج (فيما قيل) مئة ألف وستّة وأربعين ألفاً، وعدّة الأسارى ثلاثين ألفاً، وعدّة الخيام مائة ألف وستّة وخمسين ألف خيمة، والخيل ثمانين ألفاً، والبغال مائة ألف، والحمير أربع مئة ألف، جاء بها الكفّر لحمل أثقالهم، لأنّهم لا إبل لهم، وأمّا الجواهر والأموال فلا تحصى، وبيع الأسير بدرهم، والسيف بنصف درهم، والفرس بخمسة دراهم، والحمار بدرهم، وقسم يعقوب الغنائم بين المسلمين بمقتضى الشرع،

وفر ألفونسو ملك النصارى إلى طُلَيْطِلَة في أسوأ حال، فحلق رأسه ولحيته، ونكس صليبه، وآلى أن لا ينام على فراش، ولا يقرب النساء، ولا يركب فرساً ولا دابة، حتى يأخذ بالثأر.

أما ابن خلدون فيذكر أن عدد القتلى ثلاثون ألفاً، ويجعلهم ابن الأثير ستة وأربعن ألفاً، وثلاثة عشر ألف أسير.

أكمل السلطان المنصور مسيرته في أراضي مملكة قشتالة فاقتحم قلعة رباح، واستولى عليها، وسقطت عدة مدن وكلها تقع بالقرب من طُلَيْطِلَة عاصمة قشتالة.

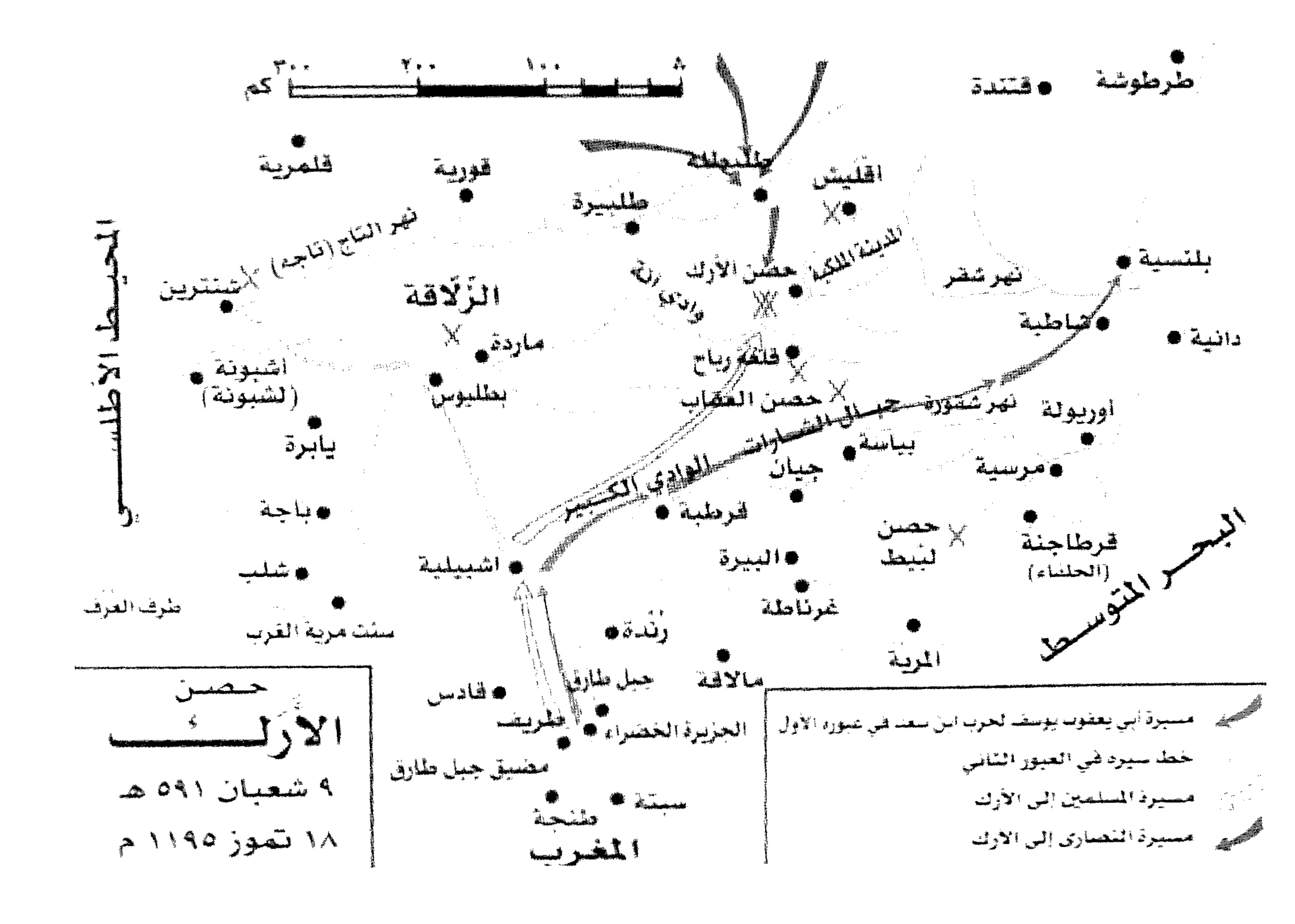
ثم اتجه السلطان المنصور بجيشه إلى العاصمة، وضرب عليها حصاراً، واستخدم المسلمون المنجنيق، ولم يبقَ إلا فتحها، فخرجت إليه والدة ألفونسو وبناته ونساؤه وبكين بين يديه، وسألنه إبقاء البلد عليهن، فرقّ لهن، ومنّ عليهن بها، ووهب لهن من الأموال والجواهر ما جلّ، وردهن مكرماتٍ، وعفا بعد القدرة، وعاد إلى قُرْطُبَة، فأقام شهراً يقسم الغنائم، وجاءته رسل ألفونسو بطلب الصلح، فصالحه، وأمّن الناس مدّته (أي مدة العقد).

وأعطت نتيجة المعركة مهابة للموحدين في الأندلس، وقد استمروا هناك حتى فاجعة العقاب التي خسر المسلمون بعدها بقية أراضي الأندلس ما عدا غرناطة وما حولها.

وبعد ذلك عاد المنصور إلى المغرب سنة 594هـ، ولما شعر بدنو أجله

استدعى أكابر الدولة وشيوخها، وأكد البيعة لولده محمد الناصر، ودمعت عيناه، ثم تلا عليهم وصيته، ووصَّاهم بالأندلس فقال: أوصيكم بتقوى الله وبالأيتام واليتيمة، فسأله أحد المشايخ: يا أمير المؤمنين من الأيتام ومن اليتيمة؟ فقال: اليتيمة جزيرة الأندلس، والأيتام سكانها المسلمون، وإياكم والغفلة فيما يصلح بها من تشييد أسوارها، وحماية ثغورها.

وكانت وفاته رحمه الله جل وعلا سنة 595هـ 1199م، ودفن في تينمل قرب جده عبد المؤمن، وأبيه يوسف، والمهدي ابن تومرت رحمهم الله جميعاً وأسكنه فسيح جناته ....


حصن
الأرك
٩ شعبان ٥٩١ هـ
١٨ تموز ١١٩٥ م
المحيط الأطلسي
البحر المتوسط
المغرب
٣٠٠ ٢٠٠ ١٠٠ ٠ كم
طرطوشة
قتندة
قلمرية
قورية
طلبيرة
طليطلة
اقليش
المدينة الملكية
بلنسية
نهر شقر
شاطبة
دانية
نهر التاج (تاجه)
شنترين
الزلاقة
ماردة
بطليوس
اشبونة
(لشبونة)
يابرة
باجة
شلب
شنت مرية الغرب
طرف الغرف
حصن الأرك
قلعة رباح
حصن العقاب
جبال الشارات
نهر شقورة
أوريولة
بياسة
جيان
مرسية
الوادي الكبير
قرطبة
قرطاجنة
(الحلفاء)
حصن
لبيط
البيرة
غرناطة
رندة
المرية
اشبيلية
مالاقة
جبل طارق
قادس
طريف
الجزيرة الخضراء
مضيق جبل طارق
سبتة
طنجة
مسيرة أبي يعقوب يوسف لحرب ابن سعد في عبوره الأول
خط سيره في العبور الثاني
مسيرة المسلمين إلى الأرك
مسيرة النصارى إلى الأرك

عصر الموحدين

الرحَّالة ابن جبير

1145- 1217م

ثأرت لدين الهدى في العدا فـآثـرك الله مـن ثـائـر
وقـمت بنصـر إله الـورى فـسمـاك بالملك الـنـاصر
فتحت المقدس من أرضـه فـعادت إلى وصفها الطاهر
وأعليـت فـيه مـنار الهدى وأحيـيت من رسمه الـداثر

هـي كلـمات اتسـمت بالسلاسـة والبلاغـة معـاً قالهـا ناظمهـا في النـاصر فاتـح القـدس صـلاح الديـن الأيـوبي، وهـذه الكلـمات الجميلـة خرجـت مـن صنديـدٍ قـد شـغفَ بـالأدب والشـعر فضـلاً عـن علـوم الشريعـة التـي أتقنهـا، ومعرفـة أسرار القـرآن الكريـم الـذي حفظـه منـذ الصغـر، ورغـم كل ذلـك بـرع في العلـوم الكونيـة والعلميـة فأتقـن الحسـاب والرياضيـات ليسـير بعـد ذلـك في رحلاتـه لاستكشـاف المشرق، إلا أن المشرق اكتشـفه وخطـه في سـجل الخالديـن، إنـه الرحالـة الأندلـسي ابـن جبـير.

محمـد بـن أحمـد بـن جبـير الكنـاني رحَّالـة أندلـسي شـهير، وفـد جـده الأكـبر عبـد السـلام بـن جبـير الكنـاني عـلى الأندلـس سـنة 123هـ، ونـزل أولاً بمدينـة شـذونة، ثـم تحـول بنـوه إلى شرق الأندلـس، بقطـاع بلنسـية، وولـد ابـن جبـير

في ثغر بلنسية أو شاطبة سنة 540هـ 1145م، ورحل في شبابه إلى جيَّان، واستوطنها مدة، وتزوّج خلالها من عاتكة بنت الوزير جعفر الوقشي، ثم غادر جيّان إلى غرناطة، واستقر بها، ودرس ابن جبير القراءات والحديث، وبرع في الأدب، وبرز في الكتابة والنظم، وكتب في شبابه في سبتة لواليها عثمان بن عبد المؤمن، ثم لوالي غرناطة، ونال جاهاً وثراءً، ثم تَزهَّد واعتزم الرحلة إلى المشرق لقضاء فريضة الحج، وكان يومئذٍ في الأربعين من العمر، وكانت الأندلس يومئذٍ تحت حكم الموحدين، وكانوا ما يزالون قوة ضخمة، وملكهم في ذلك الوقت السلطان يعقوب المنصور.

وابن جبير من أشهر الرحَّالة المسلمين الذين قاموا برحلات إلى المشرق العربي، دَوَّنَ خلالها كثيراً من المعلومات التي تُعتَبر وثائق من الدرجة الأولى؛ لأنه كان حسن الملاحظة، وصريح العبارة، فكانت رحلته مصدراً مهماً للباحثين في مجال التاريخ والاجتماع والحضارة العربية في القرن السادس والسابع الهجري.

غادر ابن جبير غرناطة سنة 578هـ متَّجهاً نحو المشرق، ومعه صديقه أحمد بن حسان، وعبر البحر إلى سبتة، فركب في سفينة متَّجهة نحو الإسكندرية في مصر، ووصلت إلى جزيرة صِقِلِّية بعد رحلة شاقة، اشتدت فيها العواصف، وهاج البحر، وتعالت الأمواج، وشهد الركاب خلال ذلك جبل إطنة الذي يقع به البركان الشهير وهو مكلل بالثلوج، وسارت السفينة بعد ذلك صوب جزيرة أقريطش، ثم اتَّجهت منها جنوباً حتى وصلت إلى الإسكندرية، بعد رحلة دامت

ثلاثين يوماً منذ خروج السفينة من سبتة.

وقد وصف ابن جبير رحلته تلك بأسلوب شائق وممتع، تحدَّث فيه عما لقيه من أهوال البحر وأخطاره المروعة، وما شاهده في مختلف المراسي من المناظر والمشاهد، كما وصف منارة الإسكندرية العظيمة، وما رتَّبه السلطان صلاح الدين الأيوبي (سلطان مصر والشام في ذلك الحين وقاهر الصليبيين) للواردين عليها من الطعام والإيواء.

غادر ابن جبير الإسكندرية متَّجهاً نحو القاهرة، فأُعجِب بها، ووصفها وصفاً جميلاً، ثم توجه إلى قوص، ومنها ركب البحر إلى جدة، ومنها إلى مكة لأداء فريضة الحج، وأقام ابن جبير في مكة نحو ثمانية أشهر، وقضى مناسك الحج، وقد أفاض في وصف مكة وعمرانها وأحوالها، وفي وصف الكعبة المشرفة، والمسجد الحرام، ومقام إبراهيم وما حوله، وقد كان وصفه يتَّسِمُ بالدقة والإفاضة، وبالحرارة التي تذيب قلب المؤمن، وبأسلوب رفيع من البيان الساحر الأخَّاذ.

تابع ابن جبير رحلته متَّجهاً نحو العراق، ماراً بنجد، ووصل إلى بغداد سنة 580هـ، فقضى فيها أسبوعين يزور خلالهما معالم مدينة الخلفاء، وكانت قد فقدت يومئذٍ كثيراً من بهائها السابق، وقد وصف قصور الخلافة شرق بغداد، والخليفة العباسي في ذلك الوقت الناصر لدين الله، ثم وصف مجالس بغداد العلمية.

وغادر ابن جبير بغداد متجهاً نحو الموصل، وكانت بيد الزنكيين، فأبدى إعجابه بقلعتها وأسوارها وأبراجها الحصينة، ومن الموصل

توجَّه نحو نصيبين، ثم حرّان، ثم منبج، حتى وصل إلى حلب، وكانت بيد الأيوبيين، وقد أثنى عليها، ووصف ضخامتها، وسعة خططها، وأسواقها، ومسجدها الجامع، ومدارسها، ثم مر بحماة فحمص، حتى وصل إلى دمشق سنة 580هـ، وقد بهرته دمشق ومعالمها المشرقة، وهو يصف جامعها بإفاضة، ويصف صحنه وأبوابه وقبابه، ويصف دمشق وأبوابها، ومعالمها، وأحوالها، وعوائد أهلها، ومستشفاها العظيم، ومدارسها الزاهرة.

وقد ختم ابن جبير رحلته بدمشق، ولم يبقَ له إلا أن يفكر بالعودة إلى وطنه، وهو من حين مغادرته دمشق يجول بين الممالك الصليبية، من بانياس إلى صور وعكا، وقد وصف أحوال الصليبيين المسيطرين على تلك الأنحاء، ووصف طريقة حكمهم، وحال المسلمين الذين يعيشون تحت سلطانهم، وكانت عكا خاتمة المطاف في رحلة ابن جبير المشرقية، ومن عكا استقل ابن جبير مركباً جنوياً متَّجهاً نحو جزيرة صِقِلِّيَة، وكانت الملاحة الجنوية مسيطرة على البحر المتوسط يومئذٍ، ورسا المركب في صِقِلِّيَة، وكانت تلك فرصة لابن جبير للتعرف على هذه الجزيرة التي كان للمسلمين بها حضارة عريقة، ويقول ابن جبير عن هذه الجزيرة: وكفى بأنها ابنة **الأندلس** في سعة العمارة، وكثرة الخصب والرفاهة.

وقد اجتمع ابن جبير بالمسلمين المتبقين في الجزيرة، وتعرف على أحوالهم تحت حكم النورمانيين (حكام صِقِلِّيَة في ذلك العصر)،

وأمضى ابن جبير في صِقِلِّيَة نحو ثلاثة أشهر، ثم استقل مركباً متّجهاً نحو الأندلس، ونزل على ساحل قرطاجنة، ثم سار منها نحو مرسية، ثم لورقة حتى وادي آش، ووصل إلى منزله بغرناطة سنة 581هـ، وقد استغرقت رحلته منذ خروجه من منزله حتى عودته إليه نحو عامين وثلاثة أشهر ونصف، وكانت هذه رحلته الأولى.

أما رحلته الثانية نحو المشرق فكانت سنة 585هـ، وكان الحافز له للقيام بتلك الرحلة هو فتح بيت المقدس على يد السلطان صلاح الدين الأيوبي، وما بثّه هذا الفتح العظيم من بواعث الحماسة في العالم الإسلامي، وقد حج ابن جبير في هذا العام أيضاً، وعاد إلى غرناطة سنة 587هـ، وسكن مالقة فترة، ثم عبر البحر على المغرب، فسكن فاس ثم سكن سبتة، وانقطع في تلك الفترة إلى سماع الحديث.

وكانت رحلته الثالثة عقب وفاة زوجته المحبوبة عاتكة سنة 601هـ، وقد حزن لوفاتها أبلغ حزن، ودوّن هذه الرحلات وتفاصيلها في كتاب اسمه رحلة ابن جبير، وهو موجود إلى يومنا هذا.

والذي لا يعرفه الكثيرون عن ابن جبير أنه كان أديباً شاعراً، وله ديوان شعر يسمى «**نظم الجمان في التشكي من إخوان الزمان**»، كما أن له كتاباً آخر بعنوان «**نتيجة وجد الجوانح في تأبين القرين الصالح**».

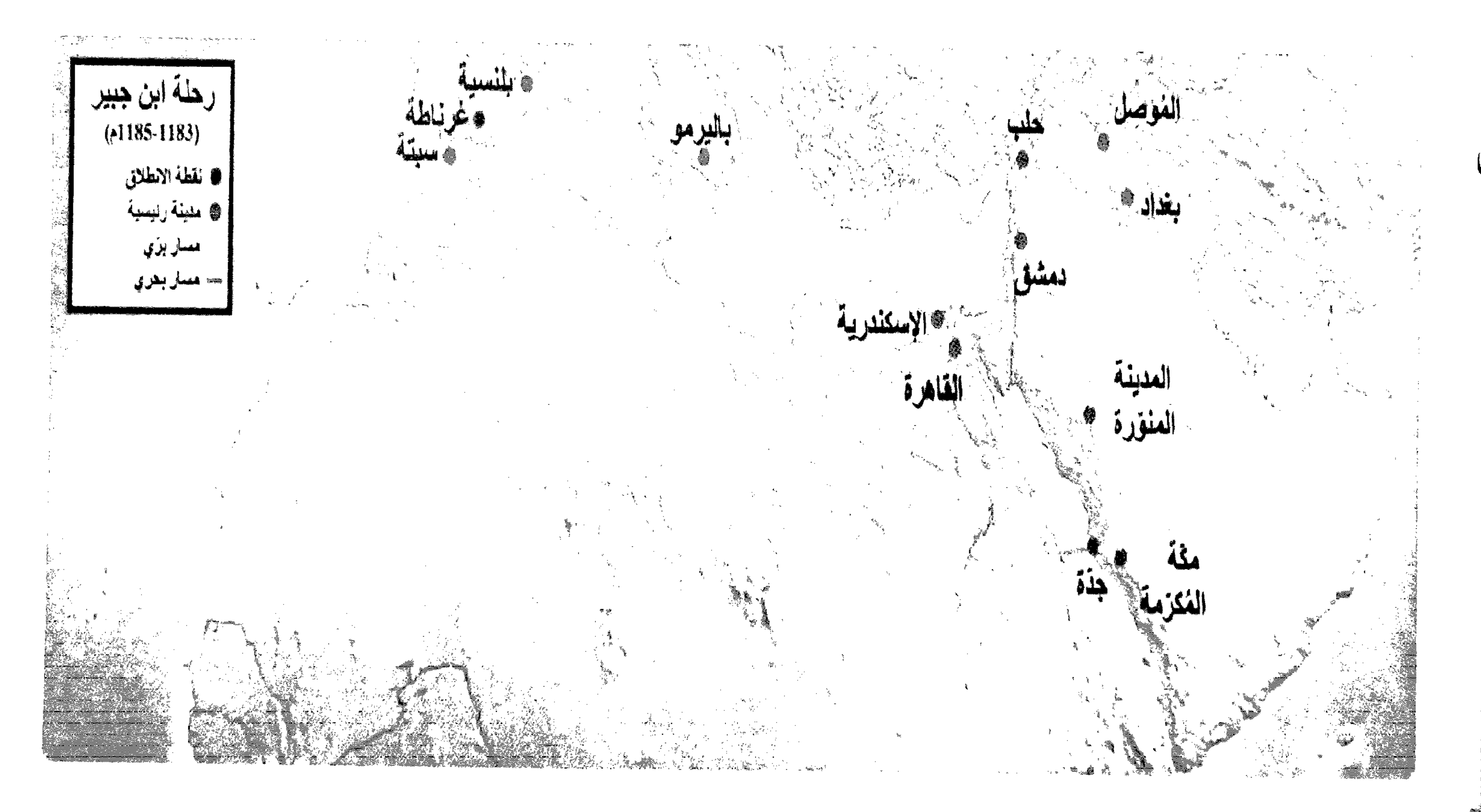
وهذا نموذج رائع من شعره التي مدح بها السلطان صلاح الدين، يهنئه فيها بفتح بيت المقدس، وفيها يقول:

ثَأَرتَ لِدينِ الهدى في العدا ... فآثركَ اللهُ مِنْ ثائرِ

وقُمتَ بنصرِ إلهِ الوَرى فسَمَّاكَ بالمَلِكِ النَّاصِرِ
فَتحتَ المُقدَّسَ من أرضِهِ فعادتْ إلى وصفِها الطاهرِ
وأَعليتَ فيهِ مَنارَ الهُدى وأَحييتَ مِنْ رسمِهِ الداثرِ

وكان ابن جبير أديباً بارعاً، كاتباً بليغاً، سريَّ النفس، كريمَ الأخلاق، وله مدائح كثيرة في ملوك بني عبد المؤمن الموحدين أصحاب المغرب والأندلس.

وصل ابن جبير إلى مكة سنة 602هـ، وحج للمرة الثالثة، وجاور بالحرم الشريف طويلاً، ثم رحل على بيت المقدس، ثم سافر إلى مصر، وأقام في الإسكندرية، واستقر ابن جبير بقية حياته في الإسكندرية، يقرئ الحديث، وكان يؤخذ ويروى عنه، وطار صيته في دوائر الحديث بمصر والشام والأندلس، وكانت وفاته في الإسكندرية سنة 614هـ1217معن أربعة وسبعين عاماً رحمه الله تعالى وأجزل عطاياه....


رحلة ابن جبير
(1183-1185م)
نقطة الانطلاق
مدينة رئيسية
مسار بري
مسار بحري
بلنسية
غرناطة
سبتة
باليرمو
الإسكندرية
القاهرة
حلب
دمشق
الموصل
بغداد
المدينة المنورة
مكة المكرمة
جدة

عصر الموحدين

عالم النباتات أبو العباس ابن الرومية

1165- 1239م

لم يزل باحثاً عن حقائق علم النبات، كاشفاً عن غوامضه، حتى وقف عليه مالم يقف عليه غيره ممن تقدم في الملة الإسلامية فصار واحد عصره فرداً لا يجاريه فيه أحد بإجماع أهل ذلك الشأن وهو المحدث الذي طلب الحديث واهتم به فجمع بين الصنيعتين لوجود القدر المشترك بينهما، إذا موارد هما الرحلة والتقييد إنه أبو العباس ابن الرومية.

أحمد بن محمد بن مفرج الأموي القرطبي، أبو العباس، الشهير بابن الرومية، أعظم النباتيين المسلمين، ويعتبر بعد ديسقوريدس اليوناني أعظم العشابين سواء في الشرق أو في الغرب.

وينتمي إلى أسرة قرطبية من موالي بني أمية، نبغ فيها أطباء ونباتيون، ونزحت فيما بعد إلى إشبيليا، وفي إشبيليا ولد أبو العباس سنة 561هـ 1165م، وكانت إشبيليا يومئذٍ مركز الحكم الموحدي في الأندلس، وقد غدت في ظل الموحدين مركز العلوم والآداب.

وقد درس أبو العباس على جمهرة من علماء عصره، ومهر بالحديث حتى أصبح إماماً حافظاً لا يُبارى، وشغف في الوقت في نفسه في دراسة

النبات وخصائص الأعشاب الطبية، وتجول من أجل ذلك في ربوع الأندلس والمغرب وشمال إفريقيا ومصر والشام والعراق والحجاز، ووصل في هذا الميدان من تحقيق أصول الأعشاب المختلفة وخواصها وتمييزها ما لم يصل إليه أحد من قبل، وهنا تبرز تلك الجامعة الغريبة المشتركة بين علم الحديث وعلم النبات، وفي ذلك يقول ابن الخطيب عن ابن الرومية: عجيبة نوع الإنسان في عصره وما قبله وما بعده، في معرفة علم النبات وتمييز العشب وتحليلها، وإثبات أعيانها، على اختلاف أطوار منابتها، بمشرق أو بمغرب، حساً ومشاهدة وتحقيقاً، لا مدافع له في ذلك ولا منازع، حجة لا ترد ولا تدفع، قام على الصنيعتين لوجود القدر المشترك بينهما، وهما الحديث والنبات، إذ مواردهما الرحلة والتقييد، وتصحيح الأصول، وتحقيق المشكلات اللفظية، وحفظ الأديان والأبدان وغير ذلك، ويشابه ابن الرومية في الجمع بين الحديث والنبات، الطبيب عبد الملك بن زهر، فهو أيضاً قد جمع بين الطب والحديث.

وقضى ابن الرومية في رحلاته الدراسية في شمال إفريقيا وبلاد المشرق منذ بدأها سنة 580هـ زهاء ثلاثين عاماً، لقي خلالها جمهرة كبيرة من علماء عصره في المشرق والمغرب، وأدى فريضة الحج سنة 613هـ، ثم عاد فاستقر في بلده إشبيليا، وافتتح بها متجراً للنباتات الطبية، فكان مقصد الأطباء والنباتيين وطلاب العلاج من مختلف الأنحاء.

وكان ابن الرومية فقيهاً ظاهري المذهب، شديد التعصب للإمام

ابـن حـزم الظاهـري، حـرص عـلى جمـع كتبـه واستنسـاخها، وعمـل عـلى نشرهـا، وقـد أنفـق في هـذا السـبيل أمـولاً جمـة، وإليـه يعـود الفضـل في انتشـار تصانيـف ابـن حـزم، وكان إلى جانـب ذلـك ورعـاً صالحـاً زاهـداً، شـديد العطـف عـلى طـلاب العلـم، يجـود عليهـم بالمـال والكتـب التـي يعز وجودهـا، وكان كثـير الشـغف بالدراسـة، يواصـل سـهر الليـل في تقييـد بحوثـه ومصنفاتـه، ويقـضي أوقاتـاً كثـيرة في فحـص المـرضى، وإمدادهـم بالأدويـة النباتيـة التـي مهـر في تمييزهـا وأعدادهـا.

ولابـن الروميـة تصانيـف عديـدة في علـم الحديـث والنبـات، منهـا في الحديـث: «**رجالـة المعلـم بزوائـد البخـاري عـلى مسـلم**»، و«**اختصـار حديـث مالـك للدارقطنـي**»، و«**نظـم الـدراري بـما تفـرد بـه مسـلم عـن البخـاري**»، و«**الحافـل في تذليـل الكامـل**»، وفي النبـات لـه «**شرح حشـائش ديسـقوريدس وأدويـة جالينـوس والتنبيـه عـلى أوهـام ترجمتهـا**»، و«**الرحلـة النباتيـة**»، و«**المسـتدركة**»، ولـه كتـاب في الأدويـة المفـردة عـلى نمـط كتـب بنـي زهـر في ذلـك، ولـه غـير ذلـك مصنفـات ومؤلفـات عديـدة، لم يصـل مـع الأسـف مـن هـذا الـتراث الحافـل سـوى القليـل، ومعظمـه فصـول وشـذور نقلهـا بعـض المتأخريـن.

ويقـول ابـن عبـد الملـك في «**الذيـل والتكملـة**» عـن ابـن الروميـة: ولم يـزل باحثـاً عـلى حقائقـه (يقصـد علـم النبـات) كاشـفاً عـن غوامضـه، حتـى وقـف منـه مـا لم يقـف عليـه غـيره، ممـن تقـدم في الملـة الإسـلامية، فصـار واحـد عـصره فـرداً، لا يجاريـه فيـه أحـد بإجمـاع أهـل ذلـك الشـأن.

توفي ابن الرومية بعد حياة علمية حافلة في إشبيليا سنة 637هـ 1239م، أي قبل سقوطها بيد القشتاليين بنحو تسعة أعوام فقط، وجاء من بعده تلميذه ابن البيطار المالقي، فحمل علمه، وبرع مثله في علم الحشائش والنبات، وتجوَّل في مختلف بلدان المشرق والمغرب، ووضع عدة تصانيف في مجال الأدوية، وتوفي في دمشق سنة 646هـ رحمهم الله جميعاً.



رسم تخيلي لعالم نبات أندلسي

عصر الموحدين

الكاتب الشهيد ابن الأبار القضاعي

1199- 1260م

نَــادَتْـكَ أَنْـدَلُـسٌ فَـلَـبِّ نِـداءَهـا ... واجْـعل طَواغيتَ الصّليبِ فِـداءَها

صَـرَخَـتْ بِـدَعوَتك العليّة فاحْـبُـها ... مـن عـاطِـفـاتك ما يـقـي حوْباءَها

واشـدُدْ بِجلبك جُـرْد خَـيلك أزْرَها ... تَـرْدُدْ عـلى أعـقَـابِـهـا أرْزَاءَهـا

هـيَ دَارُك الـقُـصوى أوَتْ لإيـالَـةٍ ... ضَـمِـنْـتَ لها معَ نـصْرِها إيـواءَهـا

تلك الكلمات الرقيقة نظمها شاعر أديب بعد أن احتل الصليبيون مدينته الجميلة في أندلس المسلمين، ذاك الأديب الأريب الذي خط تاريخ الأندلس وحفظه لتقرأ الأجيال كيف قامت الدولة وكيف انهارت لعلها تتعظ من سالفيها الذين فرطوا في البلاد، واقتدوا بالفاتحين الذين حفظوا للدولة مكانتها بين الأمم، صنديدنا الذي بصدد الكتابة عنه هو المؤرخ الأديب الشاعر الشهير محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي.

أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر بن عبد الله القضاعي الأندلسي البلنسي الكاتب المنشئ، ويقال له: الأبّار، وابن الأبّار.

مولده في بلنسية سنة 595هـ 1199م في بيت علم ونبل، وأصلهم من أندة الواقعة على مقربة من غربي بلنسية.

درس ابن الأبار الفقه والحديث على أقطاب عصره، وفي مقدمتهم أبوه عبد الله، وكان من بين أساتذته أعظم علماء الأندلس يومئذٍ، وهو المحدث الكبير أبو الربيع بن سالم، وقد انقطع إليه ابن الأبار، ولازمه أكثر من عشرين سنة، ولما توفي قتيلاً بموقعة أنيشة رثاه ابن الأبار بقصيدة تعتبر من أعظم المراثي الأندلسية.

وإلى جانب الحديث والفقه، برع ابن الأبار في اللغة والأدب، وشُغِف بالأخبار والسير، ورحل في مطلع شبابه إلى غربي الأندلس، فزار قُرْطُبَة وإشبيليا، وهو يأخذ أينما حلَّ عن كبار علماء العصر، ولما توفي والده سنة 619هـ، كان هو في بطليوس عاكفاً على دراسته، فعاد إلى بلنسية حيث موطنه وأسرته.

وتولى ابن الأبار في شبابه قضاء دانية، ثم تولى الكتابة لأمير بلنسية محمد بن يوسف بن عبد المؤمن الموحدي، وكانت الدولة الموحدية في حالة ضعف منذ هزيمة العقاب سنة 609هـ، ولما توفي الأمير محمد سنة 620هـ، خلفه ابنه عبد الرحمن، فظل ابن الأبار في منصبه، وحاز على ثقة الأمير الجديد، وكانت سلطة الموحدين ضعيفة في هذه المنطقة التي شهدت كثيراً من حركات التمرد ضدهم، أبرزها حركة ابن مردنيش قبل خمسين عاماً، وعادت هذه الحركة للتمرد على حكم الموحدين بقيادة زيان بن مدافع بن مردنيش الذي استطاع السيطرة على بلنسية سنة 626هـ، وهرب الأمير عبد الرحمن ومعه كاتبه ابن الأبار، وكان عبد الرحمن ينوي الاستعانة بملك أراجون الإسباني لاسترداد إمارته،

فلم يرض ابن الأبار بهذه الخيانة، وعاد إلى بلنسية، فدخل في خدمة الأمير زيان وأصبح من كتَّابه.

وكان هذا العصر عصر سقوط مدن المسلمين في الأندلس واحدة تلو الأخرى، وكانت مملكة قشتالة ومملكة أراجون الإسبانيتين تترقبان الفرصة للانقضاض على المدن الأندلسية، فسقطت قُرْطُبَة عاصمة الخلافة بيد ملك قشتالة سنة 633هـ، وكان لسقوطها أثر مدوي في العالم الإسلامي.

وكان ملك أراجون من جانبه يمهد للاستيلاء على شرق الأندلس وقاعدته بلنسية، وذلك بانتزاع حصونها الأمامية شيئاً فشيئاً، كل ذلك وزيان أمير بلنسية يقاوم الأرجوانيين مقاومة شديدة، وأخيراً مزقت قوى البلنسيين في معركة «**أنيشة**» سنة 634هـ، وبدأ ملك أرجوان بضرب حصار خانق على بلنسية، ولم يكن بيد الأمير زيان سوى أن يرسل كاتبه ابن الأبار إلى إخوانه المسلمين في الضفة الأخرى من البحر حيث الدولة الحفصية في تونس، وأرسل زيان سفارة برئاسة ابن الأبار تحمل بيعته وبيعة أهل بلنسية للأمير يحيى بن عبد الواحد الحفصي، وصريخه بالغوث والإنجاد قبل أن يفوت الوقت، ويسقط الثغر العظيم بيد النصارى.

وفعلاً وصل ابن الأبار إلى تونس، فاستقبله أميرها بترحيب ومودة، ومَثُلَ ابن الابار بين يديه في حفل مشهود، أبلغه فيها مضمون سفارته، وألقى قصيدته السينية الرائعة، التي اشتهرت في التاريخ، كما اشتهرت في

الشعر، ويستصرخه فيها لنصرة الأندلس، ونصرة الدين، وهذا مطلعها:

أَدرِكْ بخيلِكَ خيلِ اللهِ أندلسا إنَّ السبيلَ على مَنجاتِها دُرِسا

وهَبْ لها منْ عزيزِ النَّصرِ ما التمست فلم يَزلْ عزُّ النصرِ منكَ مُلْتَمَسا

وهي طويلة في سبعة وستين بيتاً، وكلها تَحسُّر وأنين على ضياع الأندلس، وتَمزُّق أوصالها، وسقوط مدنها.

وقد أثَّرت هذه القصيدة تأثيراً بالغاً في الأمير الحفصي ورجاله، فبادر إلى تجهيز أسطول كبير شحنه بالسلاح والرجال لإنجاد الثغر الأندلسي المحصور.

وفعلاً أقلعت هذه السفن من تونس قاصدة بلنسية، ومعها ابن الأبار ورفاقه، إلا أن هذه السفن لم تتمكن من الوصول إلى بلنسية بعد اشتباكها مع السفن الأرجوانية، فاضطرت إلى تفريغ حمولتها في دانية، وعادت أدراجها إلى تونس، واستطاع ابن الأبار بطريقة ما التسلل من دانية إلى بلنسية، واشتد حصار الأرجوانيين لبلنسية، فلم يجد الأمير زيان وسيلة لإنقاذها سوى التسليم بعد أن دافع عنها دفاعاً مستميتاً، وبدأت مفاوضات التسليم، وتولى ابن الأبار صياغة الوثيقة المحزنة التي أدت إلى خروج الأمير زيان وأهل بلنسية من مدينتهم وذلك سنة 636هـ.

ولقد كان لسقوط بلنسية أثر كبير في نفس ابن الأبار، ولقد هزّت مشاعره إلى الأعماق، فلم يطق المقام في الوطن المنكوب، فغادر أميره،

وغـادر الأندلـس كلهـا، وعـبر البحـر إلى تونـس، فوصلهـا أواخـر سـنة 636هـ.

وعـاش حينـاً في كنـف الأمـير يحيـى الحفـصي، يتـولى لـه الكتابـة، ثـم أخـذ يـتردد حينـاً بـين تونـس وبجايـة، يـدرس هنـا وهنـاك، ولمـا تـوفي الأمـير يحيـى سـنة 647هـ، وخلفـه ابنـه محمـد المسـتنصر بـالله، سـعى خصـوم ابـن الأبـار للوقيعـة بـه عنـد المسـتنصر، وأخـيراً نجحـوا في ذلـك، حيـث رفعـت إلى السـلطان أقـوال وأبيـات نُسِـبت إلى ابـن الأبـار فيهـا طعـن بالسـلطان، وتعريضـاً بـه ودبـت الفتنـة في هـذه القضيـة، فأمـر السـلطان بجلـده ثـم قتلـه، فـضرب بالسـياط، ثـم قتـل طعنـاً بالرمـاح، وأُخِـذت كتبـه وأحرقـت في موضـع قتلـه.

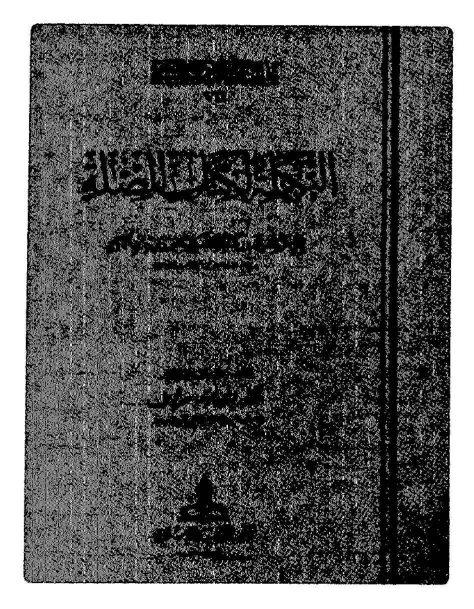
وكان مقتـل ابـن الأبار بهـذه الطريقـة المأسـاوية سـنة 658هـ-1260م، واختتمت بمقتلـه حيـاة أعظـم شـخصية في الأدب الأندلـسي بالقـرن السـابع الهجـري.

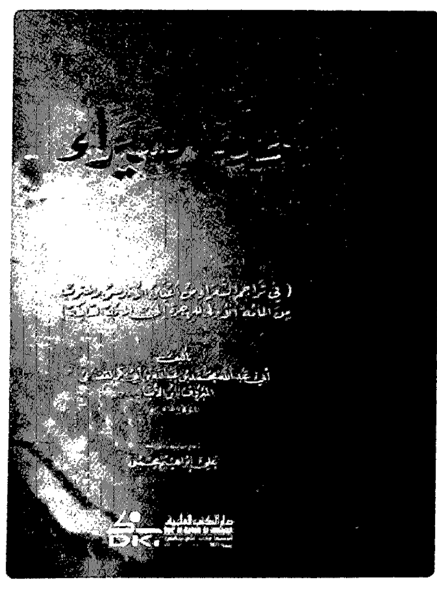
ومـن مؤلفاتـه التـي تركهـا كتـاب «**الحلـة السـيراء**» في تراجـم أعـلام إفريقيـا والأندلـس، و«**التكميـل لكتـاب الصلـة**» حيـث وصـل بـه تاريـخ ابـن بشـكوال المعـروف بصلـة تاريـخ الأندلـس، و«**تحفـة القـادم**»، و«**الأربعـون**» عـن أربعـين شـيخاً، مـن أربعـين تصنيفـاً، لأربعـين عالمـاً، مـن أربعـين طريقـاً، عـلى أربعـين تابعيـاً، عـن أربعـين صحابيـاً، لهـم أربعـون اسـماً، مـن أربعـين قبيلـة، في أربعـين بابـاً.

وعنـه قـال الذهبـي: هـو محـدث بـارع، حافـل، ضابـط، متقـن، وكاتـب بليغ، وأديـب حافـل حافـظ، كان بصـيراً بالرجـال المتأخريـن، مؤرخـاً حلـو الترجمة،

فصيح العبارة، وافر الحشمة، ظاهر التجمل، من بلغاء الكتبة.... إلى أن قال: قُتل صبراً ظلماً وبغياً...

رحمه الله تعالى رحمة واسعة....





عصر ملوك غرناطة

* محمد ابن الأحمر
* أبو البقاء الرندي
* يعقوب بن عبد الحق المريني
* شيخ الغزاة عثمان المريني
* ابن جزي الكلبي
* أبو حيان الأندلسي
* لسان الدين بن الخطيب
* الشاطبي الغرناطي
* ابن عباد الرندي

خليج بسكاي

المحيط الأطلسي

البحر الشامي

الجزائر الشرقية (البليار)

تطور حدود الأندلس

من قيام دولة الموحدين سنة ٥٥٢ هـ / ١١٥٧م إلى قيام مملكة غرناطة سنة ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢م.

- أراضي استولت عليها كونتية قطلونية ومملكة أرغون.
- أراضي استولت عليها مملكة قشتالة وليون.
- أراضي استولت عليها مملكة البرتغال.
- حدود الأندلس الموحدي.
- عند قيام دولة الموحدين سنة ٥٢٢ هـ / ١١٢٨م.
- في ما بين سنتي ١٢١٢ - ١٢٣١م.
- سنة ١٢٣٢م عند قيام مملكة غرناطة.

مقياس الرسم ١ : ٥٠٠٠٠٠٠

عصر ملوك غرناطة

مؤسس مملكة غرناطة محمد بن يوسف ابن الأحمر

1198- 1272م

أن تبني دولة في إقليم تتساقط مدنه تباعاً بيد الأعداء، وأن تقيم مملكة تصارع من أجل البقاء قرنين من الزمن، فذلك قمة الدهاء والعزم والشجاعة، وهو ما تجلى بابن الأحمر مؤسس مملكة بني الأحمر في غرناطة الذي حارب ثم صالح ثم استمال هذا واستعان بهذا على هذا، وضرب هذا بهذا حتى أقام دولته وبنى حاضرته.

محمد يوسف بن محمد بن أحمد بن خميس بن نصر، المعروف بابن الأحمر، مؤسس آخر مملكة إسلامية في الأندلس، وهي مملكة غرناطة التي لبثت زهاء قرنين من الزمن تصارع الإسبان على وجودها في غرناطة حتى سقطت سنة 897هـ، وانتهى بسقوطها الوجود الإسلامي في الأندلس.

ولد محمد بن يوسف في حصن أرجونة، وهي من أعمال قُرْطُبَة سنة 591هـ 1195م، ويعود نسبه إلى الصحابي الجليل سعد بن عبادة الخزرجي، وكان لبني نصر وجاهة وعصبية، وقد نشأ محمد متقشفاً، وجندياً وافر العزم والجرأة، يقود قومه إلى مواطن النضال، وعلى الرغم من تقشُّفه وتواضعه فقد كانت له طموحات كبيرة، وكانت

الأندلس في ذلك العصر تقدِّم لأولي العزم والبأس فرص الظهور والتقدم، حيث ضعفت دولة الموحدين في المغرب، وخرجت أكثر الأندلس عن طاعتهم بعد أن استقل محمد بن هود الجذامي (سليل ملوك بني هود في سرقسطة) بشرق الأندلس (مرسية وما حولها)، وخطب للخليفة العباسي في بغداد، وأخذ ينتزع منهم القواعد والثغور تباعاً، فرأى بنو نصر الفرصة سانحة للظهور على مسرح الحوادث، ونهض كبيرهم محمد بن يوسف لمعارضة ابن هود في جنوبي الأندلس، وخطب للأمير أبي زكريا الحفصي صاحب تونس، فأطاعته مدن جيان وشريش ومالقة، سنة 630هـ، وكان ابن هود وابن الأحمر كلاهما يطمح إلى الاستئثار بملك الأندلس، وكان لا بد أن يقع التصادم بينهما، ووقع بالفعل، واشتبكا على مقربة من إشبيليا سنة 631هـ في معركة هُزم فيها ابن هود.

وحاول ابن الأحمر أن يبسط سيطرته على إشبيليا، إلا أن أهلها رفضوا إمرته لتمسكهم بدعوة ابن هود، وكانت مملكة ابن هود أوسع نطاقاً، وأكثر تمكناً في شرق الأندلس ووسطها، ولما شعر ابن الأحمر أن الأمر استتب لابن هود، سعى إلى التفاهم معه، فعقد معه الصلح والهدنة أولاً، ثم لم ير بأساً من مصانعته والانضواء تحت لوائه، ولكن ابن هود لم يلبث أن توفي قتيلاً سنة 635هـ، فانهارت دولته بسرعة.

وعندئذٍ بادر ابن الأحمر بالاستيلاء على المرية، وأطاعته مدينة غرناطة، ودعاه زعماؤها إلى دخولها، فدخلها سنة 635هـ في حفل بسيط، وجعل

بها مقر حكمه وسلطانه، وقد نشأت هذه الإمارة في غمار الفوضى والاضطراب الذي ساد في الأندلس، خصوصاً بعد سقوط قُرْطُبَة بيد القشتاليين سنة 633هـ، حيث كان لسقوطها أثر مدوٍّ في العالم الإسلامي كما ذكرت سابقاً.

وقد عمل ابن الأحمر على توطيد مملكته الناشئة، وكان يحظى على تأييد كبير من الشعب الأندلسي ولا سيما في الجنوب، ولكن أصاغر الأمراء والزعماء فضَّلوا الانضواء تحت لواء ملك قشتالة، والاحتفاظ بظله في مدنهم وقواعدهم، على مظاهرة ابن الأحمر والانضواء تحت لوائه.

وكان فرناندو الثالث ملك قشتالة يرى في ابن الأحمر الزعيم الحقيقي للأندلس بعد ابن هود، والخصم الذي يجب تحطيمه، وكان ابن الأحمر نفسه يشعر دائماً بخطر النصارى، ويراقب تحركات فرناندو بحذر، والواقع أن سائر المدن الوسطى ولا سيما جيَّان وما حولها أضحت تحت رحمة القشتاليين بعد سقوط قُرْطُبَة.

وكان فرناندو قد سيَّر جيشاً إلى جيَّان، فاستولى على أرجونة موطن ابن الأحمر، وعدة حصون منها ومواقع أخرى، ثم زحف جنوباً نحو غرناطة، وضرب حولها الحصار، إلا أنه مُنِيَ بخسارة فادحة على أسوارها سنة 642هـ.

وفي العام التالي زحف القشتاليون إلى جيَّان، وحاصرها حتى كادت تسقط، فلما رأى ابن الأحمر أنه وحيداً في الأندلس، ولا طاقة له بملك

قشتالة، آثر تقديم الطاعة للقشتاليين، والانضواء تحت ظلهم، مقابل أن يدفع لهم جزية سنوية، وتعهد لملك قشتالة بمعاونته في حروبه ضد أعدائه، وأن يشهد اجتماع مجلس قشتالة النيابي (الكورتيس) باعتباره من الأمراء التابعين للعرش، وقد قَبِل ابن الأحمر هذه الشروط مرغماً ريثما تتوطد دعائم دولته.

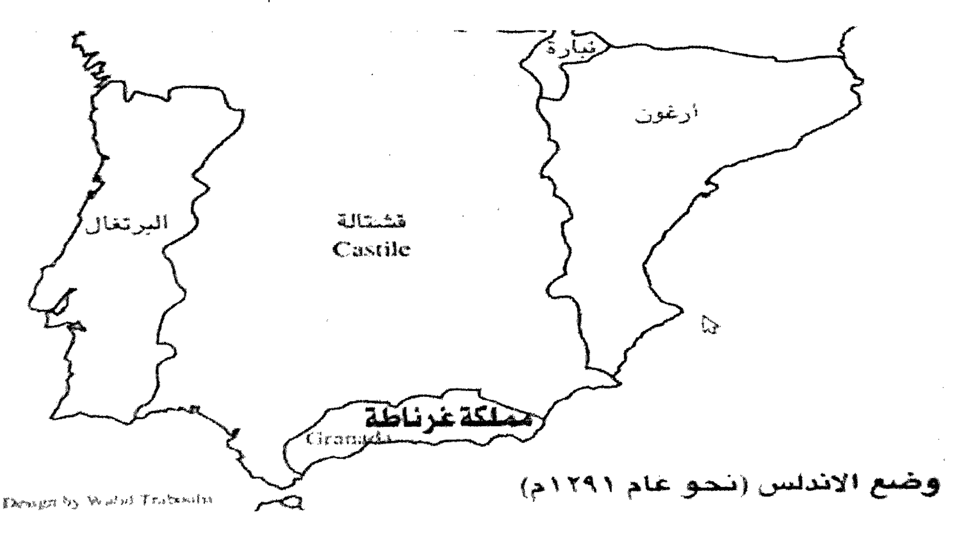
ولقد كان ابن الأحمر يعلم جيداً غدر القشتاليين وحقدهم على المسلمين، ويعلم أن تحالفه معهم قد ينتهي بسقوط مملكته، كما انتهت دول أخرى من قبل حالفت النصارى واعتمدت عليهم، فتوجهت أنظاره إلى الضفة الأخرى من البحر حيث بدأ نجم الدولة المرينية يتألق في المغرب، فقرر الالتجاء إليها لما علم عن ضخامة حشودها وقواتها ومواردها، وأرسل إلى سلطانها يعقوب بن عبد الحق المريني يطلب منه العون والنجدة، فأخذت النجدات الأولى من متطوعي بني مرين تعبر البحر، وقامت داخل المغرب حركة قوية تحث على الجهاد في الأندلس وتداركها قبل أن يفوت الوقت.

واشترك في هذه الحركة شعراء نظموا القصائد المبكية، وعلماء أدباء توجّهوا برسائلهم البليغة، غير أنه كان لا بد من أن تمضي أعوام أخرى حتى يعبر بنو مرين بقواتهم الجرارة إلى الأندلس بعد قضائهم على دولة الموحدين.

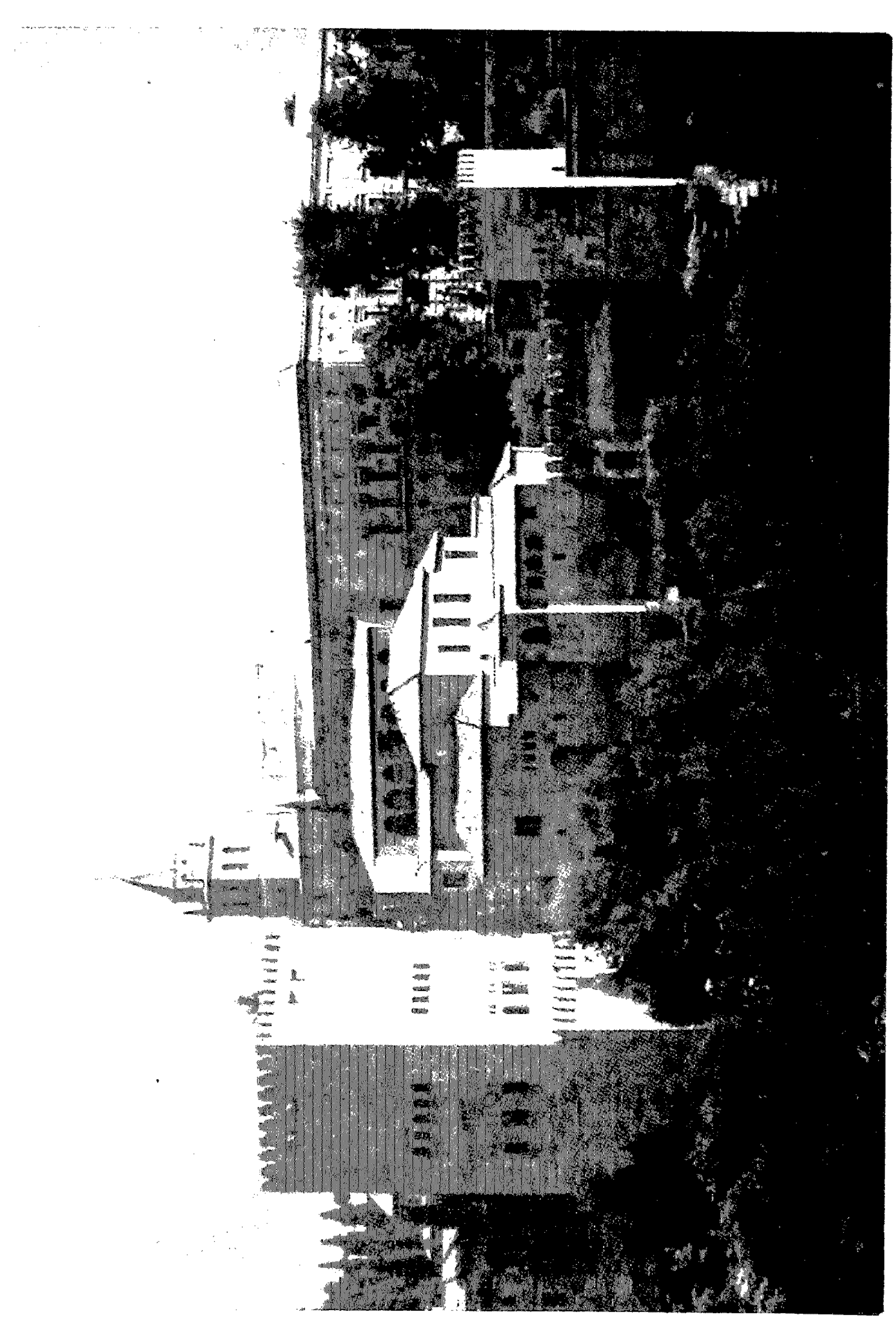
وعلى الرغم من أن ابن الأحمر استطاع أن يصمد أمام القشتاليين عندما غزوا أراضيه سنة 660هـ، فإنه ظل يُعاني من عدوانهم وغزواتهم

المتتالية، وقد زحف القشتاليون على غرناطة سنة 664هـ، فلما رأى ابن الأحمر أنه عاجز عن مقاومتهم، طلب الصلح والهدنة من مَلِكِهم ألفونسو العاشر مرة أخرى، وعقد الطرفين معاهدة صلح سنة 665هـ تنازل ابن الأحمر بمقتضاها عن حصون كثيرة في غرب الأندلس، وقضى ابن الأحمر الأعوام القليلة الباقية من حكمه في توطيد مملكته وتنظيم شؤونها، وكان ابن الأحمر يتمتع بخصال باهرة، من الشجاعة والإقدام وشغف بالجهاد والمقدرة على التنظيم والبراعة السياسية، إضافة على تواضعه وبساطته، وكان يلقب بالشيخ، ويدعى بأمير المسلمين، وهو اللقب الذي غلب على سلاطين غرناطة فيما بعد.

وقد وصفه لسان الدين بن الخطيب فقال: كان هذا الرجل جندياً شهماً، عظيم التجلد، رافضاً للدعة والراحة، مؤثراً للتقشف، بعيداً عن التصنع، شديد العزم، موهوب الإقدام، عظيم التشمير، مصطنعاً لأهل بيته، حامياً لقرابته وأقرانه وجيرانه، مباشراً للحروب بنفسه. وتوفي ابن الأحمر رحمه الله تعالى سنة 670هـ 1272م



وضع الاندلس (نحو عام ١٢٩١م)



قصر الحمراء في مدينة غرناطة

عصر ملوك غرناطة

الشاعر أبو البقاء الرندي

1204-1285م

لكل شيء إذا ما تم نقصان ... فلا يغر بتطيب العيش إنسان
هي الأمور كما شاهدتها دولٌ ... من سرَّهُ زمنٌ ساءته أزمانُ
وهذه الدار لا تبقي على أحد ... ولا يدوم على حال لها شانُ

نعم أبا البقاء.. قد تم الكمال للمجد في أندلسنا الحبيبة وجاء وقت النقصان، وجاء وقت الخسران معاً، حينما خسرنا جنةً قد وضعها الله في أرضه، خسرها المسلمون بعد أن شغلتهم دنياهم عن أخراهم وغرهم طول الأمل، فيا حسرة الأعمار تذهب سدا ...

ولكن نقول هذه سنن الله على الأرض (سنة الإسخلاف والتمكين) ويوم لنا ويوم علينا، لكن في الأخرة الجنة فقط للمؤمنين....

هذه بعض الأبيات من نظم شاعر بكى الأندلس والأندلس تبكيه، فكلما ذكرت الأندلس لا ريب أنك ستذكر قصائد الشاعر الفقيه أبو البقاء الرندي.

صالح بن يزيد بن صالح بن موسى بن أبي القاسم بن علي بن شريف، أبو الطيب، وأبو البقاء النفزي الرندي، من قبيلة نفزة

البربريـة، والرنـدي نسـبة إلى مدينـة رنـدة الواقعـة في جنـوب الأندلـس قـرب مالقـة، مولـده بهـا سـنة 600هـ 1204م، وقـد اشـتهر بكنيتـه بـأبي البقـاء، والأشـهر أنـه كان يكنـى بـأبي الطيـب.

وكان أبـو البقـاء شـاعراً أديبـاً، وفقيهـاً حافظـاً، تـولى القضـاء في بلـده، وأقـام بمالقـة أشـهراً، وكان يكثـر الـتردد عـلى غرناطـة، يلتقـي مـع ملوكهـا، ويجتمـع بالوزيـر الأديـب لسـان الديـن بـن الخطيـب.

قال عنه ابن عبد الملك: كان خاتمة أدباء الأندلس.

وقـال ابـن الخطيـب: لـه تآليـف أدبيـة، وقصائـد زهديـة، ومقامـات في أغـراض شـتى، وكلامـه نظـماً ونثـراً مـدون.

ألّـف أبـو البقـاء مختصراً في الفرائـض، وآخـر في صنعـة الشـعر سـماه «**الوافي في علـم القـوافي**»، و«**روضـة الأنـس ونزهـة النفـس**»، بالإضافـة إلى تصنيـف في علـم العـروض، وآخـر في الفرائـض.

وقـد امتـاز شـعر أبي البقـاء بجزالـة ألفاظـه ووضوحهـا، ورقـة معانيهـا، وأكثـر مـا اشـتهر بـه شـعره هـو المراثـي الحزينـة ذات الطابـع الملحمـي، كـما كانـت لـه قصائـد بديعـة في أغـراض شـعرية متنوعـة، فوصـف النفـس البشريـة، ومـا يصـدر عنهـا مـن خـير وسـوء، ووصـف الطبيعـة مـن جبـال وأنهـار وبحـار.

ولعـل أبـرز قصيـدة اشـتهر بهـا أبـو البقـاء هـي قصيدتـه في رثـاء الأندلس، التـي تعتـبر مـن أشـهر المراثـي عـلى الإطـلاق، وهـي ليسـت مجـرد مرثيـة

لمدينة معينة كقصائد غيره من الشعراء، بل كانت لوحة عظيمة تتغنى بالأندلس كلها، فكتب قصيدته ليستنصر ملوك المغرب من بني مرين، وقد عرفت هذه القصيدة بنونية أبي البقاء:

لكلِّ شيءٍ إذا ما تمَّ نُقصانُ ... فلا يُغرَّ بطِيبِ العيشِ إنسانُ
هيَ الأمورُ كما شاهدتَها دُوَلٌ ... من سرَّهُ زمنٌ ساءته أزمانُ
وهذهِ الدارُ لا تُبقي على أحدٍ ... ولا يدومُ على حالٍ لها شانُ
يمزقُ الدهرَ حتماً كلَّ سابغةٍ ... إذا نبَتْ مشرفيات وخرصانُ
وينتضي كل سيفٍ للفناءِ ولو ... كان ابن ذي يزن والغمد غمدان
أينَ الملوكُ ذوو التيجانِ من يَمنٍ ... وأينَ منهم أكاليلٌ وتيجانُ
وأينَ ما شادَهُ شدَّادُ في إرمٍ ... وأينَ ما ساسَهُ في الفرسِ ساسانُ
وأينَ ما حازَهُ قارونُ منْ ذَهبٍ ... وأين عادٌ وشدادٌ وقحطانُ
أتى على الكلِّ أمرٌ لا مَردَّ لهُ ... حتى قَضَوا فكأنَّ القومَ ما كانوا
وصارَ ما كانَ من مُلك ومن مَلك ... كما حكى عن خَيالِ الطيفِ وسنانُ
دارَ الزمانُ على دارا وقاتِلِه ... وأمَّ كسرى فما آواهُ إيوانُ
كأنَّما الصعبُ لم يسهلُ له سببُ ... يوماً ولا مَلك الدنيا سليمانُ
فجائعُ الدهرِ أنواعٌ منوعةٌ ... وللزمانِ مسرَّاتٌ وأحزانُ
وللحوادثِ سلوانٌ يُسهِّلُها ... وما لِما حلَّ بالإسلامِ سُلوانُ

دَهى الجزيرةَ أمرٌ لا عزاءَ له ... هوى له أُحُدٌ وانهدَّ ثِهلانُ
أصابَها العينُ في الإسلامِ فارتزأتْ ... حتى خلتْ منهُ أقطارٌ وبلدانُ
فاسألْ بلنسيةَ ما شأنُ مرسيةٍ ... وأينَ شاطبةٌ أمْ أينَ جيَّانُ
وأين قُرْطُبَةٌ دارُ العلومِ فكم ... منْ عالمٍ قد سما فيها له شانُ
وأين حمصُ وما تحويهِ من نُزَهٍ ... ونهرُها العذب فياضٌ وملآنُ
قواعدٌ كنَّ أركانَ البلادِ فما ... عسى البقاء إذا لم تبقَ أركانُ
تبكي الحنيفيةَ البيضاءَ من أسفٍ ... كما بكى لفراقِ الإلفِ هيمانُ
حيث المساجدُ قد أضحتْ كنائسَ ما ... فيهنَّ إلا نواقيسٌ وصلبانُ
حتى المحاريبُ تبكي وهي جامدةٌ ... حتى المنابرُ ترثي وهي عيدانُ
يا غافلاً وله في الدهرِ موعظةٌ ... إن كنتَ في سِنَةٍ فالدهرُ يقظانُ
وماشيًا مرحًا يلهيه موطنهُ ... أبعد حمصٍ تَغرُّ المرءَ أوطانُ
تلك المصيبةُ أنسَتْ ما تقدَّمها ... وما لها مع طولَ الدهرِ نسيانُ
يا راكبين عتاقَ الخيلِ ضامرةً ... كأنها في مَجالِ السبقِ عقبانُ
وحاملين سيوفَ الهندِ مرهقةٌ ... كأنها في ظلامِ النقعِ نيرانُ
وراتعين وراءَ البحرِ في دعةٍ ... لهم بأوطانهم عزٌّ وسلطانُ
أعندكم نبأٌ من أهلِ أندلسٍ ... فقد سرى بحديثِ القومِ ركبانُ

كم يستغيثُ بنا المستضعفون وهم / قَتلى وأسرى فما يهتزُّ إنسانُ
ماذا التقاطعُ في الإسلامِ بينكمُ / وأنتمْ يا عبادَ اللهِ إخوانُ
ألا نفوسٌ أبيَّاتٌ لها هممٌ؟ / أما على الخيرِ أنصارٌ وأعوانٌ؟
يا من لذلةِ قومٍ بعدَ عزِّهُمُ / أحالَ حالهمُ جَورُ وطغيانُ
بالأمسِ كانوا ملوكاً في منازلهم / واليومَ همْ في بلادِ الضدِّ عبدانُ
فلو تراهم حيارى لا دليلَ لهمْ / عليهمُ من ثيابِ الذلِ ألوانُ
ولو رأيتَ بكاهُم عندَ بيعهمُ / لهالكَ الأمرُ واستهوتكَ أحزانُ
يا ربَّ أمٍّ وطفلٍ حيلَ بينهما / كما تفرقَ أرواحٌ وأبدانُ
وطفلةٍ مثل حسنِ الشمسِ إذ طلعت / كأنما هي ياقوتٌ ومرجانُ
يقودُها العلجُ للمكروهِ مكرهةً / والعينُ باكيةُ والقلبُ حيرانُ
لمثل هذا يذوبُ القلبُ من كمدٍ / إن كانَ في القلبِ إسلامٌ وإيمانُ

وله قصائد في مدح أبطال المسلمين وذلّ الكفار، كقوله:

وكتيبة بالدَّارعين كثيفة / جرَّت ذيول الجحفل الجرارِ
روضُ المنايا بينها القُضُب التي / زُفَّت بها الرَّايات كالأزهارِ
فيها الكُماةُ بنو الكُماةِ كأَنهم / أُسْدُ الشَّرى بين القنا الخَطّارِ
مُتهلِّلين لدى اللِّقاء كأَنهم / خُلِقت وجوهُهم من الأَقمارِ

من كلِّ ليثٍ فوق برقٍ خاطفٍ بيمينه قدرٌ من الأَقدارِ

من كلِّ ماضٍ قد تقلَّد مثله فيصُيِّبَ آجالاً على الأَعمارِ

توفي الشاعر أبو البقاء الرندي رحمه الله تعالى عام 684 هـ 1285م، وأوصى أن يُكتب على قبره هذان البيتان:

خليليَّ بالودِّ الذي بيننا اجعلا إذا متُّ قبري عرضةً للترحُّمِ

عَسى مسلمٌ يدنو فيدعو برحمةٍ فإنِّي محتاجٌ لدعوةِ مُسلمِ



رسم تخيلي يحاكي حال أبي البقاء الرندي في حزنه على الأندلس

عصر ملوك غرناطة

السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني

1210- 1286م

«**إذا وجد الماء بطل التيمم**» تلك قاعدة فقهية ولها في الأدب مكان، لذلك نترك الحديث عن صنديدنا للعلامة الفيلسوف ابن خلدون ليقول عن صاحبنا هذا عندما بدأت الأندلس بالسقوط: «واتَّصَل الخَبَرُ بأَمِيْر المسلمين، فاعْتَزَم على الغَزْو بنفسه، وخشى على ثُغُور بلاده من عادية يغمراسن في الفِتْنة، فبَعَث حافِدَه تاشفين بن عبد الواحد في وَفْد من بَنِى مَرِيْن؛ لعَقْد السِّلْم مع يغمراسن، والرُّجوع للاتِّفاق والمُوادَعة، ووَضْع أَوْزار الحرب بين المسلمين؛ للقيام بوظيفة الجِهاد، فأكرم مَوْصِلَه، ومَوْصِلَ قومه، وبادَر إلى الإجابة، والأُلْفة، وأَوْفَد مَشْيَخَة بَنِي عبد الواد على السُّلْطان؛ لعَقْد السِّلْم، وبَعَث معهم الرُّسُل، وأَسْنَى الهَدِيَّة، وجَمَع اللهُ كلمةَ الإسلام، وعَظُمَ مَوْقِع هذا السِّلْم من أمير المسلمين؛ لِما كان في نفسه من الصَّاغِية إلى الجِهاد، وإيثاره مَبْرُورات الأعمال، وبَثَّ الصَّدَقات يَشْكُر اللهَ على ما مَنَحَه من التَّفَرُّغ لذلك، ثم اسْتَنْفَر الكافَّة، واحْتَشَد القَبائل والجُمُوع، ودَعا المسلمين إلى الجِهاد، وخاطَب في ذلك كافَّة أهل المَغْرِب إننا الأن مع السلطان يعقوب المريني...

يعقوب بن عبد الحق بن محيو بن أبي بكر بن حمامة المريني، أبو

يوسف المنصور بالله، ملك الدولة المرينية في المغرب، وسيد بني مرين على الإطلاق، بربري من أصل عربي، كانت له في عهد أخيه أبي بكر إمارة بلاد تازا وبطوية وملوية في المغرب الأقصى.

وكان أول ما قام به إنقاذ مدينة سلا من يد الإسبان، وقتل الكثير منهم، ثم أرسل سنة 660هـ قوة من ثلاثة آلاف فارس، فعبرت البحر إلى الأندلس للجهاد وهو أول من فعل ذلك من بني مرين.

وكانت الأندلس بعد هزيمة الموحدين في معركة العقاب سنة 609هـ، قد أفل بها شمس الإسلام، وأخذت مدنها الشهيرة تتساقط تباعاً بيد القشتاليين الإسبان، فسقطت قُرْطُبَة سنة 633هـ، وسقطت إشبيليا سنة 646هـ، ومدن أخرى سقطت نتيجة تفرُّق كلمة المسلمين، واستعانتهم بأعدائهم على بعض، ولم يبقَ للإسلام في الأندلس سوى غرناطة ومالقة ووادي آش، حيث قامت مملكة بني الأحمر في غرناطة، ولم تكن غرناطة بمأمن عن طمع القشتاليين، فتعرَّضت للحصار أكثر من مرة، وكادت تسقط لولا أن ملكها ابن الأحمر قام بمهادنه ملك قشتالة، وتقديم الطاعة، ودفع الجزية له.

وكانت هذه الأحداث الجسيمة في الأندلس مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بما يجري في بلاد المغرب من تهاوي أركان دولة الموحدين، واقتتالهم فيما بينهم، وكانت قد ظهرت ثلاث دول ورثت هذه الدولة المتهاوية: دولة الحفصيين في تونس، ودولة بني زيان في تلمسان في الجزائر، ودولة بني مرين في المغرب، وكما ذكرنا فقد لمع نجم الدولة المرينية في عهد

السلطان يعقوب بن عبد الحق، الذي أنهى حكم الموحدين في المغرب، وبنى دولة قوية متينة مرهوبة الجانب.

ولم يكن السلطان يعقوب بغافل عما يحدث في الأندلس، لكن انشغاله بأمور المغرب قد أخّر عبوره إليها، وإنقاذ ما يمكن إنقاذه منها، واشتدت مضايقات ألفونسو ملك قشتالة لابن الأحمر، وضيَّق عليه على الرغم من خضوع ابن الأحمر له، فطلب محمد الفقيه ثاني ملوك بني الأحمر النجدة من سلطان المغرب يعقوب بن عبد الحق المريني.

وفعلا لبّى السلطان يعقوب طلب ابن الأحمر، فأرسل ولده يوسف في خمسة آلاف فارس سنة 673هـ، وبعد شهرين لحق به بعد أن هدأت أحوال المغرب، والتحم جيش ابن الأحمر مع جيش السلطان يعقوب، وتقدما نحو الشمال باتجاه قُرْطُبَة عاصمة مملكة قشتالة آنذاك، حيث خرجت قوة بقيادة أشهر قواتها الدون «نونيو دي لارا»، وكان عدد جيش النصارى تسعين ألفاً من المقاتلين المتمرسين، ولم يكن عدذ المسلمين يتجاوز العشرة آلاف مقاتل، ووقعت معركة هائلة كبيرة بينهما قرب مدينة أستجة تعرف بالغزوة الدونونية نسبة إلى قائد القشتاليين، وذلك سنة 674هـ، وكانت غزوة خطيرة سيتحدد بها مصير المسلمين في غرناطة.

وقاد السلطان يعقوب الجيش بنفسه، فجعل على مقدمته ابنه يوسف، وحدد لابن الأحمر مكانه، أما هو فقد أقدم قبل أن يلتحم الجيشان، فترجَّل عن حصانه، وتوضأ، ثم صلى ركعتين، ورفع يديه إلى السماء يدعو الله جل وعلا، والمسلمون يؤمنون دعائه، وكان من دعائه آخر ما

دعا به النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر: اللهم انصر هذه العصابة (جيشه وجيش ابن الأحمر)، وأيدها، وأعنها على جهاد عدوك وعدوها، ثم قام فاستوى على جواده، واستعد للقتال، ونادى على المسلمين فقال: **يا معشر المسلمين، وعصابة المجاهدين، أنتم أنصار الدين، الذابّون عن حماه، والمقاتلون عداه، وهذا يوم عظيم، ومشهد جسيم له ما بعده، ألا وإن الجنة قد فتحت لكم أبوابها، ألا وإن الجنة تحت ظلال السيوف، فشمروا عن ساعد الجد في جهاد أعداء الله الكفرة، وقتال المشركين الفجرة، فمن مات منكم مات شهيداً، ومن عاش رجع إلى أهله سالماً غانماً مأجوراً حميداً، فـ** {اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} (آل عمران:200).

وبعد هذه الخطبة الحماسية ارتفعت معنويات الجيش الإسلامي، وأقبلوا على الجيش القشتالي، وكانت هِمَمُهم تعانق الجبال، ودارت معركة حامية الوطيس، وعلى الرغم من فارق العدد بين الجيشين، فإن النصر كان حليف المسلمين، وقُتِل قائد الجيش القشتالي «نونيو»، وكان قَتلى النصارى أكثر من عدد جيش المسلمين جميعه، وكان نصراً مؤزراً أحيا نصر معركة الزلاقة والأرك، إذ إن المسلمين لم يروا النصر في الأندلس منذ هزيمة العقاب سنة 609هـ.

وبعد انتهاء المعركة ذهب السلطان يعقوب إلى الجزيرة الخضراء للاستراحة، ليعود مرة ثانية إلى أراضي قشتالة، وحاصر إشبيليا التي طلبت الأمان والصلح، فأجابهم، وعاد إلى الجزيرة الخضراء، عبر البحر

إلى المغرب في أواخر رجب سنة 674هـ، بعد أن قضى حوالي خمسة شهور في الأندلس، وبعد أن ترك في الجزيرة الخضراء ثلاثة آلاف فارس لمعاونة إخوانهم الأندلسيين في رد اعتداء جند قشتالة ومن معهم.

وفي سنة 677هـ عبر السلطان يعقوب إلى الأندلس للمرة الثانية، وتوغل بجيشه في أراضي قشتالة، والتقى بابن الأحمر، ثم عاد إلى المغرب، وكان ابن الأحمر يتوجس خيفة من السلطان يعقوب، فحالف ملك قشتالة الذي أنزل قواته في الجزيرة الخضراء، ولما علم السلطان بذلك، أرسل ابنه يوسف في أسطول ضخم سنة 678هـ، وحدثت معركة بحرية مع الأسطول القشتالي الذي انهزم واضطرت قواته ترك الجزيرة الخضراء.

ثم بعث السلطان يعقوب إلى ابن الأحمر بوجوب التفاهم، خشية على مصير المسلمين من هذا المسلك، وعقد التفاهم بين الطرفين، وبموجبه أصبحت مالقة لبني مرين، لتكون محطة للقوات المرينية التي تعبر الأندلس للجهاد.

وعبر السلطان يعقوب إلى الأندلس للمرة الرابعة والأخيرة سنة 684هـ، فاشتبك مع جيوش قشتالة في البر والبحر، ورغب ملكهم «شانجه» بطلب الصلح، فأرسل وفداً من الأحبار ليفوض السلطان المريني ما يراه، ووُضِعت الشروط، منها مسالمة المسلمين كافة، وعدم الاعتداء على الأندلس.

وكان السلطان يعقوب الملقب بالمنصور حليماً متواضعاً، جواداً مظفراً، منصور الراية، ميمون النقيبة، لم يقصد جيشاً إلا هزمه، ولا عدواً إلا قهره،

ولا بلداً إلا فتحه، صواماً، قواماً، دائم الذكر، كثير البر، لا تزال سبحته في يده، مقرِّباً للعلماء، مكرِّماً للصلحاء، صادراً في أكثر أموره عن رأيهم.

ولما استقامت أمور دولته، بنى المستشفيات للمرضى، ورتَّب لهم الأطباء لتفقد أحوالهم، وأجرى على الكل المرتبات والنفقات من بيت المال، وكذا فعل بالجذامى والعمي والفقراء، فرتب لهم مالاً معلوماً يقبضونه في كل شهر من جزية اليهود، وبنى المدارس لطلبة العلم، ووقف عليها الأوقاف، وأجرى عليهم بها المرتبات، كل ذلك ابتغاء ثواب الله تعالى، نفعه الله بقصده.

توفي السلطان يعقوب في الجزيرة الخضراء رحمه الله تعالى سنة 685هـ 1286م، وحُمِل إلى رباط الفتح من بلاد العدوة، فدفن بمسجد شالة، وقبره اليوم طامس الأعلام كما يقول السلاوي، أي غير ظاهر.



رسم تخيلي لمعارك السلطان يعقوب مع نصارى الإسبان

عصر ملوك غرناطة

شيخ الغزاة عثمان بن إدريس المريني

1244- 1330م

في عقر ديار الإسبان غزا صنديدنا هذا 732 غزوة خاضها ضدهم، ما وهن ولا استكان، لا كلَّ ولا ملَّ، أخرج سيفه من غمده ولم يعيده إليه حتى وافته المنية مجاهداً في سبيل الله على ثغور المسلمين، فأنزل الرعب في صفوف الفرنجة ولم يسمح لهم بأن يهنأوا في بلاد المسلمين لمدة ثلاثة وعشرين عاماً، فمن هو هذا الرجل وكيف كانت حياته ؟!

هيا بنا أحبتي لنتعرف على شيخ الغزاة والعالم المجاهد المقاتل عثمان بن أبي العلاء المريني.

أبو سعيد عثمان بن أبي العلاء إدريس بن عبد الله بن عبد الحق المريني، ولقبه شيخ الغزاة في الأندلس، من أبطال بني مرين ملوك المغرب، كانت إقامته أيام السلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المريني في الأندلس، موالياً لبني الأحمر أصحاب غرناطة، واشترك معهم في الاستيلاء على بلاد غمارة، وتولّى مشيخة الغزاة فيها، فكانت له في جهاد الإسبان اليد البيضاء، وعلا أمره بالأندلس وزاحم ملوكها من بني الأحمر في رياستهم وجبايتهم، حتى كاد يستولي على الأمر من أيديهم، فصانعوه، وأحصيت له حوالي سبعمئة واثنتان وثلاثون غزوة،

لعل أشهرها كانت سنة 718هـ، حيث زحف الجيش القشتالي على غرناطة بجيش ضخم بقيادة «دون بطره» و«دون خوان» الوصيين على ملك قشتالة ألفونسو العاشر، ومعهم كثير من الأمراء، والمتطوعين الإنكليز من ذوي النزعة الصليبية، حيث حدثت معركة هائلة قرب مدينة غرناطة.

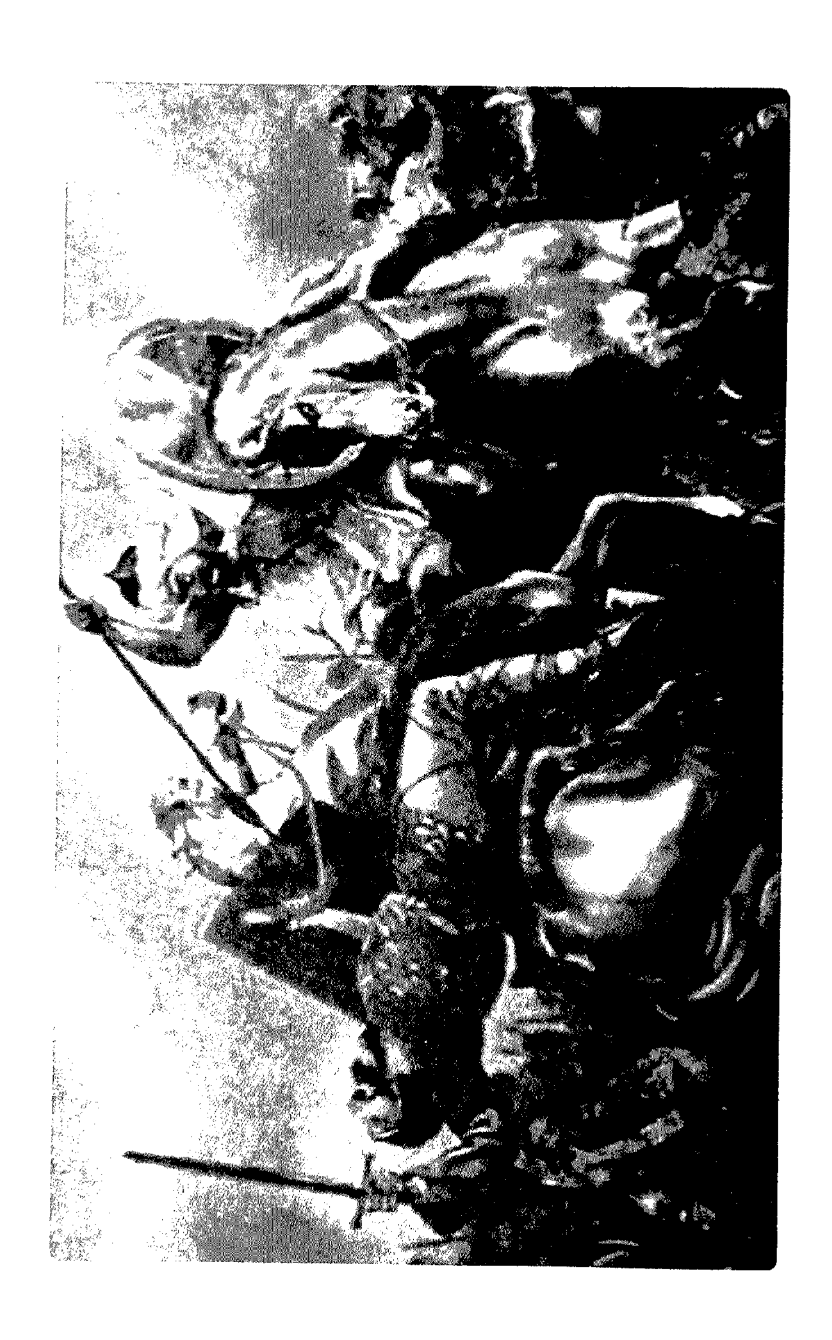
وكان تعداد الجيش الإسلامي حوالي ستة آلاف مقاتل، منهم ألف وخمسمئة فارس والباقي رجالة، لكنهم كانوا صفوة مختارة بقيادة شيخ الغزاة عثمان بن أبي العلاء، الذي أخلص وجنده النية لله تعالى، مجاهدين مستشهدين، فكان نصراً حاسماً مؤزراً، حيث حمل عثمان وجنده حملة واحدة على الفرنج، فأهلكوا ملوكهم، وقتلوا منهم حوالي خمسة وعشرين ملكاً، وقُتل قائد الجيش «دون بطره»، ولم يستشهد من المسلمين سوى عدد قليل، وقتل من الفرنج الآلاف.

ويقول ابن خلدون عن هذه الوقعة: وصابَرُوهُم حتى خالطوهم في مراكزهم، فصرعوا بطره وجوان، وولوهم الأدبار.

ويقول ابن الخطيب في كتاب الإحاطة حيث جرى ذكر الطاغية بطره: ثم صرف المطامع عزمه إلى الحضرة، فقصد مرجها، وكف الله عاديته، وقمعه، ونصر الإسلام عليه، ودالت للدين عليه الهزيمة العظمى بالمرج من ظاهر غرناطة على بريد منها، واستولى على محلته النهب، وعلى فرسانه ورجاله القتل، وعظم الفتح، وبهر الصنع، وطار الذكر، وثاب السعد.

ولما توفي عثمان بن أبي العلاء كُتب على قبره: هذا قبر شيخ الحماة، وصدر الأبطال والكماة، واحد الجلالة، ليث الإقدام والبسالة، علم الأعلام، حامي ذمار الإسلام، صاحب الكتائب المنصورة، والأفعال المشهورة، والمغازي المسطورة، وإمام الصفوف، القائم بباب الجنة تحت ظلال السيوف سيف الجهاد، وقاصم الأعاد، وأسد الآساد، العالي الهمم، الثابت القدم، الهمام الماجد الأرضى، البطل الباسل الأمضى، المقدس المرحوم أبي سعيد عثمان ابن الشيخ الجليل الهمام الأصيل الشهير المقدس المرحوم أبي العلاء إدريس بن عبد الله بن عبدالحق.

كان عمره حين توفي ثماني وثمانين سنة عم 730هـ 1330م، أنفقها ما بين روحة في سبيل الله وغدوة، وقضى عمره مجاهداً مجتهداً في طاعة الله، محتسباً في إدارة الحرب، ماضي العزائم في جهاد الكفار، وصنع الله تعالى له فيهم من الصنائع الكبار، ما سار ذِكره في الأقطار أشهر من المثل السيار، وتوفي رحمه الله وغبار الجهاد طي أثوابه، وهو مراقب لطاغية الفرنج وأحزابه، فمات على ما عاش عليه، وفي ملحمة الجهاد قبضه الله إليه، وسيفه على رأس ملك الفرنج قائم مسلط، وارتجت الأندلس والمغرب لوفاته رحمه الله تعالى وأجزل عطاياه أكرمه بالجنة مع الأبرار....



رسم تخيلي لمعركة قرب غرناطة خاضها القائد عثمان المريني

عصر ملوك غرناطة

المفسر ابن جُزَيّ الكُلبي

1294-1340م

لكل من يقرأ القرآن ويختار طريق الاختصاص بفهمه وتفسيره لا بد وأن يلجأ لكتاب «**التسهيل لعلوم التنزيل**» ليسهل عليه طريق الهدى الذي اختاره سبيلا للنجاة، وما التسهيل إلا واحداً مما تركه لنا المفسر الفقيه المتواضع المجاهد الأندلسي ابن جزي الكلبي ....

محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن يحيى ابن جزي الكلبي، أبو القاسم، من علماء الفقه والأصول واللغة، من أهل غرناطة، ومن ذوي الأصالة والنباهة بها، أصل سلفه من ولبة من حصن البراجلة، وعند سقوط دولة المرابطين كان لجدهم يحيى رياسة وانفراد بالتدبير.

نشأ ابن جزي في غرناطة، وكانت في ظل بني الأحمر، وكان على طريقة مثلى من العكوف على العلم، والاقتصار على الاقتيات من حر النشب، والاشتغال بالنظر والتقييد والتدوين، فقيهاً، حافظاً، قائماً على التدريس، مشاركاً في فنون من عربية وفقه وأصول وقراءات وأدب وحديث، حافظاً للتفسير، مستوعباً للأقوال، جمَّاعاً للكتب، حسن المجلس، ممتع المحاضرة، تقدم للخطابة بالمسجد الأعظم في بلده على حداثة سنه، فاتُّفق على فضله، وجُري على سنن أصالته.

ومن مؤلفاته: «وسيلة المسلم في تهذيب صحيح مسلم»، و «الأنوار السنية في الكلمات السنية»، و «الدعوات والأذكار المخرجة من صحيح الأخبار»، و «القوانين الفقهية في تلخيص مذهب السادة المالكية»، و «التنبيه على مذهب الشافعية والحنفية والحنبلية»، و «تقريب الوصول إلى علم الأصول»، و «النور المبين في قواعد عقائد الدين»، و «المختصر البارع في قراءة نافع»، و «أصول القراء الستة غير نافع»، و «الفوائد العامة في لحن العامة»، وله تفسير وهو الأشهر غالباً واسمه «التسهيل لعلوم التنزيل»، وله فهرسة كبيرة اشتملت على جملة كبيرة من علماء المشرق والمغرب.

وخلّف أولاداً برعوا في القضاء والكتابة، ومن تلامذته الوزير الشهير لسان الدين بن الخطيب.

ومن جميل شعره:

لكلّ بني الدنيا مُرادٌ ومَقصِدُ ... وإن مُرادي صِحةٌ وفراغُ

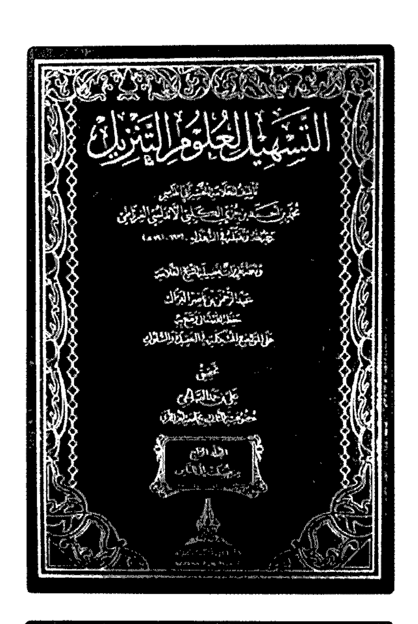
لَأبلغَ في علمِ الشريعةِ مَبلغاً ... يَكونُ بهِ لي للجِنانِ بلاغُ

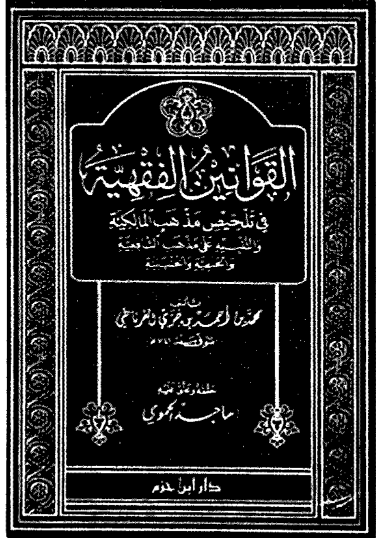
ويقول أيضاً:

أرومُ امتداحَ المصطفى فَيَردُّني ... قصوريَ عن إدراكِ تلكَ المَناقِبِ

ومن لي بحصرِ البحرِ والبحرُ زاخرٌ ... ومن لي بإحصاءِ الحصى والكواكبِ

واستشهد الإمام ابن جزي سنة 741هـ 1340م في معركة طريف بين المسلمين والإسبان، حيث فُقِدَ وهو يحرض الناس على القتال رحمه الله وأسكنه مع الشهداء والصديقين والمجاهدين إنه على كل شيئ قدير...







عصر ملوك غرناطة

المفسر أبو حَيَّان الأندلسي

1256- 1344م

أراد أن يوضح غريب الكلمات في القرآن الكريم فوضع لطلبة العلم كتابه: «**تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب**»، ثم أراد أن يفسر ما يسره الله له من كتابه العظيم فوضع بحراً في التفسير سماه «**البحر المحيط**» ليبقى مرجعاً أساسياً لطالبي العلم إلى قيام الساعة، إنه العالم الفقيه المفسر أبو حيان الأندلسي.

أثير الدين أبو حَيَّان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حَيَّان الغرناطي الأندلسي النفزي، نسبة إلى نفزة من قبائل البربر، الإمام المفسر والمحدث والمقرئ والمؤرخ والأديب النحوي.

ولد في إحدى ضواحي غرناطة سنة 654هـ ـ1256م، ونشأ بها، ورحل إلى مالقة، وأقام بها، ثم رحل إلى أصقاع كثيرة من البلاد الإسلامية لطلب العلم.

ويقول عن سبب خروجه من غرناطة: إن بعضاً من العلماء بالمنطق والفلسفة والرياضيات قال للسلطان: إني كبرت، وأخاف أن أموت، فأرى أن ترتِّب لي طلبة أعلمهم هذه العلوم لينتفعوا من بعدي، وقال أبو حَيَّان: فأشير إلي أن أكون من أولئك، ورُتِّب لي راتب جيد وكسوة

وإحسان، فتمنعت ورحلت مخافة أن أُكره على ذلك.

ثم خرج أبو حَيَّان من موطنه إلى المشرق شابّاً في الخامسة والعشرين من عمره، سنة 679هـ 1280م، فنزل بجاية وتونس والإسكندرية، ثم رحل إلى مكة، وأدى بها فريضة الحج، ثم عاد إلى مصر، فدخلها في سنة 695هـ 1295م، وهذه الرحلة الطويلة قضاها في طلب الحديث واللغة والنحو والقراءات، فلا يحل ببلدة إلا اتصل بشيوخها وتلقى عنهم، ولهذا كثرت شيوخه كثرة مفرطة.

ولم يشتهر أحد من النحاة بكثرة الشيوخ مثلما اشتهر أبو حيان، ويشير هو إلى ذلك بقوله: (وجملة الذين سمعت منهم أربعمائة شخص وخمسون، وأما الذين أجازوني فعلماء كثر جداً من أهل غرناطة ومالقة وسبتة وديار إفريقيا وديار والحجاز والعراق والشام)، وقد ذكر المقري في «نفح الطيب» شيوخ أبي حيان والكتب التي درسها عليهم، قال: نزل أبو حَيَّان القاهرة تسبقه شهرته في النحو، وتمكُّنه من القراءات، وبراعته في اللغة، وكانت القاهرة تعيش فترة من أزهى فتراتها العلمية، فاستقبلت الوافد الجديد استقبالاً حسناً، ولم تضنّ عليه بما يستحقه من تقدير وإكبار، فأسندت إليه تدريس الحديث في المدرسة النصورية، وفي الوقت الذي صار فيه شيخاً يُشار إليه بالبنان كان تلميذاً في حلقة العالم الكبير بهاء الدين ابن النحاس يتلقى عليه القراءات، فلما توفي ابن النحاس خلفه أبو حَيَّان في حلقته، وجلس مكانه لإقراء الناس القرآن، وعُهِدَ إليه بتدريس النحو في جامع الحاكم

بالقاهرة سنة 704هـ ـ 1304م.

وفي القاهرة طالت به الحياة، واتَّسعت شهرته، والتفَّ حوله طلاب العلم من كل مكان، وكان ابن حَيَّان يُعجَب بطلابه الأذكياء، فيحنو عليهم، ويساعدهم، ويتودد إليهم، لا يمنعه جلال منصبه، ولا عِظَم هيبته أن يفعل ذلك معهم، فتألق بعضهم في حياته، ونال منزلة كبيرة.

ومن تلاميذه:

تقي الدين السبكي الفقيه الشافعي.

جمال الدين الإسنوي الفقيه المؤرخ.

ابن أم قاسم.

ابن عقيل قاضي القضاة.

برهان الدين أبو إسحاق السفاقصي.

كمال الدين أبو الفضل الأدفوي، صاحب كتاب «**الطالع الصعيد**»، الذي أَلَّفه امتثالاً لرغبة شيخه أبي حيان.

وصلاح الدين خليل ابن أيبك الصفدي، الذي ترجم لشيخه ترجمه وافية في كتابيه «**الوافي**» و «**أعيان العصر**».

ولم يكن عند أبي حيان مطمع في منصب أو جاه مثلما كان يفعل بعض العلماء، ولكنه استغنى عن ذلك بالانشغال في تحصيل العلم وتدريسه، والإخلاص في نشره، ولم يجد في غيره لذة وسعادة كالتي يجدها حين

يقرأ كتابا أو يطالع مسألة من العلم، وعبّر هو عن ذلك بأبيات رقيقة من الشعر، قال فيها:

أَعاذلُ ذَرني وانفرادي عنِ الورى فلستُ أرى فيهم صديقاً مُصافيا
ندامايَ كُتْبٌ أَستفيدُ علومَها أَحِبَّاءُ تُغني عن لقائي الأعاديا
وآنَسَها القرآنُ فَهوَ الذي به نَجاتِي إذا فَكَّرتُ أو كُنتُ تاليا

وفي الوقت الذي أعرض فيه عن السعي وراء المناصب كان ذوو الجاه والسلطان يرجون ودَّه، ويطلبون صداقته، فكانت علاقته مع نواب السلطنة والسلاطين أنفسهم جيدة، وكانت له صداقة خاصة مع الأمير سيف الدين أرغون كافل المملكة المصرية، وكان يتبسط معه في الحديث، وكان السلطان الناصر قلاوون يُجلّه ويعظّمه، وله في نفسه مكانة لا توازيها مكانة أخرى.

وبلغ من مكانته وتقدير الناس له أنه مُدِح كما يُمدَح الأمراء والسلاطين، لا رغبة في نوال، ولا طمعاً في مال، وإنما مُدِح مديح المحب لمن يعرف قدر من يمدحه، فهو يُمدَح اختياراً لا اضطراراً، وممن مدحه من أهل الأدب محيي الدين بن عبد الظاهر، صاحب ديوان الرسائل في مصر، وصدر الدين بن الوكيل، ونجم الدين الإسكندري، والقاضي ناصر الدين شافع، وخليل بن أيبك الصفدي، وقد فطن إلى هذه الظاهرة صدر الدين بن الوكيل حين زاره ابن حَيَّان في منزله فلم يجده، فكتب له على مصراع الباب ما يفيد أنه حضر للزيارة، فلما جاء ابن الوكيل وقرأ ما كتبه ابن حَيَّان على الباب

قال:

قالوا: أبو حيَّان غيرُ مُدافِعٍ ... مَلِكُ النحاة، فقلت: بالإجماعِ

اسم الملوكِ على النقودِ: وإنني ... شاهدتُ كُنيتَهُ على المِصراعِ

وكان ابن حيان ثبتاً قيماً عارفاً باللغة، وأما النحو والتصريف فهو الإمام المطلق فيهما، خدم هذا الفن أكثر عمره حتى صار لا يدركه أحد في أقطار الأرض فيهما، وله اليد الطولى في التفسير والحديث وتراجم الناس، ومعرفة طبقاتهم خصوصاً أهل المغرب والأندلس، وأقرأ الناس قديماً وحديثاً، وألحق الصغار بالكبار، وصار تلامذته أئمة وشيوخاً في حياته، وهو الذي شجع الناس على مصنفات ابن مالك (**صاحب الألفية**)، ورغَّبهم في قراءتها، وشرح لهم غامضها، وخاض لهم في لججها.

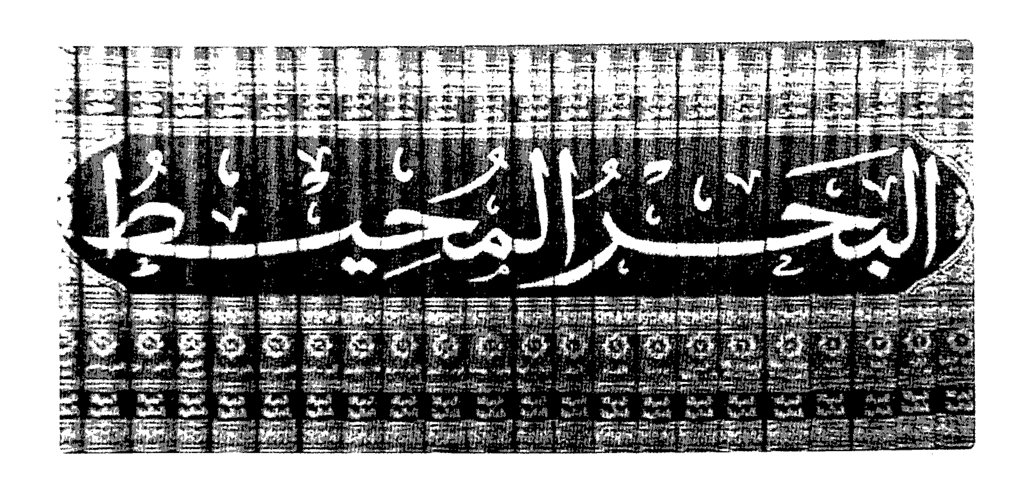
قال الصفدي: لم أره قط إلا يُسمِع أو يشغل أو يكتب، أو ينظر في كتاب. وكان ثبتاً صدوقاً حجة، كثير الخشوع والبكاء عند تلاوة القرآن.

ومن أشهر مؤلفاته: «**البحر المحيط**» في التفسير، و«**النهر**» اختصر به البحر المحيط، و«**مجاني العصر**» في تراجم رجال عصره، و«**طبقات نحاة الأندلس**»، و«**زهو الملك في نحو الترك**»، و«**الإدراك للسان الأتراك**»، و«**تحفة الأريب**» في غريب القرآن، و«**منهج السالك في الكلام على ألفية ابن مالك**»، و«**عقد اللآلي**» في القراءات على وزن الشاطبية وقافيتها، و«**الحلل الحالية في أسانيد القرآن العالية**»، و«**النضار**» مجلد ضخم ترجم به نفسه وكثيراً من أشياخه، و«**الوهاج في اختصار**

المنهاج» للنووي، و«اللمحة البدرية في علم العربية»، و«التكميل في شرح التسهيل»، و«ومطول إرتشاف الضرب من لسان العرب».

قال الصفدي: ولم يصنّف في العربية أعظم من هذين الكتابين، ولا أجمع، ولا أحصى للخلاف والأحوال وغير ذلك من المؤلفات النافعة الجامعة.

وتوفي العلامة الحافظ أبو حَيَّان في القاهرة سنة 745هـ 1344م، وقد جاوز التسعين عاماً، رحمه الله.



عصر ملوك غرناطة

ذو الوزارتين لسان الدين ابن الخطيب

1313- 1374م

شخصيتنا في هذه الصفحات هو رجلٌ أديبٌ مؤرخٌ، عرف الجغرافيا كما عرف التاريخ، رحالاً عالماً بالشريعة خلوقاً، سياسياً محنكاً، طبيباً حاذقاً، مؤلفاً ومصنفاً مبدعاً ترك لنا من آثاره الكثير ومنها كتابه التاريخي «**الإحاطة في أخبار غرناطة**» إنه المؤرخ لسان الدين الخطيب..

محمد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن سعيد بن علي السلماني اللوشي الأصل، الغرناطي الأندلسي، أبو عبد الله الشهير بلسان الدين ابن الخطيب، الوزير الكبير، الطائر الصيت في المشرق والمغرب، المثل المضروب في الكتابة والشعر والطب، ومعرفة العلوم على اختلاف أنواعها، ومصنفاته تخبر عن ذلك، علم الرؤساء الأعلام، الذي خدمته السيوف والأقلام، اعترف له بالفضل أصحاب العقول الراجحة، مولده في منطقة لوشة من أعمال غرناطة سنة 713هـ 1313م، وكان سلفه قديماً يُعرفون ببني الوزير، ثم أصبحوا يعرفون ببني الخطيب، نسبة إلى جده الأعلى سعيد، وكان قد ولي الخطابة بها، وانتقل جده الأدنى سعيد إلى غرناطة سنة 683هـ، ونشأ ابنه عبد الله (والد لسان الدين) في نعمة طائلة، ثم ولي الوزارة بلوشة، ورجع وخدم في مخزن غرناطة، واستشهد في معركة طريف سنة 741هـ (بين المسلمين بقيادة السلطان

أبـو الحسـن المرينـي والإسـبان).

وقـد نشـأ لسـان الديـن في غرناطـة، فقـرأ القـرآن، وتعلـم اللغـة والأدب علـى علمائهـا، ثـم أخـذ الطـب والمنطـق والحسـاب عـن يحيـى بـن هذيـل الفيلسـوف، وبـرز في الطـب وتولـع بالشـعر، فنبـغ فيـه، وترسـل ففـاق أقرانـه، واتصـل بالسـلطان أبي الحجـاج يوسـف ابـن الأحمـر، فمدحـه، وتقـرب منـه، ثـم استكتبَه، وحـاز عـلى ثقـة السـلطان، فأضـاف إليـه أمـور الـوزارة، واسـتعمله في السـفارة إلى الملـوك، واسـتنابه في جميـع مـا يملكـه.

ولمـا قُتـل أبـو الحجـاج سـنة 755هـ، وتـولى بعـده ابنـه محمـد الغنـي بـالله، اسـتمر لسـان الديـن في وزارتـه، ثـم تغلَّـب إسـماعيل عـلى أخيـه محمـد الغنـي بـالله، وخلعـه، فقبـض عـلى لسـان الديـن بعـد الوشـاية بـه مـن المغرضـين، وصـادر أملاكـه، وسـجنه، فقاسـى لسـان الديـن في سـجنه الكثـير، واسـتمر مسـجوناً حتـى وردت شـفاعة السـلطان أبـو سـالم المرينـي صاحـب المغـرب فيـه، فانتقـل بصحبـة سـلطانه الغنـي بـالله إلى فـاس، وبالـغ أبـو سـالم في إكرامـه، وأجـرى عليـه الأرزاق، لكـن في حـدود عـام 762هـ-1361م حـدث انقـلاب في غرناطـة وقُتـل فيـه السـلطان إسـماعيل بـن الأحمـر، فتوجـه السـلطان المخلـوع الغنـي بـالله واسـتطاع الاسـتيلاء عليهـا في ذلـك العـام، وفي العـام التـالي لحقـه ابـن الخطيـب فتسـلم منصبـه مـن جديـد الـذي ظـل فيـه هـذه المـرة عـشر سـنوات كاملـة.

وفي هـذه الـوزارة الجديـدة آثـر ابـن الخطيـب أن يكـون أسـلوبه حـذرا، مبتعـدا عـن الـترف والعـز، ويقـول: «فاسـتعنتُ بـالله، وعاملـتُ وجهـه

فيه، من غير تلبّس بجراية، ولا تشبّث بولاية، مقتصرا على الكفاية، حذرا من النقد، خامل المركب، معتمدا على المنشأة، مستمتعاً بخلق النعل، راضيا بغير النبيه من الثوب، مشفقاً من موافقة الغرور، هاجر الزخرف، صادعا بالحق في أسواق الباطل، وعَمَّرَ حينئذٍ زاوية ومدرسة، وصلحت أمور السلطان الغني بالله على يديه، لكن رغم ذلك ظلت سهام الخصوم تُقذفُ نحوه، وأعين الحساد تطاله، وألسنتهم في مسامع السلطان لا تتوقف من التحذير به، فحاول ابن الخطيب مع هذا الترصد من أهل الأحقاد أن يبتعد عن الوزارة وعالم السياسة، وفاتح السلطان الغني بالله برغبته بالسفر إلى الحج غير أن السلطان ازداد تمسكا به، ولاطفه، وقربه ومدّ له في التعيين لمدة عامين ،فظن ابن الخطيب أن الوقت صفا له، وأقبل الغني بالله على اللهو، وانفرد هو بتدبير المملكة، فكثرت القالة فيه من الحَسَدَة، واستشعر في آخر الأمر أنهم سعوا به لدى سلطانه، فخشي على نفسه، وأخذ في التحيل في الخلاص، وراسل عبد العزيز بن علي المريني صاحب فاس في اللحاق به، وخرج على أنه يتفقد الثغور الغربية، فلم يزل يسير حتى حاذى جبل الفتح، فركب البحر إلى سبتة، ودخل مدينة فاس سنة 773هـ، فتلقاه عبد العزيز، وبالغ في إكرامه، وأجرى له الرواتب، فبلغ ذلك أعداءه في الأندلس، فسعوا به عند الغني بالله، حتى أذن لهم بالادعاء عليه في مجلس حكم، على أنه كانت تصدر منه كلمات تدل على زندقته، وأفتى القاضي بإراقة دمه، وأرسل الغني بالله إلى صاحب فاس نسخة من كتاب القاضي الذي حكم فيه على ابن

الخطيب، فامتنع عبد العزيز من تسليمه، وقال: هلا أثبتم عليه ذلك وهو عندكم، فأما ما دام عندي فلا يوصل إليه.

واستمر ابن الخطيب على حاله في فاس حتى توفي السلطان عبد العزيز سنة 774هـ، وتولّى بعده ابنه السعيد صغيراً، ثم خلع، وتولى أبو العباس أحمد بن إبراهيم المريني، وكان أبو العباس قد تولى الحكم بمساعدة الغني بالله ابن الأحمر، الذي اشترط على أبي العباس عدة شروط لقاء مساعدته، منها تسليمه ابن الخطيب، فقبض أبو العباس على ابن الخطيب، وكتب بذلك إلى الغني بالله، فأرسل الغني بالله وزيره ابن زمرك إلى فاس، فعقد بها مجلس شورى، وأحضر ابن الخطيب، فوجهت إليه تهمة الزندقة، وسلوك مذهب الفلاسفة، وأفتى بعض الفقهاء بقتله، فأعيد إلى السجن، ودس له رئيس مجلس الشورى بعض الأوغاد من حاشيته، فدخلوا عليه السجن ليلاً، وخنقوه، ودفن في مقبرة باب محروق في فاس سنة 774هـ 1374م.

وكان ابن الخطيب يلقب بذي الوزارتين: القلم والسيف، ويلقب بذي العمرين لاشتغاله بالتصنيف في ليله، والاشتغال بأمور المملكة في نهاره، وكان مبتلى بداء الأرق، فلا ينام من الليل إلا اليسير جداً.

أما محنته التي امتحن بها وأدت إلى مقتله فيقول المقري صاحب «النفح» في ذلك: واعلم أن لسان الدين لما كانت الأيام له مسالمة، لم يقدر أحد ان يواجهه بما يدنس معاليه، أو يطمس معالمه، فلما قَلَبتِ الأيام له ظهر مجِنِّها، وعاملته بمنعها بعد منحها ومَنِّها، أكثر أعداؤه

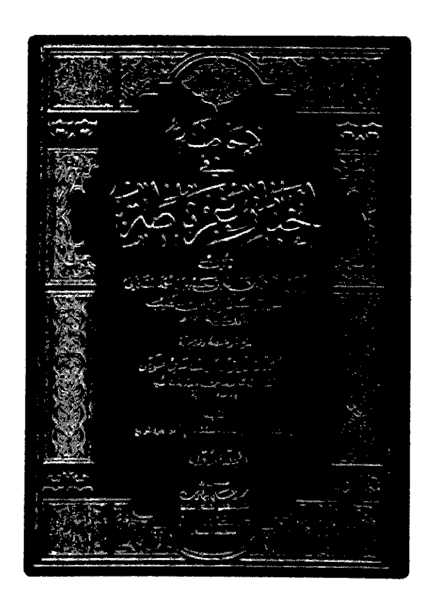


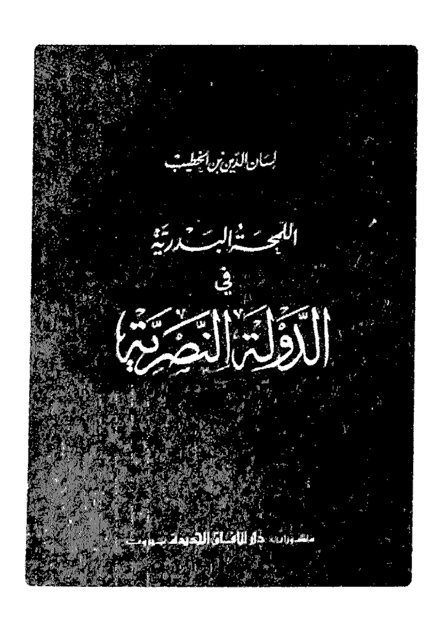
في شأنه الكلام، ونسبوه إلى الزندقة والانحلال من رقبة الإسلام.... إلى أن قال: والظن أن مقامه رحمه الله تعالى من لبسها بريء، وجنابه سامحه الله عن لبسها عري، وكان أيام امتحانه بالسجن يتوقع مصيبة الموت، فتهجس هواتفه بالشعر يبكي نفسه، ومما قال في ذلك:

بَعُدنا وإن جاورَتْنا البيوت وجئنا بِوعظٍ ونحن صُمُوتُ

وأَنفُسُنا سَكَتَتْ دَفعةً كَجهرِ الصلاةِ تلاها القُنُوتُ

وترك ابن الخطيب مؤلفات كثيرة منها: «**الإحاطة في أخبار غرناطة**»، و«**اللمحة البدرية في الدولة النصرية**»، و«**الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية**»، و«**معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار**»، و«**روضة التعريف بالحب الشريف**» ، وعلى اسمه صنف المقري كتابه الكبير نفح الطيب في غصن أهل الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، كما ألف في سيرته رحمه الله أكثر من واحد.





عصر ملوك غرناطة

العالم أبو إسحاق الشاطبي الغرناطي

790هـ- 1388م

بُليتُ يا قومِ والبلوى منوعةٌ بمن أُداريه حتى كاد يُرديني
دفع المضرة لا جلبُ لمصلحةٍ فحسبيَ الله في عقلي وفي ديني

هذين البيتين يصف بها صنديدنا حاله عندما يتعرض للسفاهة من الجاهلين الذين لم يروا عالماً أجاد وأفاد إلا ووقفوا كالصخرة في وجهه محاولين إظهار علمهم، إلا أن العلماء الفقهاء آثروا مداراتهم ومسايرتهم حتى يتقوا شرهم ودرءاً للفتنة كما هو حال العلامة الفقيه الصنديد إبراهيم الشاطبي....

إبراهيم بن موسى بن محمد أبو إسحاق اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي، أصولي حافظ فقيه مالكي من أهل غرناطة.

مولده بها، وبها نشأ في ظل حكم بني الأحمر لها، وكانت غرناطة المملكة الإسلامية الوحيدة والأخيرة المتبقية في الأندلس في ذلك العصر، أقام الشاطبي في غرناطة، ولم يرحل منها إلى أي بلد، وأخذ عن علمائها والعلماء الوافدين إليها، كالشريف التلمساني، وابن مرزوق الخطيب، وابن الفخار البيري، والقاضي أبو بكر بن عاصم، وغيرهم من العلماء الأجلاء الذين شُهد لهم بالفضل في العلم، وقد تنوعت

علومهم وإبداعاتهم في جوانب شتى من العلم.

وكان الشاطبي شغوفاً بالعلم، طالباً له من أهله، باحثاً عن كنوزه، كاشفاً لأسراره، جمع أصول العلوم الشرعية، وفقه اللغة العربية وفنونها على يد شيخه ابن الفخار، وفقه النحو على يد شيخه الشقوري، والفقه والفتوى على يد أبي سعيد بن لب، والتفسير على يد أبي عبد الله البلنسي، وأصول الفقه على يد الشريف التلمساني، والقواعد الفقهية على يد أبي عبد الله المقري، فيكون بذلك حاز فنون العلوم الشريعة كلها، وهذا ما أهله بعد ذلك لينتج نظرياته الفقهية والأصولية التي أوقفت أهل العلم عندها طلاباً، وتميز الشاطبي بمنزلة عالية رفيعة بين علماء الشريعة الإسلامية، وقد وصفوه فقالوا: هو الإمام العلامة المحقق القدوة الحافظ الجليل المجتهد الأصولي المفسر الفقيه المحدث اللغوي النظارة المدقق البارع صاحب القدم الراسخ والإمامة العظمى في سائر فنون العلم الشرعي، والإمام المحقق العلامة الصالح.

وكان للإمام الشاطبي منهجٌ علميٌّ متَّزنٌ، حيث كان له مزايا على ما ذكر هو بنفسه فقال: (وذلك أني -ولله الحمد- لم أزل منذ فتق للفهم عقلي، ووجه شطر العلم طلبي، أنظر في عقلياته وشرعياته، وأصوله وفروعه، لم أقتصر منه على علم دون علم، ولا أفردت من أنواعه نوعاً دون أخر، حسبما اقتضاه الزمان والإمكان، وأعطته المنة المخلوقة في أصل فطرتي، بل خُضتُ في لجاجه خوض المحسن للسباحة، وأقدمت في ميدانه إقدام الجريء، إلى أن من عليَّ الرب الكريم، الرؤوف الرحيم،

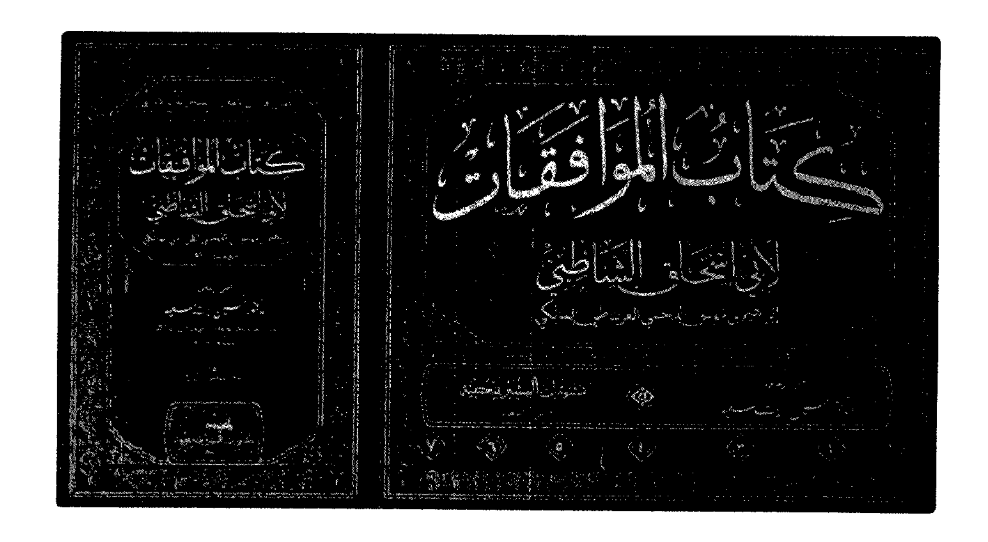
فشرح لي من معان الشريعة ما لم يكن في حسابي).

وكان لنشأته السليمة دوراً كبيراً في المضي قدماً في دربه الصعب، بل وخط لنفسه آليةً لأخذ علومه عَبّر عنها بنفسه فقال: (فمن هنا قويت نفسي على المشي في طريقه بمقدار ما يسَّر الله فيه، فابتدأت بأصول الدين عملاً واعتقاداً، ثم بفروعه المبنية على تلك الأصول)،

فأقبل على أصول الدين بادئ ذي بدء اعتقاداً وعملاً، ثم ألَّم بفروعه المبنية على تلك الأصول، وهي طريقة سليمة، ثم شرط على نفسه شروطاً لا يحيد عنها مهما كان الأمر فقال: (كثيراً ما كنت أسمع الأستاذ أبا علي الزاوي يقول: قال بعض العقلاء: لا يُسمى العالم بعلمٍ ما عالماً بذلك العلم على الإطلاق، حتى تتوفر فيه أربعة شروط، وهي: أن يحيط علماً بأصول العلم الذي يُطلب على الكمال، ثم تكون له القدرة على العبارة عن ذلك العلم، ثم يكون عارفاً بما يلزم عنه، وآخرها أن تكون له القدرة على دفع الإشكالات الواردة على ذلك العلم).

ومن أشهر المؤلفات التي تركها الشاطبي: «**الموافقات في أصول الشريعة**»، وهو منهج فريد في أصول الفقه ومقاصد الشريعة، و«**الاعتصام في أهل البدع والضلالات**»، و«**الإفادات والإنشادات**»، وفيه تحف ومدح أدبية وإنشاءات، و«**المقاصد الشافية في شرح خلاصة الكافية**»، وهو شرح لألفية ابن مالك، و«**المجالس**» وقد شرح فيه كتاب البيوع في صحيح البخاري، وغير ذلك من المؤلفات القيمة النافعة.

توفي رحمه الله تعالى سنة 790هـ 1388م في غرناطة في عهد محمد الغني بالله ابن الأحمر، وذلك قبل سقوطها بنحو مئة عام.



عصر ملوك غرناطة

الفقيه الزاهد ابن عباد الرندي

1320- 1389م

«معرفة الله تعالى هي غاية المطالب، ونهاية الآمال والمآرب، فإذا واجه الله عبداً ببعض أسبابها، وفتح له باب التعرف عليه من خلالها، وأوجد له سكينة، وطمأنينة فيها، فذلك من النعم الجزيلة عليه»

لم تكن كلمات الحكمة التي يتفوه بها ثغره البسام سبباً ليعلن تعاليه على الناس، ولم تكن حياته التي عاشها بين ثلة من أهل العلم «الذين هم أهله» سببا ليتكبر على قرنائه، ولم يزده العلم إلا كرماً وتواضعاً وفهماً أعمق للمهمة التي خُلق لها ألا وهي إقامة شرع الله وفق ما أنزل الله، إني أتحدث الأن عن الفقيه العابد الزاهد شيخ عصره العلامة ابن عباد الرندي...

أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن محمد بن مالك بن بكر بن عباد النفزي الحميري الرندي، من أهل رندة في الأندلس، ولد سنة 720هـ 1320م ونشأ بها، وحفظ القرآن وهو ابن سبع سنين، ثم اشتغل بعد ذلك بطلب العلوم النحوية والأدبية والأصولية والفرعية، حتى رأسّ فيها وحصّل معانيها، وتكلم في علوم الأحول والمقامات والعلل والآفات وألف فيه تواليف عجيبة وتصانيف بديعة غريبة، وكان

ابن عباد من أسرة نبيلة في المدينة جمعت بين جلالة الجاه الاجتماعي وبين التقوى والفقه في الدين، فأبوه أبو اسحق إبراهيم، وكان قاضياً وخطيباً ديّناً مفوّهاً، يعظ الناس في مسجد رندة، وعن أبيه هذا أخذ ابن عباد القرآن ومبادىء العربية، وعن خاله الشيخ الفقيه القاضي عبد الله الفريسي أخذ العربية، وعن الشيخ الفقيه الخطيب أبي الحسن على بن أبي الحسن الرندي علم القراءات ثم رحل إلى المغرب وتنقل بين فاس وتلمسان ومراكش وسلا وطنجة ، واستقر خطيباً للقرويين بفاس .

وقال ابن الخطيب القسطميني في وصفه : هو الخطيب الشهير ، الصالح الكبير ، كان والده من الخطباء الفصحاء النجباء ، ولأبي عبد الله هذا عقل وسكون ، وزهد بالصلاح مقرون ، وله كلام عجيب في التصوف ، وصنف فيه .

وقال في وصفه ايضاً أبو زكريا السراج : الفقيه الخطيب البليغ الخاشع الخاشي ، الإمام العالم المنصف ، السالك العارف المحقق الرباني ، ذو العلوم الباهرة والمحاسن الظاهرة ، سليل الخطباء ونتيجة العلماء، صرف حياته كلها في الزهد، وطاف بعدد من عواصم المغرب يدرس على شيوخه ، ولقي بسلا (في المغرب) الشيخ الصالح الزاهد الورع أحمد بن عمر بن عاشر ، وأقام معه ومع أصحابه سنين عديدة ، قال : قصدتهم لوجدان السلامة معهم ، وختم حياته إماماً وخطيباً لجامع القرويين في فاس .

وقد أجمع كافة الناس على وصفه بالولي العارف ، وكان ابن عباد صوفياً على طريقة الشاذلية ، وفي ذلك يقول آسين : إن أهم كتبه «**شرح الحكم العطائية لابن عطاء الله السكندري** » ويمكن أن نصفه دون مبالغة بأنه منهج كامل لطريقة صوفية زهدية ، عظيم الفائدة للبادئين في الطريق .

وكان يحضر السماع ليلة المولد عند السلطان ، وهو لا يريد ذلك ، وكان يحمر وجهه إذا طلب منه أحد الدعاء ، ويستحي كثيراً ، ثم يدعو له ، وأكثر تمتعه من الدنيا بالطيب والبخور ، ويتولى أمر خدمته بنفسه ، **ولم يتزوج ولم يملك** آمة ، ولباسه في داره مرقعة ، فإذا خرج سترها بثوب أخضر وأبيض ، وله تلامذة كلهم خيار مباركون .

ترك العالم ابن عباد الرندي مؤلفات كثيرة منها : « **الرسائل الكبرى**» في التوحيد والتصوف ومتشابه الآيات ، و «**غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية**» ويعرف بشرح النفزي على متن السكندري ، و«**كفاية المحتاج**» و «**الرسائل الصغرى**» و «**فتح الطرفة**» و« **شرح أسماء الله الحسنى**»و«**أجوبة في مسائل من العلوم**» .

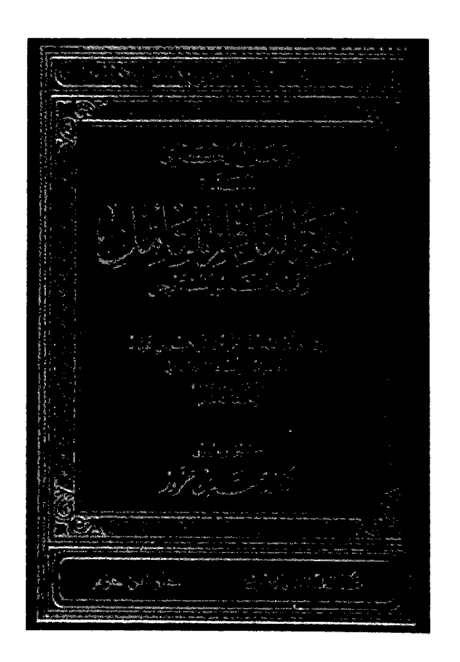
وقال ابن عيشون : جمعت منها نحو مجلدين ، وله بغية المريد ، نظم بها الحكم العطائية .

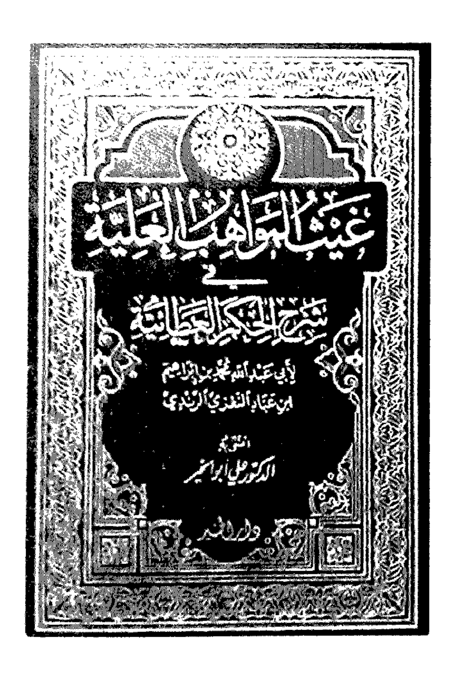
ومن جميل كلامه : الاستئناس بالناس ، من علامات الإفلاس ، وفتح باب الأنس بالله تعالى الاستيحاش من الناس ، ومن شعره :

ومن علمه أن ليس يدعى بعالمٍ ومن فقره أن لايرى يشتكي الفقرا

ومن حاله أن غاب شاهد حاله   فلا يدعى وصلاً ولا يشتكي هجرا

بقي ابن عباد الرندي خطيباً في جامع القرويين خمس عشرة سنة، حتى توفاه الله يوم الجمعة رابع رجب سنة 792هـ ـ 1389م، ودفن بكدية البراطل من داخل باب الفتوح رحمه الله تعالى.

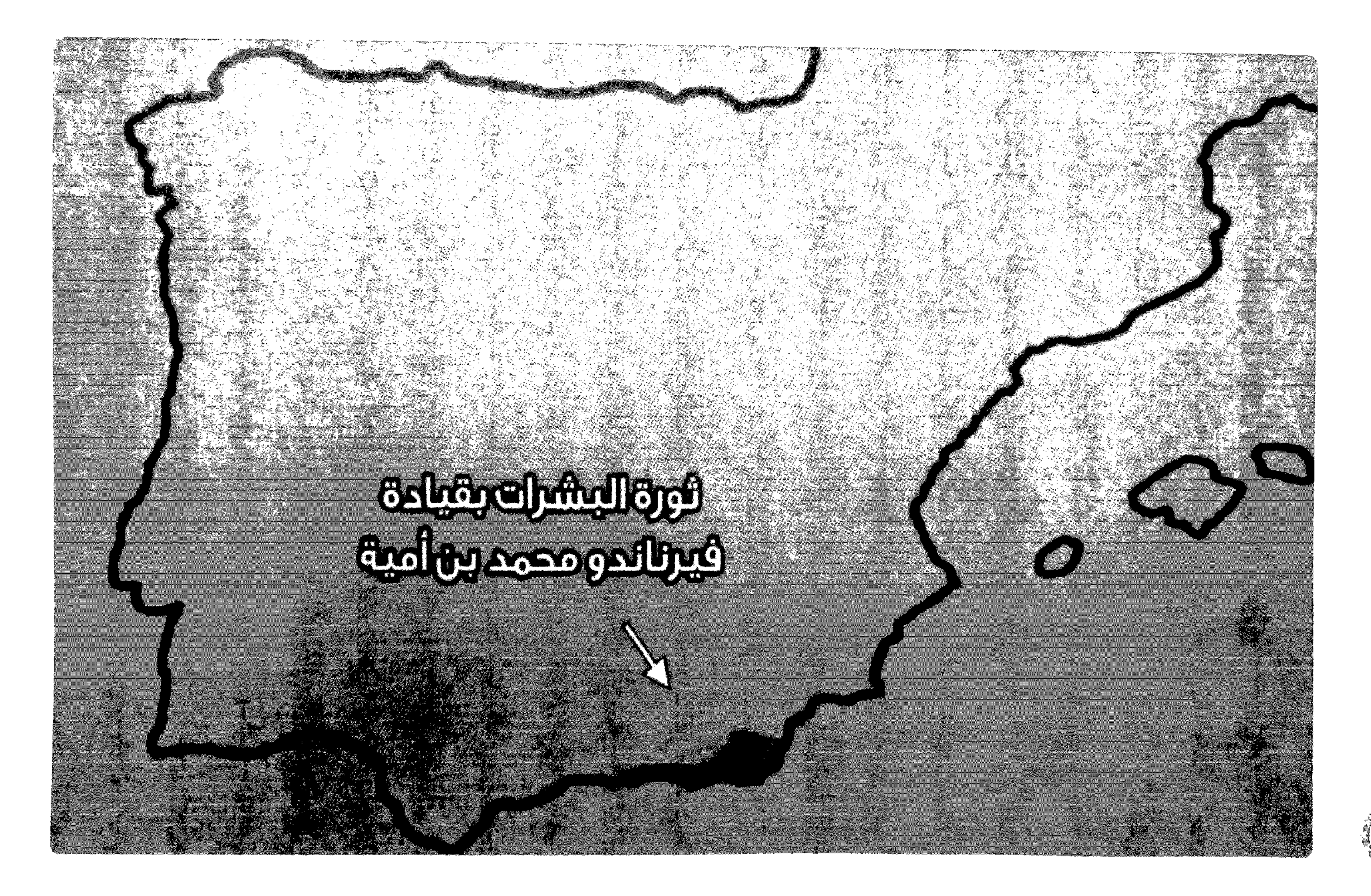




عصر ما بعد سقوط غرناطة

* محمد بن أمية

* المقري التلمساني


ثورة البشرات بقيادة
فيرناندو محمد بن أمية

عصر ما بعد سقوط غرناطة

قائد الثوار محمد بن أمية

1520-1569م

ذاك من نسل بني أمية، وما أدراك من بني أمية، أولئك القوم الذين رفعوا راية الإسلام في مشرق الأرض وفي مغربها، ورغم سقوط الأندلس في يد الصليبيين خرج شاب مقدام لم يرضى بالذل والهوان ليثور بوجه الكفرة المعتدين ويقود ثورة عارمة عليهم إلى أن ارتقى شهيداً، نتحدث الأن عن القائد محمد بن أمية....

محمد بن أمية قائد ثورة الموريسكيين في الأندلس بعد سقوط غرناطة سنة 897هـ، واسمه الإسباني «**فيرناندو دي بالور**»، والموريسكيون هم المسلمون الإسبان الذين بقوا في الأندلس بعد سقوط غرناطة ظناً منهم أنهم سيلاقون معاملة حسنة من إخوتهم الإسبان المسيحيين المشتركين معهم في القومية، وبناءً على المعاهدة التي وُقِّعَت بين أبي عبد الله الصغير آخر ملوك بني الأحمر في غرناطة وملكي قشتالة وليون، التي تضمَّنت عدة شروط أهمها: احترام عقائد المسلمين الأوروبيين في الأندلس، والذين يُقدَّرون بالملايين، وقد وقّع بابا الفاتيكان شخصياً على هذه المعاهدة، وهؤلاء الموريسكيون كانوا ضحية أكبر عملية إجرامية شهدها التاريخ الإنساني، فلقد رفض الموريسكيون تغيير دين الإسلام، فحاول القساوسة في البداية أن يغروهم بالطرق السلمية

لتنصيرهم، وعندما فشلوا لجؤوا إلى عمليات التعذيب والتنكيل بحق المسلمين الموريسكيين، وتنصيرهم عنوة بما سمي **بمحاكم التفتيش وديوان التحقيق**، والتي تفننت في تعذيب وقتل المسلمين الأندلسيين رجالاً ونساءً وأطفالاً بمباركة ومشاركة الكنيسة الكاثوليكة، واستخدموا أساليب وحشية يندى لها جبين الإنسانية، وكانت تلك الأساليب وصمة عار في جبين إسبانيا النصرانية، فلجأ المويسكيون إلى إخفاء إسلامهم.

ولد محمد بن أمية سنة 926هـ 1520م لأسرة مورسكية من سلالة الخلفاء الأمويين في الأندلس، وعمل محمد أو فيرناندو قبل حرب البشرات عضواً في بلدية غرناطة، وقيل: إنه وُضِع لفترة رهن الإقامة الجبرية؛ لأنه استل خنجراً ذات يوم في مبنى البلدية.

وكانت الأعمال الإجرامية للإسبان ضد المسلمين في الأندلس وقوداً لثورة كبيرة عرفت باسم ثورة جبال البشرات، وكان فيرناندو الذي غير اسمه إلى محمد بن أمية قائداً لهذه الثورة، وكان السبب المباشر لهذه الثورة هو نقض الملك فيليب الثاني تعهداته السابقة التي قطعها على نفسه في معاهدته مع المسلمين، وأصدر مرسوماً يفرض على الموريسكيين نبذ أسمائهم العربية، وزيهم المورسكي التقليدي، بل ويحرم التحدث بالعربية والأمازيغية، ويجبر المسلمين على تسليم أطفالهم إلى قساوسة مسيحيين لتنشئتهم على الدين المسيحي، وأدى تصاعد الاضطهاد ضد الموسكيين في غرناطة إلى اندلاع ثورة مسلحة

خطط لها فرج بن فرج (**من سلالة بني الأحمر**)، ومحمد بن عبو بدعم من ملوك المغرب والسلطنة العثمانية، مستغلين تذمر أهل البشرات من مرسوم فيليب الثاني، واختاروا محمد بن أمية ملكاً عليهم، وأعلنوا تبرؤهم من المسيحية، واتخذت هذه الثورة شكل حرب العصابات ضد القوات القشتالية، وكان اندلاعها سنة 975هـ، أي بعد سقوط غرناطة بحوالي ثمانين عاماً، وكان عدد الثوار في بداية الثورة حوالي أربعة آلاف رجل، ثم ارتفع في نهاية العام إلى خمسة وعشرين ألف رجل، بينهم جنود من البربر والأتراك، واضطر الملك الإسباني إلى الاستعانة بإمبراطور النمسا لإنقاذ إسبانيا من ذلك الصقر القرشي، وفعلاً استطاعت هذه القوات أن تقمع هذه الثورة العظيمة، وقام الإسبان بالانتقام بعمل مذبحة رهيبة في سجن غرناطة، وكان والد ابن أمية وأخوه من بين الأسرى، فحقن الإسبان دماءهم للضغط على ابن أمية، وطلبوا من والده أن يكتب له بالكف عن متابعة الثورة، ولن يتعرض لأي إهانة أو تعذيب، فاغتنم ذلك بعض المسلمين من المتعاملين مع الإسبان للعمل على قتل ابن أمية، وعلى رأسهم «**ديبغو**» الوزير أخو زوجة ابن أمية، وكانت بينه وبين ابن أمية ضغينة، فأخذوا يبثون الشك بين ابن أمية والمتطوعين القادمين من شمال إفريقيا، وانتشر بين المتطوعين أن ابن أمية يريد مهادنة الإسبان لتحرير والده وأخيه، واعتقد المتطوعون أن ابن أمية قد خان، وكان ذلك كله بتدبير من ديبغو ومجموعته الذين زوَّروا رسائل ابن أمية إلى قُواده، وكان قائد المتطوعين ابن عبو قد قرر عزل ابن أمية وإعدامه دفاعاً عن الثورة

برأيه، فسار إلى لوشر مقر ابن أمية، فقبض عليه، وواجهه بالتهم التي يتهمونه بها، وأطلعه على الرسالة التي بيده، فتبرأ ابن أمية من هذه التهم، وأكد أن هذه الرسالة مزورة، ولكن دفاعه هذا لم يفده، فسجنوه في غرفة، وكلفوا بحراسته ديبغو الوزير وديبغو أركش كاتبه، اللَّذَين قتلاه خنقاً سنة 977هـ 1569م .

وبعد اغتيال ابن أمية بويع ابن عبو قائداً للثورة، وعلى الرغم من أن الثوار حققوا بعض الانتصارات بقيادة ابن عبو، إلا أنهم سرعان ما خسروا ما كسبوه، وقُتل ابن عبو بيد أحد أتباعه في أحد كهوف البشرات.

وبعد أن نجح الإسبان في قمع الثورة، نقل جميع سكان البشرات تقريباً إلى قلعة قشتالة وغرب الأندلس، وأخليت حوالي سبعمئة وعشرون قرية من سكانها المسلمين، ووطِّن في بعضها مسيحيون من الشمال الإسباني، كما أمر الملك فيليب الثاني بتشتيت شمل نحو ثمانين ألفاً من موركسيي غرناطة في أنحاء متفرقة من مملكته لتشتيت وحدة المجتمع الموركسي، وتسهيل دمجهم في المجتمع الإسباني، لكن العكس هو ما حدث، إذ كان لموسكيي غرناطة المهجَّرين تأثير كبير في الموركسيين الذين سبقوهم في التوطين الإجباري في المناطق التي نُقلوا إليها، والذين كانوا على وشك الاندماج فعلياً في تلك المجتمعات

رحم الله محمد ابن أمية وجميع المجاهدين الصادقين انه على كل شيء قدير وبالإجابة جدير.

عصر ما بعد السقوط

عاشق التاريخ الأندلسي المقري التلمساني

1584- 1631م

كانت قرطبة هي دمشق الأندلسية، مسجدها كمسجد دمشق، ومجد بني أمية فيها كمجدهم في ربوع الشام، لذلك عندما قدم صنديدنا المصنف الأندلسي إلى دمشق في رحلة طلب العلم تذكر الأندلس وعلمائها وفلاسفتها ومفكريها وفقهائها فقرر أن يكتب كتاباً يشمل الجغرافيا والتاريخ ووالأدب والثقافة وسماه «**نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**» إنه العلامة المقري التلمساني.

شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد المقري التلمساني، ولد بمدينة تلمسان سنة 992هـ 1584م، وأصل أسرته من مقرة، وهي من أعمال قسنطينة بالجزائر أيضاً، عاشق التاريخ الأندلسي، وصاحب الموسوعة الشهيرة نفح الطيب في غصن أهل الأندلس الرطيب.

وهو الذي لم يعش في الأندلس، بل ولد بعد سقوط غرناطة بحوالي مئة عام، وإنما عاش معها في نفحه الشهير الذي صال فيه وجال في معالم الأندلس السياسية والأدبية والفكرية والجغرافية، فأبحر فيه إليها، ونظر في دقائقها، وعاين رجالها وأمور دولها، فكان بحق مؤرخ الأندلس الأول.

ونشأ وطلب العلم في المدينة، وكان من أهم شيوخه عمه الشيخ سعيد المقري، أمضى سنواته الأولى في حفظ القرآن الكريم، ودراسة علوم الشريعة، وانتقل بعد ذلك إلى مدينة فاس في عهد السلطان السعدي أحمد المنصور، ثم ذهب إلى مراكش، لكنه عاد إلى مدينة فاس بعد وفاة السلطان، وعيَّنه السلطان زيدان الناصر بن أحمد مفتياً وإماماً لمسجد القرويين، ورحل لأداء فريضة الحج، ومر بمدينة القاهرة، ثم زار دمشق والقدس، ثم توجه نحو مكة المكرمة، وأخذ هنالك العلم، وجلس للتدريس بالحرم، ثم ذهب إلى دمشق مرة ثانية، وجلس للتدريس في علوم الفقه والحديث والتاريخ واللغة، وأخذ يحدث الناس عن مفاخر وتاريخ الأندلس، وعلى وجه الدقة سيرة حياة الوزير الشهير لسان الدين بن الخطيب صاحب كتاب «**الإحاطة في أخبار غرناطة**»، وطلب منه بعض التلاميذ تأليف كتاب عن ابن الخطيب، فبدأ المقري في كتابة مؤلف تحت عنوان «**عرف الطيب في التعريف بالوزير ابن الخطيب**»، فلما وجد أن مادة كتابه توسعت لتشمل جغرافيا وتاريخ وأدب وثقافة الأندلس غير العنوان إلى «**نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب**»، وتوزع على قسمين خصص الأول للأندلس، والثاني لابن الخطيب.

وترك المقري عدة مؤلفات أخرى منها: «**أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض**» في أربعة أجزاء، و«**روضة الأنس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من علماء مراكش وفاس**»، و«حسن الثنا في العفو عمن جنى»، و«**عرف النشق في أخبار دمشق**»، وأرجوزة سماها «إضاءة

الدجنة في عقائد أهل السنة».

ويقول المقري في كتابه «**نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**»: (محاسن الأندلس لا تستوفى بعبارة، ومجاري فضلها لا يشق غباره، وأنّى تُجارَى وهي الحائزة قصب السّبق، في أقطار الغرب والشرق).

وقد عنون المقري الباب الأول من كتاب «**نفح الطيب**» هكذا: في وصف جزيرة الأندلس وحسن هوائها واعتدال مزاجها ووفور خيراتها واستوائها، واشتمالها على كثيرٍ من المحاسن واحتوائها، وكرم بقعتها التي سقتها سماء البركات بنافع أنوائها، وذكر بعض مآثرها المجلوّة الصور، وتعداد كثيرٍ مما لها من البلدان والكور، المستمدة من أضوائها.

ثم يأخذنا **نفح الطيب** في رحلة نتعرف فيها إلى مساحتها وأبعادها، وموقعها من أقاليم العالم، ويسير بنا بين أزقتها، ويشرح لنا آثارها وما تختزنه من تاريخ وعجائب وغرائب، ويرافقنا في أسواقها لنشاهد ثمارها وفواكهها وعطورها ومصنوعاتها، ويصف أخلاق أهلها وعاداتهم وحتى أزيائهم، ويقارنها بالبلدان الأخرى، ويورد ما قيل فيها من الشعر، ويقول عن مدينة قُرْطُبَة: وكانت قُرْطُبَة في الدولة المروانية قبّة الإسلام، ومجتمع أعلام الأنام، بها استقرّ سرير الخلافة المروانية، وفيها تمحضت خلاصة القبائل المعديّة واليمانيّة، وإليها كانت الرّحلة في الرواية، إذ كانت مركز الكرماء، ومعدن العلماء، وهي من الأندلس بمنزلة الرأس من الجسد، ونهرها من أحسن الأنهار.

هذه المحبة تهيمن عليه تجاه مدن وقرى الأندلس كافة، ويقول عن إشبيلية: وهذه المدينة من أحسن مدن الدّنيا.

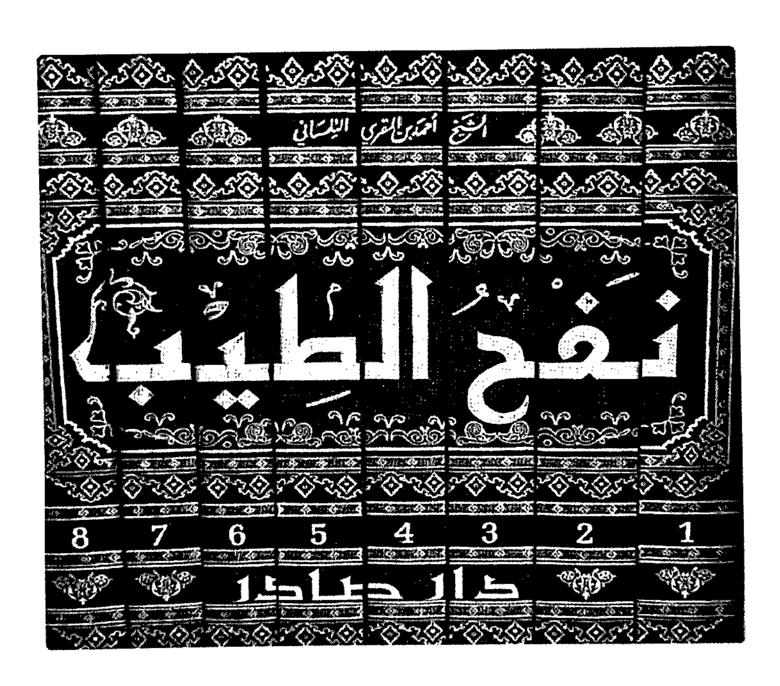
وفي الجزء الثاني من هذا الباب يتحدث عن «الخطط الأندلسية»، ويشرح نظامها السياسي: الوزارة، الخراج، القضاء، التشريع، الشرطة، الحسبة، الكتابة، ثم يقترب من صاعد الأندلسي في «**طبقات الأمم**» ليخصص جزءاً لعلمائها، ويقول عن مكانة العلم في الأندلس: (أمّا حال أهل **الأندلس** في فنون العلوم، فتحقيق الإنصاف في شأنهم في هذا الباب أنهم أحرص الناس على التميز، فالجاهل الذي لم يوفقه الله للعلم يجهد أن يتميز بصنعة، ويربأ بنفسه أن يُرى فارغاً عالةً على الناس، لأن هذا عندهم في نهاية القبح، والعالمُ عندهم معظّم من الخاصة والعامة).

وخلال كل هذا السرد يقص تاريخ الأندلس أيام الرومان، وخلال حكم القوط، فهذا الكتاب يود فيه المقري لو يؤرخ للحجارة التي تتكون منها أبنية **الأندلس**، وللنباتات التي برع العرب والمسلمون في زراعتها في مختلف حدائق البلاد، وللمسافات بين المدن والقرى، ولأشكال الشوارع والأحياء، ويدفع الشغف بالأندلس المقري لكي يعود إلى الأخبار والروايات التي تؤكد عراقة المكان وجذوره الممتدة إلى عهد طوفان النبي نوح عليه السلام.

ويقول: (وأوّل من سكن الأندلس على قديم الأيام فيما نقله الأخباريون من بعد عهد الطوفان على ما يذكره علماء عجمها قومٌ يعرفون بالأندلش معجمة الشين بهم سمّي المكان، فعرب فيما بعد بالسين غير

المعجمة، وكانوا هم الذين عمروها، وتناسلوا فيها، وتداولوا ملكها دهراً، على دين التمجس والإهمال والإفساد في الأرض، ثم أخذهم الله بذنوبهم، فحبس المطر عنهم، ووالى القحط عليهم، وأعطش بلادهم حتى نضبت مياهها، وغارت عيونها، ويبست أنهارها، وبادت أشجارها، فهلك أكثرهم، وفرّ من قَدِرَ على الفرار منهم، فأقفرت الأندلس منهم، وبقيت خاليةً فيما يزعمون مئة سنةٍ وبضع عشرة سنة).

وتوفي المقري في القاهرة رحمه الله تعالى في عام 1041هـ1631م ...



مِسكُ الختام

ها أنا قد بذلت ما وفقني الله به وقضيتُ وقتي وسهرتُ ليالي كثيرة محاولاً تدارك الأخطاء ما استطعتُ إلى ذلك سبيلا، وأتركُ الحكم لكم إخوتي، فقد تعرَّفتم على رجالٍ صناديدَ أبطال، فأرجو أن أكون قد بينت لكم تاريخ الأندلس العظيم وعَرّفته لمن كان يجهله، وأرجو أن تكون سير هؤلاء الصناديد قد شحذت هممكم وزادكم عزيمةً وإصرار على المضي قُدماً نحو المجد والإزدهار.

هذا ما وفقني الله له فإن رأيت عزيزي القارئ كمالاً فادعُ لنا بالتوفيق، وإن رأيت عيباً فتقبل معذرتنا وجلَّ من لا يُخطئ.

بلال

للتواصل مع المؤلف عبر صفحاته الرسمية على مواقع التواصل الاجتماعي


101 من عمالقة آل عثمان 101giants


بلال أبو الخير bilal_abulhayr


برنامج 101من عمالقة آل عثمان بلال أبو الخير

المصادر والمراجع

1-الإحاطة في أخبار غرناطة: ابن الخطيب.

2-الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى: السلاوي.

3-الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين: خير الدين الزركلي.

4-أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام: لسان الدين بن الخطيب.

5-انبعاث الإسلام في الأندلس: محمد المنتصر الكتاني.

6-الأندلس التاريخ المصور: طارق سويدان.

7-بغية الملتمس من أنباء أهل الأندلس : الضبي.

8-البيان المغرب لأخبار الأندلس والمغرب: ابن عذارى المراكشي.

9-تاريخ افتتاح الأندلس: ابن القوطية.

10-تاريخ الأندلس من الفتح حتى سقوط غرناطة: عبد الرحمن علي الحجي.

11-تاريخ الفكر الأندلسي: تعريب حسين مؤنس.

12-تاريخ علماء الأندلس: ابن الفرضي.

13-تاريخ غزوات العرب: شكيب آرسلان.

14-تاريخ قضاة الأندلس: المالقي.

15-تراجم إسلامية شرقية وأندلسية: محمد عبد الله عنان.

16-ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أصحاب مذهب مالك: القاضي عياض.

17-جذوة المقتبس في تاريخ أهل الأندلس: الحميدي.

18-الحلة السيراء: ابن الأبار القضاعي.

19-الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية: شكيب آرسلان.

20-الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة: ابن حجر العسقلاني.

21-دولة الإسلام في الأندلس: محمد عبد الله عنان.

22-الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ابن بسام.

23-سير أعلام النبلاء: الذهبي.

24-شذرات الذهب في أخبار من ذهب: ابن العماد الحنبلي.

25-صلة تاريخ الأندلس: ابن بشكوال.

26-العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر المعروف بتاريخ ابن خلدون: ابن خلدون.

27-عيون الأنباء في طبقات الأطباء: ابن أبي صبيعة.

28-قادة فتح المغرب والأندلس: محمود شيث الخطاب.

29-قلائد العقيان ومحاسن الأعيان: الفتح بن خاقان.

30-الكامل في التاريخ: ابن الأثير الجزري.

31-اللمحة البدرية في تاريخ الدولة النصرية: لسان الدين ابن الخطيب.

32-المسلمون في الأندلس: رينهرت دوزي.

33-مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس: الفتح بن خاقان الإشبيلي.

34-المعجب في تلخيص أخبار المغرب: عبد الواحد المراكشي.

35-معجم الأدباء: ياقوت الحموي.

36-المغرب في حلى المغرب: ابن سعيد الأندلسي.

37-المقتبس من تاريخ الأندلس: ابن حَيَّان.

38-موسوعة تاريخ الأندلس: حسين مؤنس.

39-نفح الطيب في غضن أهل الأندلس الرطيب: المقري.

40-وفيات الأعيان وأنباء وأبناء الزمان: ابن خلكان.

41- قصة الأندلس راغب السرجاني.

فهرس الكتاب



رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



ولا غالب إلا الله

